الأكثر مبيعاً 1 في أمريكا

دانيال ستيل

DANIELLE STEEL



صلوات مستجابة

ANSWERED PRAYERS

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

صلوات مستجابة
ANSWERED PRAYERS

دانيال ستيل
DANIELLE STEEL

ترجمة
أفنان سعد الدين

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Answered Prayers
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من المؤلفة
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقَّع بينها وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

ردمك 978-9953-87-713-6

الطبعة الأولى
1430 هـ - 2009 م



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الفصل الأول

بدت فيث ماديسون قصيرة القامة، وجادة الملامح، وعصرية الهندام بينما كانت تُعِدّ مائدة الطعام، وتخلط السلطة، وتلقي نظرة خاطفة باتجاه الفـرن علـى طعام العشاء الذي تعدّه. لقد ارتدت طقماً أسود ذا تفصيلة جميلة. وكانت، وهي في السابعة والأربعين من عمرها، لا تزال رشيقة القـوام كما بدت عندما تزوجت ألكس ماديسون قبل ستة وعشرين عاماً. بـدا مظهـرها أشـبه بمظهر راقصة باليه في لوحة من لوحات الرسام الفرنـسي ديغـا بعينيها الخضراوين وشعرها الأشقر الطويل المسترسل الذي عقصته على شكل كعكة ملساء. فتنهدت، وجلست بهدوء على أحد كراسي المطبخ.

كـان المنـزل الجميل المبني من الحجر الرملي الأسمر في شارع إيست سيفنتي فورث في مدينة نيويورك ساكناً سكون القبر. استطاعت فيث أن تسمع صوت تكتكات الساعة في أثناء انتظارها عودة ألكس إلى البيت. أغمـضت عينـيها لدقيقة، وأخذت تفكّر في المكان الذي ذهبت إليه عصر ذلـك الـيوم. وفيما كانت تفتح عينيها سمعت صوت الباب الأمامي ينفتح وينغلق. لم تصل إلى مسامعها أي أصوات أخرى كصوت وقع قدميه على سـجادة البهو وتحيته لها بكلمة مرحباً وهو يدخل البيت. ولطالما اعتاد أن يدخل بتلك الطريقة. أقفل الباب خلفه، ووضع حقيبته على الأرض، وعلّق معطفـه في الخزانة، وألقى نظرة خاطفة على بريده. بمضي الوقت، كان سـيأتي باحـثاً عنها، وسيتفقدها في مكتبها الصغير، ثم يلقي نظرة خاطفة داخل المطبخ ليرى إن كانت موجودة هناك.

كان ألكس ماديسون في الثانية والخمسين من عمره. وقد التقيا في أثناء دراستها في كلية برنارد. كان طالباً في كلية التجارة في جامعة كولومبيا. وبدت الأمور مختلفة حينئذٍ. فقد سحرته أساليب فيث المنفتحة والسهلة، ودفؤها، وطاقتها، ومرحها. لطالما اعتاد أن يلتزم الهدوء والتحفظ، ويتوخى الحرص في اختيار كلماته. تزوجا حالما تخرجت من الجامعة، وحال نيله شهادة الماجستير في إدارة الأعمال. ومنذ ذلك الحين وهو يعمل مديراً لمصرف استثماري. عملت هي كمحررة مساعدة في مجلة فوغ لسنة واحدة بعد تخرجها، وأحبت ذلك العمل، ثم انقطعت عنه عندما التحقت بكلية الحقوق لسنة واحدة، ثم تركت الكلية عندما أنجبت طفلتها الأولى. بلغت إلويز لتوها الرابعة والعشرين من عمرها، وانتقلت إلى لندن في مطلع شهر أيلول. كانت تعمل في مزاد كريستي، وتتعلم الكثير عن التحف الأثرية. كانت ابنة فيث الأخرى، واسمها زوي، في الثامنة عشرة من عمرها، وهي طالبة في السنة الأولى في كلية براون. وبعد أربعة وعشرين عاماً أمضتها فيث كوالدة متفرغة لابنتيها، أصبحت الآن من دون أي وظيفة منذ شهرين. فقد رحلت الفتاتان. وأصبحت وألكس وحيدين فجأة.

سأل ألكس وهو يدخل المطبخ والإرهاق بادٍ عليه: "مرحباً، كيف جرت الأمور؟"، جلس بعد أن نظر بالكاد إليها. لقد كان يعمل بجدٍّ على عرضَي بيع أسهم هامَّين. لم يخطر بباله حتى أن يلمسها أو يعانقها. معظم الأوقات، اعتاد أن يتحدث إليها عبر الغرفة، ليس بدافع الحقد، ولكن سنوات طويلة مضت منذ اعتاد أن يأتي من المكتب إلى البيت ويعانقها. لم تكن لديها أي فكرة عن الوقت الذي توقف فيه عن فعل ذلك. فقد انشغلت كثيراً مع ابنتيها بحيث إنها لم تلاحظ الفرق حتى أتى اليوم الذي أدركت فيه أنه لم يعد يلمسها حين يعود إلى البيت. لطالما كانت تؤدي الواجبات المدرسية مع الفتاتين أو تحمم إحداهما حين عودته ليلاً. لقد مر وقت طويل على آخر مرة أظهر فيها عواطفه تجاهها، ربما أطول مما يعلم أي منهما

أو يكترث أن يتذكر. فقد تشكلت هوة سحيقة بينهما الآن، وتقبّلا وجودها منذ وقت طويل. شعرت وكأنها تنظر إليه من مسافة شاسعة جداً وهي تصبّ له كأساً من الشراب.

قالت له بينما كان ينظر إلى الصحيفة وهي تُخرج الدجاج من الفرن: "لقد جرت على ما يرام!". كانت حزينة، وقد كان يفضل أن يتناول السمك، ولكن لم يتسنّ لها متسع من الوقت كي تشتري أياً منه في طريق عودتها إلى البيت. ثم تابعت قائلة: "فقد بدا هزيلاً جداً". وكانت تتحدث عن زوج أمها، واسمه تشارلز آرمسترونغ. فقد توفي قبل يومين عن عمر يناهز الرابعة والثمانين.

"لقد كان عجوزاً ومريضاً لوقت طويل، يا فيث". قال ذلك وكأن قوله لا يفسر الموقف وحسب، ولكنه يلغيه أيضاً. كان ألكس يفعل هذا دائماً. فقد اعتاد أن يلغي الأمور، كما فعل الآن بالضبط بإلغائه وجودها من حياته. تملّكها مؤخراً شعور وكأنها قد حققت الهدف من وجودها، وأدت عملها، وتم الاستغناء عنها ليس من قِبَل ابنتيها فقط، ولكن من قبل زوجها على حدٍّ سواء. فقد حظيت الفتاتان بحياتهما الخاصة الآن، وغادرتا المنزل. أصبح ألكس يعيش في عالم لا يتضمن وجودها سوى في مناسبات نادرة إن هو توقَّع منها أن تستقبل الزبائن أو تصطحبه لحضور حفلات العشاء. بقية الوقت، توقع منها أن تستمتع بوقتها بمفردها. لقد اعتادت أن تقابل صديقات لها في النهار في بعض الأحيان، ولكن معظم صديقاتها القدامى كن لا يزلن يحظين بأطفالهن في البيت وبأمس الحاجة إلى الوقت. في الأشهر القليلة الماضية منذ غادرت زوي إلى الكلية، أمضت فيث معظم أوقاتها وحيدةً وهي تحاول أن تكتشف ما ستفعله ببقية حياتها.

كان ألكس يعيش حياة كاملة خاصة به. بدا الأمر وكأن عصوراً قد مضت منذ جلست مع ألكس لساعات ليتناولا العشاء، ويثرثرا عن الأمور التي تهمهما. مضت سنوات منذ خرجا في نزهات طويلة على الأقدام في عطل نهاية الأسبوع، أو ذهبا لمشاهدة الأفلام وهما ممسكان بيدي

بعضهما. بالكاد استطاعت أن تتذكر كيف يبدو التواجد بصحبة ألكس. فقد كان نادراً ما يلمسها أو يبادلها الحديث. مع ذلك، فقد أيقنت أنه يحبها، أو اعتقدت ذلك على الأقل، ولكن بدا عليه أن لا حاجة لديه تقريباً إلى التواصل معها، فمعظم كلامه مختصر وقصير. كان الصمت يناسبه أكثر، كما فعل الآن وهي تقدّم له العشاء، وتبعد خصلة من شعرها الأشقر عن وجهها. لقد بدا عليه أنه لا يلاحظ وجودها على الإطلاق وأنه منهمك بشيء ما يقرأه في الصحيفة. استغرق وقتاً طويلاً حتى أجاب عندما تحدثت إليه ثانية.

فسألته بلطف: "هل ستأتي غداً إلى الجنازة؟". فهز رأسه وهو ينظر إليها بشكل خاطف.

"لا أستطيع. إنني ذاهب إلى شيكاغو. فلدي اجتماعات مهمة". كان يعاني من متاعب تتعلق بأحد الحسابات المصرفية الهامة. وقد احتل العمل أسبقية على كل شيء آخر بالنسبة إليه، لطالما فعل ذلك لوقت طويل. لقد أصبح رجلاً ناجحاً جداً، ووفر عمله لهما المنزل، وتكاليف تعليم الفتاتين، ومقداراً غير متوقع من الرفاهية والرخاء لم تتوقع فيث أن تنعم به، ولكن هناك أموراً أخرى تعني لها أكثر، كالراحة والضحك والدفء. شعرت وكأنها لم تعد تضحك، فهي لم تضحك منذ وقت طويل، سوى في أثناء تواجدها مع الفتاتين. ليس لأن ألكس كان يعاملها معاملة سيئة، بل لأنه لم يعد يعاملها أي معاملة على الإطلاق. هناك أمور أخرى تشغل باله، ولم يتردد في أن يوضح لها تلك النقطة، حتى إن فترات صمته الطويلة قد أوحت إليها أنه يفضّل أن يفكر على أن يتحدث إليها.

قالت فيث بحذر وهي جالسة في الطرف المقابل من الطاولة: "لقد كان الأمر ليبدو لطيفاً لو أنك ذهبت إلى هناك". كان ألكس رجلاً وسيماً ويبدو مميزاً وهو في سن الثانية والخمسين برأسه ذي الشعر الرمادي، وبعينيه الزرقاوين الثاقبتين، وبنيته الرياضية. كان أحد شركائه قد توفي فجأة إثر نوبة قلبية قبل عامين، فازداد ألكس حرصاً بشأن نظام الحمية

والتمارين الرياضية منذ ذلك الحين. هذا هو السبب في تفضيله السمك على أي شيء آخر، والذي جعله يدفع بالدجاج الذي طهته إلى طرف الطبق. لم يتوفر لديها متسع من الوقت لتبدع في طهو الطعام. فقد أمضت طوال فترة العصر في قاعة الجنازة مع أختها غير الشقيقة، واسمها أليسون، بينما أخذ الناس يتوافدون كي يقدموا تعازيهم. ولم ترَ المرأتان بعضهما منذ جنازة والدة فيث في العام الماضي، ولعشر سنوات قبل ذلك. إذ لم تأتِ أليسون لحضور جنازة أخيها جاك قبل عامين من جنازة والدة فيث. لقد أقيمت الكثير من الجنازات في السنوات الماضية. فقد توفيت والدتها وجاك والآن تشارلز. اختفى عدد كبير من الناس من حياتها. بالرغم من أنها وزوج والدتها لم يكونا على علاقة وثيقة إلا أنها كانت تحترمه على أي حال. لقد أحزنها أن تفكر في أنه رحل. شعرت وكأن معالم الطريق المألوفة قد تلاشت من حياتها.

قال ألكس وهو يتأمل طبقه: "يجب عليّ أن أذهب إلى أحد الاجتماعات في شيكاغو غداً". لقد تناول مقداراً ضئيلاً من الدجاج، ولكنه لم يزعج نفسه بالتذمر.

قالت فيث بهدوء: "إن الناس الآخرين يذهبون لحضور الجنازات". ولم يكن هناك أي طابع مصمّم تتسم به شخصية فيث. فلم يكن من عادتها أن تتجادل أو تتشاجر معه. ونادراً ما اختلفت معه في الرأي. فليس هناك هدف من ذلك على أي حال. فقد تكونت لدى ألكس طريقة في النأي بنفسه عن كل شيء، واعتاد زوجها أن يفعل ما يريده من دون أن يسألها أو يستشيرها، ولطالما فعل ذلك لسنوات. لقد عمل ككيان منفصل عنها معظم الأوقات، وكان العمل والمتطلبات الموكلة إليه هما اللذين يحفّزانه وليست الأمور التي تريد فيث منه أن يقوم بها. لقد كانت تعلم كيف يعمل ويفكر. وبدا من الصعب عليها أن تتجاوز الحواجز التي أحاط نفسه بها. لم تكن واثقة تماماً إن كان ذلك دفاعاً أو مجرد وسيلة توفر له الراحة. لقد كانت الأمور مختلفة عندما كانا شابين، ولكنه أصبح على هذه الحال منذ سنوات.

لقد سبب لها زواجها به الوحشة، ولكنها اعتادت عليها. شعرت الآن بوطأة هذه الوحشة أكثر بسبب رحيل الفتاتين. فقد غمرتا المنزل بكل الدفء الذي احتاجت إليه لسنوات. وشعرت بغيابهما الآن أكثر من غيابه هو. بدا أنها قد انجرفت بعيداً عن العديد من أصدقائها. فقد اعترض الزمن والحياة والزواج والأطفال طريقها في بعض النواحي.

غادرت زوي إلى كلية براون قبل شهرين. وبدت سعيدة هناك. وتوجب عليها أن تأتي إلى البيت لتمضي عطل نهاية الأسبوع بالرغم من أن مدينة بروفيدنس كانت قريبة بما فيه الكفاية، ولكنها انشغلت مع أصدقائها وحياتها وأنشطتها في الكلية، بالضبط كما كانت إلويز سعيدة بالعمل في وظيفتها في لندن. شعرت فيث لبعض الوقت أنهما كانتا تحظيان بحياة أكثر حيوية من حياتها، وأنها كانت تتعارك مع نفسها لتقرر ما ستفعله بحياتها. فكرت في أن تحظى بوظيفة، ولكن لم تخطر لها أي فكرة عن نوع العمل الذي يمكنها أن تقوم به، لقد مرت خمسة وعشرون عاماً منذ عملت في مجلة فوغ قبل أن تولد إلويز. وفكرت أيضاً في أن تعود إلى كلية الحقوق، وذكرت ذلك لألكس عدة مرات. فاعتقد أن الفكرة سخيفة نظراً إلى سنها، واستبعدها تماماً.

"في سنك هذه؟ إن المرء لا يستحق الدراسة في كلية الحقوق ثانية في سن السابعة والأربعين. ستبلغين الخمسين من عمرك عندما تتخرجين وتصبحين محامية". قال ذلك بنظرة من الازدراء التام في عينيه. ومع أنها ظلت تفكر في الأمر بين الحين والآخر، فهي لم تذكره له. اعتقد ألكس أنه ينبغي عليها أن تستمر في القيام بالأعمال الخيرية كما فعلت لسنوات، وأن تذهب لتناول الغداء مع صديقاتها. وكان كل ذلك قد بدأ يبدو خالياً من المعنى بالنسبة إلى فيث ولا سيما بعد رحيل الفتاتين. فأرادت شيئاً يتمتع بجوهر أكبر كي يملأ حياتها، ولكن لا يزال عليها أن تجد خطة تبدو منطقية بالنسبة إليها، ويسعها أن تقنع زوجها بقيمتها.

قال ألكس بلهجة حاسمة بينما عملت فيث على تنظيف الطاولة: "لن يشعر أحد بغيابي في جنازة تشارلز". عرضت عليه بعض المثلجات،

فرفض تناولها. وقد تعوّد أن يحرص على وزنه. وكان أنيقاً جداً، ويتمتع بجسد رشيق. اعتاد أن يلعب السكواش عدة مرات في الأسبوع والتنس في عطل نهاية الأسبوع إن سمح الطقس في نيويورك بذلك. وكانا يستأجران منزلاً للعطلات في ولاية كونيكتيكت عندما كانت الفتاتان صغيرتين، ولكنهما لم يفعلا ذلك منذ سنوات. فقد كان ألكس يحب أن يتسنى له الذهاب إلى المكتب في عطلات نهاية الأسبوع، إن دعت الحاجة إلى ذلك.

أرادت أن تقول له إنها ستفتقده في جنازة زوج أمها في الغد، ولكنها أيقنت أن لا طائل من ذلك. فحالما اتخذ قراره، بطريقة أو بأخرى، لم يعد من الممكن أن تثنيه عن عزمه. لم يخطر بباله قط أنها قد تحتاج إليه هناك. لم يكن من طبيعة علاقتهما أن تظهر نفسها له بتلك الطريقة. فقد كانت مؤهلة تماماً وقادرة على الاعتناء بنفسها. ولم تعتمد عليه اعتماداً كلياً قط من قبل، حتى في أثناء طفولة ابنتيهما. لقد اعتادت أن تتخذ قرارات صائبة وتتحلى بالثقة بالنفس، ولطالما كانت الزوجة المثالية بالنسبة إليه. فلم تكن تنتحب قط، على حدّ تعبيره، ولكنها شعرت بخيبة الأمل لأنه لم يعد يتواجد بقربها. أصبحت خيبة الأمل أسلوب حياة بالنسبة إلى فيث، فألكس لا يتواجد إلى جانبها أبداً حين تحتاج إليه. لقد كان رجلاً مسؤولاً ومحترماً وذكياً ويوفر لأسرته إعالة جيدة، ولكن الجانب العاطفي بينهما يبدو أنه ذهب أدراج الرياح منذ سنوات. انتهى بهما الأمر وهما يعيشان نفس العلاقة التي عاشها والداه. فعندما التقت بهما، صدمت لمدى برودهما وعدم قدرتهما على التعبير عن عاطفتهما تجاه بعضهما. كان والده منعزلاً جداً بالطريقة نفسها التي أصبح عليها ألكس بمرور الوقت، بالرغم من أن فيث لم تلفت نظره أبداً إلى شدة شبهه بأبيه. لم يكن ألكس يحب التعبير عن عواطفه. في الحقيقة، كان يشعر بعدم الارتياح إن تصرف الآخرون هكذا، ولا سيما زوي وفيث. فلطالما أثارت عواطفهما الظاهرة المستمرة قلقه وزادته حتى جفاءً وانتقاداً لهما.

كانت زوي أكثر الفتاتين شبهاً بفيث من حيث حنانها وطبيعتها الطيبة وروحها المرحة التي تذكّر فيث بطفولتها. كانت طالبة مدهشة وفتاة ذكية، ولكن إلويز كانت أقرب إلى أبيها. فقد تمتعا برابطة صامتة تريحه أكثر. لطالما بدت أكثر هدوءاً من أختها، وكانت غالباً انتقادية لفيث كأبيها، وصريحة بشأن ذلك، ربما لأنه كان هكذا. لطالما اعتادت زوي أن تهبّ للدفاع عن أمها وللوقوف إلى جانبها. وقد أرادت حضور الجنازة بالرغم من أنها لم تكن على علاقة وثيقة به. فهو لم يُبدِ قط أي اهتمام بالفتاتين، ولكن كما تبين، فقد توجب عليها الخضوع لامتحانات نصف السنة، لذا لم تستطع الحضور. ولم يكن هناك سبب يدعو إلويز لتقطع كل تلك المسافة من لندن لحضور جنازة زوج جدتها بعد أن تجاهلها طوال الوقت. لم تتوقع فيث ذلك من ابنتيها، ولكن كان ليبدو تصرفاً لطيفاً من جانب ألكس أن يبذل جهده للحضور.

لم تذكر له فيث الموضوع مرة أخرى، وتغاضت عنه كما اعتادت أن تفعل حيال الكثير من الأمور الأخرى. علمت أنها لن تكسب الجدال معه. من وجهة نظره، كانت قادرة تماماً على الذهاب بمفردها. وأيقن تماماً، وكذلك فعلت ابنتاه، أن فيث وزوج أمها لم يكونا على صلة وثيقة ببعضهما. وقد بدا فقدانه أمراً رمزياً بالنسبة إليها. ولم توضح فيث له أن رحيله بدا أكثر إيلاماً لأنه أعاد إلى ذهنها مرارة ذكرى الآخرين الذين رحلوا قبله. فقد توفيت والدتها، وأخوها جاك، فدمرها موته عندما تحطمت طائرته قبل ثلاث سنوات وهو في السادسة والأربعين من عمره. كان طياراً ممتازاً، ولكن محرك طائرته احترق، فانفجرت الطائرة في الجو. وتعرضت لصدمة بدأت تتعافى من آثارها مؤخراً فقط. لطالما كانت وجاك صديقين مقربين، وكان هو الدعم العاطفي الوحيد الذي حظيت به، ومصدر راحة بالنسبة إليها طوال فترة طفولتها ونضجها. فلطالما تحلّى بالتسامح وعدم الانتقاد والولاء العميق. كان يفصل بينهما عامان. ولطالما قالت أمهما إنهما أشبه بتوأمين، ولا سيما عندما توفي والدها فجأة إثر نوبة قلبية عندما كانت هي في العاشرة وجاك في الثانية عشرة.

كانت علاقة فيث بوالدها صعبة، بل كانت في الحقيقة، أشبه بكابوس. وهي لم تتحدث عنها قط، واستغرقت جزءاً كبيراً من مرحلة رشدها لتتخلّص من هذا الكابوس. وقد عملت على ذلك بمساعدة معالج نفسي وتصالحت مع ماضيها بقدر استطاعتها. كانت ذكرياتها المبكرة تتعلق بإساءة معاملة والدها لها. فقد بدأ بمعاملتها بعنف منذ كانت في الرابعة أو الخامسة من عمرها. ولم تجرؤ قط على إخبار أمها بذلك. وألزمها حبها العميق لأخيها الصمت حتى اكتشف جاك الحقيقة عندما كان في الحادية عشرة من عمره وكانت هي في التاسعة من عمرها. فخاض شجاراً عنيفاً مع والده بسبب ذلك، ولكنه كان رجلاً مضطرباً جداً. فتعرضا لأذى كبير بحيث إنهما لم يتحدثا قط عن الأمر حتى كبرا وخضعت هي للمعالجة، ولكنّ ذلك شكّل رابطة بينهما لا يمكن فصم عراها، ومحبة تولدت من التعاطف، وحزناً عميقاً فيهما لحدوث كل ذلك. تعذب جاك لحقيقة أنه لم يستطع حماية فيث من الكابوس الذي تعرضت له جسدياً وعاطفياً. ومزق ذلك قلب جاك بسبب علمه بما يحدث وعجزه عن تغيير الوضع. لكنه كان مجرد طفل. وبعد سنة من اكتشافه للحقيقة، توفي والده.

بعد سنوات، حاولت فيث أن تخبر أمها عن الأمر في أثناء خضوعها للعلاج النفسي، ولكنّ إنكار والدتها لم يتغير. فقد رفضت أن تصغي أو تصدق أو تسمع أي شيء، وأصرت مراراً وتكراراً على أن تلك كذبة شريرة اختلقتها كي تفتري على والدها وتؤذيهم جميعاً. كما خشيت فيث طوال حياتها، ألقت والدتها باللوم عليها، وانسحبت لتعيش في أوهامها وإنكارها، وأصرّت على أن والد فيث كان رجلاً طيباً ومحباً، أحب عائلته وزوجته. حاولت نوعاً ما أن تضعه في مصافّ الصالحين طوال سنوات منذ وفاته. فترك هذا فيث من دون أي شخص لتشاركه ذكرياتها باستثناء جاك كالمعتاد. فذهب معها إلى جلسات العلاج النفسي، وتحدث إليها عن ذكرياتهما المؤلمة. وجلست فيث وانتحبت بين ذراعيه لساعات وساعات.

لكن في النهاية، ساعدها حب جاك، ودعمه كي تواري أشباح الماضي الثرى وتلك الذكرى المؤلمة عن طفولتها. استغرق جاك سنوات ليتجاوز حقيقة أنه لم يستطع أن يحول دون حدوث ذلك لها. فتشكلت بينهما رابطة مؤلمة، وجرح قاوماه بشجاعة ليشفيا منه. أخيراً، استطاعت أن تتصالح مع ماضيها، ويعود فضل كبير في ذلك إلى جاك.

لكن الندوب التي شكلها ما حدث دقت ناقوسها عليهما بالرغم من كل شيء. فقد سعيا للارتباط بعلاقات صعبة مع أناس فاتري العواطف وانتقاديين. وتمكنا من أن يلائما بين برود عواطف أمهما والشخصين اللذين ارتبطا بهما عاطفياً، فعثرا على زوجين يلومانهما على كل شيء يخفق في حياتهما. فقد كانت زوجة جاك عُصابية وصعبة المراس، وهجرته عدة مرات لأسباب لا يمكن لأحد أن يفهمها. وقد نأى ألكس بنفسه عن فيث لسنوات بينما اعتاد أن يوجه إليها أصابع الاتهام بسبب أي مشكلات تطرأ في حياتهما. تناقشت مع جاك بخصوص قراراتهما في ما بعد. وبالرغم من أنهما أدركا حقيقة ما فعلاه في نهاية المطاف، فلم يسعَ أي واحد منهما لتغيير الأوضاع. كان الأمر وكأنهما قد اختارا أوضاعاً شبيهة بمآسي طفولتهما كي يتمكنا من التغلب عليها وتغيير النتيجة إلى الأفضل، لكنهما اختارا شخصين لا يمكن التغلب عليهما. كانت النتيجة في كل مرة مخيّبة للآمال، كما في طفولتهما، بالرغم من أنها أقل منها أذى. تعامل جاك مع الوضع بسلام، وتحمل كل شيء فعلته زوجته تقريباً، بما في ذلك الهجر المتكرر كي لا يثير غضبها أو يجازف بفقدانها، وفعلت فيث الشيء نفسه تماماً، فنادراً ما كانت تتشاجر مع ألكس أو تتحداه. وتجذّرت الدروس التي علّمها إياها والدها في نفسها. ازدادت يقيناً في قرارة نفسها أنها المسؤولة عن كل شيء وأن الغلطة غلطتها والذنب ذنبها نوعاً ما. إذ إن والدها قد أقنعها بذلك. بالرغم من كل شيء، فقد أتت عقوبته الأخيرة لهما بأنه هجرهما عندما توفي. وشعرت فيث أو خشيت نوعاً ما من أنها مسؤولة عن ذلك أيضاً، وجعلها هذا تحرص على ألا تفعل

أي شيء في زواجها مما قد يجعل ألكس يتركها. ومن ناحية ما، أمضت حياتها وهي تحاول أن تكون الفتاة المثالية وأن تكفّر عن الذنوب التي لم يكن أحد سوى أخيها يعرف بشأنها. فكّرت في إخبار ألكس عن حقيقة طفولتها على مدى السنوات، ولكنها لم تفعل ذلك قط. فقد خشيت في قرارة نفسها أنه إن عرف الحقيقة فلن يحبها بعد ذلك.

في السنوات الأخيرة، تساءلت إن أحبها ألكس على الإطلاق. ربما أحبها بطريقته الخاصة، ولكنه كان حباً مبنياً على قيامها بما يأمرها به وعدم إثارتها للمشاكل بينهما. شعرت في وقت مبكر أنه لم يكن ليتحمل سماع حقيقة ما عانته في طفولتها، فبقي سرها المظلم مخبأً مع جاك وأصبح هو الحب غير المشروط الوحيد الذي عرفته في حياتها. وكان حباً متبادلاً بينهما. فقد أحبته من كل قلبها بلا شروط كما أحبها هو، مما جعل وفاته أشد وطأة عليها. فقد أتى موته كخسارة غير محتملة تقريباً بالنسبة إليها ولا سيما في ضوء كل شيء افتقدته في بيتها.

ازداد الوضع صعوبة بالنسبة إليهما حين تزوجت أمهما بتشارلز عندما كانت فيث في الثانية عشرة من عمرها وجاك في الرابعة عشرة من عمره. فشكّت فيث فيه، وتوقّعت تماماً أن يفعل معها الشيء نفسه الذي فعله معها والدها. ولكنه عوضاً عن ذلك تجاهلها كلياً، مما شكل رحمة كبرى بالنسبة إليها. فهو لم يكن رجلاً يشعر بالراحة مع النساء أو الفتيات. حتى إن ابنته عاشت كغريبة في حياته. كان رجلاً عسكرياً قاسياً مع جاك، ولكنه استطاع على الأقل أن يظهر له بعض العطف. كل ما اعتاد أن يفعله مع فيث هو التوقيع على بطاقات تقاريرها المدرسية والتذمر من درجاتها، وهذا ما اعتقد أنه متوقع منه. كان ذلك هو دوره الوحيد. عدا ذلك، لم تكن فيث موجودة بالنسبة إليه، ولكنّ ذلك شكّل راحة لها. ودهشت عندما لم يبادر بفعل أي شيء مما توقعته نحوها ولم يظهر أي اهتمام بها. فعوّضتها الراحة التي شعرت بها عن البرود الذي أظهره تشارلز لها وللجميع. بدا لها هذا أسلوباً مألوفاً على الأقل.

كسب تشارلز تعاطف جاك في نهاية المطاف بالقيام بأمور تهم الرجال بصحبته، ولكنه لم يُبدِ أيّ اهتمام بفيث لمجرد أنها فتاة. بالكاد كانت موجودة في نظره. وشكّل جاك مثلها الأعلى الوحيد وعلاقتها السليمة الوحيدة بعالم الرجال. على عكس أمها وتشارلز، تمتع جاك بالتعاطف والمحبة والسعادة والدفء مثل فيث تماماً. وكانت المرأة التي تزوجها شبيهة بأمهما، أي منعزلة وباردة وعديمة العواطف. وبدت غير قادرة على أن تتعامل معه بدفء. فهجرا بعضهما عدة مرات. ولم ينجبا أطفالاً طوال زواج دام خمسة عشر عاماً لأن ديبي لم تتحمل فكرة وجودهم. ولم تستطع فيث قط أن تدرك سر انجذابه إليها، ولكنه ظل مخلصاً لها بالرغم من صعوبة التعامل معها، واعتاد دائماً أن يجد الأعذار لها، ويرى فيها أشياء لا يراها أي شخص آخر. لقد وقفت متحجرة الملامح في جنازته ولم تذرف دمعة واحدة. وبعد ستة أشهر من وفاته، تزوجت ديبي ثانية، وانتقلت إلى بالم بيتش. لم تسمع فيث خبراً عنها منذ ذلك الحين، ولم ترسل إليها حتى بطاقة معايدة. أصبحت بمثابة خسارة أخرى من بعض النواحي، بالرغم من أن فيث لم تكترث كثيراً لأمرها. فقد شكلت ذكرى حية تذكّرها بجاك من بعض النواحي، ولكنها ذهبت أدراج الرياح.

في الحقيقة، لم يعد لدى فيث أحد سوى ألكس والفتاتين. فشعرت وكأن عالمها أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً. فقد رحل الناس الذين عرفتهم وأحبتهم أو حتى اهتمت لأمرهم واحداً تلو الآخر. لقد كانوا مألوفين بالنسبة إليها على الأقل مثل تشارلز. وفي النهاية، برهنت عقلانيته وحسن أخلاقه، بالرغم من جفائه وتحفظه، على أنه ملجأ آمن لها. لقد رحل والداها وجاك والآن تشارلز. فزاد هذا حتى من قيمة ألكس والفتاتين كما زاد من أهميتهم في حياتها.

تملكها الخوف من الذهاب إلى الجنازة في اليوم التالي. فقد أيقنت أنها ستذكّرها بجنازة جاك، وذلك سيكون شديد الوطأة بما فيه الكفاية. أخذت تفكّر في ذلك وهي تمر بجانب المكتب حيث اعتاد ألكس أن يقرأ ليلاً. كان

مستغرقاً في قراءة بعض الأوراق، فلم ينظر إليها عندما توقفت في الممر. لقد كانت لديه طريقة خاصة يعزل بها نفسه، ويجعل الناس يعرفون أنه لا يريدهم أن يلمسوه أو يزعجوه. هذه الطريقة جعلت الوصول إليه مستحيلاً حتى وهو جالس في الغرفة بعيداً عنها. ولم يكن من الممكن تقريب المسافة الشاسعة التي نمت بينهما على مدى السنوات. إذ إنهما أصبحا كنهرين جليديين يتحركان ببطء شديد بعيداً عن بعضهما. الآن كل ما أصبح في وسعهما فعله هو أن ينظرا إلى بعضهما ويلوحا بأيديهما. لم تعد هناك طريقة لتتقرب بها منه بعد الآن. نجح ألكس في عزل نفسه وهو يعيش معها تحت سقف واحد. فاستسلمت قبل وقت طويل، وتقبّلت الوضع ببساطة، واستمرت في حياتها. لكن الفراغ الذي شعرت به الآن بعد رحيل ابنتيها لم يكن محتملاً. فهي لم تعثر على طريقة تملأ بها الفراغ، وتساءلت إن كانت ستفعل ذلك على الإطلاق وهي تراقب ألكس يضع أوراقه من دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. ثم تحركت ببطء نحو الدرج.

بعد نصف ساعة، تبعها إلى غرفة نومهما. كانت قد أوت إلى الفراش، وبدأت تقرأ كتاباً اقترحت عليها زوي قراءته، وهو عبارة عن رواية مسلّية. فأخذت تبتسم لنفسها عندما دخل الغرفة والتعب بادٍ عليه بعد أن أنجز معظم القراءة التي توجب عليه القيام بها من أجل اجتماعه في شيكاغو في اليوم التالي. نظر إليها بشكل خاطف، وذهب ليبدل ملابسه. بعد بضع دقائق، اندس في السرير بجانبها. وبدا الأمر وكأنّ هناك حاجزاً يفصل سريرهما في وسطه. بدا أشبه بخط ماجينو الدفاعي بحيث لا يستطيع أي منهما أن يتجاوزه سوى عند الضرورة الملحة مرة كل بضعة أسابيع أو حتى مرة في الشهر. كانت تلك مرات قليلة شعرت فيها بالقرب منه، ولكن حتى هذا كان سريع الزوال وأشبه بتذكير لما قد تشاركاه في الماضي قبل أن ينصرفا في طريقين مختلفين أكثر. كانت العلاقة بينهما مختصرة وروتينية، بالرغم من أنها بدت سارة في بعض الأحيان. فقد شكّلت انعكاساً لحقيقتهما التي تشاركاها في الماضي من دون أن تبلغ حدّ

تجسيد الأحلام. وكانت ببساطة ما كانت عليه لا أكثر. لم تعد تعاني بشكل ملحوظ من أي مشاكل نفسية جراء طفولتها. ولكن بسبب قلة التواصل والدفء بينها وبين ألكس، أصبحت ندرة العواطف بينهما تشكل راحة بالنسبة إليها.

في هذه الليلة، استدار ألكس وهو يصعد إلى السرير، وأشاح بوجهه عنها. كانت هذه إشارة على أنه لا يريد منها شيئاً آخر تلك الليلة. فقد تناولا العشاء معاً، وأخبرها أين سيذهب في اليوم التالي، وعلم أين ستذهب، وعلمت من جدول مواعيده أنه سيصطحبها في عشاء عمل معه في الليلة التالية بعد الجنازة. فشكل هذا كل ما هما بحاجة إلى معرفته عن بعضهما ويستطيعان تشاركه بينهما. وإن احتاجت إلى شيء آخر أو إلى بعض القرب والعاطفة في حياتها، فقد توفره لها ابنتاها، كانت تعلم ذلك. لا يزال ذلك يجعلها تفتقد جاك أكثر. بعد زواج كل منهما، احتاجا إلى بعضهما أكثر طلباً للدفء والحنان والعزاء.

أحبت فيث أخاها من كل قلبها، واعتقدت أن موته سيقتلها. إلا أن ذلك لم يحصل، ولكن جزءاً منها قد تاه كروح ضائعة منذ ذلك اليوم وكأنها فقدت موطنها. ولم تستطع أن تخبر ابنتيها أو أي شخص آخر عن الأمور التي تشاركتها مع جاك. فلم يكن أي شخص مثله في حياتها أبداً. وهو لم يخيّب أملها أو يخفق في الوقوف إلى جانبها. لم ينسَ أن يضحكها ويخبرها عن مدى حبه لها، وقد فعلت له الشيء نفسه. بدا أشبه بنور الشمس في حياتها، والقلب النابض الذي تعلقت به في كثير من الأوقات. والآن، بوجود ألكس وهو يشخر بصوت منخفض بجانبها، وبعد رحيل ابنتيها، أطفأت فيث الضوء بهدوء، وشعرت أنها منجرفة بصمت في بحر من الوحشة.

* * *

الفصل الثاني

كان ألكس قد غادر إلى شيكاغو عندما استيقظت فيث على صوت المنبه عند الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي. حُدّد موعد الجنازة عند الساعة الحادية عشرة. ووعدت فيث أن تُوصِل أختها إلى هناك في سيارة الليموزين. كانت أليسون أكبر من فيث بأربعة عشر عاماً. بدت، وهي في سن الواحدة والستين، وكأنها بعمر الألف سنة بالنسبة إليها. فقد كان لها أولاد في عمر فيث تقريباً، أكبرهم في الأربعين من عمره. كانت فيث بالكاد تعرفهم بسبب إقامتهم جميعاً في كندا شمال كيبيك. ولم تربط أليسون أي علاقة خاصة بزوجة أبيها أو بفيث. فقد تزوجت وأنجبت أولاداً قبل أن يتزوج والدها بوالدة فيث. ولم يشكل جاك وفيث أي أهمية كبيرة بالنسبة إليها.

لم تجمع أليسون علاقة وثيقة بوالدها لنفس السبب في عدم قربه من فيث. فلم يكن لتشارلز آرمسترونغ اهتمام خاص بالفتيات. لقد تخرج من أكاديمية ويست بوينت العسكرية وعمل في الجيش. كان في التاسعة والأربعين من عمره عندما تزوج بوالدة فيث، ومتقاعداً منذ وقت قصير. عامل طفلي زوجته كما يعامل طلاب الأكاديمية الحربية. فقد اعتاد أن يتفحص غرفتيهما ويلقي عليهما الأوامر ويعاقبهما. وترك جاك تحت المطر طوال الليل في إحدى المرات لأنه رسب في أحد امتحاناته. فأدخلته فيث من نافذتها، وخبأته تحت سريرها. في الصباح قاموا برش الماء على ثيابه كي تبدو مبللة، وتسلل خارجاً عندما أشرقت الشمس. ولم يكتشف تشارلز حقيقة ما حدث، ولكن جحيماً مستعراً كان لينفجر لو أنه اكتشفها.

لم تتدخل أمهما قط للدفاع عنهما تماماً كما فعلت عندما كانت متزوجة بوالدهما. فقد اعتادت أن تتجنّب المواجهات بأي ثمن. كل ما أرادته هو أن تنعم بحياة هادئة. إذ إنها عانت من زواج سابق صعب وخاوٍ عاطفياً، ومن عامين عاشتهما وهي تعاني من مشاكل مالية كبيرة عندما توفي زوجها، وتركها غارقة في الديون. شعرت بالامتنان لأن تشارلز أنقذها وأبدى اهتماماً بالاعتناء بها وبجاك وفيث. لم تبالِ أن تشارلز كان بالكاد يتحدث إليها إلا ليلقي الأوامر عليها. فكل ما بدا عليه أنه يريده منها أن تتواجد بجانبه، وتنظف منزله، ومن فيث وجاك أن يطيعا أوامره، وينالا درجات جيدة في المدرسة، ويبقيا بعيدين عن نظره. ساعد ذلك على زواجهما بشخصين باردين ومنعزلين عاطفياً شبيهين تماماً بتشارلز ووالدتهما ووالدهما.

تحدّث جاك وفيث بهذا الشأن كثيراً في السنة التي سبقت وفاته عندما انفصل عن زوجته في إحدى المرات. أدرك جاك وفيث أوجه التشابه بين العلاقتين اللتين حظيا بهما في حياتهما. فقد تزوجا بشخصين باردين ومنعزلين ومفتقرين إلى أسباب الحنان والدفء. بالرغم من أن ألكس قد بدا حنوناً في البداية، فقد ازداد بروداً بسرعة بعد أن ولدت إلويز. واستمر بروده في التزايد منذ ذلك الحين. وأصبحت هذه هي طبيعته. لم تعد فيث تستاء من ذلك، ولكنها تقبلته كما هو.

لقد كان ألكس أكثر تعقيداً من تشارلز. فلم يكن تشارلز أكثر من رجل فظ ينتمي إلى أكاديمية ويست بوينت العسكرية. لكن بطريقة غريبة، بدأ ألكس بمرور السنين يذكّرها بتشارلز. لقد عانت والدتها لوقت طويل، واعتادت أن تدافع عن نفسها بالابتعاد عن بقية العالم، وتمكنت من أن توحي إلى جميع من حولها أن الحياة قد خيبت أملها من دون أن تعبّر عن ذلك بالكلمات، ومع ذلك فقد فعلت ما كان متوقعاً منها، وظلت متزوجة بتشارلز لأربعة وثلاثين عاماً حتى توفيت. لم تَبدُ لجاك وفيث سعيدة قط. ولم يكن ذلك زواجاً تريده فيث لوالدتها، ومع هذا فذلك هو الزواج الذي

حظيت هي به الآن، مما يدعو للاستغراب. تساءلت لماذا لم تلاحظ ذلك عندما تزوجت ألكس. وكانت ديبي، زوجة جاك، باردة العواطف معه بنفس الطريقة بالضبط.

كان ماضي فيث هو ما جعلها تصمم على أن تتعامل بحنان بالغ مع زوي وإلويز. فبذلت جهداً كبيراً لتتخطى الحدود معهما ومع ألكس على حدٍّ سواء في البداية. ولكنه وضّح لها على مدى السنوات أن العاطفة هي شيء لا يُشعِره بعدم الراحة وحسب، ولكنه لا يحتاج إليها مطلقاً. فقد كان بحاجة إلى حياة منظمة، ومهنة عظيمة، ومنزل جميل، وزوجة تتواجد من أجله وتقوم بما يتوقع منها، بينما يحقق انتصاراته في عالم التجارة. لكنه لم يُرِد الزخارف والكماليات، ولا الدفء الذي ودت فيث أن تمنحه إياه. وهكذا، فعوضاً عن ذلك، أغدقت كل الحب الذي يسكن قلبها على أخيها وابنتيها.

كانت سيارة الليموزين تنتظر خارج المنزل عندما خرجت فيث عند العاشرة والخمس عشرة دقيقة بعد أن ارتدت فستاناً ومعطفاً أسودين وجورباً أسود وانتعلت حذاء جلدياً أسود عالي الكعب، وردّت شعرها الأشقر إلى الخلف على نفس هيئة الكعكة التي سرحته بها في اليوم الفائت. كانت قطعة المجوهرات الوحيدة التي وضعتها عبارة عن قرطين من اللآلئ كانا لوالدتها وأعطاها إياهما تشارلز. بدت فيث رزينة ولطيفة ووقورة وجميلة. بالرغم من ملابسها، فقد بدت أصغر سناً من عمرها الحقيقي. فقد كان وجهها يعكس صراحتها وطيبتها، وابتسامتها سمحة، وأسلوبها لطيفاً. إن هي ارتدت الجينز الأزرق وفردت شعرها، ستبدو بعمر ابنتيها تقريباً، ومهما كانت الأحزان التي مرت بها فهي لم تظهر على وجهها. بينما هي تجلس على الكرسي الخلفي في سيارة الليموزين، فكّرت في جاك. فقد كان ليتمكن نوعاً ما من أن يتصرف بغير وقار حتى في هذا اليوم الكئيب، وأن يجعل الأمور تبدو أسهل بالنسبة إليها، ويبتكر شيئاً طائشاً وسخيفاً ليهمسه في أذنها. بينما تفكر في ذلك والسيارة تتجه

نحو فندق أليسون، ابتسمت رغماً عنها. فلطالما اتّسم بالطيش حتى في نهايته غير المتوقعة التي جاءت في غير وقتها.

عمل جاك محامياً في شركة محاماة في وول ستريت، وأحبه زملاؤه وأصدقاؤه، ولكن ألكس وحده هو من وجده مفتقراً إلى الوقار ولم يتفق معه. كان الرجلان على طرفي نقيض من كل النواحي. لقد وجد جاك زوج أخته مملاً بالرغم من أنه نادراً ما ذكر شيئاً عن ذلك مراعاة لشعورها، وعلم أنه ليس هناك هدف من مناقشة هذا، فلم تحب فيث زوجته أيضاً، وكان التحدث عن هذا يزيد من إحراجه. كان الحديث عن زوجها وزوجته حديثاً ممنوعاً بينهما معظم الأوقات إلا إن اختارا بملء إرادتهما أن يطرحاه للنقاش. تمتع جاك بالحكمة الكافية ليقلل من تفوهه بالنقد عن ألكس بسبب حبه الشديد لأخته.

كانت أليسون وزوجها ينتظران أمام باب الفندق عندما وصلت فيث لتقلّهما. وبَدَوَا شخصين كبيرين في السن وباردين ووقورين. وقد عملا على إدارة مزرعة كبيرة ومزدهرة في كندا لأربعين عاماً. وكان لهما ثلاثة أبناء في مثل سن فيث تقريباً يساعدونهما على إدارة المزرعة، ولكنهم تخلفوا عن حضور الجنازة، وبقيت ابنتهما في المنزل بسبب مرضها. بدت أليسون وزوجها برتراند غير مرتاحَين مع فيث. فقد كانت أنيقة ومتمدنة. بالرغم من أن أليسون قد عرفتها منذ طفولتها، فنادراً ما تحدثتا إلى بعضهما بعد أن أصبحتا راشدتين. فقد تمركز محور حياتهما في عالمين مختلفين.

استفسرا عن ألكس، فشرحت لهما أنه توجب عليه أن يسافر إلى شيكاغو طوال هذا اليوم للعمل. فأومأت أليسون برأسها. كانت قد التقت به بضع مرات فقط، وبدا لها أشبه بمخلوق قادم من كوكب آخر. ولم يُبدِ هو أي اهتمام بهما. لم يبذل أي مجهود ليتحدث إليهما عندما التقيا به للمرة الأولى، وعندما شاهداه مرة أخرى في جنازة والدة فيث. أيقن أن أليسون لم تكن تتمتع بأهمية كبيرة بالنسبة إلى فيث. فقد أصبحتا غريبتين بالنسبة

إلى بعضهما بعد أن كانتا قريبتين لأكثر من ثلاثة عقود. لم يَسَع فيث إلا أن تتساءل بينما هم يتوجّهون بالسيارة نحو دار العبادة إن هما ستلتقيان مرة أخرى بعد اليوم. لم تكن متعلّقة بها فعلاً، وزاد ذلك من شعورها بالخسارة مرة أخرى. فقد أصبحت أليسون شخصاً آخر يتسلل بعيداً عنها. بدا على حياتها بأكملها أنها تتجرد من كل ما فيها. فلم يعد أحد يدخل حياتها بعد الآن بل أخذ الجميع يرحلون عنها كجاك وأمها وتشارلز وابنتيها بطريقتهما الخاصة والآن أليسون... بدأت تشعر في الأشهر الفائتة، وكأن كل شيء في حياتها الآن أصبح يتعلق بالخسارة. بدت وفاة تشارلز، بالرغم من أنها غير مفاجئة وهو في سن الرابعة والثمانين، ضربة أخرى ورحيلاً آخر. فأصبح تشارلز شخصاً آخر يرحل عنها ويهجرها.

تبادلت وأليسون وبرتراند حديثاً مختصراً وهم في طريقهم إلى دار العبادة. بدت أليسون هادئة وقادرة على الحفاظ على رباطة جأشها. كانت نادراً ما ترى والدها، فلم تجمع بينهما علاقة وطيدة، وأخبرت فيث أنها تريد أن تدعو الناس ليعودوا إلى الفندق بعد ذلك، إن كان هناك أي شخص تريد أن تضمه إلى الائحة. حجزت غرفة جلوس كبيرة في الفندق وطلبت تقديم البوفيه للمعزّين، وهذا ما اعتقدت فيث أنه لمسة لطيفة وحكيمة من جانبها وخاصة لأصدقاء والديها.

قالت فيث بصراحة: "لست واثقة من عدد الناس الذين سأعرفهم".

لقد ذكر في النعي الذي نشروه في الصحيفة مكان الجنازة. واتصلت بعدد من أصدقاء والديها. ولكن الكثير من أصدقائهما القدامى قد رحلوا أو أصبحوا يعيشون في دور للنقاهة. لقد عاشت والدتها وتشارلز في ولاية كونيكتيكت لسنوات عديدة، وتعرفا إلى العديد من الأصدقاء هناك، ولكن بعد وفاة والدتها، نقلت فيث تشارلز إلى المدينة ليعيش في أحد دور الرعاية وقد كان مريضاً طوال السنة المنصرمة. لم يفاجئ موته أحداً منهم. ولكن كان من الصعب أن يعرفوا عدد الناس الذين سيأتون لحضور جنازته. شكّت فيث في أن الحضور سيكون شحيحاً نوعاً ما. لقد كانوا ذاهبين إلى

المقبرة بعد الجنازة مباشرة ليواروه الثرى. اتفقت وأليسون أنهما وبرتراند سيعودون على الأرجح إلى الفندق بحلول الواحدة والنصف. كما توقعتا أن تقوما باستقبال الناس في الفندق طوال بقية فترة العصر. كان برتراند وأليسون سيسافران بالطائرة إلى كندا عند الساعة الثامنة من تلك الليلة، وكان ألكس وفيث ذاهبين للمشاركة في عشاء عمل، وهذا ما قد يشكل تغييراً جيداً بعد عصر ذلك اليوم المثير للإحباط.

فوجئوا جميعاً وهم يدخلون من باب دار العبادة الجانبي بعدد الأشخاص الذين أتوا فعلاً، كان تشارلز عضواً محترماً في مجتمع المدينة المحصور في كونيكتيكت حيث كانا يعيشان هو وزوجته. ولطالما شعرت فيث، مما يدعو للدهشة، أن الناس كانوا يحبونه ويعتقدون أنه محترم ومستقيم وحتى مثير للاهتمام. إذ تم تعيينه في أماكن نائية في شبابه وغالباً ما كانت لديه قصص ليرويها لهم بالرغم من أنه لم يشارك الكثير من هذا مع زوجته وولديها. لكن الناس البعيدين عن دائرة حياة تشارلز المباشرة اعتادوا دائماً أن يكوّنوا رأياً حسناً عنه. فهو لم يكن بارداً معهم بنفس القدر، واعتاد أن يبذل معهم مجهوداً أكبر بشكل ملحوظ، هذا ما بدا غريباً لفيث دائماً ولا سيما أنه بالكاد تبادل مع والدتها بضع كلمات. لم تفهم قط ما الذي كانت والدتها تراه فيه باستثناء أنه كان مواطناً اجتماعياً ورجلاً حسن المظهر في الماضي. ولكن من وجهة نظر فيث، لم يتمتع زوج والدتها بأي جاذبية أو سحر على الإطلاق.

بدأت الجنازة في موعدها عند الساعة الحادية عشرة. واختارت فيث وأليسون الموسيقى في اليوم السابق.لم تستطع فيث أن تمنع الدموع من الانسياب على وجنتيها، وشعرت بغصة في حلقها...

بعد أن صافحوا نصف المعزين الذين يزيد عددهم عن المئة شخص، سمعت فيث صوتاً مألوفاً من خلفها. كل ما استطاعت أن تفعله هو التحديق. كانت تصافح امرأة من صديقات أمها. وقبل أن تتمكن من أن تلتفت، تفوه بكلمة واحدة قائلاً: "فرد." فارتسمت ابتسامة على وجهها

بالرغم من الظروف. فانفرجت شفتاها بابتسامة حبور وهي تستدير نحوه. كان هناك شخص واحد في العالم يناديها بذلك الاسم باستثناء جاك. وفي الواقع، ابتكر هو الاسم واستعمله جاك. أصبح اسمها المستعار طوال سنوات طفولتها. لطالما قال إن اسم فيث هو اسم غبي لفتاة، وهكذا أطلق عليها اسم فرد.

التفتت فيث، ونظرت إليه وهي غير مصدقة أنه موجود هنا. لم يتغير على الإطلاق طوال سنوات بالرغم من أنه كان في عمر جاك نفسه، أي أكبر منها بعامين. بدا براد باترسون، وهو في التاسعة والأربعين، أشبه بطفل وهو يبتسم ابتسامة عريضة. هو ذو عينين خضراوين كلون عينيها تماماً، وجسم طويل ونحيل، ولكنه بدا معقولاً أكثر الآن. ولطالما أخبرته في طفولتهما أن ساقيه شبيهتان بأرجل العنكبوت. كانت ابتسامة ترتسم على وجهه بشكل لا يقاوم، تتوسط ذقنه طبعة مع خصلة شعر سوداء لم يبدأ الشعر الأبيض بغزوها بعد. كان براد صديق أخيها المفضّل منذ سن العاشرة. كانت فيث في الثامنة عندما وقعت عيناها عليه للمرة الأولى. وقد صبغ شعرها الأشقر باللون الأخضر في ذكرى سانت باتريك. واعتقدت وجاك وبراد أنها فكرة عظيمة بالرغم من أن والدتها لم تستمتع بها بشكل ملحوظ.

كان براد قد ابتكر ملايين الخطط والدعابات على مدى السنوات، وخاض وجاك مغامرات لا حصر لها، وبقيا لا يفترقان لأكثر من عشر سنوات. لقد ذهبا إلى ولاية بنسلفانيا معاً وافترقا أخيراً فقط عندما التحقا بكلية الحقوق. فبراد التحق بكلية بولت في بيركلي بينما التحق جاك بكلية دوك. فوقع براد في غرام فتاة هناك. ومكث في الساحل الغربي في نهاية المطاف. وكان قدره أن تزوّج وأنجب صبيّين توأمين هما في مثل سن لويز تقريباً. بمرور الوقت، كان جاك يسافر ليراه هناك كل بضع سنوات. لكن براد امتنع عن القدوم إلى الشرق. مرّت سنوات منذ قابلته فيث حتى أتى لحضور جنازة أخيها. لقد دمرهما موته، وبقيا يتحدثان عنه وكأنهما

بالتحدث عن كل شيء يتذكرانه عنه كان يسعهما أن يعيداه إليهما. لقد أتى براد معهما إلى المنزل وقابل زوي وإلويز. كانت الفتاتان في الخامسة عشرة والحادية والعشرين في ذلك الوقت. ولم يعجب ألكس كثيراً به، واعتقد أنه يتميز بطابع أهل الولايات الغربية فوق اللازم، على حدّ تعبيره، انصرف اهتمامه عنه وخاصة لأنه صديق جاك. لكن فيث لم تكترث لذلك. فكل ما أرادته هو أن تتشبث به، وتبادلت وبراد الرسائل لسنة ثم فقدا التواصل مرة أخرى. بدا أن حياته كانت تستهلكه. وهكذا لم تكن قد رأته منذ جنازة جاك ولم تسمع عنه منذ عامين تقريباً. فصعقت عندما رأته واقفاً هناك في جنازة تشارلز ولم تستطع أن تتخيل كيف حضر.

"ماذا تفعل هنا؟"، وكان يمكن للابتسامة التي تبادلاها أن تضيء دار العبادة بكاملها.

"لقد أتيت إلى المدينة لحضور أحد المؤتمرات، فقرأت النعي في صحيفة البارحة. واعتقدت أنه سيكون من اللائق أن آتي". وابتسم لها تماماً كما فعل قبل أربعين عاماً. وكان ما زال يبدو لها صبياً، لطالما سيبقى كذلك في أعماقها مهما تقدّمت به السن. فشبابهما هو كل ما كانت تراه. كان أحد الفرسان الثلاثة الذين شكلتهم وجاك معه. ابتسمت له وهي ممتنة لحضوره. إذ إنه جعل الموقف أكثر سهولة بالنسبة إليها، وجعلها تشعر وكأن جاك كان بينهم أيضاً. ثم قال: "وعلمت أنني سأراك هنا. أنت تبدين بحال رائعة، يا فرِد".

لقد اعتاد أن يمازحها كثيراً وهي طفلة. وأصبحت معجبة به بعد ذلك وهي في سن الثالثة عشرة، ولكنها نسيته عندما غادر إلى الكلية بعد ثلاث سنوات، وبدأت تواعد شباناً من عمرها. ولكنه ظل أحد أعز أصدقائها. وأحزنها أن الاتصال بينهما قد انقطع مؤخراً، ولكن كان من الصعب أن يحافظا على متانة صداقتهما نظراً إلى بعد المسافة التي تفصل بينهما والوقت الطويل الذي ابتعدا خلاله عن بعضهما. كل ما بقي لهما هو التاريخ والعاطفة الجياشة التي لا تزال تكنّها له. واعتزا بذكريات لا حصر لها عن السنوات التي تشاركاها وهما يترعرعان.

دعته إلى الحضور إلى الفندق بعد ذلك، فأومأ برأسه، وعيناه تتأملانها. بدا متأثراً لرؤيتها كما بدت هي متأثرة لرؤيته.

قال لها مطمئناً: "سأحضر".

قالت: "لطف منك أن تأتي". وابتسمت له بينما تحرك الناس من حولهما ليصافحوا أليسون وبرتراند.

قال براد بمحبة: "لقد كان تشارلز رجلاً عجوزاً طيباً". وقد حظي بذكريات حميمة معه أكثر من ذكريات فيث. وقام وجاك معه بأمور لم تسنح الفرصة أبداً لفيث للقيام بها، مثل صيد الغزلان وصيد السمك عند البحيرة. فقد كان بارعاً بأمور من هذا القبيل. ولم يخطر بباله قط أن يجعل فيث تنضم إليهم. وأضاف براد قائلاً: "وبالإضافة إلى ذلك، فقد أردت رؤيتك. كيف حال الفتاتين؟"، فابتسمت له مرة أخرى.

"في حال رائعة. ولكنهما رحلتا لسوء الحظ. فقد ذهبت إلويز إلى لندن. وزوي طالبة في السنة الأولى في كلية براون. كيف حال التوأمين؟".

"رائعان. إنهما يمضيان عاماً في أفريقيا ويطاردان الأسود في الأنحاء. وتخرجا من الكلية في شهر تموز وسافرا بالطائرة بعد ذلك مباشرة. أريد أن أذهب لرؤيتهما، ولكن ليس لدي متسع من الوقت لذلك". وعلمت فيث أنه استقل في عمله قبل بضع سنوات. فأصبح يعمل في حقل الدفاع القانوني الاجتماعي مع القاصرين المتهمين بارتكاب الجنح. أخبرها جاك بذلك قبل وفاته، وتحدثت وبراد عن الأمر في الجنازة. ولكن لم يكن لديها وقت لتسأله عن العمل الآن، فقد بدأت أليسون تلوّح لها أنه أصبح يتوجب عليهم الذهاب إلى المقبرة. فأومأت فيث لها، ثم استدارت نحو براد.

"عليّ أن أذهب... هل ستأتي إلى الفندق بعد ذلك؟ إنه فندق ولدروف". بدت له طفلة وهي تذكّره بالحضور إلى الفندق، فابتسم لها. وأراد أن يطوّقها بذراعيه ويعانقها. فقد أخبره شيء ما في عينيها أنها عانت أوقاتاً عصيبة. ولم يكن واثقاً إن كان السبب هو جاك أو شيئاً آخر،

ولكن شيئاً قوياً وحزيناً في عينيها أثّر في قلبه كما كان يحدث في طفولتها إن هي بدت حزينة. ولطالما شعر أنه يحميها، ولا يزال يشعر هكذا.

"ساتي". فأومأت فيث برأسها. وحال شخصان بينهما. فقدما لها تعازيهما وهما يصافحانها.

لوّح لها براد مودّعاً ثم انصرف. فقد توجب عليه القيام ببعض المهمات قبل أن يذهب إلى الفندق. ولم يعتد أن يأتي إلى نيويورك في أغلب الأحيان. فأراد أن يتوقف عند بعض أماكنه المفضلة وأن يزور بعض المتاجر التي يحبها. وتمنى أن يذهب إلى المقبرة معها كي يساندها، ولكنه لم يود أن يتطفل عليها. وأيقن أن الوضع شاق عليها بسبب جاك. فقد أصبحت الجنازات والمقابر أمراً مألوفاً بالنسبة إليها. وأدرك وهو يراقبها تركب سيارة الليموزين وتبتعد خلف نعش تشارلز أنه لم يرَ زوجها بصحبتها. وتساءل إن حدث شيء بينهما، وإن انفصلا عن بعضهما، وإن كان ذلك سبب الحزن الذي رآه يسكن عينيها. لقد تحدث إلى جاك عن الأمر بعد أن تزوجت فيث. ولم يبدُ أي منهما متحمساً لألكس. فلطالما بدا لهما فاتراً ومنعزلاً، ولكن فيث شرحت لجاك أنه شخص رائع وأكثر دفئاً مما يبدو عليه. ولم يعد براد مقرباً منها بما يكفي كي يسألها عن أمورها. ولكنه وجد من الغرابة أن ألكس لم يتواجد هناك برفقتها.

...كان يوماً مشمساً ومشرقاً من أيام شهر تشرين الأول. وشعرت فيث بالامتنان أنها على الأقل لم تمطر. فقد هطل المطر بغزارة عندما دفنوا جاك مما زاد الوضع سوءاً. ولم يكن نور الشمس ليساعدها، ولا أي شيء آخر. إذ إنه كان من دون أي شك أكثر يوم مؤلم مرّ في حياتها.

كان دفن تشارلز مختلفاً. فقد شعرت أنه حزين وهادئ. وجعلها تفكر في والدتها وزواجها بتشارلز والطفولة التي أمضتها وجاك معهما. وبناء على تجربتها السابقة، فقد خافت فيث من تشارلز في البداية عندما تزوجته والدتها. ولم تكن واثقة مما تتوقع منه. ولكنها شعرت بالراحة لأن تكتشف في وقت مبكر أنه لم يكن لديه أي اهتمام بها، بالرغم من كونه عنيداً

وصارماً. وغالباً ما اعتاد أن يصرخ في وجهيهما. في المرة الأولى التي تصرّف فيها على هذا النحو، بكت وأمسك جاك بيدها. ولم تقل والدتها شيئاً لتشارلز دفاعاً عنهما. فهي لم ترد قط أن تثير المتاعب ولم تقف في صفهما قط، مما شكل خيانة من قبلها، من وجهة نظر فيث. وكل ما أرادته والدتها هو أن ينجح كل شيء مهما كلف الأمر سواء أتوجب عليها أن تضحّي بنفسها، أو بفيث، أو بجاك. واعتادت أن تذعن لتشارلز بخصوص كل شيء حتى طفليها. كان جاك وحده من دافع عن فيث ولعب دور بطلها طوال حياته إلى يوم وفاته. وجعلها ذلك تفكر في براد مرّة أخرى وفي مدى سرورها لحضوره. كانت رؤيته في الفندق شيئاً تطلعت إلى حدوثه بينما حاولت أن تصرف أفكارها عن الذكريات المحزنة. فقد كان هناك الكثير منها.

توقفت السيارة خارج الفندق. واتفقت فيث وأليسون على أن يعيد السائق السيارة إلى المرأب حيث كانت مركونة. إذ كان باستطاعة فيث أن تمشي أو تستقل سيارة أجرة إلى البيت، بينما تستقل أليسون وبرتراند سيارة أجرة إلى المطار عند الساعة السادسة. وكل ما بقي عليهما فعله الآن كجزء من جنازة تشارلز هو أن يمضيا بضع ساعات مع أصدقائه.

كانت الغرفة التي حجزتها أليسون لفترة العصر بسيطة وأنيقة. وقد وُضع داخلها بيانو كبير في إحدى الزوايا وطاولة بوفيه وُضعت عليها الشطائر والكعك والبسكويت. وكان هناك نادل يقدّم القهوة والمشروبات للمدعوين. وبدا الطعام الذي قُدّم بسيطاً ولكنه كافٍ. وبدأ الناس يتوافدون حالما علّقت فيث معطفها تقريباً. فشعرت بالراحة لأن ترى أن براد قد وصل مع أوائل المدعوين.

قامت بمجرد الوقوف والابتسام له لدقيقة وهو يعبر الغرفة نحوها. وجعلها ذلك تفكر كم بدا لها أخرق وهو طفل. فلطالما كان أطول منها بكثير. وعندما كانت صغيرة جداً اعتاد أن يلقي بها في الهواء أو يدفعها في الأرجوحة. ولطالما شكل جزءاً أساسياً من سنوات طفولتها ومراهقتها.

سألها بينما هو يأخذ رشفة من كأس الشراب الفرنسي الأبيض الذي قدّمه له النادل: "كيف جرى الأمر؟".

قالت وهي مقطبة الحاجبين: "لا بأس به. إنني لن أقيم الجنازات بعد الآن، إن تمكّنت من ذلك. ولكنني لا أستطيع أن أتجنبها. إنني أكره المقابر". وعلما السبب في ذلك.

"نعم، إنني لا أحبها أيضاً. بالمناسبة، أين ألكس؟"، فالتقت عيونهما، ونظرا إلى بعضهما. وقد بدا أنه يسألها عمّا هو أكثر من ذلك. فتنهدت ثم ابتسمت.

"لقد توجب عليه أن يذهب إلى شيكاغو ليقابل بعض الموكلين. وسيعود الليلة". ولم تكن هناك نبرة انتقادية في صوتها، ولكن براد اعتقد أنه كان ينبغي عليه أن يكون هناك، من أجلها. فقد انزعج من عدم وجوده نيابة عنها، ولكنه سُرّ لذلك أيضاً. إذ إن ذلك منحه وقتاً ليمضيه معها ويتحدث إليها ويعوّض ما فاته. فقد مضى وقت طويل منذ تحدثا إلى بعضهما.

"هذا مؤسف جداً، أعني أن يكون في شيكاغو. وكيف هي الأمور الأخرى؟"، وجلس على المسند الجانبي لإحدى الأرائك. وبدا تقريباً بنفس طول فيث وهي واقفة وهما يتحدثان.

"على ما يرام، كما أعتقد. إنه لأمر غريب أن ترحل كلتا الفتاتين. ولا أعرف ما أفعل بوقتي. وأنا أظل أكرر لنفسي أنني سأعمل، ولكنني لا أتمتع بأي مهارات تسويقية. ففكرت في الالتحاق بكلية الحقوق من جديد، ولكن ألكس يعتقد أنني مجنونة. فهو يقول إنني كبيرة جداً على العودة إلى الكلية والتخرج".

"في مثل سنك؟ إن الكثير من الناس يفعلون ذلك. فلِمَ لا ينبغي عليك أنت أن تقومي بهذا الأمر؟".

"يقول إنه بحلول الوقت الذي سأتخرج فيه لن يود أحد أن يوظفني". فأزعجه مجرد سماع ذلك. إذ إنه لم يستلطف ألكس أبداً على أي حال.

"هذا هراء. فأنت ستصبحين محامية عظيمة، يا فرِد. وأعتقد أنه ينبغي عليك ذلك". فابتسمت رداً على كلامه، ولم تحاول أن تشرح له كم من المستحيل أن تقنع ألكس بذلك. فقد كان رجلاً صعب المراس.

"يعتقد ألكس أنه ينبغي عليّ أن أمكث في البيت وأسترخي وحسب أو شيء من هذا القبيل". بدا ذلك مميتاً بالنسبة إليها واتفق براد معها في رأيها. وبينما هو ينظر إليها، تذكّر شعرها الأشقر الطويل وهي طفلة. وتمنى أن يستطيع أن يسحب منه الدبابيس إكراماً للأيام الخوالي. فلطالما أحب شعرها.

"ستضجرين حتى الموت. وأعتقد أن الكلية هي بالتأكيد الفكرة المثلى. فينبغي عليك أن تسعَي وراءها". وذلك بالضبط هو ما كان جاك ليقوله. فأجج ذلك حماستها من جديد عندما مرت بها جماعة جديدة من الناس وذهبت لتحييهم. وميزت بضعة وجوه منهم وشكرتهم على حضورهم. وبعد وقت قصير، عادت إلى براد.

"إذاً، ما الذي تفعله بام في هذه الأيام؟ أما زلتما تعملان معاً؟". كانا محاميين، والتقيا في كلية الحقوق بالرغم من أن بام كانت تسبقه بعام. وذهب جاك لحضور زفافهما، ولكن فيث التقت بها مرة واحدة. ولطالما بدت بام لها امرأة قاسية ومخيفة جداً، ولكن ذكية بالتأكيد. وقد وجد براد في بام نداً له.

ابتسم براد ابتسامة عريضة وقال: "كلا، بالتأكيد. فهي لا تزال تعمل في شركة أبيها. وهو يزعم أنه ينوي أن يتقاعد، ولكنه بلغ التاسعة والسبعين من عمره ولم يتقاعد بعد. ولا أعرف إن هو سيتقاعد على الإطلاق. وهي تعمل في الدعاوى القضائية وتعتقد أنني مجنون بسبب ما أزاوله من أعمال".

"لماذا؟"، وقد بدا لها عمله مثيراً للاهتمام ونبيلاً في آن معاً. فبحسب ما قاله لها آخر مرة التقيا فيها، كان يدافع عن مجموعة كبيرة من القاصرين المتّهمين بارتكاب بعض الجنح والجرائم الخطيرة نوعاً ما.

"أولاً، إنني لا أتقاضى مالاً. ومعظم الأحيان تعيّنني المحكمة. وبقية الأوقات، لا يُدفَع لي أي مال أو أجني مالاً غير كافٍ، بحسب اعتقادها. أنا أعمل ليلَ نهارَ وفي عطل نهاية الأسبوع. وهي تعتقد أنني قد تخلّيت عن وظيفة يسيرة في شركة أبيها كي أتسكّع في سجن المقاطعة مع مجموعة من القاصرين الذين لا يمكن إنقاذهم، بحسب زعمها. والشيء اللطيف أن بعضهم ينجحون فعلاً في تغيير مسار حياتهم إن واتتهم الفرصة لذلك. هذا عمل مثير للاهتمام. وهو يناسبني بشكل أفضل". ثم مازحها قائلاً: "ويمكنك أن تأتي وتعملي لديّ إن ذهبتِ إلى كلية الحقوق. يجب عليك أن تعملي بالمجان طبعاً أو يمكنك أن تدفعي لي. فهذا سيناسبني". فضحكا وهما يتوجهان نحو طاولة البوفيه. قدمتهما أليسون لزوجين لم تلتقِ بهما فيث قط. وبدأ عدد الحشد يتضاءل بحلول منتصف فترة العصر، لكن أليسون اعتقدت أنه ينبغي عليهم أن يبقوا حتى الخامسة من باب اللياقة في حال تأخّر بعض المعزين في الوصول. منح هذا فيث فرصة لتمضي مزيداً من الوقت وهي تتحدث إلى براد.

مازحها براد وهما يجلسان مرّة أخرى قائلاً: "إذاً، ماذا غير ذلك، يا فرِد؟". وتناولا بعض شطائر سلطة البيض مع الخس وبعض الفراولة والبسكويت. ثم قال: "هل سبق لكِ أن ارتكبتِ أي جنح أو جنايات أو انتهاكات ركن سيارة أو قضايا أخرى؟ يمكنك أن تعترفي لي. فأنا محكوم بالسرية." فضحكت. وأدرك وهو جالس معها كم افتقد رؤيتها في السنوات القليلة المنصرمة. أصبح من السهل عليهما أن ينجرفا بعيداً عن بعضهما في المسافة والوقت والحياة الحافلة، حياته هو على الأقل. مع ذلك، ففي اللحظة التي التقيا فيها، بدا الأمر وكأن شيئاً لم يتغير. لقد قرّبهما رحيل جاك من بعضهما، ومنحهما رابطة أقوى. وألح عليها قائلاً: "إذاً، ما الأمر؟".

قالت وهي تضع إحدى ساقيها على الأخرى وهما يواجهان بعضهما: "ليس هناك من أمر". أدركت أنه لا يزال رجلاً وسيماً بشكل مدهش وهي

تنظر إليه. لطالما كانت الفتيات متيّمات به بالرغم من أن جاك اعتاد دائماً أن يحظى بالفتيات الأجمل. فقد تمتع بسحر لا يقاوم. وكان براد خجولاً نوعاً ما. ولطالما أحبت فيث تلك الصفة فيه. وقالت له: "سيخيب أملك. إذ ليست هناك جنح ولا جنايات. فأنا أعيش حياة مملة نوعاً ما. ولهذا السبب أريد أن أعود إلى الكلية. فقد انتهت وظيفتي منذ التحقت زوي بكلية براون. وألكس مشغول طوال الوقت. ورحلت إيلي (إلويز) أيضاً. وهذا كل شيء يتعلق بحياتي. وأنا أؤدي بعض الأعمال الخيرية من وقت إلى آخر، وأنظّم حفلات جمع التبرعات. ويمكنني أن أنجز هذا وأنا نائمة".

"ماذا عن العلاقات الغرامية، يا فرِد؟ لقد ظللت متزوجة لوقت طويل جداً. فلا تخبريني أنك قد أحسنت التصرف طوال هذا الوقت". وقد اعتاد أن يفعل الشيء نفسه لها وهم أطفال. فلطالما كان ينتزع كل أسرارها منها بطريقته الأخوية ثم يغيظها بشأنها بعد ذلك. لكن هذه المرة لم يكن لديها حقاً أي شيء لتقوله.

"لقد قلت لك إنني أعيش حياة مملّة. ولم أقم أي علاقة أبداً. ولا أعتقد أنني كنت لأتمتع بالشجاعة الكافية، فأنا معقدة جداً. بالإضافة إلى ذلك، فأنا لم أقابل أبداً أي شخص أريده. ظللت مشغولة مع الفتاتين. إن هذا يبدو مملاً بشكل محرج، أليس كذلك؟"، فضحكت وابتسم هو ابتسامة عريضة ثمّ نظر إليها بعينيه الخضراوين.

قال لها: "إذاً، لا بد من أنك لا تزالين مغرمة بألكس بجنون". فأشاحت بوجهها عنه متأملة ثم عاودت النظر إليه. وكان أمراً غريباً، فكل الحميمية لا تزال موجودة بينهما حتى بعد كل تلك السنوات، ولا تزال تثق به وبمكانته في قلبها الآن وستفعل طوال حياتها. فقد حلّ محل جاك بطريقة ما. ومن بعض النواحي، وفي بعض الأوقات، كانت حتى أكثر قرباً إلى براد من أخيها. فقد جمعت بينها وبين براد أوجه شبه كثيرة. ولطالما كان جاك منبسطاً أكثر من أي منهما وأكثر عنفاً في بعض الأوقات. وتشاركت وبراد صفات مشتركة كثيرة. وأخبرته بأمور عن ماضيها لم تخبر حتى جاك بها.

قالت له بصراحة: "كلا، إنني لست مغرمة به. ليس بجنون، على حدّ تعبيرك. إنني أحبه، وهو رجل وأب طيب. ونحن صديقان حميمان. وفي الواقع، لست واثقة مما آلت إليه حال علاقتنا الآن. أعتقد أن العمل هو حبه الأول وأنه ليس بحاجة إلى أي كان بقربه. نحن نعيش في المنزل ذاته، ولدينا فتاتان، ونخرج معاً للمشاركة في عشاءات العمل، ونقابل الأصدقاء بين الحين والآخر. معظم الأوقات، نمضي في حياتنا الخاصة. ولم يعد لدينا الكثير لنقوله لبعضنا بعد الآن". وأدرك عندئذٍ أن ذلك هو سبب الحزن الذي لاحظه في عينيها.

قال لها بهدوء: "هذا يبدو موحشاً، يا فرِد". وبالرغم من ذلك، فحياته لم تكن أفضل، ولم يعد وبام أكثر من مجرد شخصين يعرفان بعضهما لسنوات. لم تصبح الأمور طيبة بينهما عندما استقل بنفسه مهنياً. لا يزال عليها أن تسامحه لمغادرته شركة أبيها. إذ إنها اعتبرت ذلك هجراً وخيانة نوعاً ما، وجعلت الأمر يتخذ منحى شخصياً، ولم تستطع أن تدرك أن ما كان يفعله هو أفضل بالنسبة إليها لأنه يتناقض تماماً مع كل شيء تريده وتعتقد به. وكان كسب المال هو أكثر ما يهمها من بين كل الأمور الأخرى.

"إنه موحش أحياناً". ولم ترد أن تخبره أنه موحش طوال الوقت. فقد بدا من غير الإنصاف بالنسبة إلى ألكس أن تقول ذلك، وأمراً مثيراً للشفقة أن تعترف بذلك لبراد. ثم تابعت قائلة: "إنه رجل انعزالي جداً. ولدينا اهتمامات مختلفة. أنا أحب الناس والتواجد مع فتاتينا. وقد اعتدت مقابلة الأصدقاء، ومشاهدة الأفلام، والتسكع في عطل نهاية الأسبوع. ولكننا فقدنا ذلك نوعاً ما. وألكس لا يرى أي هدف من القيام بأي شيء ما لم يكن متعلقاً بالعمل". وحتى مباريات الغولف التي يلعبها تكون مع الموكلين أو الناس الذين يريد أن يتعرف إليهم وأن يقوم بالعمل معهم في نهاية المطاف.

قال براد: "يا الله". ومرر يده في شعره، وعدّل وضعية جلوسه ناظراً إليها نظرة قلقة. وكره أن يعتقد أنها تعيش بتلك الطريقة. فقد كانت تستحق أكثر من ذلك بكثير، وهذا ما كان جاك يردّده على الدوام، واتفق معه براد

فيه. ثم قال: "إنه يبدو مثل بام. فكل ما تهتم له هو مبالغ المال التي نجنيها. وبصراحة"، وابتسم لفيث بارتباك: "إنني لا أهتم البتة لذلك. أعني أنني بالتأكيد لا أريد أن نتضور جوعاً حتى الموت. ولكن ذلك لن يحدث. وهي تجني ثروة في شركة والدها. وتحظى بموكلين كبار جداً جداً. وسيترك لها كل المؤسسة عندما يتقاعد أو يموت. ونحن نملك مالاً مدخراً أكثر من كافٍ. ولدينا منزل رائع وولدان مدهشان. فما الذي نريده أكثر من ذلك؟ وكم يجب أن نجني أكثر من هذا؟ إن أروع ما في الأمر هو أنني أستطيع مادياً أن أتحمل نفقة كل شيء أريده. وليس عليّ أن أبتزّ الموكلين وأن أؤدي أعمال الضرائب المملة من أجلهم. أنا أحب العمل الذي أزاوله. فهو يعني لي الكثير. وأعتقد أن بام محرجة لأنني لا أجني مبلغ المال الذي تعتقد أنه ينبغي عليّ أن أكسبه. في النهاية، من الذي يهتم سوى الحكومة الأميركية في يوم جمع الضرائب؟ إننا نملك ما هو أكثر من كافٍ لنتركه للولدين ولنعيش حياة رغيدة. وأعتقد أن الوقت قد حان لأن أعطي شيئاً مما مُنحته. إذ إنه ينبغي على أحدهم أن يفعل ذلك".

قالت فيث بتأمل: "هذا منطقي بالنسبة إليّ". وقد بدا لها أنه قد اتخذ القرار الصائب لنفسه على الأقل، ولكن ذلك بدا وكأنه قد شكل صدعاً كبيراً في علاقتهما.

"كل شيء بالنسبة إلى بام يتعلق بالمركز والمكانة الاجتماعية، مثل معارف المرء، ورأي الناس فيه، والنوادي التي يرتادها، والحفلات التي يُدعى إليها. لا أعرف، ولكنني ربما بدأت أتقدم في السن أو أصبح غريب الأطوار، ولكنني أفضّل أن أجلس في زنزانة سجن لأتحدث إلى طفل ما على أن أشارك في حفلة عشاء رسمية، وأجلس بجانب امرأة عجوز لا تعمل وليس لديها موضوع واحد لتتحدّث عنه". وبدا منفعلاً وهو يتحدث عن الأمر. فابتسمت له فيث.

"أعتقد أن تلك التي تتحدث عنها هي أنا. وأعتقد أن هذه هي أفضل حجة سمعتها كي أتمكن من العودة إلى الكلية".

قال لها بصراحة: "ربما تكون كذلك. ولا أعرف. وما أعرفه فقط هو أنه يتوجب عليّ أن أفعل شيئاً ما لأحسّن حياتي عوضاً عن التخطيط العقاري أو الإصغاء إلى الناس وهم يتذمرون بشأن ضرائبهم ومحاولة مساعدتهم كي يحافظوا على ثروتهم لأطفالهم الذين يجب عليهم أن يخرجوا ويكسبوا رزقهم ولن يفعلوا ذلك قط على الأرجح. ربما كنت لأقتل أحدهم إن بقيت في الشركة". واعتمل في نفسه كره للسنوات التي عمل فيها في شركة والدها ولطالما تشوّق للخروج منها.

اعترفت فيث قائلة: "يصيبني ضجر شديد من عدم القيام بشيء طوال اليوم. وأشعر وكأنني أبدد حياتي عبثاً. فالفتاتان تحظيان بحياتهما الخاصة. وألكس لديه عمله. ولا أعرف ماذا أفعل بنفسي الآن وأنا لا أعتني بهم. فكل ما يجب عليّ فعله هو أن أظهر في الحفلات وأطهو طعام العشاء ليلاً. وأنا أستطيع فقط أن أذهب إلى عدد محدود من المتاحف وأتناول الغداء مع عدد محدود من الأصدقاء".

قال لها وهو يبدو حازماً: "يجب عليك بالتأكيد أن تعودي إلى الكلية ما لم تودي أن تعودي إلى العمل".

"وماذا أعمل؟ إنني لم أعمل منذ ولادة إيلي. وقد كنت في الواقع مجرد مراسلة تافهة. ويمكن للمرء أن ينجز ذلك وهو في الثانية والعشرين من عمره ولكن ليس في سني. فهذا ليس منطقياً. المشكلة هي أنني لست واثقة بعد الآن مما هو منطقي. ولكن ألكس سيصاب بسكتة دماغية إن عدت إلى الكلية".

بادرها براد، بينما أخذت فيث تفكر في الأمر، قائلاً: "ربما يشكل هذا تهديداً له. فهو ربما يحب أن يعرف أنه ليس لديك شيء لتقومي به وأنك معتمدة عليه. وأعتقد أن هذا جزء من المشكلة بالنسبة إلى بام. وأعتقد أنها قد أحبت أن تبقى على يقين أنني أعمل لديهم. وهذا يشعرني بالاختناق حتى الموت. وأفضّل أن أخفق وأفشل وحدي".

قالت فيث مطمئنة: "إنني واثقة أن هذا لن يحدث. إذ يبدو أنك تبلي بلاء حسناً أو على الأقل أنك تقوم بالعمل الصواب. ولا يبدو أن

المال هو فعلاً مشكلة بالنسبة إلى أي منكما". وكان ذلك موقعاً لطيفاً ليكون فيه.

"إن المال مشكلة عظمى بالنسبة إليها. فهذه هي الطريقة التي تقيّم بها نفسها، أي بنجاحها وبالمال الذي تجنيه. ولا أعتقد في نهاية المطاف أن هذا هو أهم ما في الأمر. فعندما أموت، أريد أن أعرف أنني قد أحدثت تغييراً في حياة شخص ما، وأنني غيّرت حياة شخص أو شخصين، وأنني أنقذت قاصراً ومنعته من تدمير حياته. ولا أستطيع أن أقول ذلك لنفسي بتوفير مال الضرائب لأناس يملكون مالاً فائضاً عن حاجتهم على أي حال".

ابتسمت له فيث قائلة: "أعتقد أن بام وألكس قد يكونان توأمين". ولطالما أحبت قيمه ووجهات نظره حتى وهم أطفال. وشعرت بالأسف عندما ذكرتها أليسون أنه يتعين عليهم أن يخلوا الغرفة عند الساعة الخامسة وأنها ستغادر إلى المطار عند السادسة.

قالت لفيث: "أعتقد أن الأمور قد سارت على ما يرام". وبدوا جميعاً متعبين، ولكن الكثير من أصدقاء تشارلز أتوا. وكان عصر يوم مفعماً بالعاطفة والاحترام.

قالت فيث: "لقد أنجزت عملاً لطيفاً". وتساءلت إن كانتا ستقابلان بعضهما مرة أخرى. بالرغم من أنهما لم تكونا صديقتين قط، فقد أحزنها التفكير في تلك الفكرة. ثم قالت: "لقد كان تشارلز ليسرّ به".

قالت أليسون: "أعتقد أن هذا صحيح". وارتدت المرأتان معطفيهما ووقّع برتراند الشيك. وأصر أنهما يريدان أن يسدّدا كلفة حجز الغرفة. وقد سددت فيث ثمن الأزهار في دار العبادة، حيث كانت كلفة الأزهار وكلفة حجز الغرفة متقاربتين نوعاً ما.

مشى براد نحو المصعد معهم. وكانت أليسون وبرتراند ذاهبَين إلى الطابق العلوي ليأخذا أغراضهما. وتوجب على فيث أن تنزل إلى الردهة لتستقل سيارة أجرة.

سألت فيث براد وهما ينتظران المصعد مع أليسون وبرتراند: "متى ستغادر؟".

قال لها: "غداً صباحاً". ثم وصل المصعد، وعانقت فيث وأليسون بعضهما بينما أمسك برتراند الباب من أجلهما.

قالت أليسون: "اعتني بنفسك، يا فيث". وقد قدرت كل شيء فعلته فيث خلال اليومين الماضيين. وتولد لدى كل منهما إحساس أن طريقيهما قد لا يلتقيان ثانية.

"سأفعل ذلك، واعتني أنت بنفسك أيضاً. اتصلي بي في وقت ما". وكانت كلمات يتبادلها شخصان ليس لديهما شيء آخر يتحدثان عنه، ولكنهما يتشاركان بذكرى من الماضي.

دخلا المصعد، ولوحت لهما فيث والباب ينغلق. والتفتت إلى براد بعد أن غادرا والدموع تملأ عينيها، وقالت: "لقد سئمت من فقدان الناس... ومن الوداع... ومن الناس الذين يرحلون عن حياتي ولا يعودون إليها أبداً". فأومأ برأسه، وأمسك بيدها عندما وصل المصعد الذي سيقلهما. فدخلاه بصمت.

سألها وهما يعبران الردهة إلى الباب المؤدي إلى شارع بارك أفنيو: "هل أنت على عجلة من أمرك للوصول إلى البيت؟".

"ليس كثيراً. فنحن خارجان لتناول العشاء الليلة، ولكن ليس قبل الساعة الثامنة. ولدي متسع من الوقت".

سألها بالرغم من أنهما قد أمضيا عصر اليوم بأكمله يأكلان ويشربان في الغرفة في الطابق العلوي: "هل تريدين أن تحتسي شراباً في مكان ما؟".

"ما رأيك أن نتمشى إلى البيت؟" وكان المنزل على بعد أربعة وعشرين شارعاً سكنياً، أي نزهة طويلة، ولكنها شعرت بحاجة إلى بعض الهواء المنعش. وراقت الفكرة لبراد. فعبرا من الباب الدوار وتوجها شمالاً إلى آخر شارع بارك أفنيو متأبطين ذراعي بعضهما.

التزما الصمت لبعض الوقت، ثم تحدثا في آن معاً.

"ماذا ستفعلين الآن، يا فرد؟".

"ماذا ستنجز من أعمال عندما تعود؟".

فضحكا. وأجاب هو عن سؤالها أولاً، فقال: "إنني أحاول أن أبرّئ شاباً أطلق الرصاص عن طريق الخطأ على صديقه الحميم. وربما لا يكون الحادث خطأ كما يبدو. فهما مغرمان بالفتاة نفسها. وهو في السادسة عشرة من عمره ومتّهم بالشروع بالقتل من الدرجة الأولى. وهذه قضية صعبة، ولكنه شاب لطيف". وكان هذا العمل روتينياً بالنسبة إليها.

قالت له وهما يمشيان الهوينى جنباً إلى جنب بالرغم من ساقيه الطويلتين: "إنني لا أستطيع أن أنافس هذا". وتذكر الآن كيف يكيّف خطواته مع خطواتها. وقد خرجا في نزهات كثيرة على الأقدام في الأيام الخوالي. ثم قالت فيث: "في الواقع، إنني لن أفعل أي شيء".

قال لها ببساطة: "بل ستفعلين". فبدت متفاجئة. فقال لها: "إنك ستتصلين بجامعة كولومبيا أو جامعة نيويورك أو أي كلية تعجبك وتحصلين على النشرات واستمارات التسجيل من أجل كليات الحقوق. وسيتوجب عليك أن تعرفي المعلومات المتعلقة بالامتحانات التي ستخضعين لها. وهكذا، فلديك الكثير لتفعليه".

"لقد قمت بتفصيل عملي نيابة عني، أليس كذلك؟". بدت مندهشة، ولكن توجب عليها أن تعترف أن الفكرة قد راقتها، وكذلك فعل هو.

"سأتصل بك في عطلة نهاية الأسبوع القادمة كي أقف على مدى التقدم الذي أحرزته. وإن أخفقت، فسأغضب منك. يجب عليك أن تتحركي، يا فرد. فقد حان الوقت". كان قد دخل حياتها مرة أخرى كأخ أكبر بديل مثل الأيام الخوالي تماماً. لم تعارض ما قاله لها، ولكنها ما زالت لا تعرف كيف تقنع ألكس بذلك أو إن كانت تستطيع ذلك. لم تعرف أيضاً إن هي تتمتع بالشجاعة الكافية لتتحدى ألكس كلياً. لم تبدُ تلك فكرة جيدة. فقد كانت دائماً تخشى أن تتحداه. ولطالما جعلتها ذكرى باقية في ذهنها عن نقد

والدها لها مترددة في التصدي للرجال. في مستوى عميق وخفي، اعتقدت أنهـا خائفـة. كـان الرجلان الوحيدان اللذان لم يخيفاها هما جاك، وبراد بالطبع.

"بالمناسـبة، هل لديك بريد إلكتروني؟". بدا عملياً وهو يسألها وهما يدخلان شارع سيكستيز. وقد بدأ الظلام يهبط. بدا شارع بارك آفنيو مضاء بأضواء ساطعة بينما أخذ الناس يغادرون أعمالهم إلى بيوتهم.

"نعـم. لقـد اشتريت جهاز كمبيوتر محمولاً لكي أتمكن من مراسلة زوي عبر البريد الإلكتروني. وقد أصبحت بارعة نوعاً ما".

"ما هو عنوانك؟".

"FaithMom@aol.com".

"ينبغي أن تغيريه إلى Fred (=فرِد)". وابتسم لها، ثم قال: "سأراسلك عندما أعود إلى سان فرانسيسكو".

فقالـت: "أود ذلك براد". وقد كان أمراً لطيفاً أن تبقى على اتصال به هـذه المرة. وتمنت أن يبذلا جهداً في ذلك، إن تسنّى له الوقت الكافي. فقد بـدت حياته حافلة أكثر من حياتها بكثير. ثم تابعت قائلة: "شكراً لك على حضورك اليوم. فقد جعلت الوضع يبدو أكثر سهولة بالنسبة إليّ".

"لقـد حظـيت ببعض الأوقات الطيبة مع تشارلي قبل وقت طويل. وأعـتقد أنني مدين له بذلك". كانت لا تزال تعاني من متاعب بالتفكير في تـشارلز فـي ذلك السياق، ولكن من الواضح أنه كان أكثر اهتماماً بجاك وبـراد مـن اهـتمامه بها وبأليسون. ثم أضاف قائلاً: "وأردت أن أراك". وأصبح صوته أكثر لطفاً وهما يمشيان. ثم وصلا إلى منتصف الطريق إلى منـزلها. فقال: "كيف حالك من بعده؟". وقد أدركا ما عناه بقوله، فقد كان يتحدث عن أخيها.

قالـت له وهي تنظر إلى الرصيف وتفكّر فيه وهما يمشيان: "ليست رائعة أحياناً". فلطالما كان شخصاً غير اعتيادي. لم يولد شخص مثله أبداً ولـن يكون هناك مثيل له في حياتها. ثم تابعت قائلة: "ثم تصبح أفضل في

أوقـات أخرى. وهذا غريب، فأنا أحياناً أشعر أنني بخير من دونه لأشهر، ثـم فجـأة، يصيبني غيابه بالصدمة. ربما سيستمر الوضع على هذا النحو دائماً". لقد أمضت وقتاً طويلاً وحدها وهي تصارع حزنها منذ وفاته. وكان هذا شيئاً آخر عزلها عن أصدقائها. فالحزن شعور يسبّب العزلة. واعتادت غالـباً أن ترتاد دار العبادة وحدها لتدعو من أجله. وشكّل هذا عزاء لها. حاولـت أن تتحدث إلى ألكس عن اشتياقها إلى أخيها، ولكن هذا سبّب له عدم الراحة. بدا الأمر مربكاً أن تناقشه معه...

قـال لها بلطف: "إنني أفتقده أيضاً، يا فرِد. إنه لمن الغرابة أن أفكر أنـه قد رحل. فأنا لا أزال لا أصدق هذا. وأذهب أحياناً للاتصال به وأمد يـدي إلى الهاتف عندما يحدث معي شيء غريب، أو أشعر بالاستياء، أو الانـزعاج، أو أحتاج إلى نصيحة... ثم أتذكر. ولا يبدو لي الأمر ممكناً. كيف يختفي شخص مثل جاك هكذا ببساطة؟ فهو من نوع الأشخاص الذين ينبغـي أن يعيشوا إلى الأبد. هل تسمعين خبراً من ديبي؟". كانت لسبب ما خاص بها قد اختفت أيضاً ولم تحافظ على أي اتصال مع عائلة جاك. ولم تعـرف فـيث شـيئاً حتى عن مكانها الآن باستثناء أنها تقطن بجوار بالم بيـتش، أو أن هذا على الأقل هو المكان الذي ذهبت إليه عندما رحلت، ثم اختفت.

أجابـت فيث: "إنني لا أسمع شيئاً عنها. ولا أعرف إن كنت سأفعل هـذا. أعـتقد أنهـا تعرف أنني لم أحبّها قط بالرغم من أنني حاولت ذلك إكـراماً لجـاك. إذ إنها اعتادت أن تضيع وقته". وهددت أن تتركه مراراً وتكراراً، وانفصلت عنه مرات عديدة ولم تقدّر قط أي شخص مدهش كان. أزعج هذا فيث باستمرار بالرغم من أن جاك قد دافع عن ديبي بإخلاص طوال سنوات زواجهما. ثم تابعت فيث قائلة: "لطالما اعتقدت أن علاقتهما علاقـة مريـضة. ولا أعـرف لِمَ احتملها. فقد تفوهت بالكاد بكلمتين في الجـنازة. غادرت المدينة بعد أسبوعين من دون أن تودّع أحداً، وأخبرني محامـي جـاك أنهـا قد تزوجت مرة أخرى. واستخدمت مال التأمين كي

تشتري منزلاً، ثم تزوجت رجلاً ما. وأعتقد أن جاك قد تعرّض لمعاملة سيئة على يديها".

"أنا أيضاً اعتقدت ذلك دائماً. وأعتقد أنه أمر مؤسف جداً أنهما لم ينجبا أطفالاً قط".

قالت فيث بتعاسة: "إنها على الأرجح لم تكن لتسمح لي برؤيتهم على أي حال". ثم نظرت إلى براد مرة أخرى. وقد كان أمراً لطيفاً جداً أن تتحدث إليه عن جاك وعن الحياة السابقة والأيام الخوالي. فسألته وهي تبدو شابة من جديد: "هل ستراسلني عبر البريد الإلكتروني فعلاً؟". وأراد أن يطلب منها أن تدع شعرها مسترسلاً كي تبدو مثل فرد التي لطالما أحبها. فلطالما كانت الأخت الصغرى التي لم يحظَ بها قط. ومن بعض النواحي، فهي لا تزال تبدو طفلة بالنسبة إليه. وشعر أنه يجب عليه أن يحميها.

"قلت لك إنني سأفعل هذا". وأحاطها بذراعه مرة أخرى، وقرّبها منه وهما يمشيان. وكادت أن تصل إلى البيت.

"ألن ترحل عني ثانية؟ إنني أفتقدك عندما لا أسمع خبراً منك. فلم يعد هناك أحد من طفولتي بعد الآن سواك أنت".

"ستسمعين خبراً مني، يا فرد. أعدك بذلك. ولكنني أريدك أن تنتسبي إلى الكلية مرة أخرى. فالعالم يحتاج إلى المزيد من المحامين من أمثالك". فضحكا لسماع ذلك. وبعد بضع دقائق، أصبحا واقفين خارج منزلها. وبدا المنزل جميلاً ومرتباً.

"شكراً لك على قدومك اليوم براد. وهذا أمر غريب لأقوله، ولكن هذا اليوم انتهى فعلاً نهاية لطيفة. ومن الغرابة أن يقال شيء كهذا عن جنازة". ولكن تمضية الوقت معه قد عنت لها الكثير. وأصبحت أكثر سعادة من أي وقت مضى. وشعرت بالراحة والسلام والأمان والمحبة تقريباً بنفس الطريقة التي شعرت بها وهي طفلة صغيرة عندما اعتادت أن تتسكع معه ومع جاك. فقد كانا الشيء الوحيد الذي أحبته في طفولتها.

"أعتقد أن تشارلي كان ليستمتع بوقته لو تواجد هنا. ويسرني أنني قد ذهبت. فقد مضى وقت طويل منذ تحدثت إليك. اعتني بنفسك. فأنا قلق عليك". ونظر إليها بقلق، فنظرت إليه بابتسامة شجاعة.

"سأكون على ما يرام. أتمنى لك رحلة آمنة إلى سان فرانسيسكو. لا ترهق نفسك في العمل".

فاعترف لها قائلاً: "هذا هو الجزء المفضل لديّ". فقد كان ذلك الشيء الوحيد الذي يعني شيئاً في حياته إلى جانب ابنيه. فلم تعد لديه الكثير من الاهتمامات المشتركة مع بام. ولم يعد واثقاً أنها كانت موجودة على الإطلاق.

عانقها براد عندئذ بحنان واستدعى سيارة أجرة. فراقبته وهو يركب السيارة ويبتعد. فأنزل النافذة قبل أن ينعطف حول الزاوية بالضبط ولوّح لها مرة أخيرة. ولم تكن فيث واثقة إن كانت ستسمع خبراً منه مرة أخرى. فقد رحل عنها مرات عديدة، بعد تخرجه من كلية الحقوق وبعد جنازة جاك. ولكنهما على الأقل تشاركا هذا اليوم الجميل الوحيد. وبطريقة غريبة، بدا الأمر مثل نزهة ليس معه فقط، ولكن مع جاك أيضاً. وكانت لا تزال تبتسم عندما دخلت المنزل.

استطاعت أن تسمع صوت ألكس وهو يتحرك في الطابق العلوي. فعلّقت معطفها، وصعدت الدرج ببطء وهي تفكر في براد.

سألها ألكس وهي تدخل غرفة نومهما: "كيف كانت الأمور؟"، فنظرت إليه بوجه باسم.

"لطيفة. فقد سار كل شيء على ما يرام. وحجزت أليسون غرفة في فندق وولدروف. وحضر الكثير من الناس في ما بعد والكثير من أصدقائه وأصدقاء والدتي. كما حضر براد باترسون، ولم أره منذ... وقت طويل".

قال ألكس وهو يبدو مشوش التفكير: "من هو؟". كان يتابع الأخبار على التلفاز. ووقف مرتدياً سرواله القصير وجوربيه وهو يزرّر قميصاً أبيض منشى حديثاً. وبينما هو يتحدث إليها، عقد ربطة عنقه.

"إنه أحد أصدقاء جاك. لا بل هو صديقه المفضل، في الواقع. ونشأنا معـاً. لقد التقيته في جنازة جاك. وهو يعيش في سان فرانسيسكو. ولكنك على الأرجح لا تتذكره". تجمهر عدد كبير من الناس في جنازة جاك. ولم يعـر ألكس أبداً أي اهتمام للتفاصيل من هذا القبيل أو للناس الذين لا يأبه لأمرهم. وقد يندرج براد ضمن هذه الفئة بالنسبة إليه.

قـال لها وهو يبدو قلقاً: "كلا، لا أتذكره. هل ستصبحين جاهزة في الـوقت المحـدد؟"، وقد كانت أمسية هامة بالنسبة إليه، وهي حفلة عشاء يقـيمها أحد الشركاء الكبار في الشركة على شرف زبون وقّع عقده لتوه. ولم يرد أن يتأخر، ولكن فيث نادراً ما تأخرت.

"سأصـبح جاهـزة بعد نصف ساعة. وسآخذ حماماً سريعاً وأصفف شعري. كيف هي شيكاغو؟".

"متعـبة، ولكـنها ضرورية. وقد سارت الأمور على ما يرام". ولم يسألها عن أي شيء بخصوص الجنازة، ولكن ذلك لم يفاجئها. فحالما أيقن أنه ليس ذاهباً، صرف تفكيره عن الموضوع.

دخلـت الحمـام عندئذ، وخرجت كما وعدته بعد نصف ساعة وهي مـرتدية فستان سهرة أسود حريرياً وكانت تضع عقداً من اللآلئ، كما كان وجهها مبرّجاً بمساحيق التجميل وشعرها مصففاً ومسترسلاً على ظهرها. بـدت أشبه بإحدى ابنتيه. وقد كان لكلتيهما شعر فيث الأشقر. فألقى ألكس علـيها نظـرة تقيـيم وأومأ برأسه ولم يقل شيئاً. كان ليبدو أمراً لطيفاً أن تسمعه يعبّر عن إعجابه بجمالها، ولكنه لم يفعل ذلك منذ وقت طويل.

غادرا المنزل بعد خمس دقائق، واستدعيا سيارة أجرة. وكانت حفلة العـشاء ستقام على بُعد عشرة مجمّعات سكنية في آخر شارع بارك آفنيو. ولـم يقـل ألكـس شيئاً لفيث وهما يتجهان بالسيارة إلى مركز المدينة. لم تلاحظ ذلك. إذ انصرف ذهنها إلى بُعد ملايين الأميال وهي تفكر في براد. بـدا أمـراً لطـيفاً أن تتحدث إليه طوال فترة العصر. فلم تكن قد أفضت بمكـنونات صدرها لأحد هكذا منذ وقت طويل، ليس منذ آخر مرة تحدثت

إلـيه فـيها عندما توفي جاك. وجعلها ذلك تشعر فجأة وكأن أحدهم أصبح مهتماً بحياتها وقلقها ومخاوفها والأمور التي تهمها. وجدت فيه العائلة التي تـشوقت إلـيها، وشعرت أنها فقدتها في السنوات المنصرمة. ذكرها ذلك بشيء نسيته في تلك الأيام وهو أن هناك من هو مهتم بها وأنها محبوبة.

* * *

الفصل الثالث

عـاد ألكس إلى شيكاغو في الأسبوع التالي. وبذل مجهوداً مفاجئاً فعـلاً ليمضي وقتاً مع فيث طوال عطلة نهاية الأسبوع. فذهبا في نزهة على الأقدام في متنزه سنترال بارك يوم السبت ثم تناولا عشاءً مبكراً في مطعـم قـريب ليلة الأحد. وأمضى ألكس يوم الأحد في المكتب، ولكنه فاجأهـا عـندما عرض أن يصطحبها خارج المنزل بعد عودتها من دار العـبادة. وأصـبح مـن الـنادر أن يمضي وقتاً معها في عطلات نهاية الأسبوع. فتأثرت أنه قد فعل ذلك. وكان ينوي العودة إلى شيكاغو مجدداً في الأسبوع التالي.

اتـصلت فيث بزوي ليلة الاثنين، وسألتها إن كان لديها بعض وقت الفـراغ. وقـد افتقدتها فيث كثيراً، واقترحت أن تذهب لزيارتها. فابتهجت زوي لذلك. فلطالما جمعت بينها وبين أمها علاقة وثيقة. واقترحت أن تأتي فـيث إلـى مدينة بروفيدنس ليلة الثلاثاء. وأرادت أن تمكث في الفندق مع فـيث بالـرغم من أنه كانت لها رفيقتا غرفة تحبهما. وافتر ثغر فيث عن ابتسامة حبور عندما أغلقت الخط، ثم اتصلت لتحجز غرفة.

لـيلة الـثلاثاء، ترجلت فيث من الطائرة، واستقلت سيارة أجرة إلى بروفيدنس، وسجلت اسمها لدخول الفندق. ووصلت زوي بعد نصف ساعة وبحوزتها حقيبة سفر صغيرة. بدت الاثنتان مثل أختين أكثر من أم وابنتها وهمـا تثرثـران وتـضحكان وتعانقان بعضهما وتستلقيان باسترخاء على السرير في الغرفة المريحة. خرجتا لتناول العشاء تلك الليلة. وأخبرتها فيث عـن جـنازة تشارلز ومقابلة براد. كانت قد قصّت على ابنتيها قصصاً لا

حـصر لها عن نشوئها معه ومع جاك. استطاعت زوي بسهولة أن تلاحظ كم أسعدتها مقابلة صديقها القديم.

أخبرتها فيث في أثناء تناول التحلية قائلة: "لقد تحدثت إليه بخصوص العـودة إلى الكلية". وكانت قد تحدثت وزوي عن هذا قبل أن تغادر زوي إلى كلية براون. واعتقدت أنها فكرة مثيرة. ولكنها لم تسمع شيئاً عنها منذ ذلـك الوقت. وسُرّت لأن تسمع أن أمها لم تتخلّ عن إمكانية حدوث ذلك. وأيقنت أنها بحاجة إلى شيء تفعله في حياتها.

شـجعت زوي أمها قائلة: "إنها فكرة رائعة، يا أمي". وكانت مدركة لـشدة شـعور أمها بالوحشة منذ غادرت وإيلي البيت. ثم قالت: "هل قمت بأي شيء بهذا الخصوص حتى الآن؟".

"فكّـرت فـي أن أحـصل علـى بعض النشرات وأن أسجل اسمي للخـضوع للامتحانات التي يجب عليّ أن أجريها. إذ إنه يتوجب عليّ أن أسـتعد لامـتحان القبول في الكلية. ولست واثقة حتى إن كنت أستطيع أن أنجح فيه، ناهيك عن أن أصل إلى كلية الحقوق". وبدت متوترة حيال هذا، ولكـنها مبـتهجة علـى حدٍّ سواء، وكذلك زوي. وبدت فيث أكثر سعادة وحـيوية مما لاحظته زوي عليها خلال أشهر. ثم قالت فيث: "يمكنني أن ألـتحق بـبعض مناهج القانون العام في كلية الحقوق في جامعة نيويورك للتعلـيم المستمر، وبمنهاج تحضيري سأحتاج إليه من أجل امتحان القبول. ولـم أقرر بعد، ولكن هذا سيكون ممتعاً وأكثر إثارة بكثير من دروس لعبة البـريدج التـي يعـتقد والدك أنه يجب عليّ أن آخذها". وابتسمت بحزن لزوي.

"أحـسنت، يا أمي". ثم عبست الشقراء الجميلة التي تبدو صورة عن أمهـا. فقـد كانـت على دراية بكل العقبات التي سيتوجب على فيث أن تواجهها، وكذلك كانت فيث. فقالت زوي: "هل أخبرت أبي؟".

"لـيس بعـد. وقـد تحدثنا عن هذا قبل بعض الوقت. ولكنه لم يسرّ كثيراً". وكان ذلك تقييماً متواضعاً للحقائق، كما علمت زوي.

"يـا لهـا مـن مفاجـأة! كلا، إن الرجل الجليدي لا تعجبه فكرة أن تـصبحي مستقلة، يا أمي. ويريدك وحسب أن تمكثي في البيت بانتظار أن يأتي لتعتني به".

قالـت فيث بإخلاص: "هذا ليس قولاً لطيفاً لتتفوهي به عن والدك". ولكنهما كانتا تعلمان أنه صحيح. ثم قالت: "وقد اقترح عليّ بالفعل أن أؤدي بعض الأعمال الخيرية. فهو يحب أن أشغل نفسي".

"طالمـا أنــه ليس شيئاً يهدده هو". وبدت ماكرة بشكل مفاجئ. ثم قالـت: "لقـد أنجزت ما يكفي من الأعمال الخيرية. واعتنيت بنا جميعاً، والآن أنت بحاجة إلى أن تحققي شيئاً من أجل نفسك". ولطالما هبّت زوي للـدفاع عـن قضية أمها. فخاضت مع والدها معركة مستمرة لسنوات. وقالـت بصراحة إن كل ما يهم والدها هو عمله. ومن وجهة نظرها، لم يكـن والـدها مشاركاً في عائلتهم معظم حياتها. وكانت مدركة تماماً أن أمهـا لطالمـا تـواجدت إلى جانبهم جميعاً. وخاضت مع أختها الكبرى جـدالات عنـيفة حيال هذا الموضوع. فلطالما دافعت إلويز بحماسة عن والـدهما بالرغم من حبها لأمها أيضاً. ولكن زوي تحدثت بصراحة عن بُعـد والـدها العاطفي. واعتقدت أن والدتها قد تعرضت للإجحاف على يديـه. فقالـت: "إنني أريدك فعلاً أن تقومي بذلك، يا أمي. وسألحّ عليك حتى تفعليه".

ابتسمت فيث قائلة: "آه منك ومن براد! ماذا إن لم أبلِ بلاءً حسناً في الامتحان؟ إنني قد لا أتمكن حتى من الالتحاق بالكلية. وأنت تثقين بي أكثر ممـا أثق بنفسي. وسترين ذلك". كان لا يزال عليها أن تتحدث إلى ألكس عن الموضوع. فقد كان هو المفتاح.

"إن هذه مجرد أعذار أمي. وستلتحقين بالكلية. وأعتقد أنك ستصبحين محامـية رائعـة. فلا تدعي والدي يقنعك بالعدول عن الفكرة. وإن اتخذت قرارك، فليس هناك شيء يستطيع أن يفعله كي يثنيك عن عزمك. سيتوجب عليه فقط أن يتكيّف مع الوضع الجديد".

قالت لها فيث مازحة: "ربما ينبغي عليّ أن أدعك تناقشين الموضوع معـه". ولكـنها شعرت بالامتنان للثقة والدعم اللذين منحتها إياهما زوي. لطالما كانت زوي أكثر المشجعين في الأسرة.

سـألتها فيث عندئذ عن كليتها ودروسها وأصدقائها. وكانتا آخر من غـادر المطعم. ثم عادتا إلى الفندق وتحدثتا لساعات. في تلك الليلة، نامتا بالقـرب مـن بعـضهما على السرير الضخم. وابتسمت فيث لزوي وهي تـستغرق فـي النوم وتفكر في مدى حسن طالعها. فقد كانت ابنتاها أعظم هدية منحها إياها ألكس. وأملت أن تذهب إلى لندن لترى إلويز عما قريب. ووعدت إلويز أنها ستأتي إلى البيت لتمضية مناسبة الشكر. فكرت فيث في أن تـذهب إليها لعدة أيام بعد ذلك. فقد توفر لديها متسع كبير من الوقت، ولكن ذلك كان سيتغير إن عادت إلى الكلية فعلاً.

غادرت زوي عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي. ولم يتوفر لـديهما وقت كاف سوى لتناول البيض المخفوق والكعك الإنكليزي وشرب الـشاي قـبل أن تعانـق زوي أمها وتقبّلها وتنطلق مسرعة. عند الساعة العاشرة، توجهت فيث في طريقها إلى المطار وهي تائهة في أفكارها. وفي طـريق العـودة إلى البيت، طلبت من سائق سيارة الأجرة أن يأخذها إلى جامعة نيويورك. فذهبت إلى كلية الحقوق، وأخذت كماً هائلاً من النشرات وبعـض المعلـومات عن الاختبارات التي يجب أن تجريها ثم توقفت عند كلـية التعلـيم المـستمر، وحصلت على نشراتهم أيضاً. واتصلت بجامعة كولومبيا عندما وصلت إلى البيت.

نـشرت المعلومات التي حصلت عليها على طاولة مكتبها، وجلست تحـدّقّ إليها ونظرة رعب تعلو وجهها. كان الحصول على النشرات شيئاً والالـتحاق بالكلـية شيئاً مختلفاً، فهي لا تزال لا تملك أي فكرة كيف تقنع ألكـس بالمـوافقة. اعـتقدت زوي أنه ينبغي عليها أن تفرض عليه الأمر الواقـع، ولكـن فـيث اعـتقدت أن ذلك تصرف فظ ينمّ عن عدم مراعاة لـشعوره. فقد كان له رأيه في المسألة أيضاً. فذلك التزام كبير كي تقوم به

ولا سيما إن التحقت بكلية الحقوق في الخريف التالي. فقد كانت ستنجز الفروض المنزلية وتخضع للامتحانات وتدرس لساعات ولن تظل متفرغة كعادتها. علمت أن ذلك وضع صعب ليتكيف معه. كانت لا تزال تفكر عندما ألقت نظرة خاطفة على جهاز الكمبيوتر ولاحظت أن لديها رسالة إلكترونية. فافترضت أنها من زوي، فنقرت على صندوق البريد، ولكنها فوجئت وسُرّت في آن معاً لأنها وجدت أن الرسالة من براد.

"مرحباً، فرد. كيف حالك؟ ما الجديد؟ هل أحضرت النشرات؟ إن لم تفعلي ذلك، فسأوقعك في متاعب جمة. لا أريد أن تراسليني حتى تكوني قد أنجزت البحث. ليس لديك وقت لتضيّعيه. فربما يمكنك أن تبدأي الدراسة في شهر كانون الثاني. أسرعي!".

"خلافاً لذلك، كيف تجري أمورك؟ لقد كان أمراً لطيفاً أن أقابلك الأسبوع الماضي. فأنت تبدين أفضل حالاً من ذي قبل. أما زال شعرك طويلاً كعادته؟ يسرني أن أصبغه باللون الأخضر في أي وقت تشعرين فيه بحاجة إلى ذلك، في يوم ذكرى سانت بادي أو غيره. أتحبين أن أصبغه باللون الزهري من أجل الرابع عشر من شباط؟ أو الأحمر والأخضر من أجل الميلاد؟ لقد اعتقدت أن اللون الأخضر جيد نوعاً ما، إن كانت الذكرى ملائمة".

"لقد غرقت في العمل منذ عدت. فأنا أعمل على القضية التي أخبرتك عنها. والشاب المسكين خائف حتى الموت. ويجب عليّ أن أنجز هذه القضية. فهي ليست عملاً سهلاً. أي نوع من القضايا القانونية تهمك، بالمناسبة؟ أعتقد أنك ستصبحين محامية قاصرين رائعة، ما لم تودي أن تعملي بالقضايا التي تدرّ أتعاباً ضخمة. ففي هذه الحالة، ينبغي أن تتحدثي إلى بام. إن قانون الشركات التجارية مثير للاهتمام، ولكنه ليس مجال اهتمامي، ربما يكون مجال اهتمامك أنت".

"يجب عليّ أن أعود إلى العمل... انطلقي إلى الكلية. واعتني بنفسك. وابقي على اتصال بي. مع حبي، براد".

جلست فيث مبتسمة وهي تحدق إلى الشاشة، فضغطت على زر الرد مباشرة. وشعرت بالفخر الشديد يغمرها لأنها قد سبق وحصلت على نشرات جامعة نيويورك ووضعتها على مكتبها وأصبح باستطاعتها أن تخبره عن ذلك. شعرت وكأنها طفلة وهي تطبع الرسالة لترسلها إليه.

"مرحباً، براد، لقد عدت لتوي من بروفيدنس. وأمضيت وقتاً رائعاً مع زوي الليلة الماضية في العشاء والثرثرة والكثير من الضحك والعناق. طرحت عليّ نفس فكرتك. فمررت بجامعة نيويورك في طريقي إلى البيت – من الأفضل لك أن تفتخر بي! – وأخذت آلاف النشرات وكل المعلومات التي أحتاج إليها، كذلك اتصلت بجامعة كولومبيا، وطلبت منهم نشراتهم. لست واثقة إن كان ينبغي عليّ أن أتقدم إلى المزيد من الكليات. ففي مثل حالتي، لقد صممت حتى النهاية. وسأقرأ النشرات بعناية في عطلة نهاية هذا الأسبوع. لقد ذهب ألكس إلى شيكاغو. ولا يزال علي أن أخبره. لست واثقة مما سيكون عليه رد فعله أو رد فعلي، في الواقع. ستثور ثائرته. وقد يأمرني بالعدول عن الفكرة، ثم ماذا بعد ذلك؟ إن مهنة المحاماة التي سأعمل فيها لا تستحقّ أن أشعل فتيل الحرب العالمية الثالثة من أجلها. وقد تكون هذه نهاية الأمر. وسنرى".

"إنني أحب فكرتك عن الدفاع عن القاصرين. وهي تبدو جيدة على الأقل بشكل عام. ولست واثقة مما تنطوي عليه. ولكنني لطالما عشقت الأولاد. وهذا يقلب الأمور رأساً على عقب في هذه المرحلة. فأولاً، ألكس، ثم الامتحانات، ثم تقديم الطلبات... هل سأتمكن من الالتحاق؟؟؟ ماذا إن لم أتمكن من ذلك؟؟؟ أشعر وكأنني عدت إلى المدرسة الثانوية من جديد".

كانت قد عانت الأمرّين منها مع زوي في السنة الفائتة بينما انتظرت لتسمع عن الكلية التي ستحتل رأس خياراتها. كانت كلية براون هي المفضلة لديها من بين جميع الكليات. شعرت بالإثارة لأنها التحقت بها. أرادها ألكس أن تلتحق بكلية برينستون أو هارفارد أو يال، وشعر بالإحباط عندما رفضتها جميعها لتلتحق بكلية براون. كان هو قد التحق بكلية

برينستون، وأرادها أن تذهب إليها هي الأخرى، ولكن زوي أصرت على رأيها بالرغم من أن والدها قد دعا براون كلية غريبي الأطوار. فضحكت زوي منه لأنها كانت "خيار الجميع الأول"، بحسب قولها.

تابعت كتابة رسالتها إلى براد قائلة: "خلافاً لذلك، لا شيء جديد هنا. وليست هناك أخبار من إلويز. وأعتقد أنها على ما يرام. فهي تحب لندن. وأريد أن أسافر إلى هناك، وأزورها حين يسنح لي الوقت. فسأصبح مشغولة بشكل جاد إن بدأت بارتياد الكلية". وبمجرد التحدث إليه وإلى زوي عن الخطة، بدأت تبدو لها حقيقية. ثم تابعت قائلة: "إن أتيت إلى نيويورك مرة أخرى، اتصل بي. فسيكون هذا ممتعاً. وأرسل إليّ رسالة أخرى عندما يتسنى لك الوقت. فأنا أعلم مدى انشغالك، لذا لا تقلق بهذا الشأن. مع الكثير من الحب، فرد". ابتسمت مرة أخرى وهي توقع اسمها.

كانت تتصفح إحدى النشرات عندما صاح جهاز الكمبيوتر قائلاً لها: "لديك رسالة" مرة أخرى. فابتسمت ونقرت على الرمز مرة أخرى. لا بد من أنه كان جالساً أمام مكتبه عندما وصلت رسالتها لأنه أجابها بسرعة.

"إنك فتاة طيبة! الآن اقرأي النشرات، وسجلي اسمك لبعض الدروس في كلية التعليم المستمر في الفصل القادم. لا ضير عليك في ذلك، بل سيدخلك هذا في المزاج الصحيح، ويغيظ ألكس أيضاً. إنه لا يستطيع أن يتخذ القرارات نيابة عنك فرد. فليس لديه الحق في أن يمنعك إن كان هذا هو ما تريدين أن تفعليه حقاً، وأنا أعتقد أنه كذلك. سيعتاد على الوضع. وإن حظيت بوظيفة، فستصبحين مشغولة أيضاً. فلا يمكنك أن تجلسي هناك وحسب وتتجولي في أرجاء المنزل بانتظاره ليأتي إلى البيت كي تقومي بخدمته. إنك بحاجة إلى حياة خاصة أيضاً! هو يملك حياته الخاصة. والآن حان الوقت لتبدأي أنت حياتك! يجب عليّ أن أذهب. سجلي اسمك. أتمنى لك التوفيق. مع خالص حبي براد".

كان من الممتع سماع أخباره ومراسلته. فمحت رسالتيه ولا سيما عبارة يغيظ ألكس التي بدت مثل كلام كان ليقوله جاك لها. وأمضت بقية

فترة العصر وهي تقرأ النشرات. لكنها لم تذكر شيئاً عن هذا لألكس عندما اتصل بها من شيكاغو تلك الليلة. فأمر حساس مثل اقتراح عودتها إلى الكلية يجب أن يعالج وجهاً لوجه. عندما عاد إلى البيت ليلة الجمعة بدا مستنزف القوى.

توجب على فيث أن تسجل اسمها لدى جمعية معلومات كلية الحقوق بحلول شهر كانون الأول. وكانت أوراق طلبها للانتساب إلى كلية الحقوق ستتم في شهر شباط وسيأتي جوابها في شهر نيسان. فملأت الاستمارات، وسجلت اسمها لمنهجين في القانون العام في شهر كانون الثاني ولمنهج تحضيري في كلية نيويورك يبدأ قريباً جداً وينتهي خلال ثمانية أسابيع في الوقت المحدد لتلتحق بكلية نيويورك بعد الميلاد. لكنها لم تكن قد أرسلت الاستمارات بعد. إذ إنها أرادت فعلاً أن تتحدث إلى ألكس أولاً، لكنه لم يكن يتمتع بالمزاج الملائم ليفعل أي شيء سوى الأكل والإيواء إلى الفراش عندما عاد إلى البيت. ذهب إلى المكتب يوم السبت، وبقي فيه حتى وقت متأخر من تلك الليلة. حلّ يوم الأحد قبل أن تشعر أنها تملك في نفسها القدرة على أن تفتح الموضوع معه. كان يقرأ جريدة صنداي تايمز، ويشاهد مباراة كرة القدم عبر التلفاز. أخذ يمضي وقته بتكاسل وهو يشاهد التلفاز عندما أحضرت له طبقاً من الحساء وشطيرة. فلم يرفع نظره عن الجريدة أو يقل لها شيئاً عندما جلست قبالته وهي تتصفح مجلتها بتوتر.

فتحت الحديث عندما رفع صوت التلفاز، فقالت محاولة أن تجعل صوتها مسموعاً: "لقد قابلت زوي هذا الأسبوع. وهي تبدو بحال رائعة وتحب المكان هناك".

أجاب من دون أن ينظر إليها قائلاً: "أعلم، فقد قلت لي. كيف هي درجاتها؟".

"جيدة، على ما أعتقد. وستخضع لإمتحان نصف السنة قريباً".

"آمل أنها تعمل بجد ولا تقوم بمجرد العبث هناك". لطالما كانت طالبة متفوقة، ولم يساور فيث أي قلق بشأنها. أخذت تبحث عن مدخل

لتناقش معه متابعة تعليمها، ولكن لم يبدُ الأمر سهلاً بين التلفاز والجريدة. فقد بدا منهمكاً بكل منهما، كانت أمامه كومة من الأوراق ليقرأها. فأرادت أن تدخل الموضوع مباشرة في وقت ما، فهو لم يكن سيحول انتباهه إليها ما لم تجبره على ذلك. فانتظرت لخمس دقائق أخرى، ثم تحدثت أخيراً.

قالت فيث بحذر: "أريد أن أناقش أمراً معك". استطاعت أن تشعر براحتي يديها تتصببان عرقاً. أملت أن يتحلى بالعقلانية. فلم يكن من السهل أن تتحدث إليه في بعض الأحيان. بدأت تتساءل إن كان ينبغي عليها أن تنتظر عندما ركّز انتباهه عليها أخيراً، وارتشف بعضاً من حسائه.

"إنه حساء لذيذ".

"شكراً. لقد تحدثت إلى زوي بخصوص جامعة نيويورك". بهذا اتخذت خطوتها الأولى، وشعرت كأنها تغوص داخل كتلة من الإسمنت. استطاعت أن تلاحظ السبب في أن زوي اعتادت أن تسميه رجل الجليد. فقد بدا مثل رجل جليدي في بعض الأحيان، حتى بالنسبة إليها. قالت فيث لنفسها إن الأمر يتعدى كونه لا يهتم بهنّ، بل إن أموراً أخرى أكثر أهمية كانت تشغل باله. هذا ما اعتادت أن تقوله للفتاتين ولنفسها. لم يكن ألكس رجلاً يسهل الاقتراب منه، بالنسبة إليهنّ جميعاً، باستثناء الويز التي بدا عليها دائماً أنها تملك موهبة في التعامل معه. لكن الأمر أصبح عائداً لفيث الآن لتقنعه. فلم يكن أي شخص آخر سيفعل ذلك.

قال وهو يبدو مصدوماً: "أتفكر في الانتقال؟ لقد اعتقدت أنك قلت إنها تستمتع بها. لقد أخبرتها أنه ينبغي عليها أن تذهب إلى كلية برينستون أو يال".

قالت فيث بهدوء: "كلا، ليس الأمر متعلقاً بها، بل بي أنا".

قال وقد بدا وجهه خالياً من التعبير: "ماذا عنك؟"، فجأة استطاعت أن ترى براد وزوي واقفين فوق رأسها وهما يخبرانها بما يجب عليها أن تفعله.

"أود أن آخذ بعض المناهج في جامعة نيويورك". بدا ذلك أشبه بتفجير قنبلة في وجهه، وقد علمت فيث ذلك.

بدا نازعاً إلى الشك على الفور، وقال: "أي نوع من المناهج؟".

"بعض المناهج في القانون العام في كلية التعليم المستمر. فهي تبدو مثيرة للاهتمام". شعرت بالتوتر. بدأ يحدق إليها وهو يبدو غير مسرور على الإطلاق.

"هذا سخف، يا فيث. إنك لست بحاجة إلى دراسة القانون. ماذا ستستفيدين من هذه الدراسة؟ لم لا تأخذين منهجاً في الآثار. فذلك سيكون أكثر متعة بالنسبة إليك". حاول بهذا أن يصرف تفكيرها عن الموضوع قبل أن تقول رأيها. لكنها أيقنت أنه يجب عليها أن تمضي قدماً. كل ما استطاعت أن تفعله هو أن تدعو كي يوافق. كانت طبيعة زواجهما طوال ستة وعشرين عاماً تعني تمتعه بحق النقض لكل شيء تفعله. فات الأوان على تغيير ذلك الآن. فقد بدا كنوع من الاتفاق المتبادل بينهما على أمور كثيرة. أصبح واضحاً للجميع على مدى السنوات أن ألكس يدير حكومة ديكتاتورية. وفي النهاية، حظي بالكلمة الحاسمة في البيت، ووضع القواعد فيه. نظراً إلى ماضيها النفسي، اعتادت أن تتقبّل الوضع على ذلك النحو.

"لقد خضعت للكثير من المناهج في الآثار والمتاحف، يا ألكس. وأريد أن أقوم بشيء ممتع أكثر". وبهذا سحبت لتوها مسمار أمان القنبلة. وكل ما توجب عليها الآن هو أن تلقيها في وجهه.

"بعد ذلك؟ ما الهدف من هذا، يا فيث؟". عرف الجواب قبل أن تجيبه، ولكنه أراد أن يسمعه منها.

قالت له بقوة هادئة ومن دون اعتذار وهي تحبس أنفاسها: "أريد أن أقدم أوراقي إلى كلية الحقوق بحلول فصل الخريف".

"هذا عمل سخيف. لقد تحدثنا في هذا الموضوع من قبل. ولا تستطيع امرأة في مثل سنك أن تلتحق بكلية الحقوق، يا فيث. فلا أحد سيوظفك عندما تتخرجين. وستكونين كبيرة في السن فوق الحد".

"أود أن أفعل ذلك على أي حال. وأعتقد أنه سيكون أمراً ساحراً. ربما سيوظفني أحدهم. فأنا لست مسنّة إلى هذا الحدّ على أي حال". وبدأت تطارد بإصرار الهدف الذي وضعته لنفسها أخيراً، أياً يكن رأيه فيه.

"هذا بعيد عن الموضوع. هل لديك أي فكرة عن العمل المنطوي في هـذا؟ ستـزجين بنفسك في البيت لتدرسي طوال السنوات الثلاث القادمة. ومـاذا بعد ذلك؟ أستحظين بوظيفة وتعملين لأربع عشرة ساعة يومياً؟ إنك لن تتمكني من السفر ولن تتمكني أبداً من الخروج ليلاً. وستقولين لي إنك لا تـستطيعين أن تـستمتعي أو تخرجـي إلى أي مكان لأنك ستخضعين للامـتحانات. إن يكـن هـذا ما تريدين القيام به، فقد كان ينبغي عليك أن تفكري فيه قبل أن تولد الفتاتان وأن تنهي كلية الحقوق قبل الآن، ولكنك لم تفعلي ذلك. فقد فات الأوان الآن. يجب عليك أن تواجهي الحقيقة وحسب".

"لـم يفـت الأوان، يـا ألكس. وقد رحلت الفتاتان. وليس لدي شيء لأفعلـه. يمكنني أن أتلاعب ببرنامجي ودراستي كي نتمكن من أن نخرج لـيلاً. نحـن لا نسافر قط معاً بعد الآن سوى لبضعة أسابيع في الصيف. ويمكنـني أن أخـرج عندئذ. أعدك بذلك. وسأبذل ما في وسعي كي أتدبر أمـري بحيث لا يتعارض مع مشاريعك". ونظرت إليه بتوسل من دون أي فائدة.

أخيـراً، انفجر قائلاً: "هذا مستحيل! فليس هناك هدف من أن تكوني متـزوجة إن كنت ستحبسين نفسك في البيت طوال السنوات الثلاث التالية. ويمكن أن تذهبي إلى السجن أو إلى كلية الطب على حدٍّ سواء! ولا أصدق كـم يمكـن لك أن تفتقري إلى التفكير المنطقي. كيف تستطيعين حتى أن تقترحي أمراً كهذا؟ ما بالك؟".

قالـت بهـدوء: "إنني أشعر بضجر قاتل. ثم قالت مستشهدة بقول بـراد: "وأنـت تحظى بعملك وحياتك، يا ألكس. أنا أريد حياتي الخاصة أيـضاً. فـصديقاتي القدامى إما يحظين بوظائف أو لا يزال أولادهن في البيت. فهن جميعاً مشغولات. ولا أريد أن أؤدي الأعمال الخيرية أو آخذ دروسـاً فـي الآثار والمتاحف. بل أريد أن أقوم بشيء حقيقي. لقد سبق وأنجـزت سـنة في كلية الحقوق. وإن احتسبوها لي، فقد تلغى سنة من سنوات دراستي".

قـال لهـا بصوت هادر وهو يخبط طبق الحساء الفارغ بجانبه: "لقد فـات الأوان على ذلك كله". وبدا مُهدِّداً بشكل واضح مما اقترحته. وربما أدرك أن ذلـك يعنـي أنهـا ستحظى بحياتها الخاصة وأنه سيفقد سيطرته عليها.

"لـم يفـت الأوان. فأنـا في السابعة والأربعين من عمري. وسأبلغ الخمسين عندما أتخرج".

"هـذا إن تخرجت على الإطلاق. فليس من السهل أن تنجحي، أؤكد لك ذلك". كان يلمح بهذا إلى أنها ليست قادرة على النجاح، مما شكل نمطاً جديـداً مـن السيطرة. لم تغب عن ذهنها مضامين ما قاله. ولكنها أجبرت نفسها على أن تلتزم الهدوء. فقد علمت أنها الطريقة الوحيدة للفوز.

"إن هـذا مهـم بالنسبة إليّ ألكس". وجعلته الطريقة التي تفوهت بها بذلك يلتزم الصمت، ولكن ليس لوقت طويل.

"سأفكر في الأمر فيث. ولكنني أعتقد أنها خطة سخيفة". وبدا منزعجاً بـشدة عـندئذ. فرفع صوت التلفاز كثيراً بحيث لم يعد من الممكن التحدث إلـيه. لكـنها على الأقل أخبرته بما تريده وعلمت أنه يجب عليها الآن أن تدعــه يفكـر في الموضوع. ما يقرره في النهاية هو مسألة مختلفة كلياً. ولكـن أصـبح فـي وسعها أن تجادله بشأن ذلك عندئذ. كانت زوي هي الأخرى تنوي أن تتحدث إليه بالأمر. فقد أرادت أن تمد لأمها يد العون في إقناعه لأن موافقته كانت تهمها كثيراً. فقد شعرت أنها بحاجة إلى استحسانه الفكرة قبل أن تسمح لنفسها بفعل ما تريده.

انسحبت فيث بهدوء إلى مكتبها، وفتحت بريدها الإلكتروني.

بـدأت رسالتها لبراد بقولها: "بلاغٌ من هيروشيما. لقد ألقيت القنبلة، وأخبـرت ألكـس. فصب جام غضبه عليّ. لا يعتقد أنني سألتحق بالكلية، وأنجـح فـي الامتحانات أو أتخرج. فهو يقول إن هذا الأمر مضيعة تامة للوقت ويشكل إزعاجاً كبيراً له. حتى الآن لم أفز بأي جولة. ولا أعتقد أنه سيوافق. لا أزال أريد القيام بذلك، ولكنني لا أستطيع القيام به فعلاً إن كان

معارضاً للفكرة لأنّ ذلك سيبدو مجحفاً بحقه. فأنا زوجته على أي حال. ولديه الحق في أن يتوقع بعض الأمور مني. يقول ألكس إنني سأكون منشغلة بالدراسة فوق الحدّ بحيث لا أستطيع الخروج أو السفر بصحبته، وهذه فكرة معقولة نوعاً ما، ولا سيما بعد أن أبدأ الدراسة في كلية الحقوق. فهي تتطلب عملاً شاقاً ومستمراً. وعلى أي حال، سنرى ما يحدث. أتمنى أن تكون كل أمورك على ما يرام. مع كل الحب فرد".

تفقدت جهاز الكمبيوتر عصر ذلك اليوم، ولكن لم يردها أي جواب منه حتى وقت متأخر من تلك الليلة. ولم يتكلم ألكس معها طوال فترة العصر، وتناولا العشاء بصمت مطبق. بعد ذلك بوقت قصير، أوى إلى الفراش من دون أن يتفوه بكلمة واحدة. كان سيغادر المنزل عند الساعة الرابعة فجراً ليسافر بالطائرة إلى ميامي لحضور اجتماع مدرج في برنامجه منذ يومين. كانت فيث قد تجاوزت حدودها، من وجهة نظره. وبدت ثورة غضبه واضحة لها. فقد كان يعاقبها.

كان الوقت قرابة منتصف الليل عندما وصلت رسالة براد الإلكترونية. كتب فيها قائلاً: "عزيزتي فرد، لا تكترثي لما هو منصف من وجهة نظره. ماذا عمّا هو منصف من وجهة نظرك أنت؟! نحن لسنا في العصور المظلمة... أم أننا كذلك؟؟؟ إنه يذكّرني ببام وكل جدالاتها معي عندما قررت أن أعمل وحدي. لديك الحق في أن تلاحقي حلمك. وليس إنصافاً منه أن يقف عقبة في طريقك. وأنا أتفهم قلقه، ولكنني مقتنع أنك تستطيعين أن تتولي الأمر على نحو جيد. أنا واثق أنه كذلك أيضاً، بالرغم من أنه لن يعترف بهذا. فهو يهدده على الأرجح. لذا، لا تستسلمي! ولا تتخاذلي! وبصفتي أخاك الأكبر، كما أسمي نفسي، فأنا أمنعك من أن تخضعي لدروس في لعبة البريدج، التحقي بالكلية مثل فتاة طيبة!!! وتحلي بالشجاعة".

"إنني في المكتب، وسأعمل حتى وقت متأخر. ولدي جلسة استماع غداً في قضية جديدة. فهناك فتى في الخامسة عشرة من عمره متهم

باغتصاب فتاة. أنا أكره هذا النوع من القضايا، ولكن المحكمة عينتني لأتولاها. وهو يبدو فتى مهذباً، لكن من الواضح أنه يعاني من متاعب خطيرة، مثل إساءة المعاملة الشديدة في المنزل. إن الأطفال يفعلون ما يتعلمونه وما يُفعل بهم. سأتصل بك في وقت ما من هذا الأسبوع، ويمكننا أن نتحدث عن سير الأمور".

"سأتحدث إليك لاحقاً. مع خالص حبي، براد".

كان محقاً بالطبع، كما علمت فيث. لكن كان سهلاً عليه أن يقول ذلك وأصعب بالنسبة إليها لتتعايش معه. فقد كانت متزوجة بألكس على أي حال، وكان لا يزال غاضباً بشكل واضح عندما استيقظ في اليوم التالي عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ليلحق برحلته. نهضت فيث، كما لطالما اعتادت أن تفعل حين مغادرته إلى المدينة، وأعدت له القهوة والخبز المحمص. لكن بسبب الوقت المبكر والمحادثة التي أجرياها اليوم الفائت، لم يتفوه بأي كلمة، وحدّق إليها قبل أن يغادر عند الساعة الرابعة. ولم يتسنّ لهما الوقت مجدداً ليناقشا خططها الأكاديمية، ولكنه أوضح لها أنه يعتبر ذلك عملاً عدوانياً في حقه. شعرت بالاستياء حيال ذلك طوال فترة الصباح، واتصلت ببراد في المكتب عصر ذلك اليوم. وكان قد عاد لتوه من المحكمة.

قال لها محاولاً ألا يبدو مشوشاً: "يسرّني أنك اتصلت بي". كانت هناك آلاف الأمور التي تحدث معه، ولكنه ظل مهتماً بها وأراد أن يمنحها دعمه. ثم قال: "لقد قلقت بشأنك طوال اليوم".

"إنني أشعر بالذنب لاتصالي بك فوق كل ما يشغلك من أعمال". ولكنها شعرت فجأة بالامتنان لأنه عاود الظهور في حياتها. فقد بدت تلك المكالمة أشبه بمكالمة ودّت أن تجريها مع جاك. وأرادت أن تعرف رأيه بأفكارها ومشاعرها وتسمع ما لديه ليقوله لها.

"إنه غير منطقي على الإطلاق، يا فرد. وأنت تعلمين هذا تماماً كما أعلمه. كيف جعلته يتمادى في أعماله هذه طوال تلك السنوات؟ إنك لست

عبدة له، بالله عليك، وهو لا يمتلكك. فأنت متزوجة به. ويجب عليه أن يصغي إلى ما تريدينه أنت أيضاً".

قالت فيث مبتسمة بحزن وهي تصغي إلى براد: "لم يخبره أحد بذلك بعد".

"إذاً، ينبغي عليك أن تخبريه بنفسك. وأنا لا أعرف أي امرأة أخرى قد تتحمل هذا منه. فقد كانت بام لتقتلني إن أمليت عليها ما تفعله. نحن نخوض بعض الجدالات العنيفة، وتشاجرنا لأشهر عندما تركت شركة أبيها، ولكنها لا تزال تحترم خياري بأن أفعل ما أود فعله. وهي لا تحب ذلك، ولكنها علمت في النهاية أنه يجب عليها أن تتحمل الوضع وتتعايش معه. ولا يمكن لك أن تسمحي له أن يملي عليك أفعالك".

فقالت محرجة باعترافها: "لطالما اعتاد أن يفعل ذلك. وهذا هو ما يتوقعه مني".

"إذاً، انقليه إلى هذا القرن، يا فرِد. فهذه هي وظيفتك. وقد يُعتبر هذا خبراً سيئاً، ولكن زمن الرق قد اندثر".

"ليس بالنسبة إليه". ثم شعرت على الفور بالذنب لتفوهها بذلك. وقالت: "ما كان ينبغي عليّ أن أقول هذا. فهو معتاد وحسب على إدارة الأمور في المكتب، ويتوقع أن يفعل الشيء نفسه في البيت".

"أصغي إليّ، إنني أود أن أكون ملك كاليفورنيا أو حتى رئيس الولايات المتحدة، لو لم يكن عملاً قذراً جداً، ولكن ليس من المحتمل لهذا أن يحدث في كلتا الحالتين. إننا نود أن نحكم العالم لو سنحت لنا الفرصة. ولكننا لا نستطيع فقط أن ندير حياة بعضنا. أي حياة ستحظين بها إن لم تفعلي هذا؟ ما الذي ستفعلينه طوال السنوات الأربعين القادمة؟ أستمكثين في البيت وتشاهدين التلفاز؟".

"أعتقد أن هذا هو ما يجول في خاطره". بدت مثبطة، وأيقنت أن براد محق. لكنه لم يكن يعرف ألكس. فقد كان قادراً على أن يحول حياتها إلى جحيم إن لم تفعل ما يقوله لها. ولطالما فعل ذلك.

"إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك بك. ولا يمكن أن تسمحي له بفعله. ولن أسمح لك بذلك. أعتقد أنني أتيت لحضور جنازة تشارلز لسبب وجيه وأن جاك أرسلني إليك كي أعاقبك".

قالت ضاحكة: "الآن أصبح هناك احتمال يعجبني. وربما تكون محقاً".

سألها براد: "ماذا كان جاك ليقول إن أنت أخبرته بهذا؟". بدا سؤالاً مثيراً للاهتمام، ولكنه عرف الإجابة قبل أن تقول الكلمات.

"ستثور ثائرته. فقد كان يكره ألكس. ولم يعجب ألكس به كثيراً. فلطالما اعتادا أن يتشاحنا".

"لقد كان هذا ليحدث لسبب وجيه لو أن ألكس فعل هذا بك حين كان جاك على قيد الحياة. إنك لم تجيبي عن سؤالي. ماذا كان جاك ليقول؟". وأرادها أن تفكر في الأمر. وأيقن أن أخاها كان ليتمتع بتأثير أعمق من تأثيره.

"سيقول لي الشيء نفسه الذي قلته. اذهبي إلى الكلية".

"لقد قلت ما عندي".

"ليس عليك أن تعيشي مع ألكس".

"ربما لا ينبغي على أي منكما أن يفعل ذلك. وإن لم يستطع أن يتصرف كما يتصرف إنسان متحضر محترم، فهو لا يستحقك. وأعتقد أن جاك كان ليقول ذلك أيضاً".

"على الأرجح. ولكن انظر إلى المرأة التي عاش معها. إن ديبي تجعل ألكس يبدو أسهل بكثير للعيش معه. فقد كانت غير عقلانية أكثر منه بكثير".

"أصغي إليّ، إن كل ما أريده من أجلك هو أن تكوني سعيدة. فأنت لم تبدي لي سعيدة عندما رأيتك، بل بدوت ضجرة وحزينة ووحيدة. إن كان هذا هو ما تريدينه، فاسعي وراءه. وأنت بحاجة إلى حلم أكثر من كل شيء آخر. كلنا كذلك. وهذا هو حلمي أعيشه الآن، فأنا لم أكن أكثر سعادة في

حياتي قبل أن أفتح هذا المكتب". كانت المشكلة الوحيدة هي أنه لا يزال يذهب إلى البيت ليلاً، ولكنه لم يقل ذلك لفيث. لو استطاع أن ينام في المكتب ليتجنب بام، لفعل ذلك. فقد تفاقمت الأمور تقريباً إلى حدٍّ لا يحتمل. أصبح وبام أشبه بما يدعوه الإنكليز: الطباشير والجبنة، فهذان شيئان مختلفان اختلاف الليل والنهار، ولكن والديه تعرضا لطلاق فظيع في أثناء سنوات مراهقته، لم يرد أن يفعل الشيء نفسه. لهذا السبب حاول التأقلم مع اختلافه عن بام. كانت بام هي من تلاحقه بتذمرها عن كل شيء يفعله وتتجادل معه بخصوص حقيقة عدم تواجده في البيت. كانت محقة. فهو لم يكن يريد ذلك. ولكنه لم ينوِ أن يتركها، وعلم أنه لن يفعل ذلك قط. فقد بدا له الوضع أكثر بساطة بهذه الطريقة.

قالت فيث وهي تبدو متألمة: "هل يبدو وضعي سيئاً إلى هذا الحد؟ إنني لست تعيسة جداً، يا براد. فهناك أوجه مختلفة بيننا بشأن بعض الأمور".

"إنه ليس موجوداً إلى جانبك قط. وقلت ذلك بنفسك. ولم يأتِ معك لحضور جنازة تشارلز. ما سبب كل هذا؟". كان يعلم بخصوص التوتر الزوجي أكثر من أي شخص آخر.

"قلت لك إنه قد توجب عليه أن يذهب إلى شيكاغو ليحضر اجتماعاً".

"ماذا في ذلك؟ لقد كان بإمكانهم أن ينتظروا يوماً واحداً. فقد كان تشارلي سيدفن مرة واحدة فقط. كان باستطاعتك أن تستفيدي من دعمه".

"لقد مضت أموري على ما يرام... وتواجدت أنت هناك".

"يسرني أنني ذهبت. وأصغي إليّ، لا أستطيع أن أنتقد زواجك. فزواجي ليس شيئاً يمكنني أن أتباهى به. كل ما أقوله هو إنه لم يكن موجوداً لوقت طويل، وهو مدين لك بذلك. ولا يستطيع أن ينال ما يريده في كلتا الحالتين. ولا يستطيع أن يقوم بأموره الخاصة معظم الأوقات ومع ذلك يتوقع منك أن تمكثي في البيت بانتظاره. إن حظي بحياته الخاصة، فسينبغي عليك أيضاً أن تحظي بحياتك الخاصة".

قالت وهي تبدو مثبطة: "إنه لا يرى الأمر من تلك الزاوية".

"سيفعل ذلك، إن رفضت أن تستسلمي. أعدك بذلك. يجب عليك أن تدافعي عن نفسك".

قالت بحزن: "هذا ليس سهلاً". فقد تمتع ألكس بإرادة فولاذية. وكان سيعذبها حتى تستسلم، كما فعل من قبل بالضبط.

"أعلم أن هذا صعب، يا فرد، ولكنه يستحق العناء. فليس لديك خيار آخر. وإن لم تدافعي عن نفسك فستصبح حياتك تعيسة، ثم ستشعرين أنك مسنّة ومكتئبة. وأعتقد أن صحتك النفسية وسعادتك معرضتان لخطر جسيم".

قالت مبتسمة وهي تجلس إلى مكتبها الصغير وتفكر فيه: "إنك تجعلها مسألة حياة أو موت". وقد كان صديقاً رائعاً.

"إنها كذلك من بعض النواحي. وأريدك أن تفكري في هذا فعلاً".

"سأفعل". وبدا ما قاله لها منطقياً، ولكنها لم تعرف وحسب كيف ستقنع ألكس. ولكن ربما كان براد محقاً. وربما بالجرعة الكافية من الطاقة والثقة، كانت تستطيع فعل ذلك، فهو يستحق المحاولة على الأقل. ثم قالت: "كيف هي أمورك؟".

"حافلة ومجنونة. ولدي ست قضايا كبيرة جديدة. وأنا غارق حتى أذنيّ في العمل".

قالت له بحسد: "يا لحسن طالعك! يبدو هذا ممتعاً".

"إنه كذلك فعلاً". وثرثرا لبضع دقائق، ثم توجب عليه أن ينهي المكالمة، ولكنه وعدها أن يراسلها عبر البريد الإلكتروني أو يتصل بها قريباً، وأيقنت أنه سيفعل ذلك. وقد مدّها بمساعدة مذهلة في الأسبوعين الفائتين. فمنحها التركيز، ووجهة النظر الصحيحة، والقوة، بالإضافة إلى الحب والدعم. وذلك مزيج لا يمكن لأحد أن ينافسه. فشعرت بالامتنان له. وفوق كل ذلك، فقد قوّى عزيمتها كي تحاور ألكس، وتنتصر عليه.

* * *

الفصل الرابع

عندما عاد ألكس من ميامي، بدا في مزاج رهيب. فكانت فيث من الفطنة بمكان كي تسأله عن الأمر. من الواضح أن الاجتماع لم يسر على ما يرام. فحضّرت له العشاء بصمت. حالما أنهى لقمته الأخيرة، نهض وصعد إلى الطابق العلوي، واستحم، وأوى إلى الفراش. ولم يقل لها كلمة واحدة وهما يأكلان. وفقط عندما حل الصباح التالي، سألها عن حالها وهما يتناولان الفطور.

قالت له وهي تسكب له القهوة: "بخير". وأعدت له وجبة الشوفان والكرز والكعك. وبدا أن مزاجه قد تحسّن قليلاً. وقالت له: "أكانت رحلتك صعبة؟"، فأومأ برأسه، ولم يبادر بإطلاعها على أي تفاصيل. كان ذلك من سجاياه. فعندما لا تجري الأمور كما يريد، كان لا يتفوه بالكثير. وإن جرت الأمور على ما يرام، استطاعت أن تلاحظ ذلك من سلوكه، ولكنه اعتاد أن يحتفظ بالأخبار لنفسه.

بدأت فيث الحديث بينما هو يقرأ صحيفة وول ستريت قائلة: "لقد تحدثت إلى إلويز في لندن". ولم يبدُ عليه أنه سمع ما قالته، ومضت خمس دقائق كاملة عندما تحدث إليها من خلف الصحيفة.

"كيف حالها؟".

"بخير". أصبحت فيث معتادة على أسلوبه. فقالت: "إنها قادمة إلى البيت من أجل مناسبة الشكر لتمضي عطلة نهاية أسبوع طويلة".

"هذا جيد". وضع الصحيفة على الطاولة عندئذ، ونهض على قدميه، ونظر بشكل خاطف إلى ساعته أولاً ثم إلى زوجته. ثم قال: "ليس لدي

الوقت لأناقش الموضوع معك الآن، يا فيث. ولكنني أردت أن أعلمك أنني فكرت ملياً في ما ناقشناه".

"ما هو؟".

"إنه حلمك المستحيل المتعلق بكلية الحقوق. أريدك أن تعلمي الآن بكل وضوح أنني لن أوافق عليه. ويجب عليك أن تجدي شيئاً آخر لتفعليه". لم ينتظر تعليقها، بل استدار، وخرج من الغرفة. وأثارت الطريقة التي قال ذلك بها حنقها. في الماضي، كانت لتشعر أنها مقهورة. لكنها هذه المرة ولسبب ما استشاطت غضباً، وتبعته إلى الردهة. كان يرتدي معطفه الواقي من المطر، فقد أخذ المطر ينهمر بغزارة في الخارج.

"لا تستطيع أن تنهي الموضوع هكذا، يا ألكس. إنه ليس حلماً مستحيلاً. بل هو شيء معقول أريد أن أقوم به. أنا راغبة بأن أعمل من أجله وأن أجعله مفيداً لنا".

حدجها بتحديقة باردة كانت قد قمعتها لسنوات وقال: "لن أعيش مع طالبة بدوام كامل، ولن أتعايش مع كل الضغط والهراء المنطويتين على ذلك. أنت زوجتي، يا فيث. وأنت ملتزمة بهذا حتى نهاية المطاف".

فردّت عليه بغضب قائلة: "كذلك أنت. وتصرفك هذا ليس من الإنصاف في شيء. لماذا لا تحترمني كإنسان، وتدرك أنني أحتاج شيئاً ذكياً لأفعله في حياتي، الآن بعد أن رحلت الفتاتان؟".

"زوري طبيباً نفسياً إن كنت تعانين من مشكلة في التكيّف مع رحيل الفتاتين من البيت. ولا تتسرعي في محاولة استعادة شبابك. فالحقيقة هي أنك لا تستطيعين ذلك".

"إنك تتصرف وكأن عمري مئة سنة، ولكنني لست هكذا".

"إني مدرك تماماً لعمرك، يا فيث. وأنت لستِ طفلة، فلا تتصرفي كطفلة. وهذا المشروع برمته طفولي وغير ناضج. فتصرفي كراشدة. لقد غادرت ابنتاك. وأنت متزوجة. ولديك مسؤوليات تجاهي. ولا تستطيعين أن توفيها حقها إن ذهبت إلى الكلية". لطالما كان كل شيء يتعلق به.

"ممّ أنت قلق؟ هل أنت قلق من ألا أتولى حضور حفل عشاء بين الحين والآخر لأنني في الكلية؟ إنني لست ذاهبة إلى القمر، بالله عليك. بل سأكون هنا. وقلت لك إنني أستطيع أن أجعل ذلك ينجح". وبدت يائسة وعلى وشك البكاء. ولم يتصرف ألكس على نحو لاعقلاني هكذا من قبل قط. ولكنها لم تتحداه إلى هذه الدرجة من قبل أبداً.

"ليست لديك أي فكرة عما تتحدثين عنه، يا فيث. إن كلية الحقوق مستنزفة للقوة. فلن يتوفر لك الوقت لأي شيء آخر. وأنا أتمتع برأي في هذا".

سألته والدموع تملأ عينيها: "أليس لي رأي؟".

"ليس في هذه القضية. فهذه هي نهايتها، من وجهة نظري. اعثري على شيء آخر لتفعليه". بهذا، وقبل أن تتمكن من أن تقول كلمة أخرى، فتح الباب الأمامي، وخرج تحت المطر بينما وقفت فيث تحدق إليه. كان رجلاً جليدياً، وكانت زوي محقة بذلك.

أغلق ألكس الباب خلفه بإحكام. فعادت فيث إلى المطبخ الدافئ المكسو بألواح الخشب وجلست. كانت أطباق فطورهما لا تزال على الطاولة. كل ما استطاعت فعله هو أنها بكت بكاء مريراً. شعرت وكأنها زُجّت في السجن. فقد تصرف وكأنه يمتلكها وكأن ما تشعر به وما تريده ليس على أي قدر من الأهمية بالنسبة إليه. لم تشعر قط أنها عاجزة هكذا في حياتها. كانت لا تزال تبكي عندما نهضت أخيراً، ووضعت الأطباق في غسالة الأطباق، وصعدت إلى غرفتها.

وقفت لوقت طويل وهي تنظر من النافذة إلى المطر. وشعرت أنها محبطة كثيراً. وعندما راسلها براد عبر البريد الإلكتروني عصر ذلك اليوم، لم تجب. شعرت وكأنها خذلته هو الآخر. إذ إنه توقّع منها الكثير، ولكنه لم يعرف ألكس على حقيقته. ولم يكن أحد يعرفه، ليس هكذا. فقد كان الناس الآخرون يعتقدون أنه منطقي وذكي ومراعٍ للآخرين. لم يكن أحد سوى فيث وابنتيها يعرف مدى بروده. إذ إنه أراد كل شيء بطريقته

الخاصة. خاضت زوي جدالات لا حصر لها معه، أخيراً، تخلّت عن مناقشة أي شيء معه، ونأت بنفسها عنه. بدا على إلويز فقط أنها قادرة على التفاهم معه. اعتبر عالمهم إقطاعية يملكها، وشعرت فيث أنها عبدة لديه. فكان براد على حق في هذا.

عانت فيث من الكآبة طوال اليومين التاليين. كانا بالكاد يتحدثان إلى بعضهما بعضاً في أثناء تناول الإفطار أو العشاء. أخيراً، بعد يومين من إصدار ألكس إنذاره، أرسل إليها براد رسالة أخرى عبر البريد الإلكتروني.

"مرحباً، هل أنت بخير؟ لقد التزمت الصمت لوقت طويل. هل هناك خطب ما؟ إنني قلق بشأنك. أعلميني أنك على قيد الحياة. مع حبي، براد".

أطلقت تنهيدة طويلة، وبدأت تنقر على لوحة المفاتيح، ولكن لم يكن هناك الكثير لتقوله.

"لقد خسرت الحرب. أخبرني ألكس أن كلية الحقوق مستبعدة تماماً. فهي من وجهة نظره تتعارض مع مسؤولياتي تجاهه. ولم يتحدّث إليّ طوال الأسبوع بعد أن فرض عليّ ما يريده. والآن، أشعر بالكآبة. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أمطرت هنا طوال الأسبوع. أنا تعيسة وشعوري لا يوصف. والآن ما الذي سأفعله بقية حياتي؟ مع حبي، فرد".

جاء جوابه مباشرة تقريباً. فقد كان جالساً إلى مكتبه عندما وصلت رسالتها. وحالما قرأها، شعر بالاستياء الشديد. وفكّر في الاتصال بها، ولكنه قرر أن يراسلها عبر البريد الإلكتروني عوضاً عن ذلك.

"هذا يبدو سيئاً. اصمدي، يا فرد. إنك مكتئبة لأنك تشعرين أنك فقدت زمام السيطرة على حياتك، وهذا لسبب وجيه. أنا لا أملي عليك ما تفعلينه، فأنت فقط صاحبة القرار. ولكن إن سمحت له أن يفعل هذا بك بإلقاء الأوامر والتحذيرات، فستصابين بكآبة شديدة. أتشعرين أنك تستطيعين أن تفعلي شيئاً كي تستعيدي شيئاً من قوتك؟ افعلي ما ترين أنه يشعرك بالراحة. أنت من تقررين ما هو وبأي قدر تفعلينه. ولكن يجب عليك أن تفعلي شيئاً ما. فلا يمكن أن تسمحي له بمعاملتك كطفلة، أو أسوأ من هذا،

كجماد لا شعور له. يجب عليه أن يحترم حاجاتك أيضاً. وإن لم يستطع فعل ذلك، فعليك أنت أن تفعلي هذا. وستدفعين ثمناً باهظاً إن لم تقومي به. وأنا أعلم كل شيء عن هذه الأمور، فقد سبق وحدثت معي. إنّ تحدي أناس ولا سيما مثل ألكس وبام ينطوي على مخاطرة كبيرة. ولكن إن لم تفعلي ذلك، خسرت نفسك. وهذا مصير سيّئ لتؤولي إليه".

"اكتشفي ما أنت بحاجة إلى فعله كي تشعري أنك تملكين سيطرة أكثر بقليل أو بكثير إن كنت تفضلين، ثم قومي بالخطوة الأولى. هذا يستحق المحاولة. وسأساندك بقدر ما أستطيع. والآن أحضري مظلتك واخرجي لنزهة. إذ يبدو لي وكأنك بحاجة إلى بعض الهواء النقي. إنني موجود إن احتجت إليّ. وإن قتلته، فسأدافع عنك. فهذه جريمة قتل مبررة بالطبع. وهي قضية سهلة جداً. مع خالص حبي، براد".

ابتسمت وهي تقرأها، ثم محتها كي لا يرى أحد ما كتبه. فالجزء المتعلق بقتل ألكس قد يزعج الفتاتين. ثم قررت أن تأخذ بنصيحته. فانتعلت جزمتها وارتدت معطفها الواقي من المطر، وغادرت المنزل. كان محقاً في كلامه، فقد احتاجت إلى الهواء النقي، منحها ذلك وقتاً لتفكر. فمشت في شارع ليكسنغتون آفنيو، وعادت إلى فيفث آفنيو عبر المتنزه. لم تدرك ذلك وهي تمشي، ولكنها بقيت لساعتين خارج المنزل. عاد ذلك عليها بفائدة كبيرة. كان على حق تماماً. توجب عليها أن تستعيد شيئاً من قوتها. فقد عاملها ألكس وكأنه يمتلكها أو كأنها غرض جامد اشتراه بماله. لم تعد راغبة بالسماح له بهذا. شكّل ذلك فرصة كبيرة بالنسبة إليها. وتمنّت أن يتحلى بالمنطق ويوافق، لكن بما أنه لم يفعل ذلك، فقد علمت الآن ما تريده. كانت سترسل استماراتها إلى كلية التعليم المستمر في جامعة نيويورك. فتلك هي البداية على الأقل. كانت ستقرر في ما بعد ما تريده في ما يتعلق بكلية الحقوق. لكنها بتلك الطريقة كانت ستحظى بخيار. وكان منهاج كلية نيويورك التحضيري سيبدأ الأسبوع التالي، ولم يتوجب أن يعلم بأمره. كان لا يزال أمامها ثلاثة أشهر كي تتفاهم مع ألكس، وتخضع

لمنهجها التحضيري، وتملأ أوراق التحاقها، وتتخذ قرارها. كان الالتحاق بكلية الحقوق سيمنحها خيارات عدة. ومنحها مجرد اتخاذ قرارها للذهاب إلى دروس التعليم المستمر إحساساً بالسيطرة.

أرسلت الاستمارات عبر البريد عصر ذلك اليوم. وعندما وضعتها في صندوق البريد، وقفت هناك والسماء تمطر وابتسمت. شعرت بالقلق يساورها، ولكنها في الوقت ذاته شعرت أن قلبها أصبح أقل عناء وذهنها أصبح أكثر صفاء. أيقنت أنها فعلت الشيء الصواب. فهرعت عائدة إلى البيت، واتصلت ببراد. فأجاب من خطه الداخلي.

قالت له بحيوية: "لقد نجحت!". وعرف على الفور أنها المتحدثة. شعرت وكأنها طفلة ربحت لتوها الجائزة الأولى في مسابقة مدرسية.

سألها مبتسماً: "ماذا فعلت؟". ورجع إلى الوراء بكرسيه الذي بدا وكأنه مثبت إلى الأرض بقائمتيه الخلفيتين.

"لقد كنت محقاً. أولاً، خرجت في نزهة طويلة تحت المطر. ثم عدت إلى البيت، وأمسكت الاستمارات، وأرسلتها. وضعتها للتو في صندوق البريد عند المنعطف، وأشعر بحال رائعة. سيبدأ منهاج كلية نيويورك التحضيري الأسبوع القادم. لن أقول شيئاً لألكس. بل سأذهب وحسب". وشعرت أنها مخادعة، ولكنها قوية وأكثر سيطرة.

"أشعر على الأقل أنني فعلت شيئاً لأستعيد قوتي. وأشعر أنني كائن بشري مرة أخرى". ودهشت كيف أن ردود فعلها السريعة قد جلبت لها الراحة من الكآبة الشديدة التي رزحت تحت وطأتها.

"إنني مسرور، يا فرِد. وقد قلقت عليك، إذ إنك بدوت بحالة سيئة جداً. أنا فخور بك".

"لقد شعرت أنني بحال مريعة لأيام. ماذا عنك، بالمناسبة؟ آسفة لأنني أتحدث طوال الوقت عن نفسي. فقد عانيت من حالة فوضى طوال الأسبوع".

"هذا لا يثير العجب. فخطابه الصغير لم يخصص ليجعلك تشعرين بحال رائعة. وأنا أعلم ذلك، فقد مررت بنفس الظروف مع بام عندما

تركت شركة والدها، كالتهديدات والإنذارات والشعور بالذنب والاتهامات. واعـتقدت أنها ستتركني إن استقلت من شركة والدها. وفي النهاية، علمت أنـه يجـب علـيّ أن أجازف. فإن لم أفعل، كنت سأفقد احترامي لنفسي وستفسد حياتي بأكملها".

قالـت وهي معجبة بما فعله: "إنك أكثر شجاعة مني". بدت بأم مثيرة للمتاعب، وكانت كذلك فعلاً.

"إنـك تبلـين بلاءً حسناً. امنحي نفسك علامة متفوقة لهذا اليوم. فأنا فخور بك فعلاً فرد".

"شـكراً لـك، أنا أيضاً فخورة بنفسي. ولو لم تقل لي ما قلته، لكنت جالـسة هـنا والدموع تنهمر من عينيّ". كره أن يفكر فيها بتلك الطريقة، وشعر بالسعادة لأنه مد لها يد المساعدة. قالت له: "شكراً لك براد". لم تكن قد اتخذت أي خطوة حاسمة كي تتحدى ألكس، ولكنها فردت جناحيها قليلاً، بما يكفي فقط كي تُحيي احترامها لنفسها.

قـال لها بلطف: "على الرحب والسعة". جعلته يشعر أنه مفيد ومهم. بدا ذلك شعوراً جيداً، وجعله يشعر أنه أقرب منها.

"كـيف هـي أمـور العمل؟"، وقد بدت مبتهجة ومهتمة مرة أخرى. وشعرت أنها مليئة بالحيوية.

"مجـنونة كالمعـتاد. سـتبدأ محاكمة الفتى المتهم بالقتل من الدرجة الأولى الأسبوع المقبل. ولدي الكثير لأحضّره".

"أتعتقد أنك ستنقذه؟".

"آمـل ذلـك. فهو يعتمد على دفاعي. وأنا أيضاً. ستكون قضية صعبة. وهـو فتـى طيب ويستحق أن ينال فرصة. فالجريمة ليست متعمّدة، ولكن في الدقـيقة التي يضع فيها أحدهم مسدساً في يد الفتية أو يد أي شخص في الواقع، تحدث المشاكل ويصاب أحد بالأذى. هذه هي الطريقة التي تحدث بها الأمور. علـى أي حال، لا تجعليني أبدأ بالحديث عن هذا الآن. إذاً، ماذا ستفعلين الآن، يا فرد؟ آمل أنك لا تنوين إخبار ألكس عن إرسالك للاستمارات".

قالـت بـصراحة: "ليس بعد". كرهت أن تكذب عليه بشأن المنهاج التحـضيري. فقد كانت ستختفي من البيت لثلاث ساعات كل يوم من دون أن يعلـم أبداً. كان نادراً ما يتصل بها في النهار سوى ليتحدث إليها بشأن تغييـر في خططه. كانت ستعود إلى البيت بحلول وقت الغداء كل يوم. ثم قالـت: "ليس هناك هدف من الشجار معه بعد. فسنثير جنون بعضنا. ربما سـيكون المـنهج التحضيري صعباً فوق الحدّ بحيث لا أستوعبه على أي حال. سأرى كيف سأشعر بعد أن آخذ الدروس".

قال لها: "ستكونين على ما يرام". كان يعني ما قاله. فقد كانت إحدى أذكى النساء اللواتي عرفهن. ولطالما أبلت بلاء حسناً في المدرسة، كما قد التحقت بكلية الحقوق من قبل.

لكـنهما علمـا أنـه يجب عليها أن تواجه النقد من ألكس في نهاية المطـاف، لم يكن هناك شك في ذهن براد أنه سيتم قبولها في كلية الحقوق ثـم سـيتوجب علـيها أن تتخذ قرارها. ولم تستطع أن تصدق كم أصبح شـعورها جـيداً مـنذ أرسلت الاستمارات من أجل حضور المناهج. فقد خلّصها ذلك من الشعور بالكآبة. ولم تعد تشعر أنها عاجزة وضعيفة.

قـال لهـا بلطف: "لقد فعلت الصواب فرد". ثم قال بأسف: "ينبغي علـيّ أن أعـود إلـى العمـل. وأنا أفضّل التحدث إليك، ولكن الواجب يناديني".

ودّعته قائلة: "شكراً لك براد. سأتحدث إليك لاحقاً". أخذت تتسكع في أنحاء المنزل لبقية فترة العصر. بدت روحها المعنوية جيدة، مما كان يدعو للدهـشة، لا سيّما عندما عاد ألكس من المكتب إلى البيت. أخذت تغني في المطبخ وهي تطهو طعام العشاء.

علق ألكس على هذا حالما دخل المطبخ.

فـسأل بحـذر وهي تبتسم له قائلاً: "إنك في مزاج جيد. ماذا فعلت اليوم؟". وكان قد توقع حدوث المزيد من التوتر الذي ساد بينهما صباح ذلك اليوم. ولكنها عوضاً عن ذلك، بدت مسترخية ومشرقة.

قالت بغموض: "لم أفعل الكثير. ذهبت في نزهة طويلة سيراً على قدميّ، وأنجزت بعض المهمات". كرهت أن تكذب عليه، ولكنها شعرت أنه ليس لديها خيار آخر.

قال لها وهو يبدو مرتاباً وكأنه لا يصدقها: "لقد أمطرت طوال اليوم".

قالت وهي تضع العشاء على الطاولة: "أعلم هذا. خرجت في نزهة جميلة تحت المطر". لم تخبره عن المحادثة التي أجرتها مع براد. فلم يكن هناك سبب يدعو لذلك. أصبح براد صديقها الشخصي ومناصراً قضاياها بالضبط كما فعل في طفولتهما. لم يسبب ذلك أي أذى. ولم يكن ألكس ليهتم به على أي حال. فهو لم يُبدِ قط أي اهتمام بصديقاتها ما لم يكن أزواجهن مهمّين بالنسبة إليه. ولم يكن براد سيشكل أي أهمية له أيضاً لأنه مجرد صديق قديم من أصدقاء طفولة جاك.

لم يشأ ألكس الحصول على المزيد من الاستفسارات عن سبب مزاجها الحسن. عوضاً عن ذلك، تناول طعامه بهدوء. سألته عن سير عمله. فبدا مسروراً من سؤالها، قدّم لها شرحاً وجيزاً عن تقدّمه. بدت تلك الليلة إحدى الليالي النادرة التي كانا يتبادلان فيها الحديث. في نهاية الأمسية، شعرت فعلاً أنها أكثر قرباً إليه وسامحته على موقفه حيال التحاقها بكلية الحقوق. كانت لا تزال تمني نفسها أنها ستتمكن من إقناعه في الأشهر القليلة التالية. أويا إلى الفراش في وقت مبكر تلك الليلة، ووجدت نفسها تدنو منه. فبدا سلوكه معها روتينياً كالعادة وغير مبتكر بشكل خاص، بل مريحاً ومرضياً ومألوفاً. كان هذا ليثبت له، لو أنه فكر في الأمر، أي فرق يشكله تعامله بحميمية أكثر معها. بالقليل من الجهد، كانا ربما ليستمتعا بوجود بعضهما. ولكن علاقتهما لم تكن أمراً يعتقد أنه على قدر من الأهمية، لم يفعل ذلك قط. فقد اعتبر زواجهما مجرد شيء بديهي، بالضبط كما اعتبر وجود فيث في حياته بديهياً.

بدأت فيث المنهج التحضيري يوم الاثنين. وبدا ممتعاً ومثيراً للأعصاب في الوقت نفسه. فقد كان هناك كمٌ هائل من المعلومات لتستوعبها. ولم تستطع أن تتخيل كيف ستتمكن من الاستمرار فيه لثمانية أسابيع. كل يوم، كانت تعود بعد الحصة إلى البيت عند الساعة الواحدة.

مرّت الأسابيع التالية قبل مناسبة الشكر من دون أن ينشأ أي حدث بينها وبين ألكس. حرصت بشكل خاص على عدم إغضابه، فسُرَّ من هذا، واقتنع أنها أدركت الصواب. لقد فعلت ذلك، ولكن ليس كما اعتقد هو. بقي منشغلاً هو الآخر. فسافر إلى بوسطن وأتلانتا وقام برحلة سريعة أخرى إلى شيكاغو. وبقيت فيث مشغولة بدروسها. ولم يكن المنهجان الآخران اللذان سجّلت اسمها فيهما سيبدأن حتى شهر كانون الثاني. بدأت تحضّر لمناسبة الشكر، وشعرت بالبهجة لقدوم إيويز وزوي. تحدثت إلى براد مرة أو مرتين، وأرسل إليها رسائل إلكترونية غير منتظمة. فقد كان غارقاً حتى أذنيه في العمل على محاكماته، فلم تسمع شيئاً منه حتى انتهت المحاكمات قبل مناسبة الشكر بيومين. مما أبهجها كثيراً وأراحه هو، فقد تمكّن من تبرئة موكله من تهمة القتل من الدرجة الأولى. واتُّهم بالقتل غير المتعمّد، ومُنح تعليقاً لعقوبته لمدة ثلاث سنوات مع الأخذ بالاعتبار الوقت الذي أمضاه في سجن المقاطعة لسبعة أشهر قبل محاكمته. وحقق ذلك نصراً عظيماً لبراد.

اعترف لها في مكالمته الأولى لها بعد صدور الحكم قائلاً: "لقد بدا الحكم وشيكاً. وقد درست هيئة المحلفين القضية لستة أيام. كانت أم الفتى المسكينة في حالة هستيرية تقريباً، كان الفتى خائفاً حتى الموت. وكذلك أنا في الواقع. وبدا من الصعب أن أتوقع ما سيكون عليه قرارهم. جرت الكثير من المناقشات في كلا الجانبين. ولكن خير الأمور أحمدها مغبة. وسيحظيان بمناسبة شكر سعيدة جداً. ماذا عنك أنت؟".

"ستصل الفتاتان إلى البيت غداً. ولا أطيق الانتظار لأراهما. وسنتناول العشاء معاً، نحن الأربعة". لم يكن لهم أي أقارب. فقد توفي والدا ألكس قبل سنوات. وتوفي جميع أفراد عائلتها هي الأخرى.

سألته وهي مسرورة للتحدث إليه: "ماذا ستفعل، يا براد؟". لم تكن قد تحدثت إليه منذ بضعة أيام. أصبح التحدث إليه عادة من عاداتها التي تعتز بهـا في الشهر الماضي. وبدا من الصعب أن تصدق أنه اختفى من حياتها لسنوات عديدة. شعرت أن ذلك أشبه بالعثور على أخ ضائع منذ أمد بعيد. وأحبت التحدث إليه. فقد منحها نصيحة جيدة وإحساساً هائلاً بالثقة بالنفس. ووضـعته علـى رأس لائحة الأمور التي ستشعر بالامتنان من أجلها في مناسبة الشكر بالإضافة إلى ابنتيها.

رد بـراد علـى سـؤالها وقـد بدا متعباً: "ستعدّ بام عشاء ضخماً". كان الأسـبوعان الماضيان مرهقين بالنسبة إليه خلال المحاكمة وانتظار الحكم، ناهيك عـن سـاعات التحضير التي قام بها قبل ذلك. ثم تابع براد: "أعتقد أن ثلاثين أو أربعـين شخـصاً سيحضرون. لست متأكداً من عددهم، فقد فقدت اهتمامي بذلك مـنذ بعـض الـوقت. ودعت بام عدداً من الأشخاص الذين يعملون في مكتبها. سـيكون والدها هنا بالطبع مع زوجته وأولادهما وبعض الأصدقاء القدامى وعدد من الأشخاص الذين لم ألتق بهم في حياتي، وهم على الأرجح أفراد في المجالس واللجان التي تنتمي إليها. إن بام تحب أن تحيط نفسها بكثير من الناس".

سألته فيث بلطف قائلة: "وماذا عنك؟". لطالما هدّأ صوتها من روعه. فقـد كانـت إحـدى أولئك الناس الذين ينشرون السلام ويمنحون الراحة للآخرين، ولطالما تحلّت بميزة الأمومة تؤثر فيه، وفي الوقت نفسه بجانب أنثوي ساذج يجعلها تبدو أصغر من سنها الحقيقية.

"أتـريدين الصراحة؟ إنني أفضل أن أمضي المناسبة بهدوء مع عدد قليل من الناس الذين أحبهم فعلاً. لكن بام ستشعر أنها مخدوعة إن لم تحول المناسـبة إلى حدث ضخم. هذه هي الطريقة التي تتعامل بها مع الأمور. يجب عليّ أن أعود إلى العمل في المكتب في الصباح التالي على أي حال. فلديّ الكثير لأتابعه قبل أن أنشغل بالمحاكمة".

"فـي مناسـبة الـشكر؟ ألا تستطيع أن تنال إجازة في عطلة نهاية الأسبوع؟ إنك تبدو خائر القوى".

فابتـسم وقال: "إنني كذلك فعلاً، يا فيث. فأنا منهك جداً. ولكنّ هناك أولاداً آخـرين يعتمدون على مساعدتي. ولا أستطيع أن أتجاهل قضاياهم من أجل العطلة. فيمكنني أن أستفيد من الوقت لأنجز بعض العمل".

"ماذا عن الشابين؟ هل سيأتيان إلى البيت؟".

"هذه مسافة طويلة ليقطعاها، لذا سيبقى جايسن وديلن في زامبيا. ولا أستطيع أن ألومهما. سأحاول أن أذهب إلى هناك لأراهما بعد رأس السنة، إن اسـتطعت إلـى ذلـك سبيلاً. ولا بد من أن المكان هناك مدهش. فهما يحبانه كثيراً. هل سبق وذهبت إلى هناك؟".

"كلا. ولكن ألكس ذهب إلى هناك في رحلة سفاري مع مجموعة من الأصدقاء قبل بضع سنوات. أردت أن أذهب معه، ولكن لم تذهب أي من زوجات أصدقائه. فذهبت في رحلة إلى برمودا بصحبة الفتاتين عوضاً عن ذلك".

قـال براد مبتسماً: "هذا يبدو حضارياً أكثر". ثم سألها وهو يتثاءب. "متى ستحتفلين بمناسبة الشكر؟". لم يضجره التحدث إليها، ولكنه كان متعباً جـداً بعـد المحاكمة. كل ما أراده هو أن يعود إلى البيت، ويأخذ حماماً، ويـندس في السرير. ولكنه أراد أن يتصل بها أولاً، ويحتفل معها بنصره. ممـا يدعـو للاسـتغراب، فقد وجد نفسه في هذه الأيام يقلق بشأنها إن لم يتحدث إليها ويراسلها عبر البريد الإلكتروني كل بضعة أيام.

قالـت إجابـة عن سؤاله: "إننا عادة نتناول العشاء في منتصف فترة العـصر، أي قـرابة الساعة الثالثة. هذا يبدو توقيتاً غريباً، ولكن الفتاتين تحبانه. عند الساعة الرابعة أو الخامسة، يمكننا أن نذهب لمشاهدة فيلم في السينما أو يمكنهما أن تخرجا مع أصدقائهما. ماذا عنك أنت؟".

"سـيقدم العـشاء عـند الساعة السابعة. وسنأكل عند قرابة الساعة الثامـنة. وسأتصل بك قبل أن أغادر المكتب. وستكونين على الأرجح قد انتهيت من تناول عشائك بحلول ذلك الوقت قبل أن أعود إلى البيت وأستعد لمقابلة أصدقاء بام". جعله ذلك يبدو وكأنه غريب في بيته. لقد أصبح كذلك

في تلك الأيام. ثم سألها قائلاً: "بالمناسبة، كيف تسير أمور الكلية؟". كانت قد راسلته عبر البريد الإلكتروني بخصوص ذلك بضع مرات، وبدت له وكأنها تعيش تحدياً وتمضي وقتاً طيباً.

"رائعة، ولكنها مخيفة جداً. فلم أركز انتباهي على أمر هكذا منذ سنوات". وقد كانت تدرس في البيت كلما خرج ألكس.

"إنني فخور بك، يا فرِد". واعتاد أن يكرر قوله هذا غالباً.

أنهيا المكالمة بعد بضع دقائق. ورتبت فيث غرفتي الفتاتين تلك الليلة، ووضعت آنية مليئة بالزهور المتفتحة من أجلهما. أرادت أن يكون كل شيء مثالياً لدى عودتهما. شعرت بالسعادة والبهجة عندما عادت إلى غرفتها. أرادت أن تقول شيئاً لألكس، ثم أدركت أنه غط في النوم والكتاب بين يديه. فوضعته بلطف على الطاولة بجانب السرير. بدا مسالماً ووسيماً وهو مستلقٍ. فلم يسعها إلا أن تتساءل عن سبب بروده في بعض الأحيان وقسوته عليها وعلى الفتاتين. ثم فكّرت فجأة في تشارلز آرمسترونغ. فمن بعض النواحي، لم تكن وجهات نظر ألكس مختلفة كثيراً عن أفكاره. فقد كانت لديه توقعات مبالغ فيها من الأولاد لا تراعي رغباتهم وطموحاتهم. وأرادهم أن يعملوا بجد وأن ينالوا درجات جيدة وينجحوا في حياتهم. كان ذلك ما طلبه تشارلز من جاك وهو صغير بالرغم من أنه توقع منها هي القليل لأنها مجرد فتاة. كانت لدى ألكس نفس الأفكار قديمة الطراز بالرغم من أنه عدّلها نوعاً ما لأنه أنجب فتاتين وليس فتيين، وتوقع منهما بقدر ما يتوقع من الأبناء. لكنه عامل فيث بنفس الطريقة التي عامل بها تشارلز والدتها، كأنها غير موجودة في بعض الأوقات أو كأنها نوعاً ما أقل كفاءة منه بكثير. كانت تلك طريقة توحي بالازدراء أزعجتها وهي طفلة. وأزعجها أن أمها سمحت لتشارلز أن يعاملها بتلك الطريقة. أدركت فيث الآن أنها فعلت الشيء نفسه، إذ سمحت لألكس أن يحط من قدرها، وينتقدها، ويقلّل من قيمتها، ويتجاهلها. وبسماحها له أن يمنعها من الذهاب إلى كلية الحقوق فعلت شيئاً كانت والدتها لتفعله. بينما هي تتمدد على

السرير بجانبه وهو يشخر بصوت خافت، عاهدت نفسها ألا تسمح له بفعل الشيء نفسه لها. فقد بدأ الوضع يسلك مسلكاً آخر.

لم يسعها إلا أن تتساءل إن كانت قد تزوجت ألكس بسبب شبهه بتشارلز. فقد كان صمته وبروده مألوفين بالنسبة إليها بالرغم من أن ذلك لم يكن ظاهراً في البداية. لكنّ شيئاً لا بد من أنه حرك وتراً في داخلها. ما أخافها الآن هو أنها أصبحت مثل أمها، وهذا بالضبط ما لم ترده أن يحدث. كان الاختلاف الرئيسي بينهما هو أن أمها انتحبت، وتذمرت، وأصبحت قاسية وصبورة على الأذى في نهاية المطاف. كان ذلك آخر شيء أرادت فيث أن يحدث لها. إذ بدت أمها عاجزة أمام أساليب تشارلز المهيمنة، هذا كان مثالاً لم تود فيث أن تعطيه لابنتيها. فقد أرادت أن تبدو ذات كرامة، ونزاهة، وقوة بالنسبة إليهما. لكنها في نضالها في سبيل العودة إلى الجامعة، بدت بالنسبة إليهما كمن يخوض معركة لم يرد لها ألكس أن تفوز بها. وظلت المعركة صامتة بينهما لسنوات. فقد كان رجل الجليد، كما وصفته زوي. والمحزن في الأمر هو أنه لم يكن هكذا كلياً، بل كان هناك ركن دافئ في مكان ما داخله عرفته فيث وأحبته منذ بداية زواجهما. ولكن هذا الركن الدافئ يكمن تحت قناع من البرود الجليدي مع مضيّ السنوات، وبات من الصعب أن تصل إليه بعد الآن، ولكنها اعتادت أن تلمح بصيصاً منه بين الحين والآخر.

بينما هي تستغرق في النوم تلك الليلة، تمنت أن تحمل مناسبة الشكر مفاجآت سارة. لم يكن هناك سبب يمنع ذلك وخاصة بوجود الفتاتين. شعرت أنها أصبحت مرة أخرى مفيدة فجأة بتواجدها معهما. فهما تحتاجان إليها، أو أنهما على الأقل كانتا تحتاجان إليها، وستصبحان كذلك الآن ولو لأيام قليلة. جعلها مجرد معرفة أنهما في البيت تشعر بالأمان والسعادة والحب، وأحزنها أن تدرك أن ألكس لم يعد يولّد تلك المشاعر في نفسها بعد الآن. كان الفرح الوحيد الذي بقي في حياتها هو ابنتيها.

* * *

الفصل الخامس

دهشت فيث لأن ترى أن كلا من إلويز وزوي قد كبرتا لتصبحا امرأتين شابتين مستقلتين في غضون أشهر قليلة مرت على مغادرتهما المنزل. كانت إلويز قد غادرت إلى لندن في شهر أيلول، وغادرت زوي إلى كلية براون في شهر آب. فتغيرت كلتاهما تغيراً جذرياً في وقت وجيز بشكل ملحوظ. بدت إلويز فجأة عصرية وحديثة الطراز. إذ إنها خسرت بعض الوزن، واشترت بعض الملابس الجديدة من المتاجر الصغيرة في لندن، وأصبحت متيمة بعملها الجديد، والتقت بعدد من الأشخاص الجدد، وتعرفت إلى صديق جديد، وهو شاب إنكليزي يعمل في مزاد كريستي. بالرغم من أن فيث سرت لرؤيتها ناجحة، فقد آلمها أن تدرك أن عشّها أصبح فارغاً فعلاً، وسيبقى على هذه الحال. تحدثت إلويز عن رغبتها بالمكوث في لندن لعامين أو ثلاثة أعوام، إن لم يكن لأكثر من ذلك وربما أن تعمل في وظيفة في باريس أو فلورنسا بعد ذلك. فقد أحبت ما تعلّمته والناس الذين عملت معهم. وكان كل شيء يسير على ما يرام في عالمها.

أحبت زوي كلية براون من كل قلبها. فقد شكّلت كل شيء تمنته. وخطّطت لمتابعة منهج دراسيّ في الفنون الجميلة واختصاص ثانوي في الاقتصاد. أرادت أن تدير معرضاً فنياً في نهاية المطاف أو أن تفتتح مؤسسة تشتري الأعمال الفنية لصالح الجامعين المهمين. سبق ووضعت أهدافها نصب عينيها حتى وهي في سن الثامنة عشرة.

غمرت فيث بهجة عارمة لأن تحظى بهما في البيت. فقد أصبح المنزل مفعماً بالضجيج والضحك مرة أخرى، وأخذت الأبواب تُفتَح وتغلَق،

والفتاتان تجريان صاعدتين ونازلتين الدرج، وسمعت صوتيهما في المطبخ في وقت متأخر من تلك الليلة. كان ألكس قد سبق وخلد إلى النوم بحلول ذلك الوقت بعد أن أجرى مع إلويز محادثة طويلة هادئة في غرفته الخاصة بينما ثرثرت فيث مع زوي في غرفتها. ثم نزلت فيث الدرج على أطراف أصابعها بهدوء لتنضم إلى الفتاتين.

قالت زوي وهي تنظر إليها وقد علت وجهها ابتسامة عريضة: "مرحباً، يا أمي". كانت جالسة إلى الطاولة وهي تأكل المثلجات من العلبة بالملعقة بينما جلست إلويز باسترخاء على أحد الكراسي وهي ترتشف الشاي من فنجانها.

قالت فيث لهما مبتسمة: "من الجميل أن أراكما هنا، أيتها الفتاتان. فقد بدا هذا المنزل موحشاً من دونكما" وعرضت عليها زوي ملعقة من المثلجات فأكلتها، ثم قبّلت شعر زوي الطويل الذي يصل حتى خصرها. كانت إلويز قد قصّت شعرها قصيراً، وبدا جميلاً.

سألت وهي تجلس إلى الطاولة مع إلويز وتبتسم لها: "ماذا ستفعلان في عطلة نهاية الأسبوع هذه؟". كانت إلويز فتاة جميلة وأطول قامة بقليل من أختها الصغرى. وكانتا قد ورثتا طول ألكس ونحوله وجسم والدتهما المثالي، كما كان وجهاهما براقين كالمجوهرات. طُلِب منهما أن تعملا في مجال عرض الأزياء في أوقات مختلفة، ولكنهما لم تهتما لذلك، مما شكّل راحة كبيرة لفيث. فقد اعتقدت أن هذا العالم مخيف ومليء بأناس يودون استغلالهما، وينطوي على الكثير من الأخطار المتجسدة في الرجال والمخدرات. أدركت تماماً أن الحظ حالفها بكلتا الفتاتين.

قالت زوي بسعادة: "سأقابل جميع أصدقائي. فقد عادوا جميعاً من كلياتهم".

وقالت أختها الكبرى: "كذلك أنا. فهناك عدد من الناس الذين أريد أن أقابلهم". وبالرغم من أن عدداً من أصدقائها قد أصبحوا موظفين في أعمال في مدن أخرى أو التحقوا بإحدى الكليات لمتابعة الدراسات العليا، فكثير

منهم لا يزالون في نيويورك. فهي عملت لصالح مزاد كريستي لسنتين في نيويورك قبل نقلها. وبدت تلك الوظيفة مثالية بالنسبة إليها.

قالت فيث بحزن: "أتمنى لو أنكما تستطيعان أن تبقيا لمدة أطول. فمن اللطيف أن أحظى بكما في البيت. ولا أعرف ماذا سأفعل من دونكما".

قالت إلويز بلهجة عملية: "ينبغي أن تحصلي على وظيفة أمي". فلم تتطوع فيث بإخبارها أنها عادت إلى الكلية وأنها تحضّر للخضوع لامتحان القبول في غضون بضعة أسابيع. بحلول ذلك الوقت كانت زوي تتحدث عبر الهاتف مع إحدى صديقاتها فلم تسمع ما قالته أي منهما.

قالت والدتها بطريقة غير مبالية: "قد أفعل هذا يوماً ما. ويعتقد والدك أنه ينبغي عليّ أن أقوم بالأعمال الخيرية".

قالت إلويز وهي ترتشف الشاي: "سيكون هذا لطيفاً". فلم ترد أن تعارض ما قاله والدها. فقد اعتادت أن تتفق معه في المبدأ. لطالما فعلت ذلك. بالمقابل، اعتادت زوي أن تنتقده تقريباً في كل شيء يقوله ويفعله. فقد كانت تشعر أنه لم يتواجد إلى جانبها أبداً، في حين أن إلويز كانت تعتبره والداً مثالياً. كانت تميل أكثر إلى انتقاد فيث. وقد تشاجرت معها بشدة في أثناء سنوات مراهقتها على عكس زوي التي بدت تربيتها سهلة بالنسبة إلى فيث، ولا تزال كذلك. بالرغم من شدة التشابه بينهما إلا أن الفتاتين كانتا تتمتعان بشخصيتين مختلفتين ووجهات نظر متباينة حيال كل شيء.

جلست الثلاث في المطبخ لساعة وهن يثرثرن من دون التحدث عن أي شيء محدد. أخيراً، وضعت فيث الأطباق في آلة غسيل الأطباق وأطفأت الأضواء. ثم صعدت كل واحدة منهن إلى غرفتها. تمددت فيث على السرير إلى جانب ألكس، ونامت نوماً عميقاً كالأطفال وهي مطمئنة لكون الفتاتين في البيت. مع بزوغ فجر اليوم التالي، نهضت كي تحضّر الصلصة، وتضع الديك الرومي في الفرن، وتجهّز كل شيء قبل أن ينزل الجميع إلى الطابق السفلي.

تناولوا فطوراً متأخراً، وجلسوا ليقرأوا الصحيفة وهم يرتدون ثياب النوم، بينما تفقدت فيث الديك الرومي، وأعدّت المائدة في غرفة الطعام. عرضت زوي عليها المساعدة، وجلست إلويز لتتحدث إلى أبيها. ساد جو مريح ومبهج استمتعوا به جميعاً. حتى ألكس بدا مسروراً وهو يمضي وقته معهنّ. وحلّ الظهر عندما صعدوا جميعاً إلى غرفهم لارتداء ملابسهم. كانوا عادة يجتمعون في غرفة الطعام عند الساعة الثانية يوم مناسبة الشكر ويتناولون الطعام عند الثالثة.

عندما عادت الفتاتان إلى الطابق السفلي كانتا قد ارتدتا ملابسهما ووضعتا زينتهما وقد بدتا جميلتين جداً، جلستا بجانب والدهما لمشاهدة مباراة كرة القدم برفقته. كانت إيلي إحدى أكبر مشجعات كرة القدم، وأخبرت أباها أنها حضرت عدة مباريات رُغبي مع أصدقائها وأن الوضع ليس شبيهاً بمشاهدتها معه. وهبّت زوي لمساعدة أمها في المطبخ، وبحلول الساعة الثالثة، أشعلت الشموع، وبدت المائدة جميلة، وأصبحوا جميعاً مستعدين للجلوس لتناول وجبتهم. لم يكونوا يتناولون الغداء أو العشاء في ذلك اليوم عادة. وعوضاً عن ذلك، كانوا يتناولون بقايا الوجبة في وقت متأخر من الليل، وأصبح هذا تقريباً تقليداً بالنسبة إليهم بعد تناول الوجبة الضخمة التي أعدّتها فيث. بدت وليمة مناسبة شكر تقليدية كالتي تظهر في المجلات. فقد كان الديك الرومي بلون العسل المائل إلى الذهبي. وكانت هناك بطاطس حلوة، وحلوى مارشميلو، وسبانخ، وبازلاء، وبطاطس مهروسة، وحشوة، وصلصة التوت البري، وفستق مهروس، وكعكة يقطين، وتفاح للتحلية. وكانت تلك وجبة الجميع المفضلة في هذا الوقت من السنة.

تلت فيث الدعاء كعادتها، وقطع ألكس الديك الرومي وثرثر الجميع بحيوية. وأحزن فيث أن تفكر في السنوات التي مضت عندما تواجد جاك وديبي وتشارلز ووالدتها معهم. شعرت بالغرابة لأنها تفكر في كل من رحل، ولم يبقَ لديها إلا أفراد عائلتها المقرّبون، ولكنها حاولت ألا تفكر في

ذلك وهي وألكس يثرثران مع الفتاتين. فتحدثوا عن كل شيء من التجارة إلى السياسة إلى الكلية. كانوا يتناولون التحلية عندما نظر ألكس إلى فيث، وأخبر ابنتيه مع نظرة ساخرة أن والدتهما فكرت في العودة إلى الكلية. وقال ذلك وكأن ما فكرت فيه أمر يدل على الحماقة، وبدا مسروراً جداً.

"لقد استعادت وعيها لحسن الحظ. فقد انتابتها فكرة حمقاء تتعلق بالعودة إلى كلية الحقوق حتى أشرت إليها أنها كبرت قليلاً على ذلك. فستتناول سندويشات زبدة الفستق لمناسبة الشكر العام القادم بينما تدرس هي لامتحاناتها". فضحكت إلويز بينما بدت فيث مجروحة الشعور، وحدجته زوي بنظرة غاضبة. فذلك كان من الأمور التي كان يفعلها دائماً، وكانت تكرهها. فقد أزعجها أن يحطّ والدها من قدر أمها، وهذا ما اعتاد أن يفعله مراراً وتكراراً.

قالت زوي بجفاء: "لا أعتقد أن في ذلك خطأ أبي". وأخذت تحدّق إليه عبر الطاولة بنظرة مصممة. أرادت أن تحيط أمها بذراعيها وتحميها منه، وثارت ثائرتها عندما سمعته وهو يقلل من قيمتها. لطالما فعل ذلك لزوي أيضاً. ثم تابعت قائلة: "أعتقد أنها فكرة رائعة". ثم التفتت إلى والدتها التي بدت مستاءة، وقالت لها: "آمل أنك لا تزالين تنوين أن تتابعي الأمر أمي". تحدثتا عن الأمر عدة مرات وأرادت زوي أن يعلم والدها أنها موافقة على الأمر. فبدا منزعجاً حالما تحدثت زوي، ولكن هذا لم يعنِ لها شيئاً. فهي لم تخف منه. وكانت تتمتع بآرائها الخاصة.

"سنرى، يا عزيزتي. فوالدك يعتقد أنني لن أتمكن من أن أقوم بالأمور التي يجب عليّ القيام بها من أجله بالرغم من أنني أعتقد أنني أستطيع ذلك. سنتحدث في الأمر مرة أخرى في وقت ما". حاولت أن تبقي المحادثة مستمرة بينما أخذ ألكس ينظر إليها بحدة عبر الطاولة.

"ليس هناك شيء لنتحدث عنه يا فيث. فقد حسمنا الموضوع قبل بعض الوقت. أعتقد أننا اتفقنا". فلم تعرف ما تقوله له. ولم ترد أن تكذب عليه ولا أن تشن حرباً في يوم مناسبة الشكر في أثناء وجود الفتاتين في البيت.

لم تشعر أنها مستعدة لتخبره أنها تأخذ دروساً في كلية نيويورك للتعليم المستمر، وتدرس لتخضع لامتحان القبول في شهر كانون الأول. بدا المكان والوقت غير مناسبين لتناقش الموضوع معه، ولكن بدا عليه أنه يريد أن يضخّم المسألة أمام الفتاتين ليوضح لهما أنه يملك الكلمة الفصل في الأمر. لكن زوي وقعت في الفخ حتى قبل أن تتمكن فيث من أن تردّ عليه.

"أعتقد أنه ينبغي أن تلتحق أمي بكلية الحقوق. فكل ما تفعله هو أنها تجلس هنا وتنتظر عودتك إلى البيت أبي. هذه ليست حياة حقيقية لتعيشها. أنت تسافر كثيراً على أي حال. فلِمَ لا ينبغي عليها أن تصبح محامية إن كان هذا هو ما تريد أن تفعله؟". فتأثرت فيث بدفاع ابنتها عنها، ولكنها أرادتهما أن يبتعدا عن الموضوع بأسرع وقت ممكن قبل أن يتحول إلى شجار، وهذا ما كان سيصبح عليه بشكل مؤكد.

قال ألكس بعناد: "لقد كبرت على مهنة المحاماة، كما أن لديها وظيفة بدوام كامل الآن. فهي زوجتي. وينبغي أن يكون هذا كافياً لها. وأعتقد أنها تعرف ذلك". راح ألكس ينقّل نظره بتجهّم بين زوي وفيث. وحدقت إلويز إلى بقايا طبق التحلية وهي غير راغبة بأن تخوض المناقشة قدر المستطاع. اعتقدت أنه ينبغي على والدتها أن تعمل في وظيفة بنصف دوام أو تقوم بعمل تطوّعي. بدت كلية الحقوق صعبة بعض الشيء بالنسبة إليها هي الأخرى.

قالت فيث وقد بدت متألمة: "لِمَ لا نناقش هذا عندما لا تكون الفتاتان هنا، يا ألكس؟". فهي لم ترد لهذا الشجار أن يفسد الوقت القليل الذي يمضونه معاً، ولا سيما في يوم مناسبة الشكر. ولكنه نظر إليها بحدة.

وقال بصوت مرتفع: "لقد حسم الموضوع، يا فيث. وقد أردت أن أخبر الفتاتين بما فكّرت فيه. ولكنه أمر سخيف. أنت تعرفين ذلك. ولم يعد خياراً متاحاً. اعتقدت فقط أنهما ستسرّان لأن تسمعا أنك فكّرت في ذلك". فشعرت بالإذلال للطريقة التي قال بها ذلك، وغضبت رغماً عن نفسها.

فقالت له بحدة: "إنه ليس سخيفاً، يا ألكس. وأنا جادة حياله، وأعتقد أنها فكرة عظيمة جداً". بدا مصعوقاً بينما بدأت إلويز تشعر بعدم الراحة بشكل جدي. كانت تكره أن ترى والديها على خلاف. وبدت زوي غاضبة نيابة عن والدتها وأشبه ببركان على وشك أن ينفجر عندما تدخّلت أختها الكبرى.

"أعتقد أن هذا كثير عليك لتنجزيه أمي. فأصدقائي الذين يدرسون في كلية الحقوق جميعهم يكرهونها، وهم غارقون في العمل وبالكاد يستطيعون أن يتدبروا أمرهم. إن والدي على حق. فستعانين من وقت عصيب لتتواجدي هنا من أجله". بدت حجة منطقية ضد الأمر بالنسبة إليها، ولكنها جعلت زوي تستشيط غضباً.

"ربما تكون هذه تضحية يجب على والدي أن يقدمها من أجلها لمرة واحدة. فهذه فكرة جيدة". نقّلت نظرها بشكل خاطف بين إلويز ووالدها. وشعرت فيث بالفزع للمسار الذي اتخذته المحادثة، ونظرت إلى زوي بإعجاب، ولكنها حاولت أن تغير مجرى الموضوع قبل أن يتفاقم أكثر من ذلك.

"أعتقد أنه سيتوجب عليّ وعلى الدكما أن نحسم هذه المسألة وحدنا، ولكن شكراً لك يا عزيزتي. فليس علينا أن نقرر بخصوص هذا الآن". لطالما كانت فيث صانعة السلام بالرغم من أن قلبها أخذ يقفز في صدرها لما قالته.

"لقد سبق وفعلنا ذلك، يا فيث. وحسم الأمر".

قالت فيث بمنطق: "إذاً، ما كان ينبغي عليك أن تطرحه. فأنا لم أكن لأفعل ذلك. في الحقيقة، لم يحسم الموضوع بعد. فقد أرسلت الاستمارات من أجل حضور منهجين في كلية نيويورك للتعليم المستمر. وسأبدأ الدراسة في شهر كانون الثاني". لم تخبره أنها كانت ستخضع لامتحان القبول كي تلتحق بكلية الحقوق إن أرادت ذلك. لكنها لامت نفسها لقولها ذلك. فهي لم ترد أن تبدأ حرباً معه وتفسد مناسبة الشكر، لكنه تعامل معها

بفوقية وإذلال بحيث إنه لم يسعها أن تمنع نفسها من إخباره أنه لا يتولى السيطرة الكاملة عليها. ندمت على ذلك على الفور عندما ضرب بقبضته على الطاولة، وجعل كل الأدوات على المائدة تتحرّك من مكانها، وكلتا الفتاتين تجفلان. فقد صُعقتا من شدة عنفه، كما فعلت فيث. وسواء أرادت ذلك أم لا، فقد بدأت الحرب بينهما مرة أخرى. وكانت هذه حرباً على السيطرة، ولم يكن ينوي أن يخسرها.

"اسحبيها، يا فيث. اتصلي بالكلية. فليس هناك هدف من فعل ذلك. لن تذهبي إلى كلية الحقوق، هذا أمر محسوم. فأنا لن أتحمل هذا". أرادت فقط أن تخضع للدروس كي تحضّر نفسها للانتساب إلى كلية الحقوق في فصل الخريف، وتعود إلى نمط المدرسة. بالإضافة إلى ذلك، فقد بدا ذلك اهتماماً أكثر ذكاء بكثير من تناول وجبات الغداء والتسوّق مع صديقاتها.

صاحت زوي قائلة: "من تعتقد نفسك؟". فنهض والدها على قدميه وهو يستشيط غضباً.

صاح قائلاً: "كيف تجرئين على التحدث إليّ بهذه الطريقة!". بدأت الدموع تملأ عيني فيث. فهي لم ترد لذلك أن يحدث. بل أرادت أن يبدو كل شيء مثالياً لهما وهما في المنزل. شعرت وكأن ذلك خطأها هي لأنها موضوع الجدال.

قالت فيث بلطف: "من فضلك زوي!"، وحاولت أن تهدئها، ولكن ألكس استشاط غضباً مما قالته. شكّل ذلك ذروة المعارك القديمة التي دارت بينهما، ولطالما اعتادت زوي أن تنتقده منذ طفولتها. ولكن ذلك كان أكثر كلام صريح تفوهت به، ولم تستطع أن تتحمل الطريقة التي تحدث بها إلى والدتها. عانت فيث من وقت عصيب وهي تدافع عن نفسها، وها هي سنوات الانتقاد والهيمنة التي عانتها وهي طفلة تدقّ ناقوسها من جديد.

قالت زوي وهي تلتفت إلى أمها وعيناها تفيضان بالدموع: "كلا، يا أمي. إنني لا أعرف كيف يمكنك أن تسمحي له أن يتحدث إليك بهذه الطريقة. إن هذا يثير اشمئزازي. إن لم تطلبي منه أن يتوقف، فسأفعل أنا".

ثــم التفتت إلى ألكس وهي ترتجف من الغضب، وقالت: "إنك لا تحترمها أبــداً، ولطالمـــا كــنت كذلك. كيف يمكن لك أن تعاملها بهذه الطريقة؟ ألا تــستطيع أن تعاملها ككائن بشري بعد كل شيء فعلته من أجلك ومن أجلنا جمــيعاً؟، متى سيحين دورها كي تعامَل باحترام؟ إن أرادت أن تذهب إلى كلية الحقوق، فلمَ لا تفعل ذلك؟ وبصراحة، إنني أفضل أن آكل النقانق العام المقبل طالما أنا على يقين أنها سعيدة".

تحدثت إلويز فجأة وهي متعالية ومغتاظة، بينما تمنّت فيث أن تمتلك عــصا سحرية لتلوح بها وتجعلهم جميعاً يحسنون التصرف، فقالت لأختها الصغرى: "إنك دائماً تفسدين كل شيء. وأنت دائماً مجحفة بحق والدي".

"بحق الله، انظري إلى الطريقة التي يعامل بها أمنا! أهذا صواب من وجهــة نظرك؟ أتعتقدين أن هذا هو ما تستحقه؟ إن والدي ليس مثالياً، كما أؤكــد لك، يا إلويز. فهو مجرد رجل عادي. وهو يعامل أمنا معاملة سيئة جداً".

صــاحت فــيث علــيهم قائلة: "توقفوا!". فقد بدأوا جميعاً يتصرفون بطريقة بغيضة، والأسوأ من هذا أنهم فعلوا ذلك نيابة عنها. انتهت الوجبة بحلــول ذلــك الوقت، ولكنها تركت ذكرى سيئة لم يكن أحد سينساها على الإطــلاق، وكــل ذلــك لأن ألكس قد ذكر أن فيث أرادت أن تلتحق بكلية الحقــوق. غضبت من نفسها لأنها صاحت في وجهه، وسببت جواً عدائياً تأثرت به الفتاتان. شعرت أنه كان ينبغي عليها أن تتصرّف بشكل أفضل، وحطّمها أن تكون قد تسبّبت بهذا الوضع الذي أثار استياء الجميع. من دون أن يــتفوه بكلمة واحدة، خرج ألكس من الغرفة بغضب، وتوجه نحو غرفة مكتبه، وأغلق الباب بشدة.

صـــاحت إلويز في وجه أختها الصغرى قائلة: "الآن انظري إلى ما فعلته. لقد أفسدت كل شيء بالنسبة إلى والدنا".

صاحت زوي بغضب قائلة: "هراء! إنك دائماً تحمينه، ولكنه هو من بدأ هذا. قام بإذلال أمي أمامنا. كم قد يكون هذا ممتعاً بالنسبة إليها؟".

عاتبت إلويز أمها قائلة: "ما كان ينبغي عليك أن تخبريه أنك أرسلت الاســتمارات. لقد علمت أن هذا سيثير استياءه. لماذا أخبرته بذلك؟". بدأت الدموع تنهمر من عينيها هي الأخرى.

قالــت فيث بلهجة اعتذارية: "لأنني كنت مستاءة". أرادت منهما أن تهــدئا مـــن روعهما. كانت تكره أن تراهما تتشاجران ولا سيما بسببها، لطالما شعرت بالذنب إن فعلتا ذلك. ثم قالت: "لقد كنت سأخبره في نهاية المطــاف علـــى أي حـــال إن قررت أن ألتحق بالكلية، ولكنني لم أتخذ قراري بعد". شعرت أنها مشتتة بين إرادتها أن تتخذ موقفاً حاسماً وعدم رغبـــتها بإثــــارة اســـتيائه. كـــان لا يزال في وسعها ألا تذهب لحضور الـــدروس أو حتـــى لخوض الامتحان الذي سيجري في غضون بضعة أسابيع.

لامت زوي أمها قائلة: "من الأفضل أن تذهبي أمي. إنني لن أسامحك أو أســـامح والدي قط إن لم تفعلي ذلك. فهذا هو ما تريدين القيام به. أنت تتمتعـــين بالحـــق لتفعلي ما تريدينه بقدر ما نملك نحن أو والدي الحق في فعل ما نريده".

"لـــيس إن أثـــار ذلـــك استياء والدك إلى هذا الحد أو تسبب بمشاكل وفوضـــى بينكما أنتما الاثنتين". بدت فيث مفطورة الفؤاد. لماذا يجب على أمر منطقي تماماً بالنسبة إليها أن يأتي على حساب كل شيء آخر؟.

قالت زوي وهي تحدج إلويز بغضب: "سيتجاوز الأمر". كانت تكره أن تدافع أختها عن أبيها عندما لا يكون على صواب. لطالما دافعت إلويز عـــنه فـــي كل الأوقات، هذا ما بدا غير منطقي بالنسبة إليها. قالت وإلويز تخـــرج مـــن الغرفة: "لوالدتي الحق في أن تكون لها حياتها الخاصة هي الأخرى". وذهبت إلويز لمواساة والدها.

عندئذ أخذت فيث تنظف الطاولة والدموع تنساب على خديها، وقالت بتعاســـة: "إننـــي أكره أن تتشاجرا، أيتها الفتاتان". وضعت زوي ذراعها حولها، وضمتها بحنان وهي ترتب الصحون وذهنها مشوش.

"إنني أكره أن يعاملك بهذه الطريقة المهينة. فلطالما فعل ذلك. وهو يفعله فقط كي يعذّبك ويحرجك أمامنا".

قالت فيث وهي تضع الأطباق، وتضم زوي إلى صدرها: "إنه لا يعذّبني. ولكن شكراً لك لدفاعك عني. ويبدو أن فكرة عودتي إلى كلية الحقوق أثارت استياء الجميع. وهذه هي طبيعة والدك". سامحته فيث بسهولة أكثر بكثير مما كانت زوي لتفعل على الإطلاق، وأساء هو معاملتها لسنوات، مما كان سيتطلب منها وقتاً طويلاً كي تتجاوز هذه الإساءة. كانت فيث تكره هذا أيضاً، ولكنها لم تستطع قط أن تقنع زوي بعكس ذلك. فلطالما كان ألكس قاسياً معها لوقت طويل.

قالت زوي: "إنه مغرور ولا يراعي مشاعر الآخرين ومتكبر وعديم الاحترام وبارد المشاعر". كررت ما اعتبرته عيوباً رئيسية فيه عندما دخلت إيلي الغرفة. فقد أخبرها والدها أنه يريد أن يبقى بمفرده.

فقالت إلويز عبر الغرفة: "وأنت حقيرة!".

صاحت فيث عليهما قائلة: "توقفا، أيتها الفتاتان!". ثم جمعت الأطباق، وغادرت غرفة الطعام. بدت تلك نهاية أشبه بالكابوس لما يفترض أن يكون عصر يوم رائعاً. تبعتها زوي إلى المطبخ عندئذٍ، وصعدت إيلي إلى الطابق العلوي لتتصل بأصدقائها. شعرت فيث بالتعاسة للكارثة التي حلّت بهم عصر ذلك اليوم.

قالت زوي معتذرة: "إنني أكره أن أتركك وأخرج أمي. فيفترض بي أن أقابل بعض الأصدقاء عند الساعة السادسة". وقد حان الوقت تقريباً.

"لا بأس، يا عزيزتي. إنني لا أعتقد أننا سنحل هذه المشكلة الليلة. وآمل أن يكون الجميع قد هدأوا بحلول الغد".

"سيكون الوضع على حاله حينذاك، يا أمي. فهذه هي طبيعته".

"لا يزال والدك. ولا آبه لخلافك معه، ولكن يجب عليك أن تظهري له الاحترام".

قالت زوي وهي غير راغبة بأن تلين: "عليه أن يستحقه أولاً". لطالما تمتعت بالمبادئ والنزاهة. كانت تكنّ الاحترام لوالدتها فقط. فقد خسر والدها احترامها قبل سنوات.

قبّلت والدتها، وبعد عشر دقائق، غادرت المنزل. وبعد بضع دقائق، نزلت إلويز إلى الطابق السفلي حاملة معطفها وحقيبتها.كانت قد حددت موعداً مع أصدقائها. بدت متلهفة للخروج. فقد أصبح الجو العام في المنزل مشحوناً بسبب الشجار الذي حدث عند نهاية الوجبة.

قالت لها فيث بحزن: "إنني آسفة أن الأمور أصبحت صعبة إلى هذا الحد". لقد أرادت أن يكون كل شيء مثالياً بالنسبة إليهما. لم تتوقع حدوث الشجار الذي تسببت به.

قالت لها إلويز بلهجة غير مقنعة: "لا بأس، يا أمي". كانت لا تزال تبدو مستاءة. وكانوا جميعاً كذلك.

قالت فيث معتذرة: "ما كان ينبغي عليّ أن أنفعل مما قاله والدك". ولم تقل لها إنه لم يكن ينبغي عليه أن يستفزها بقوله هذا، كما كانت زوي لتقول. فقد بدا دلالة على قلة الاحترام، سواء أعترفت إلويز بذلك أم لا. ثم قالت فيث: "سيكون كل شيء على ما يرام".

"نعم، أعلم ذلك... وآمل ألا تلتحقي بالكلية أمي، فسيثير هذا استياء والدي كثيراً". وأرادت فيث أن تصرخ قائلة: وماذا عني أنا؟ أي حياة سأحظى بها إن لم أفعل ذلك؟ لا حياة على الإطلاق.

"سنحل المشكلة. فلا تقلقي بشأنها. اخرجي وحسب الليلة، واستمتعي بوقتك. متى تعتقدين أنك ستعودين إلى البيت؟".

ابتسمت قائلة: "لا أعرف أمي". بلغت الرابعة والعشرين من عمرها، وكانت تعيش بمفردها في شقة في لندن. لم تعد معتادة على تفقّد والدتها لأمورها بعد الآن. ثم قالت: "سأتأخر. فلا تنتظريني".

قالت فيث: "لقد أردت فقط أن أعرف متى ينبغي عليّ أن أبدأ بالشعور بالقلق". ثم ابتسمت وقالت: "إنني أحياناً أنسى كم بلغت من العمر".

"اذهبي للنوم. وسأكون بخير". كانت زوي قد قالت إنها ستعود بحلول الساعة العاشرة مساء. واعتادت فيث أن تقلق على الفتاتين عندما تخرجان. فقد كانتا جميلتين وأكثر هشاشة مما تعتقدان.

غادرت إليز بعد بضع دقائق، وأمضت فيث الساعة التالية وهي تنظف الطاولة والمطبخ. وضعت بقايا الطعام في الثلاجة، ونظفت الطاولة، وبدت طاولة غرفة الطعام نظيفة. بدأت آلة غسيل الأطباق تعمل بكل قوتها.

عند الساعة السابعة، نقرت باب غرفة مكتب ألكس. فلم تسمع منه أي جواب لوقت طويل، ولكنها علمت أنه هناك. في النهاية، فتحت الباب، واختلست النظر إلى الداخل. وكان جالساً على كرسي وهو يقرأ في أحد الكتب، فألقى نظرة خاطفة عليها وهو متجهم الملامح.

"أتسمح لي بالدخول؟". كانت تكنّ الاحترام له ولخصوصيته. فتحدثت إليه عبر الغرفة.

وقال لها: "لماذا؟ ليس ثمة ما يقال".

"أعتقد أن هناك ما يجب أن نقوله. إنني آسفة أن الأمور قد خرجت عن مسارها الصحيح. فقد استأت مما قلته لي".

"لقد سبق ووافقت على التخلي عن فكرة كلية الحقوق فيث. وتراجعت في كلامك. ليس هناك هدف من حضورك دروساً هذا الربيع. أعتقد أنها دروس في القانون تلك التي سجّلت اسمك لحضورها، أليس كذلك؟". فأومأت برأسها، وبدا متجهم الوجه وغاضباً وبارد العواطف. شعرت بنفس مشاعر الرفض الباردة التي انتابتها في طفولتها بسبب الرجال الذين مرّوا في حياتها، تجتاحها الآن. لكنها هذه المرة، صمّمت على أن تعالج الوضع بصورة مختلفة.

"إننا لم نتفق على شيء، بل أمرتني أن أفعل ما تريده". جلست على الكرسي المقابل لكرسيه. كانت غرفة مكتبه صغيرة، ودافئة، ومكسوة بالألواح الخشبية، وتحتوي على كنبة وكرسيين كبيرين، وموقد حجري

اعتاد ألكس أن يشعله في ليالي الشتاء، لكن ليس الليلة. فلم يكن يتمتع بالمزاج الملائم لذلك. قالت فيث: "إن هذا مهم بالنسبة إليّ، يا ألكس. فأنا بحاجة إلى هدف جديد في حياتي وسبب لأعيش من أجله، وأصب اهتمامي عليه الآن بعد أن غادرت الفتاتان". أرادت أن تجعله يدرك كم يعني هذا لها، وهي تأمل أن يوافق بعد ذلك.

"لديك هدف في حياتك. فأنت متزوجة بي. إنك زوجتي". كان ذلك هو الدور الوحيد الذي استطاع أن يتخيلها تؤديه. لم تكن لديه النية في أن يغير ذلك الآن. فقد ناسبه سواء أبدا كافياً لها أم لا.

"إنني بحاجة إلى ما هو أكثر من ذلك. فأنت رجل مشغول، ولديك حياتك الخاصة. أما أنا فلا".

قال لها وهو يبدو كئيباً: "هذا وصف حزين لزواجنا". لم تكن توسّلاتها تلقى آذاناً صاغية.

قالت بهدوء: "ربما هو كذلك. وربما هو وصف حزين لي أنا. فأنا بحاجة إلى هدف في حياتي، هدف أكبر من الذي كان لديّ سابقاً. دعنا نواجه الحقيقة. لقد كنت أماً متفرغة لطفلتيّ لأربع وعشرين سنة. والآن انتهت وظيفتي. وهذا شديد الوطأة عليّ".

"هذه هي الحياة. كل النساء يواجهن هذا عندما يغادر أولادهن إلى الكلية".

"إن الكثيرات منهن يحظين بوظائف ومِهَن. وأريد أن أكون واحدة منهن. كل ما يمكنني فعله هو أن أقول لك إنني سأبذل ما في وسعي كي لا أدع ذلك يتعارض مع واجبي تجاهك". وأخذت تتوسل إليه، ولكنه لم يظهر أي دلالة على أنه سيلين.

"ستسوء الأوضاع بالنسبة إلينا كثيراً، يا فيث، إن لم تتراجعي عن هذا".

"لا تهدّدني، يا ألكس. فهذا ليس من الإنصاف في شيء. أنا لم أكن لأفعل هذا بك إن كان الأمر يهمّك بل سأحاول أن أدعمك بقدر استطاعتي".

"من المهم بالنسبة إليّ ألا تلتحقي بالكلية". كانا يسيران في طريقين مسدودين. لم تخطر ببال فيث أي فكرة لمعالجة المشكلة معه أو للحصول على ما تريده منه. كرهت أن تستسلم. وبدا أن هناك الكثير من الأمور لتجازف بها، وليس فقط ذهابها إلى الكلية أو عدمه. فقد كان ذلك يتعلق بالاحترام، والتقدير الشخصي، وحياة جديدة أرادتها لنفسها من كل قلبها، ولكن حياتهما القديمة بدت له باعثة على الراحة أكثر.

"أيمكن أن نؤجل هذا الآن؟". لم تعرف ما تفعل غير ذلك. كل ما كان في وسعها أن تأمل أن يبدّل الوقت مشاعره، فتلين عندما يعتاد على الفكرة.

قال لها: "إنني لن أناقش هذا معك مرة أخرى". ثم أجفلها بما قاله تالياً، فقد قال: "افعلي ما تريدينه، يا فيث. فأنا أعتقد أنك ستفعلينه على أي حال، ولكن لا تتوقعي أي دعم مني. فأنا معارض تماماً لالتحاقك بالكلية. وأريد فقط أن تتوضح الفكرة في ذهنك. فافعلي ذلك على مسؤوليتك الشخصية".

"ماذا يعني هذا؟". وأفزعها تهديده المبطّن على النحو الذي أراده، لا سيّما في لهجته المهدّدة.

"إنه يعني ما قلته". وتساءلت إن كان سيعاقبها بطريقة ما إن عادت إلى الكلية. لكنها في قرارة نفسها، أيقنت أن هذا أمر يستحق المجازفة من أجله ويجب عليها أن تقوم به مهما كلفها من ثمن. لمرة واحدة في حياتها، أرادت أن تقوم بشيء من أجل نفسها فقط.

سألته بلطف: "أتريد أن تصعد إلى الطابق العلوي؟". وشعرت بالامتنان لأنه تراجع حتى ولو قليلاً بالرغم من التهديد الضمني. ربما كان ذلك أفضل ما استطاع أن يفعله، وشعرت بالامتنان لأنه لم يفعل ما هو أسوأ، فقد كان في وسعه أن يقوم بذلك.

قال لها: "كلا". وأطرق بعينيه إلى كتابه من جديد ليبعدها عن نظره كما لطالما اعتاد أن يفعل.

نهضت بهدوء وغادرت، ولمست كتفه وهي خارجة، فلم يستجب لها. شعرت أنه كالتمثال وهي تلمسه. فلم يتفوه بكلمة واحدة. صعدت إلى الطابق العلوي لتأخذ حماماً، ثم جلست في غرفة مكتبها الصغيرة تنتظر زوي لتعود إلى البيت. تفقدت بريدها الإلكتروني، ولكنها لم تجد أي أخبار من براد.

مضت مناسبة الشكر بصعوبة بالتأكيد، ولكنها حققت نصراً، بالرغم من أنه كان باهظ الثمن. لكنها على الأقل عزّت نفسها في هدوء المنزل أنها ربحت هذه الجولة عندما أخبرها أنه بإمكانها القيام بما تريده. لمرة واحدة في حياتها، قرّرت أن تقوي عزيمتها كي تستمر، وفعلت ذلك. كان العالم سيصبح عالماً جديداً شجاعاً بالنسبة إلى فيث. وفي الواقع، لقد بدأ يصبح كذلك منذ الآن.

* * *

الفصل السادس

بقــي براد في المكتب حتى الساعة الخامسة يوم مناسبة الشكر. كان ابــناه فــي أفريقيا. وأخبرته بام أنها ستلعب الغولف مع بعض الأصدقاء، وكــان أصـــدقاؤهم سيحضرون عند الساعة السادسة، ولم يكونوا ليتناولوا العــشاء قبل الساعة السابعة أو الثامنة. دعت بام أربعين شخصاً لا يعرف بــراد نــصفهم على الأقل. فلم يزعج نفسه حتى بالاعتراض، إذ ليس ثمة هــدف من ذلك. فقد اعتادت بام أن تفعل ما يحلو لها. كان الفارق الوحيد الذي تسببه اعتراضاته هو أنها كانت تأتي بحجج أفضل لتقنعه بها. لكن في النهاية، ربما بسبب افتقاره الطاقة، كانت بام تنتصر عليه. إذ إنه فضّل أن يوفر طاقته لأمور أكثر أهمية، مثل عمله.

أنجز الكثير من الأعمال المكتبية، وأتم عدداً من الأشياء. وفي لحظة عاطفــية، كــتب رسالة طويلة لابنيه ليخبرهما كم هو فخور بهما، وممتن لوجــودهما في حياته. فقد كانا شابين مدهشين. وأعجب بجرأتهما للذهاب إلى أفريقيا ليمضيا عاماً هناك. كانا يعملان في إحدى المحميات، ويساعدان الحــيوانات التــي تعانــي من مشاكل في الأماكن البرية. تطوعا في وقت فراغهما في دار العبادة في إحدى القرى الأفريقية. كان ديلن يعلّم الأطفال وذويهم القراءة، وجايسن يحفر الخنادق لإنشاء شبكة مجارٍ جديدة. عكست رســائلهما حتــى الآن الحماسة والإثارة إزاء كل ما فعلاه وشاهداه. بدت تجربة لا تنسى بالنسبة إليهما، وكانا سيبقيان هناك حتى شهر تموز. ووعد براد نفسه وبام أنه سيأخذ إجازة من العمل ويزورهما لبضعة أسابيع. لكن لم يتسنَّ له الوقت الكافي حتى الآن، وكذلك بام. كانت أقل حماسةً من براد

بكثيــر حــيال الذهاب إلى أفريقيا. إذ إنها شعرت بالرعب من الأمراض والحوادث في رحلة كتلك، بالإضافة إلى الحشرات. فقد انحصرت فكرتها عــن المغامرة بالسفر إلى لوس أنجلوس والإقامة مع أصدقائها في حي بل آير الراقي.

ســافرت بــصحبة براد عدة مرات على مدى السنوات، ولكنهما لم يــسافرا قــط إلــى أماكن نائية، بل عادة إلى أوروبا أو إلى مكان ما في الــولايات المتحدة. اعتادا أن يمكثا في فنادق فخمة، ويتناولا طعامهما في مطاعم ثلاث أو أربع نجوم. كانت بام تحب أن تذهب إلى المنتجعات عندما يتــسنى لهــا الــوقت، وتلعب الغولف مع زملاء العمل أو الموكلين الذين تحاول أن تجتذبهم إلى شركتها. انحصر كل شيء تفعله بام تقريباً بتطوير نفسها اجتماعياً ومهنياً. نادراً ما كانت تفعل شيئاً لمجرد الاستمتاع. فلطالما رسمت في ذهنها خطة مدروسة لكل شيء، وكانت مختلفة عن براد بشكل كامــل. فهو لم يتمتع بأي طموحات اجتماعية ورغبة بأن يحكم العالم ولا كان بحاجة إلى مبالغ طائلة من المال للاستمتاع. كان شغفه الوحيد ينحصر في عمله. أما بقية الأمور فقد كان يقوم بها من دون نقاش. اعتادت بام أن تغــيظه بهذا الشأن في بعض الأحيان، وتحاول أن تريه سبل الوصول إلى الــنجاح. إلا أنه رفض تعلّم تلك الدروس، مما أزعجها. ومنذ خرج ليعمل وحده واستقل عن الشركة، استسلمت في مساعيها. ومعظم الأوقات، ودائماً تقريباً في الواقع، اعتادا أن يقوما بأمورهما الخاصة كلٌ بمفرده، مما شكل راحة لبراد. فقد كان ما تقوم به بام في حياتها الاجتماعية والعملية يستنزف قــواه. ولم يهتم أبداً للتباهي والظهور في الصحف أو إثارة إعجاب الناس الذين يملأون عالمها.

أتــمّ براد رسالته إلى ولديه، وأخبرهما أنه يحبهما. كانا قد اتصلا به بــضع مــرات فقــط في الأشهر الأربعة الماضية. فلم تتوفر هواتف في المحمــية، بــل فقط أجهزة لاسلكي للاتصال بالمزارع القريبة. ومن أجل الاتــصال بالديار، توجب عليهما أن يذهبا إلى البلدة، وينتظرا لساعات في

مكتب البريد ليتمكّنا من الاتصال. بدا ذلك كالذهاب إلى كوكب آخر بالنسبة إليه. لكنهما على الأقل اعتادا أن يكتبا له مراراً، وكذلك فعل هو. ظلت بام ترسل لهما حقائب اللوازم والفيتامينات والمواد الطاردة للحشرات التي اشترتها سكرتيرتها. حتى الآن ضاعت جميع الحقائب أو سُرِقت باستثناء حقيبتين فقط. في مكان ما في زامبيا، أصبح بعض عمال البريد وكذلك بعض موظفي الجمارك يتناولون فيتاميناتها، ولم تعد الحشرات تقض مضجعهم. لكن براد أيقن أن ولديه كانا على ما يرام.

فكّر في الاتصال بفيث قبل أن يغادر المكتب، ولكنه عندما ألقى نظرة خاطفة على ساعته، أدرك أنهم كانوا على الأرجح على وشك أن يجلسوا لتناول طعامهم. شعر أن عثوره عليها مرة أخرى هو ميزة حقيقية بالنسبة إليه. فقد ذكّرته بطفولته وتاريخه والأوقات السعيدة التي عاشها. أصبحت الأمور معقدة بعض الشيء في حياته بعد الكلية. فقد تطلّق والداه، ولطالما شعر أن قسوة الطلاق قد قتلتهما. فتوفيت والدته بسرطان الثدي وكانت في الثالثة والأربعين من عمرها، بعد أن عذبها هاجس الأمور التي اقترفها والده في حقها. وتعرّض والده لنوبة قلبية بعد عامين. أصبحا قبل أن يموتا شخصين حقودين غاضبين همهما الوحيد إلحاق الأذى ببعضهما. فرفض والده أن يحضر جنازة زوجته السابقة إمعاناً في ازدرائها للمرة الأخيرة. في النهاية، كان براد الوحيد الذي تعرّض للأذى. فعاهد نفسه أنه لن يتزوج قط. وعندما التقى بام، واعدها. فعانت من وقت عصيب وهي تقنعه بالزواج بها. وعندما فعل ذلك أخيراً، بعد إنذارات بام بهجره إن لم يفعل، أصبح مصمماً بشكل مماثل ألا يطلّقها أبداً. فلم يرد لولديه أن يشعرا بالمعاناة نفسها التي شعر بها وهو يشاهد معركة والديه الضارية ليحطّما بعضهما. وعندما قال عبارة في السراء والضراء عندما تزوج بام، عنى كل كلمة قالها. وأيقن عندئذ أنه مهما حدث لاحقاً، فقد كان متزوجاً بها مدى الحياة.

أحزنه الشعور أن طريقيهما بدأا ينفصلان ببطء. فقد خيبت أمله مراراً وتكراراً، وأيقن أنه خيّب أملها أيضاً. فهو لم يكن طموحاً بما يكفي

في نظرها أو مهتماً بالأمور نفسها. بحلول الوقت الذي تخرج فيه الولدان من الجامعة أو حتى عندما بدآها، لم تعد لدى براد وبام اهتمامات مشتركة على الإطلاق، وعدد الأصدقاء الذين كانا يستلطفانهم كان قليلاً. فقد كانت قيم براد مختلفة كلياً عن قيمها. وغدا الفرح الوحيد الذي لا يزالان يشتركان به هو ولديهما.

أطفأ براد الأضواء في المكتب وركب سيارة الجيب التي يستخدمها للعمل. كانت لديه سيارة مرسيدس مركونة في مرأب المنزل، ولكنه لم يعد يستخدمها بعد الآن إلا في ما ندر. إذ بدا أنها توحي بالرفاهية والحياة الرغيدة الأمر الذي لا يلائمه وهو المحامي المعين من قبل المحكمة أو الذي يؤدي الأعمال من دون أجر في معظم الأحيان مدافعاً عن المراهقين الفقراء المتهمين بجرائم عنف. فأصبحت سيارة المرسيدس تسبّب له الإحراج، وأخذ يفكر في بيعها، بالرغم من أن بام قد اشترت لتوها سيارة رولز رويس. بدا الاختلاف في سيارتيهما، بالنسبة إليه على الأقل، رمزاً لاختلافهما في كل الأمور الأخرى.

لم يخدع نفسه بأنه سعيد معها. ولم تنتبه إلى أي أوهام تتعلق بزواجهما لوقت طويل، ولكنه كان واضحاً بشكل تام، أنه لن يفعل أي شيء حيال ذلك على الإطلاق. وبدا ذلك مريحاً لبام أيضاً. راوده شك في أنها تقيم علاقات عابرة بين الحين والآخر، وأصبح هو على علاقة بسكرتيرة متزوجة على مدى عامين، ولكنها انفصلت عن زوجها وأرادت علاقة أكثر التزاماً معه. لم يكن قد خدعها قط في ما يتعلق بخططه، فافترقا، وتركته عن طيب خاطر. تزوجت شخصاً آخر منذ ذلك الحين. لم يقم براد علاقة مع أحد منذ ذلك الحين. وقد حدث ذلك قبل ثلاث سنوات. كان ليشعر بالوحدة، لو أنه فكّر في الأمر، ولكنه لم يسمح بذلك. فتقبّل الوضع ببساطة، وبقي غارقاً في العمل.

لكن التحدث إلى فيث أضاف بُعداً آخر لحياته في الشهرين الفائتين. لم تراوده أي أفكار رومانسية تتعلق بها. بل على العكس من ذلك، فقد

مثلت رمزاً طاهراً نقياً في نظره، واعتز بصداقتهما. بدا عليها أنها تفهمه بشكل كامل، وتشاركه في العديد من وجهات النظر، وسمحت لها وحدتها أن تصل إليه بطرائق لم يجرؤ الآخرون على فعلها. بدت في نظره أشبه بأخت صغرى، وجعله هذا يتواصل معها بطريقة عفوية تماماً. أحب شعوره نحوها، وما كانا يقولانه لبعضهما، وأحب مساعدته لها، وتواجده إلى جانبها، وصمم أن يفعل كل شيء في وسعه كي يشجعها على العودة إلى الكلية، وتمنى أن تفعل ذلك. شعر أنّ وجوده إلى جانبها مفيدٌ لها، وحسّن هذا من مشاعره. فقد أصبحت صديقته بكل ما للكلمة من معنى.

قاد براد سيارته عبر الطريق المختصر. وكان ينوي أن يصل إلى البيت بحلول الساعة الخامسة كي يغير ملابسه، ولكن الطريق استغرق وقتاً أطول مما اعتقد، وقد توقع أنه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق ليستحم ويغير ملابسه. فوجئ عندما دخل البيت، أن الضيوف كانوا قد وصلوا قبله، وكانوا واقفين في الردهة الأمامية مرتدين ملابس رسمية. فبدوا مندهشين عندما دخل مرتدياً بنطال جينز وقميصاً قطنية.

قدمته بام لعدد من الناس الذين لم يلتقِ بهم قبلاً، ثم دخل غرفتهما. كانا لا يزالان يتشاركان الغرفة نفسها بالرغم من أن علاقتهما لم تعد إلى سابق عهدها منذ خمس سنوات. لم يعد ذلك يهمه بعد الآن، فقد حوّل جميع عواطفه إلى أهداف أخرى. كان الشيء الوحيد الذي فاجأه هو أن الناس الذين قابلهم كانوا يرتدون ملابس رسمية. إذ إنه نسي تماماً أن بام قد حوّلت مناسبة الشكر إلى مناسبة رسمية هذا العام، وهذا ما بدا سخيفاً بالنسبة إليه. فقد اعتبر براد ذكرى الشكر مناسبة مرتبطة بالعائلة وبالناس الذين يحبهم المرء بصدق، وبجلوسهم معاً حول مائدة أو بجانب نار الموقد المشتعلة. كان الشكر يعني شيئاً فقط إن تشاركه المرء مع أناس يحبهم أو مع أصدقاء حميمين، لا مع غرباء مرتدين بذلات رسمية وفساتين سهرة واقفين في الأنحاء وهم يشربون الشراب الخفيف. لكنه وعد بام أن يؤدي دوره في التمثيلية، وشعر أنه مدين لها بالمحاولة. واعتاد أن يتجنب معظم

مناسباتها الاجتماعية سواء عمداً أو لأنه لم يستطع أن يفرغ من عمله. لكن كانت هناك مناسبات يحرص على الظهور فيها، مثل مناسبة الشكر وحفل الميلاد وافتتاح الأوبرا والباليه والسيمفونية كل عام إن لم يتسنَّ لها أن تعثر على شخص آخر ليصطحبها. ولطالما شجّعها على المحاولة.

ظهر في غرفة المعيشة بعد نصف ساعة مرتدياً بذلته الرسمية وهو يبدو وسيماً وأنيقاً، ولكل شخص يعرفه جيداً، ضجراً حتى الموت. أخذ يتحدث إلى والدها بشأن موكّلين جديدَين حصلت عليهما الشركة. كانا موكّلين مهمّين ويشكلان إنجازاً حقيقياً لبام، كما قال والدها. بدا فخوراً بها بشكل كبير. فقد تعلّمت كل شيء منه، مثل فطنتها العملية ومهاراتها القانونية وقيمها وطموحاتها، وقدرتها على الحصول على ما تريده في ظل أي ظروف تقريباً، سواء أكان هذا صواباً أم لا. لم تكن بام امرأة يسهل للمرء أن يرفض لها طلباً أو تتقبل أن تهزم بسهولة. فقد كانت أكثر امرأة مصمّمة قابلها براد على الإطلاق. تعلّم براد ألا يجادلها، إن أمكنه ذلك، وأن يتجنب أن يتملّكه الرعب منها، عندما يكون ذلك ضرورياً، بل اعتاد فقط أن يتنحى جانباً، ونجح ذلك الوضع بشكل أفضل بالنسبة إليه، وسمح لزواجهما أن يدوم. وأصبح حبه لها ضحية لمعاملتها له، لكن حتى بعد أن انطفأت جذوة مشاعره تجاهها، بذل كل جهده كي يبقي القشرة الخارجية لزواجهما متينة. أما روح الزواج التي تسكن في داخلهما، فقد ماتت قبل وقت طويل.

سألت بام بسخاء عندما أتت لتقف بجانب براد: "أتريد أن أقدمك للناس الذين لا تعرفهم؟". ودسّت يدها في ذراع والدها، فالتفت إليها وابتسم.

"إنني بخير. كنت ووالدك نثني على جهودك. فقد حققت إنجازين كبيرين مؤخراً، وهذا ما أخبرني به. إنك تنجزين عملاً رائعاً". فبدت مسرورة من إطرائه. حاول براد أن يطري عليها كلما شعر أنها تستحق ذلك، بالرغم من أنه لم يكن يكنّ الكثير من الاحترام لميدان تنافسها. ولم

تردّ له الجميل. إذ إنها اعتادت معظم الأوقات أن تتجاهل ما يفعله مهما بدا مهماً بالنسبة إليه، أو لبقية العالم. انزعجت أيضاً من التأثير الذي تمتع به براد على ولديهما، واعتقدت أن نزعتهما إلى تقديم المساعدة للآخرين ليست بذات فائدة. حاولت لسنوات عديدة أن تقنعهما بالالتحاق بكلية الحقوق والانضمام إلى شركة جدهما. كان ذلك ليبدو نصراً كبيراً لو حصل. ولكن حتى الآن لم يغيّر أي من الولدين رأيه، مما شكّل راحة كبيرة لبراد.

بام امرأة جميلة، بالرغم من أنها لا تتمتع بأنوثة طاغية. وهي طويلة القامة ورياضية الجسم وتتمتع بمظهر قوي. اعتادت أن تلعب التنس والغولف، فأكسبها ذلك لياقة بدنية عالية، وهي ذات عينين بنيتين وشعر داكن كشعر براد. بدت أشبه بأخته منها بزوجته. وغالباً ما قال الناس إنها تشبهه.

ابتعدت بام عن المكان الذي وقف فيه براد ووالدها معاً، وبذل براد جهداً بسيطاً قبل أن يجلسا. فقدّم نفسه لعدد من الناس، واحتسى كأسين من الشراب ليجعل الأمسية محتملة أكثر. تحدث إلى امرأة تلعب التنس مع بام، وكانت تدير وكالة إعلانات سمع براد عنها، ولكن بينما هو يصغي إليها، بدأ ذهنه يشرد. أخيراً، تركها لينضم إلى مجموعة صغيرة من المحامين الواقفين بجانب المشرب. كان براد يعرفهم جميعاً تقريباً، فقد عمل مع اثنين منهم في الشركة. بدوا رجالاً لطفاء، وجرت بينهم محادثة سلسة ومألوفة على عكس المحادثة بينه وبين المرأتين اللتين جلس بجانبهما عندما جلسوا إلى الطاولة أخيراً. كانتا ودودتين إلى حدّ كبير وهما متزوجتان برجلين سمع عنهما براد من دون أن يلتقيهما قط. شعر بالإرهاق وهو يحاول أن يبقي المحادثة مستمرة. بعد العشاء، شعر بالراحة لأنه تسنّى له أن يتسلل خارجاً. كانت غرفة المعيشة مليئة بأناس مترفين وسعداء، وبدا على معظمهم أنهم ينوون البقاء طوال الليل. وانهمكت بام بجدال محموم في تلك اللحظة حول قانون الضرائب الجديد الذي لا يهمه أمره. لم تكن طبيعة العمل القانوني التي يزاولها تهمهم أيضاً.

شعر براد بموجة من الإرهاق تغمره عندما تسلل إلى غرفة مكتبه، وأغلق الباب. فك ربطة عنقه السوداء المصنوعة من قماش الساتان، ورماها على الطاولة، ثم جلس على كرسيه وتنهد. فقد أمضى أمسية طويلة ومملّة، وكل ما استطاع أن يفكر فيه هو كم افتقد ولديه، واشتاق إلى العطلات التي اعتادوا أن يحظوا بها حين كان ولداه صغيرين، عندما كانت مناسبة الشكر لا تزال تحمل بعض المعنى بالنسبة إليه، ولم يكن ذلك عذراً كي يدعو أربعين شخصاً غريباً إلى البيت. فقد استغلت بام كل فرصة متاحة كي تملأ الغرفة بأناس مفيدين لها، وليس بأشخاص يكنّان لهم مشاعر صادقة. بالرغم من أن بعض الناس الأعزاء من أولئك قد بقوا، فلم يعد لديه ولدى بام أصدقاء مشتركون. فقد انحصر أصدقاؤه في محامي الدفاع والمحامين العامين. أما أصدقاؤها فكانوا من الشخصيات الاجتماعية، وبعض المتملقين لتلك الطبقة، ورؤساء الشركات الذين تريد أن تغريهم بالعمل مع شركتها. وأيقن براد أن أي أمسية لا تبدو كاملة بالنسبة إليها إلا إن شعرت أنها سجلت ما تشير إليه على أنه نقطة لصالحها.

ألقى نظرة خاطفة على الكمبيوتر، وتمنى لو يتسنى له أن يراسل ديلن وجايسن عبر البريد الإلكتروني، ويتمنى لهما مناسبة شكر سعيدة. عوضاً عن ذلك، طبع رسالة وأرسلها إلى بريد فيث في نيويورك. وكانت الساعة قرابة الثانية بعد منتصف الليل بحسب التوقيت هناك.

"مرحباً... أما زلت مستيقظة؟ كيف أمضيت مناسبة الشكر؟ إنك على الأرجح لن تقرأي هذه الرسالة حتى الصباح. لقد هربتُ أخيراً. فالحفلة عبارة عن حديقة حيوانات حقيقية. هناك أربعون مدعواً للعشاء بالبذلات الرسمية، ولا يسع المرء إلا أن يتأثر بسخف وتفاهة تمضية مناسبة الشكر وهو مرتد بذلة رسمية. إنني أفتقد الولدين. فهذا ما يجب أن تكون عليه العطلات. ماذا عنك؟ هل عطلتك هادئة وسارة؟ لا بد من أنك سعيدة لوجود الفتاتين في البيت. إنني أحسدك، وسأعمل غداً. فهناك مراهقان

جديدان في السجن وآخر أعتقد أن المقاطعة ستوكل أمر الدفاع عنه إليّ. ترى ماذا حدث لهؤلاء في البداية؟ سيكون أمراً لطيفاً لو أنهم لا يحتاجون إليّ ويعيشون حياة سعيدة طبيعية، مهما يكن ذلك. إنني أشعر بالغباء التام لأن أمضي مناسبة الشكر بصحبة مجموعة من الغرباء يرتدون ملابس مثل ملابس النذل. إن بام تحب ذلك. وأتمنى لو أستطيع أن أقول الشيء نفسه. آسف لأنني أتذمر كثيراً. فأنا متعب وحسب، كما أعتقد. سأتحدث إليك عما قريب. وبالمناسبة، أتمنى لك مناسبة شكر سعيدة. مع حبي، براد".

أخذ يقلّب بعض الأوراق في مكتبه غير راغب بالانضمام إلى الضيوف مجدداً، ونوى أن يتسلل من الدرج الخلفي ويذهب للنوم. فقد كان بانتظاره يوم طويل. وكانت بام معتادة على مغادرته الحفلات والمناسبات الاجتماعية في وقت مبكر. ولطالما فعل ذلك بحذر كي لا يزعج الضيوف أو يجعلهم يشعرون أن عليهم أن يغادروا، وأيقن أن بام والآخرين سيمكثون حتى وقت طويل بعد منتصف الليل، ولكن سرّه ألا يتواجد بينهم.

كان يطفئ الضوء لتوه في غرفة المكتب عندما شاهد أن لديه بريداً، فضغط على الزر، ورأى أن الرسالة من فيث. فابتسم وجلس.

"مرحباً... إنها مفاجأة سارة... فما زلت مستيقظة. تبدو مناسبة الشكر لديك فخمة جداً. وقد أمضيناها نحن الأربعة فقط، ولكنها لم تمضِ بسلاسة. بدأت على ما يرام، وكان الديك الرومي جيداً، وأحب الجميع العشاء. ثم خضنا شجاراً كبيراً في النهاية بشأن التحاقي بالكلية. صاحت زوي في وجه أبيها، وثارت ثائرة ألكس، وتشاجرت الفتاتان. ذهب كل شخص إلى ركنه الخاص، ثم خرجت الفتاتان مع أصدقائهما، وخلد ألكس إلى النوم. عادت زوي إلى البيت، أما إلويز فلا تزال في الخارج. الفتاتان غاضبتان من بعضهما. ولم يتحدث ألكس إليّ بعد العشاء. في الواقع، الغلطة غلطتي. لقد رفض فكرة التحاقي بالكلية، ففقدت السيطرة على أعصابي وأجبته بغضب. فأغضبه ذلك، لهذا تفوه ببعض الأمور القاسية، وهبّت زوي للدفاع عني. لم يكن ينبغي عليّ أن أنفعل في المقام الأول، فقد

كان كل شيء سيبقى على ما يرام. وتوجب عليّ أن أتصرف بشكل أفضل. فأنا راشدة، يا الله! ولكنه أصاب وتراً حساساً بي فقط، كما أعتقد. في النهاية، قال إنه يمكنني أن أفعل ما أريده، ولكن مضمون كلامه انطوى على أنني إن فشلت فسأصبح في وضع سيئ. إنه نصر من نوع ما، ولكن ليس على حساب انسجام الفتاتين مع بعضهما. فقد أمضتا وقتاً قليلاً جداً مع بعضهما. وتحول العشاء إلى حالة من الفوضى في النهاية. آمل أن تصلحا الأمور بينهما قبل أن تغادرا. لماذا تصبح الأمور معقدة جداً دائماً؟ ماذا حل بمناسبات الشكر العائلية الهادئة اللطيفة بين أناس يحبون بعضهم، ولا يغضبون من بعضهم، ويقولون أموراً لطيفة؟ لقد كانت الفتاتان هنا، وأنا ممتنة لأجل هذا. إنني آسفة لأنني أنتحب كثيراً. وأنا أحاول أن أبقى ساهرة بانتظار إيلي كي أعتذر لها، ولكنها الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وأنا ذاهبة إلى النوم. مناسبة شكر سعيدة لك أيضاً، يا أخي الأكبر. مع حبي، فرد."

شعر بالسعادة لأن يقرأ رسالتها، ثم شعر بالأسف من أجلها. فقد بدت أمسية متوترة. وعلى الأقل، لم يكن قد تشاجر وبام لمرة واحدة. إذ إنه كان يعرفها بشكل أفضل، ويبذل ما في وسعه كي يتجنّب الشجارات العلنية.

أسرع ليكتب رداً لفيث في حال أنها لم تذهب للنوم بعد. لكن لعلمها بسرعة رده عادة، فقد قررت أن تسهر وتنتظره لبضع دقائق لترى إن كانت ستسمع خبراً منه. وبالطبع، حصل ذلك. وبدت رسائلهما أشبه بطبق من الحلوى يتشاطرانه. لم يستطع أي منهما أن يقاوم الرد بشكل فوري، إن كان ذلك ممكناً، حين وصول رسالة الآخر.

"عزيزتي فرد، يبدو يوماً شاقاً. إنني آسف بشأن ذلك. ولكنه نصر أيضاً، إن منحك ألكس الإذن الضمني لتعودي إلى الكلية (وأنا أكره أن أعترف أو أقر أنه يملك تلك السلطة عليك). وهذا خبر جيد في الواقع، وهو الجانب المشرق من الوضع. إنني آسف بشأن الفتاتين. فقد كان الوضع قاسياً عليهما أيضاً إن عرّضهما ألكس لهذا الموقف. إن كنت لا

تــزالين كعادتــك عندما اعتدت أن تخففي التوتر بيني وبين جاك في أثناء شــجاراتنا بين الحين والآخر، فأنت صانعة السلام، وأعتقد أنك لا تزالين كــذلك. إنــك لا تــستطيعين أن تصلحي كل الأمور للجميع، يا فرد. ومن المفــيد لهمــا أن تخــتلفا في بعض الأحيان أو حتى أن تدافعا عنك ضده. الــشيء الهــام هو أنكم كنتم معاً جميعاً وأنك دافعت عن نفسك. وهذا جيد لهما لتشاهداه حتى لو تسبّب ببعض الخلافات. فستتجاوزانه. والأهم من كل شــيء هو أنني مبتهج أنه منحك الضوء الأخضر من أجل الكلية، فقط إن كان هذا سيخفف من إحساسك بالذنب حيال الأمر. وأعتقد أنه ينبغي عليك أن تلتحقي بكلية الحقوق في جامعة نيويورك العام المقبل".

"بالمناسبة، لقد نسيت أن أخبرك. سيتوجب علي أن آتي إلى نيويورك فــي غــضون بضعة أسابيع قبل الميلاد. فسأحضر مؤتمراً قومياً لمحامي الــدفاع الجنائيــين. أعتقد أنني قد أحصل على بعض المعلومات المفيدة. وســأبقى هــناك ليومين فقط، وأظل مشغولاً جداً. آمل أنك تستطيعين أن تمنحينــي بضع دقائق لتناول العشاء أو الغداء". ما شعر بالامتنان له أكثر من كل شيء آخر هو هذا الوقت الذي استعدا فيه تواصلهما. وفي الواقع، لقــد شكلا رابطة أقوى من التي جمعت بينهما قبل سنوات. فصمم على ألا يفقد التواصل معها هذه المرة إكراماً للأيام الخوالي وإكراماً لجاك وإكراماً له. امتنت لذلك أيضاً. ثم تابع رسالته قائلاً: "سأبلغك بمواعيدي وبرنامجي عــندما أذهب إلى المكتب. وسيكون ممتعاً أن أراك. آمل ألا يكون الطقس ســيئاً بحلول ذلك الوقت. فأنا لا أتحمل أن يتساقط الثلج عليّ. فهذا صعب جداً لأتحمله ليومين. تصبحين على خير، يا فرد، لقد حان وقت العودة إلى الكلية!".

ابتــسمت وهــي تقرأ الرسالة وكتبت بضع كلمات أخرى له، فقالت: "شكراً لك على التشجيع. فأنت تجعل اليوم يبدو أقل فشلاً مما هو عليه. فقد بقيت ساهرة طوال الليل بسببه. إنني لا أطيق الانتظار حتى تأتي إلى هنا". ثــم قالــت مازحة: "سأحاول أن أوفق بين لقائنا وبرنامجي الحافل. سأقول

لسكرتيرتي أن تبلغك باليوم المناسب لي. وبشكل جدي، إنني تحت تصرفك تمامــاً. قل لي متى الموعد وحسب. تصبح على خير، أتمنى لك يوماً طيباً غداً. مع حبي، فرد".

قــرأ الرســالة وابتــسم، ثم أطفأ جهاز الكمبيوتر. كان يوماً طويلاً وأمــسية مملّــة بالنسبة إليه وحزينة بالنسبة إليها. لكنهما على الأقل حظيا بــصداقة بعــضهما. واعتزا بها وبالمحبة الأخوية بين الصديقين القديمين. ومــن وجهــة نظر براد، كان ذلك هو كل ما يتعلق بمناسبة الشكر. فشعر بالامتنان لذلك.

* * *

الفصل السابع

كان الجو لا يزال متوتراً بين زوي وإلويز عندما سافرت زوي عائدة إلى كلية براون صباح يوم الأحد. بعد أن تناولوا الفطور معاً جميعاً، وبدا على الفتاتين أنهما تتحدثان مع بعضهما، ولكن لم يسع فيث إلا أن تلاحظ أن الحديث بينهما لم يبدُ ودياً. شعرت بالأسف بشكل خاص لأنهما لم تملكا الوقت الكافي لتسوّيا الأمور بينهما أكثر قبل أن تغادرا. كانت إلويز ستسافر عائدة إلى لندن تلك الليلة. وذهب ألكس قبل وقت الغداء لتمضية فترة العصر مع أحد أصدقائه. فودّع إلويز قبل أن يغادر.

قالت لها فيث معتذرة: "إنني آسفة أن الأمور قد خرجت عن السيطرة يوم الشكر". شعرت بالاستياء بشكل خاص بسبب الصدع الذي نشأ بين الفتاتين.

"لا أزال أعتقد أن والدي على حق في أنه لا ينبغي عليك أن تعودي إلى الكلية. فستصبح الأمور متوترة كثيراً بالنسبة إليك، ولن تتمكني من تمضية الوقت معه". لطالما فكرت إلويز في والدها أولاً.

"إنني بحاجة إلى تمضية وقتي بالقيام بشيء أفضل من تناول الغداء مع الأصدقاء". ظلت فيث تدافع عن أفكارها، ولكن إيلي بدت غير مقتنعة. وبينما هي واقفة هناك، بدت طويلة وجميلة ولطيفة. بدت أكثر شبهاً بألكس عندما كان أصغر سناً. تمتعت بالسلوك البارد والمتشامخ نفسه بعض الشيء، ووضعت حدوداً للناس كي لا يقتربوا منها إلا إن دعتهم هي لذلك. بالمقابل، بدا على زوي، مثل فيث تماماً، أنها لا تضع أي حدود في التعاطي مع الآخرين. وقد بدا لفيث أن الطريقة الفضلى للتعاطي مع الآخرين يجب أن تكون بين طريقتي ابنتيها.

قالت إيلي محذرة: "ستثيرين استياءه إن فعلت ذلك". فأومأت فيث برأسها.

"سأبذل ما في وسعي لأمنع ذلك من الحدوث. وإن حدث ذلك، يمكنني أن أنسحب من الكلية". ولم يبدُ هذا موقفاً قوياً لتتخذه، ولكنها أرادت أن تمنح نفسها مجالاً لتتحرك فيه.

قالت إلويز بغموض: "أعتقد ذلك. ربما ينبغي عليك ألا تبدأي في المقام الأول".

قالت فيث وهي تبتسم لها: "إنني آخذ بضعة دروس فقط. الالتحاق بكلية الحقوق ليس أمراً مؤكداً بعد". لا يزال يتوجب عليها أن تنال درجات جيدة في امتحان القبول وإن لم تحصل عليها، فإن ذلك لن يتحقق.

قالت إلويز محذرة وكأن فيث كانت طفلتها وليست أمها: "لا تتخذي أي قرارات متسرعة، يا أمي. حاولي أن تفكري في والدي أيضاً". كل ما أرادت فيث أن تفعله هو أن تذكرها قائلة: متى لم أفعل ذلك؟. فكل شيء فعلته في حياتها كان تأمين راحته. لكنها أدركت أنها لم تدع ابنتيها دائماً تشاهدان هذا. فذلك أمر لطالما فعلته بتكتم وهي تخطط لحياتها حوله. لكن بدا عليها أنها لا تنال أي امتنان منه أو من الفتاتين، أو من إيلي على الأقل، فقد بدت زوي أكثر اطّلاعاً على التضحيات التي بذلتها أمها.

ذهبت إلويز لتنهي حزم حقيبتها، وأعدّت لها فيث شطيرة وحساءً قبل أن تغادر. ومهما تكن المحادثة مربكة وعشاء الشكر متوتراً، فقد شعرت بالبهجة لعودة إيلي إلى البيت، وشكرتها على ذلك قبل أن تغادر.

قالت فيث وهي تعانقها قبل أن تغادر: "سأراك في غضون بضعة أسابيع". كانت إلويز تنوي أن تأتي إلى البيت لتمضية عطلة الميلاد، وأصرت على أمها أنه لا حاجة إلى ذهابها معها إلى المطار. فقد كانت قادرة تماماً على أن تستقلّ سيارة أجرة إلى المطار بمفردها، في الحقيقة، فضلت ذلك. كان ألكس ليفضل ذلك هو الآخر. كانت فيث وزوي تحبان الصحبة في كل الأوقات، أما إلويز فقد بدت مختلفة عنها كاختلاف الليل والنهار.

ساد السكون في المنزل بشكل مفاجئ حالما غادرت الفتاتان. شعرت فيث بالإحباط عندما تفقدت غرفتيهما، ونزعت أغطية الأسرّة وغسلتها. كانت هناك عاملة تنظيف تأتي ثلاثة أيام في الأسبوع، ولكن كإيماءة أمومية، لا تزال تسمح لها أن تعتني بهما، فضلت أن ترتب غرفتيهما، وتغسل ملابسهما بنفسها. بدا ذلك كل ما في وسعها أن تفعله من أجلهما. بينما هي تتجول في أرجاء البيت الساكن، تذكرت مدى خلو حياتها من دونهما.

شعرت بالراحة فعلاً عندما رأت ألكس يعود إلى البيت تلك الليلة بعد أن أمضى فترة العصر في متحف بحري في وسط المدينة مع صديق من برينستون. قال ألكس إنه استمتع بوقته، وبدا أكثر سروراً بقليل من المعتاد لرؤية فيث، مما أثار دهشتها. تساءلت إن كان يشعر هو الآخر بالوحشة لغياب الفتاتين. فقد أثّر غيابهما في كل شخص حتى زوي التي أصبحت تشعر أنها طفلة وحيدة الآن حين عودتها إلى البيت، ولم يعجبها ذلك. ولكن فيث عانت أكثر من الجميع.

أمضت فيث وألكس أمسية هادئة معاً. أخبرها عن المتحف البحري الذي زاره وعن خططه لذلك الأسبوع. كانت أطول محادثة أجرياها منذ أشهر، وبعد شجارهما في نهاية عشاء الشكر وانفعاله بشأن التحاقها بكلية الحقوق. شعرت بالصدمة. منحها هذا فرصة كي تعبر له عن مدى شعورها بالوحشة لغياب الفتاتين.

ـ قال لها بمنطقية وهو يبدو مندهشاً بعض الشيء أن الأمر قد أزعجها: "لقد علمتِ أن هذا سيحدث في نهاية المطاف". بدا من الصعب بالنسبة إليه أن يدرك أن هذا ليس أمراً يتعلق بقلبها فقط ولكن بوظيفتها طوال السنوات الأربع وعشرين الماضية. لو أنه فقد وظيفته، لأدرك حقيقة شعورها. ثم قال: "يجب عليك أن تعثري على أمور أخرى لتفعليها. فالالتحاق بالكلية يبدو أمراً متهوراً بالنسبة إليّ وعديم الهدف فيث. معظم المحامين يودون أن يتقاعدوا في مثل سنك لا أن يبدأوا مهنتهم".

"سيفتح هذا أبواباً كثيرة أمامي. فكل شيء آخر يبدو قصير الأجل، مثل ضمادة على جرح. أما هذا، فسيشكل حياة جديدة كاملة. ومن يدري ما قد أتمكن من تحقيقه فعلاً في نهاية المطاف، إنني لست حتى واثقة من ذلك بنفسي". لا يزال يبدو عليه أنه لا يدرك ما تريده، ولكنه لم يأخذ الأمر على محمل شخصي، مما شكل راحة لها. فتحدثه إليها عن الأمر جعل أمسيتهما تصبح دافئة، وخفف من وطأة غياب الفتاتين. كانت إحدى الأمسيات النادرة التي تحدث معهما مرة في العمر. في تلك اللحظة فقط على الأقل، بدا عليه أنه سامحها لأنها أرادت الذهاب إلى الكلية أو غض الطرف عن كراهيته للمشروع في الوقت الحالي على الأقل. وولّد فعله هذا بينهما بعض الدفء غير المتوقع والذي لطالما احتاجا إليه.

طوال الأسبوعين التاليين، شغلت فيث نفسها بالتحضير للميلاد. اشترت هدايا لألكس والفتاتين. وقام هو برحلات عدة. فلم يشاهدا بعضهما إلا قليلاً بحيث إن موضوع التحاقها بالكلية لم يطرح بينهما مرة أخرى. وفي الوقت القليل الذي كانت تقابله فيه بين رحلات العمل وبعد انتهائه من عمله الليلي، كان كل ما يفعله هو الأكل والتحدث إليها ببضع كلمات والإيواء إلى الفراش. شغلت نفسها بالاستعداد للعطلات، ووافقت على أن تساعد على تنظيم حفلة خيرية لصالح إحدى الجمعيات في فصل الربيع. سبق وأخبرتهم أنها ربما ستتمكن من المساعدة في الأسابيع القليلة التالية فقط. فحالما تبدأ الكلية في شهر كانون الثاني، لن يكن سيتسنى لها الوقت لأن تستمر بالعمل، ولكنهم قالوا إن الوضع ناجح بالنسبة إليهم، ولطالما شعروا بالامتنان لأي وقت استطاعت منحهم إياه.

استمرت في مراسلة براد بشكل منتظم، ولكن بعد مناسبة الشكر، أصبحت رسائلهما موجزة. فقد كانت أمامه محاكمتان ليحضّر لهما، وعدد من القضايا الأخرى ليعمل عليها. بدت تلك الفترة محمومة بالنسبة إليه. بعد مناسبة الشكر بأسبوعين، كانت تأكل اللبن الرائب في مطبخها قبل الذهاب لاجتماع في الجمعية الخيرية، ففتحت بريدها الإلكتروني صدفة.

وكان تأكيد قبولها في منهجين في القانون في كلية التعليم المستمر موجوداً هــناك. وكــان أحدهما في القانون الدستوري والآخر منهجاً قانونياً عاماً بمعنــى أوسع. بدا ذلك نظرياً بالنسبة إلى فيث، ولكن كان من اللطيف أن تنال التأكيد. فجعل ذلك خططها تبدو حقيقية أكثر. وذكرت هذا لبراد عندما اتــصل بهــا. فوعدها أن يصطحبها للخروج ويشتري لها زجاجة شراب للاحتفال عندما يأتي إلى المدينة. بدت مسرورة.

"متى ستأتي؟"، كانت قد نسيت بشأن رحلته تقريباً. فبين لجان الحفلة الخيــرية، والتــسوق للميلاد، ودروس امتحان القبول، غاب التوقيت عن بالها.

"بعــد أسبوع من اليوم، أي من الرابع عشر حتى السادس عشر من الشهر. وآمل أن تبقي متفرغة في ذلك الوقت". كان قد أعلمها بالوقت من قبل، ولكنه لم يحدد الوقت الذي سيكون فيه متفرغاً لمقابلتها، فلم يكن واثقاً بعد. لكن الأمر الوحيد المؤكد هو أنه أراد أن يمضي أطول وقت يستطيعه معها.

"ليــست لدينا أي خطط. وسأتحقق من الوضع مع ألكس. فهو منشغل جــداً فــي المكتب. وربما يمكنني وإياك أن نخرج لتناول العشاء أو الغداء على الأقل".

فقال لها محذراً: "من الأفضل أن يتوفر لديك وقت من أجلي".

"حــسناً". ثم ثرثرا لبضع دقائق بشأن الكلية. أمضت اليومين التاليين وهي قلقة بشأن امتحان القبول الذي ستخضع له. وأخذت تدعو أن تبلي فيه بــلاء حــسناً. لطالمــا اعتادت أن تستخفّ بنفسها وبقدراتها لسنوات. لم يساعدها ألكس من تلك الناحية. فقد كان يقلل من قيمتها من دون أن يقصد ذلك أحياناً، وعمداً في بعض الأوقات الأخرى.

ســألتها زوي بقلــق عندما تحدثت إليها: "متى ستخبرين والدي أنك ســتبدأين الدروس في شهر كانون الثاني بشكل مؤكد". كانت تعلم كم يهم أمهــا أن تحظى بموافقته لكل شيء تقوم به. وخشيت ألا تقوم والدتها بذلك

إن لــم يلن والدها، وهذا ما اعتقدت زوي أنه كارثة وأمر مثير للإحباط. وتــشوقت، بقــدر ما فعل براد، لأن تحظى أمها بحياة جديدة، وتعود إلى الكلية.

"سأفعل هذا في عطلة نهاية الأسبوع. وآمل أن يكون مزاجه صافياً".

قالــت زوي بقلــق: "وأنا أيضاً. أتمنى لك التوفيق أمي. خذي نفساً عميقاً، وابذلي قصارى جهدك. ومهما قال لك، يجب عليك أن تفعلي ما هو صواب. فهذا هو ما كنت تقوليه لي".

"نعم، أعتقد ذلك". ولم يبدُ عليها أنها اقتنعت.

عــندما تمّــت المحادثة مع ألكس، بدت صعبة تماماً بقدر ما خشيت فيث. فقد شاهدا بالكاد بعضهما يوم السبت. إذ عمل ألكس طوال اليوم في المكتب محاولاً أن ينجز بعض المشاريع المتنوعة التي يجب عليه أن يتمّها بحلــول نهاية العام، وذهبا للمشاركة في حفلة عشاء في تلك الليلة. وصلا متأخرين إلى هناك. وكان منهكاً عندما عادا إلى البيت. فتوجه مباشرة إلى السرير، واستغرق في النوم.

أخيــراً، حملت نفسها على أن تفتح الموضوع معه عصر يوم الأحد. كــان جالــساً بجانــب المدفأة في غرفة المعيشة يقرأ بعض الأوراق التي أحــضرها معه إلى البيت من العمل. فأحضرت له فيث فنجاناً من الشاي، وجلست عند قدميه.

بــدأت بحذر قائلة: "ألكس". ولكنها أيقنت أنه يجب عليها أن تدخل فــي الموضوع مباشرة. فقد توجب عليه أن يعرف ما تخطط له. لم تُرد أن تكذب عليه بخصوص هذا. فبقاء الموضوع معلقاً وغير محسوم جعلها تــشعر بالغثــيان. كانت تعرف ما تريد القيام به. ثم قالت: "أيمكنني أن أتحــدث إليك لدقيقة؟"، فبدا منزعجاً من المقاطعة عندما نظر إليها بشكل خاطف.

"مــا الأمر؟". ربما كان من الأفضل أن يقول: "اختصري الحديث". فمزاجه لم يبدُ ملائماً للكلام.

فقررت أن تختصر، وقالت: "لقد سجلت اسمي لمنهجين في كلية نيويورك. وسأبدأ الدراسة في شهر كانون الثاني. وأنت تعلم كم يعني هذا لي". كان يعلم أنها قد سبق وأرسلت الاستمارات، ولكن أصبح من المحتم في ذهنها الآن أنها ستذهب. شعرت أن من واجبها أن تشاركه هذه المعلومة. فساد صمت مطبق من جانب ألكس، ونظر إليها من مكان جلوسه. ولم يقل شيئاً لوقت طويل، وأخذ رشفة من الشاي الذي يتصاعد منه البخار. وبدا الصمت لامتناهياً بالنسبة إليها. فقالت: "أعلم أنك لم تستحسن فكرة التحاقي بالكلية، ولكنني لم ألتحق بكلية الحقوق بعد. فيمكننا أن نرى كيف ستجري الأمور، وكم سيكون الوضع قابلاً للتدبير من قبلنا. فسألتحق بمنهجين فقط، وإن لم نتمكن فعلاً من تولي أمرهما، يمكننا أن نقرر في نهاية الفصل الدراسي. ولكن ألكس... إنني أريد حقاً أن أحاول. وسأبذل قصارى جهدي لأجعل ذلك غير مزعج لك". شعرت أنها تدين له بأن تشاركه باتخاذ القرار وأن تسمح له أن يمنحها موافقته، إن أراد ذلك.

حدّق إليها بنظرات قاسية مطولاً، وكان يعرفها جيداً. لم يرد أن تعود إلى الكلية، ولكنه علم أيضاً أنه إن رفض، في هذه المرحلة، فسيحدث هذا تأثيراً عليهما. لم يعد هناك مجال لتجنب الموضوع الآن.

أخيراً، قال لها: "إنني لن أمنحك بركتي في هذا الموضوع". وشعرت بمعدتها تتصلّب، ثم قال لها: "ولكنني أيضاً لا أريد أن أتحمل مسؤولية منعك من فعل ذلك. وأعتقد أنني سأترك الأمر يبقى عائداً إليك فيث. أعتقد أنه من الحماقة أن تفعلي هذا وأنها فكرة سيئة حقاً. ولا أستطيع أن أتخيل كيف ستجعلين هذا وضعاً غير مزعج لنا. فأنا أعتقد أنك تخدعين نفسك بهذا الخصوص. إن قمت بهذا بالشكل الصحيح، فسيؤثر ذلك في وقتك وقدرتك على تمضية الوقت معي وحتى مع الفتاتين عندما تعودان إلى البيت". لكنها فكّرت في الأمر، واعتقدت أنه يستحق الإزعاج الذي سيسببه لهم جميعاً طوال السنوات القليلة التالية. ظنّت أن كل ما عليها فعله هو أن تنظّم وقت دراستها.

قالت له فيث بهدوء: "أود أن أجرب". ونظرت إليه بعينين متوسلتين. وقد كانتا لتذيبا قلب أي رجل باستثناء قلبه. فقد تمتع ألكس بحماية أفضل من الجميع. كان منيعاً أمام خداع النساء.

"إذاً، افعلي ما تريدينه. ولكن حتى لو تدبرت أمر هذين المنهجين، وهذا ما يبدو عديم الهدف بالنسبة إليّ، فكلية الحقوق ستكون مسألة مختلفة تماماً. فهي مسألة صعبة، وستتطلب منك كل وقتك". ثم قال لها بلهجة منذرة بالسوء: "لا تخدعي نفسك بهذا الخصوص. فأنا لن أتحمل هذا منك". ثم عاد لقراءة أوراقه، وأنهى الحديث. لم يُدلِ بأي تعليق آخر أو يهنئها على خططها. ولم يوافق أو يرفض. ووضع المسؤولية على عاتقها، وحصلت هي على ما أرادته. كانت راغبة بأن تتحمل المسؤولية الكاملة لما أرادت فعله، وأن تبذل كل جهدها كي تجعل الأمر ينجح. فغادرت الغرفة بهدوء، وذهبت إلى مكتبها، ورفعت سماعة الهاتف. واتصلت بزوي في سكن الطلبة، وأخبرتها أنها ستعود إلى الكلية. كانت هناك نبرة ظافرة في صوتها.

قالت زوي بدهشة: "هل وافق والدي؟".

"تقريباً. فلم يعبر عن ذلك بكلمات كثيرة". بدت مسرورة، ثم قالت: "لقد قال فقط إنه لن يمنعني وإنه يعتقد أنها فكرة سيئة، ولكنه ترك الأمر لي". فهتفت زوي بنبرة ملؤها البهجة. وشعرت بالإثارة، وكذلك فعلت فيث. فقد حققت نصراً فعلياً.

كتبت رسالة لبراد بعد ذلك مخبرة إياه أن ألكس لم يقف عقبة في طريقها. كان ذلك أفضل ما استطاعت أن تناله منه. لم يكن من طبيعته أن يمنحها دعماً أكثر من ذلك، أو أن يسحب كلاماً قاله. بدا هذا جيداً بما فيه الكفاية. ولم يتوجب عليه أن يبتهج بذلك، بل فقط ألا يطالبها بالانسحاب أو يمنعها من الذهاب.

بعد ذلك، أعدّت العشاء لألكس. ولم يذكر خططها ثانية قط أو يسألها عنها. التزم الهدوء تلك الليلة وهو يقرأ أوراقه في أثناء جلوسه إلى طاولة

العشاء. ذكر قبل أن يغادر المائدة أنه ذاهب إلى لوس أنجلوس هذا الأسبوع. فكان سيغادر يوم الثلاثاء وسيغيب لأربعة أيام. لم يخبرها الكثير عن رحلته، ولكنه أكد لها أنه سيعود يوم السبت في الوقت المحدد ليحضر حفلة الميلاد التي يحضرونها كل عام. لم تسأله فيث عن أي شيء، بل قامت بمجرد الموافقة على ما قاله. فهي لم تُرد أن تثير المتاعب، وتفسد التقدم الذي حققته. كانت جالسة في غرفة مكتبها عندما وصلتها رسالة من براد.

"كنت ألعب التنس عندما وصلتني رسالتك. إنني آسف، يا فرد. أحسنت! ماذا فعلت له؟ ما الذي توجب عليك أن تتخلي عنه كي تحصلي على ما تريدينه أم أنه من الأفضل ألا أعرف بذلك؟ من ناحيتي، إنني سعيد لأجلك! خبر رائع! إنني لا أطيق الانتظار لأقابلك هذا الأسبوع. سأصل ليلة الأربعاء وسأغادر عصر يوم الجمعة. أيمكنك أن تعدّي العشاء ليلة الأربعاء؟ قد أتمكن من أن أتفرغ ليلة الخميس أيضاً. لن أعرف بشكل مؤكد حتى أرى البرنامج النهائي للمؤتمر. سأعلمك حالما أفعل ذلك. سأتصل بك حالما أصل إلى الفندق. إن رحلتي تصل عند الساعة الخامسة. ينبغي أن أكون في الفندق بعد الساعة السادسة. أراك عما قريب. تهانينا مرة أخرى! إنني فخور بك فرد. مع حبي، براد". لطالما كان براد دافئاً ومشجعاً. ولم تُطق الانتظار لتراه. ناسبها بشكل مثالي أن ألكس كان سيغيب عن المدينة. وهي لم تُخفِ عنه مقابلتها لبراد، لكن كان سيغدو من الصعب أن تتحكم بوقتها لتمضيه مع براد إن تواجد ألكس في المدينة. فأتت رحلته إلى لوس أنجلوس في التوقيت المثالي.

انشغلت بشكل محموم طوال الأيام القليلة التالية. وأعلمت لجنة الحفلة الخيرية أنها ستكون متفرغة للعمل حتى منتصف شهر كانون الثاني وأنه سيتوجب عليها بعد ذلك أن تنسحب. وكانوا متفهمين بخصوص هذا. فأمضت يوماً في مكاتبهم ويوماً آخر وهي تتسوق للميلاد. كانت زوي ستصل بعد مغادرة براد مباشرة. فكان ذلك الأسبوع سيغدو محموماً،

ونوت أن تشتري زينة الميلاد مع زوي. لم تكن واثقة بعد إن كانت إيلي قادمة إلى البيت. إذ إنها بدت غامضة بعض الشيء بخصوص مواعيدها. ليلة الثلاثاء، اتصلت بالبيت، وكان الوقت منتصف الليل تقريباً بحسب توقيت نيويورك وصباحاً بحسب توقيتها هي قبل أن تذهب إلى العمل.

"مرحباً، يا عزيزتي. يا لها من مفاجأة سارة". لم تكن فيث قد أخبرتها عن ذهابها إلى الكلية. فقد وفّرت ذلك حتى عودة إيلي إلى البيت.

قالت إلويز بحذر: "آمل أنني لم أوقظك".

"كلا. إنني أنهي كتابة بطاقات الميلاد". كانت لديها صورة كبيرة لهم جميعاً التقطت في الصيف المنصرم على مركب شراعي فاستخدمتها كبطاقة ميلاد. اعتادت أن ترسل لهم صوراً كل عام، ولكن أصبح من الصعب أن تحظى بهم جميعاً في آن معاً. شعرت بالامتنان أنها تحظى بهذه الصورة. ثم قالت فيث: "متى ستأتين إلى البيت؟".

فساد الصمت لبرهة وجيزة. غار قلب فيث وهي تسمع كلمات إلويز وهي تقول: "لقد أردت أن أتحدث إليك بشأن أمر ما. لم أعرف كيف ستشعرين. لقد دعيت للذهاب للتزحلق على الجليد في سان مَريتز في سويسرا". بدا القلق والشعور بالذنب واضحين في صوتها. فقد كانت فيث تعرف ابنتها حق المعرفة.

"يبدو هذا ممتعاً. فهناك أمور مسلية جداً. أهناك أي شخص أعرفه؟".

"إن والدَي جف يستأجران شاليه هناك كل عام. فدعوني للذهاب معهم". كان جفري شاباً تواعده منذ ثلاثة أشهر. لم تعتقد فيث أن العلاقة جادة، ولم تذكر إيلي على الأقل أنها جادة، ولكنه بدا لطيفاً. كانا سيمضيان وقتاً طيباً.

"يبدو أنه يجب عليّ أن أسافر، وأتعرف إليه يوماً ما". ثم سألت فيث باستهجان: "أهذه علاقة جادة، يا إل؟".

"يا أمي... إن الذهاب للتزحلق على الجليد معه لا يعني الزواج به".

"هذا خبر جيد، في الوقت الحاضر على الأقل". كانت صغيرة السن، ولا يــزال الوقت مبكراً جداً، ولكن إلويز كانت عاقلة. كانت كلتا الفتاتين هكــذا، ولم يتوقع أحد منها أن تقع في غرامه بعد ثلاثة أشهر، بالرغم من أن أحــداً لا يمكن أن يعرف، كما اعتادت فيث أن تذكّر نفسها. كانت تلك بالتأكــيد أكثر علاقة جادة عاشتها منذ بعض الوقت. ثم سألتها فيث قائلة: "متى تتوقعين أن تذهبي؟".

فــساد صمت آخر، وقالت إلويز: "في الواقع، لقد دعاني من الحادي والعشرين من الشهر إلى يوم رأس السنة". ذلك يستهلك العطلة بأكملها.

قالت فيث وهي تبدو مصعوقة: "في الميلاد؟ ألن تأتي إلى البيت؟".

"إننــي لا أملــك فعلاً الوقت الكافي. فنحن نستطيع فقط أن نأخذ هذا الأسبوع إجازة والعطلتين الأسبوعيتين. هكذا، إن أتيتُ إلى البيت، فسأفوّت التزحلق على الجليد. ولن أتمكن من الذهاب. وفكّرت نوعاً ما... كنت آمل أنك لن تمانعي... أشعر بالاستياء نوعاً ما بفعلي هذا، ولكنني أود فعلاً أن أذهــب". كانت تلك المرة الأولى التي لا تتواجد فيها الفتاتان معاً في البيت لتمضية العطلات.

"يــا عزيزتي، إنني متلهفة فعلاً لحضورك إلى البيت. فأنا لن أشعر بنكهة الميلاد إن أمضيناه نحن الثلاثة فقط. أتعتقدين أنك تستطيعين أن تأتي إلــى البــيت في وقت أبكر أو ربما أن تذهبي إلى سان مَريتز في السادس والعــشرين من الشهر؟" حاولت أن تتشبث بأبعد الاحتمالات، ولكن الدموع مــلأت عينــيها وهي تفكر أنها لن تأتي إلى البيت. وشعرت فيث أن تلك ضربة لا تحتمل.

قالــت إلويــز وهــي تبدو متوترة: "إنني لا أستطيع أن أحصل على إجــازة في هذا الوقت. لا بأس إن لم تودي أن تسمحي لي، يا أمي... فأنا أتفهم موقفك..."، ولكنها بدت مستاءة لتلك الفكرة. فمن الواضح أنها أرادت أن تذهب إلى سان مَريتز مع جف بدلاً من القدوم إلى البيت. شعرت فيث الآن أنها ستبدو قاسية إن لم توافق على ذلك.

"أيمكن أن أفكر في الموضوع لبضعة أيام؟ فقد غادر والدك لتوه إلى لوس أنجلوس صباح هذا اليوم، وأود أن أتحدث إليه".

فقالت إلويز من دون تفكير: "لقد سبق وفعلت هذا". صدمت فيث مرة أخرى. فلم يتفوه ألكس بكلمة عن هذا. لطالما اشترك الاثنان في كل شيء وتحالفا مع بعضهما ضد كل شخص آخر.

"أحقاً فعلت؟ ماذا قال؟".

"لقــد قال إنه لا يمانع ذلك". أثار هذا فعلاً استياء فيث. فقد منح إذنه حتــى من دون أن يناقش الموضوع معها. بدا تصرفاً لئيماً من جانبه ولا ســيما وهو يعلم كم يعني قدوم إيلي في الميلاد لوالدتها. كما أن هذا جعلها تبدو شريرة إن هي رفضت ذهابها.

قالــت فــيث وهي تشعر بالحزن أكثر مما تسمح لنفسها بأن تبديه: "أعــتقد أنــه لم يعد هناك شيء لأقوله. إنني أود أن تأتي إلى البيت، وكنا متلهفــين لهذا. ولكنني لا أريد أن أمنعك من القيام بشيء ممتع. إن الأمر عائد إليك حقاً، يا عزيزتي".

قالــت إيلــي بصراحة: "إنني أود الذهاب". شعرت فيث بقولها هذا وكأنه صفعة حقيقية على الوجه.

"حسناً، إنني أتفهم شعورك. ولكنني لا أريدك أن تفعلي هذا كل عام. فأنــا أريــد أن يكون الميلاد مناسبة تجمعنا في كل عام. وأريد أن تخططا كلــتاكما للعــودة إلى البيت. حظيت بإجازة هذا العام، ولكن استعدي لأن تــتواجدي هــنا فــي المــيلاد المقبل، مهما يحدث من أمر. وإن اقتضت الضرورة، فيمكنك أن تحضري جف معك، إن كنتما لا تزالان معاً".

قالــت إلويــز وهي تبدو مرتاحة: "لا تقلقي بشأن هذا، يا أمي. وشكراً لــك... يجب عليّ أن أذهب". أغلقت سماعة الهاتف بعد بضع ثوان، وجلست فيث في مكتبها وهي تشعر أنها محطّمة والدموع تنساب على خديها.

لقــد بدأت تفتقدهما. لم يعد هناك مجال لإنكار هذا. فقد كبرتا. أصبح مــن الممكــن للوضع أن يزداد سوءاً فقط، فيصبح هناك أصدقاء وأزواج

ووظائف وأصدقاء ورحلات وآلاف الأمور التي ستدخل حياتهما وتجرفهما بعيداً عنها. جعلت فكرة عدم قدوم إيلي إلى الميلاد قلبها يكاد ينفطر. ما أزعجها أكثر هو أن ألكس قد وافق على خطتها ولم يطلع فيث على ما فعله. أضعف ذلك من مكانتها، ووضعها في موقف حرج. وبينما هي تطفئ الأضواء في غرفة مكتبها، وتصعد إلى الطابق العلوي لتأوي إلى الفراش، تساءلت كيف ستوصل هدايا الميلاد إليها، بالكاد كان هناك متسع من الوقت، وكانت تأمل فقط ألا تكون قد خطرت ببال زوي أي أفكار عندما سمعت بالخبر. لم يسع فيث إلا أن تتساءل إن كان الخلاف بين الفتاتين في مناسبة الشكر قد شجّع إلويز على عدم القدوم إلى البيت، أو ربما أن السبب هو طبيعة الحياة فحسب. فذلك ما توجب عليها أن تتوقعه الآن، ولكن التغيير بدا مؤلماً بالنسبة إليها أكثر من الجميع.

عندما أطفأت الضوء، تذكرت أن براد كان قادماً في اليوم التالي. تشوقت لحدوث ذلك، ولكن مكالمة إلويز قد أثارت الكآبة في كل شيء حولها. كان من الجيد أن تراه بالطبع، فلطالما ذكّرها بأخيها جاك. لكن زيارته لم تكن بديلاً عن قدوم إلويز إلى البيت لتمضية الميلاد. فلا بديل عنها، ولا شيء ليخفف إحساسها بالخسارة. شعرت بثقل في قلبها وهي تأوي إلى فراشها لتنام.

* * *

الفصل الثامن

فكّرت فيث أن تتصل بزوي في صباح اليوم التالي لتخبرها بخطط إلويز. ثم قررت ألا تفعل ذلك. فقد كانت زوي ستدرس للامتحان في ذلك الأسبوع، ولم ترد فيث، بدافع الأنانية، أن توحي إليها بأي أفكار. لم يكن هناك شك في ذهنها أنها تريد حضور زوي إلى البيت. لم ترد أن تقرر الذهاب للتزحلق على الجليد في فيرمونت أو أن تذهب إلى الساحل الغربي مع أصدقائها لأنها لا تزال في الثامنة عشرة، وما زالت فيث تملك السيطرة على أفعالها. إن الميلاد هو الميلاد، وهذا يعني أنها أرادتها أن تأتي إلى البيت. فقررت أن تخبرها عن ذهاب إيلي إلى سان مَريتز في وقت متأخر من ذلك الأسبوع ما لم تتحدث الفتاتان إلى بعضهما أولاً لسبب ما، ولكنهما نادراً ما كانتا تتحدثان إلى بعضهما. فقد عقّد فارق التوقيت الأمور، وأصبحتا تعيشان في عالمين مختلفين. كانت فيث لا تزال مستاءة نوعاً ما لأن إلويز قد اتصلت بوالدها أولاً ووافق على خططها من دون أن يناقشها معها. فقد جعلها ذلك تشعر أنها مبعدة وأنهما متحالفان مع بعضهما، وهذا ما كان صحيحاً إلى حدٍّ ما. فقد كانت هذه طبيعة علاقتهما وطبيعة شخصيتيهما، فكلاهما هادئان وكتومان ومتحفظان نوعاً ما. بينما أخذت فيث تفكّر في الأمر، أدركت أنها نسيت أن تخبر إيلي أنها أكدت حضورها للمنهجين في كلية نيويورك. لكنها فوجئت بنيتها بعدم القدوم إلى البيت بحيث إن ذلك غاب عن ذهنها. ربما أخبرها ألكس بذلك، بالرغم من أن فيث قد شكّت في الأمر. فلم يكن ليعتبر ذلك خبراً جيداً. وإن قال شيئاً، إذ إنها كانت واثقة أن إلويز كانت

لتعلق عليه حتى ولو لتظهر عدم موافقتها. فهي بالتأكيد سرّ أبيها. وأثبتت ذلك لتوها مرة أخرى.

انشغلت فيث لبقية اليوم بالمهمات والأمور التي توجب عليها القيام بها، واشترت ورقاً كي تلف به هداياهم ومواد البقالة ولائحة من الأشياء التي طلبت منها زوي أن تحضرها في طريق عودتها إلى البيت. وصلت فيث إلى البيت بحلول الساعة الرابعة، واتصل بها براد. فابتسمت لسماع صوته. وهذه هي الطريقة التي اعتادت أن تشعر بها حين سماعها صوت جاك.

"مرحباً، يا فرد. إنني في الفندق. ووصلت لتوي. ما الذي خططنا له؟".

"لا شيء أعرفه، ولكنني رهن إشارتك. فألكس في لوس أنجلوس. نجح الوضع بشكل مثالي. أتريد أن أعدّ لك العشاء؟". اشترت بضع حاجيات إضافية في حال طلب منها ذلك، ولكنه ضحك.

قال: "أي نوع من الإخوة الكبار سأكون إن لم أصطحب أختي الصغرى لتناول وجبة شهية؟ ما رأيك بتناول العشاء في سوهو أو شيء من هذا القبيل؟ أم أنك تودين البقاء بعيداً عن مركز المدينة؟".

"أي شيء تريده". ابتسمت بسعادة. إذ بدا أمراً لطيفاً أن تسمع صوته. ثم قالت: "كل ما أريده هو أن أراك".

"سأرتب شيئاً ما. وسآتي لأقلّك عند السابعة والنصف. فهناك مطعم إيطالي اعتدت أن أقصده في منطقة إيست فيلدج. وسأسأل موظف الاستقبال عن رأيه به وأطلب منه اقتراح مطاعم أخرى".

"لا أطيق الانتظار لأراك". كانت تبتسم عندما أغلقت السماعة، وأدركت أن مشروع مقابلته خفّف شيئاً من وطأة ألم بعد إيلي عنها. لقد أزعجتها حقاً فكرة عدم وجود الجميع معاً في الميلاد. وأدركت أن براد كان يعاني الوضع نفسه أو أسوأ منه بوجود ولديه في زامبيا. فقد بدا هذا أمراً مثيراً للإحباط. وانقضت أيام وضع الكعك والحليب لسانتا، وتعليق

الجوارب على المدخنة. أصبح الاحتفال بالميلاد من دون إحداهما أو كلتيهما فكرة مروعة.

لكنها أبعدت إيلي عن تفكيرها عندما رن براد جرس الباب عند الساعة السابعة والنصف. كانت ترتدي بنطالاً أسود وكنزة سوداء ومعطفاً أحمر كبيراً من الكشمير، وتنتعل جزمة سوداء ذات كعب عالٍ. كان شعرها اللامع مربوطاً على هيئة ذيل حصان، وقد وضعت قرطين ذهبيين كبيرين.

"رائع، يا فرد! تبدين مثل أحد مساعدي سانتا!" وعانقها بحنان، ورفعها عن الأرض كما اعتاد أن يفعل وهما طفلان. عندما وضعها أرضاً، خطا خطوة إلى الوراء لينظر إليها وابتسم لها بسعادة. وقال: "تبدين رائعة، وكل الشبان في كلية الحقوق سيقعون في غرامك".

"هذا بالكاد ممكن الحدوث. فأنا كبيرة السن بما يكفي لأكون والدتهم".

بدا رائع المظهر في عينيها أيضاً. إذ اكتسبت بشرته سمرة طفيفة من لعب التنس في كاليفورنيا، وهذا ما جعل عينيه تبدوان أكثر خضرة. بدا شعره أسود كثيفاً ومرتباً بشكل جيد. وقد حالفه الحظ، فالزمن لم يكسُ شعره باللون الرمادي. وبدا جسمه قوياً ورياضياً حتى وهو مرتدٍ البذلة والمعطف.

"لا تبدين والدة أحد فرد. هل أنت مستعدة للعشاء؟ لقد حصلت على حجز في مطعم رشحه لي موظف الاستقبال. واعتقدت أنك ستحبينه".

"إنني لا أكترث إن تناولنا النقانق في نفق المترو. إنني مسرورة وحسب لأن أقابلك". أقفلت الباب الأمامي. كانت سيارة الأجرة بانتظارهما، فأخذ بيدها وهما يمشيان على الرصيف. بدا متمتعاً بروح معنوية عالية وسعيداً لرؤيتها.

جلست بجانبه في سيارة الأجرة، وأخذا يثرثران في الطريق إلى مركز المدينة. كانا سيتناولان العشاء في سوهو. أخبرته عن مكالمة إيلي التي أجرتها في اليوم الفائت وعن خيبة أملها لذلك.

قال لها بصراحة: "هذا مؤسف جداً، أليس كذلك؟ لقد كرهت تمضية مناسبة الشكر من دون ديلن وجايسن. فهي عطلتنا الأولى من دونهما. لن يكون الميلاد أفضل بكثير. فقد خططت بام لنمط جديد من التعذيب. فهي تنوي إقامة عشاء في الميلاد لمئة شخص. ومن حسن الحظ أنني سأكون في السجن لزيارة أحد الموكلين. ولا أكترث أين يكون الولدان في العام القادم، لكنني سأراهما. كان ينبغي عليّ أن أفعل ذلك هذا العام. ربما ينبغي عليكم أن تذهبوا جميعاً إلى سان مَريتز وتفاجئوا إلويز". ضحكت فيث لتلك الفكرة.

"أراهن أنها ستحب هذا، وكذلك صديقها. على الأقل سنحظى بوجود زوي معنا. لم أخبرها بعد، فلم أرد أن تخطر ببالها أي أفكار مثل أختها". لكن زوي كانت أصغر سناً، ويمكن لفيث أن تلحّ عليها لتأتي إلى البيت. أما في عمر إلويز، فقد أصبح من الصعب أن تفعل ذلك ولا سيما إن حظيت بموافقة والدها. ثم قالت فيث: "لقد حصلت على موافقة ألكس قبل أن تتصل بي ومن الواضح أنه قال لها إنه لا يمانع ذلك. لم أود أن أكون قاسية، فوافقت. وهو لم يخبرني قط". لم تبدُ شكواها بشأن ألكس جديدة عليه. فقد شاركته بها طوال الشهرين المنصرمين. اعتقد أنه كان مجحفاً في حقها، ولطالما فعل ذلك، ولكنه ظل حريصاً في طريقة تعبيره عن ذلك. لم يود أن يسيء إليها، ولكن وجهة نظره كانت بالضبط كوجهة نظر جاك. لطالما اعتاد أخوها أن يعبّر بصراحة عن شدة كرهه لألكس.

"من المدهش كيف يتلاعب الأولاد بنا، أليس كذلك؟ وكذلك أزواجنا. لقد قالت لهما بام ألا يقلقا بشأن العودة من الكلية في الميلاد في إحدى السنوات لأنها أرادت أن تذهب في رحلة بحرية من دونهما. لم تخبرني إلى أن اشترت التذكرتين، وبحلول ذلك الوقت أصبحت لديهما خطط أخرى. أصبت بدوار البحر لأسبوعين في الرحلة، وقلت لها إنها إن فعلت ذلك مرة أخرى فسأطلّقها". لكن مما لاحظته فيث، لا تزال بام تفعل ما تريده. ثم تابع براد قائلاً: "لقد ابتهج الولدان كثيراً. وذهبا إلى البيت مع

صديق لهما من لاس فيغاس، وأمضيا العطلة مع بعض الراقصات الاستعراضيات. لا يزالان يتحدثان عن الميلاد في تلك السنة على أنه المفضل لديهما". وابتسم ابتسامة عريضة، فضحكت معه. مجرد رؤيته والتحدث إليه ذكّراها بأخيها بطريقة لطيفة. كانت أفضل هدية ميلاد هي قدرتها على مقابلته وليس مجرد المراسلة عبر البريد الإلكتروني. كان مخلصاً بشكل ملحوظ خلال الشهرين الفائتين، وهذه المرة لم يضمر أي منهما النية في أن يفقدا الاتصال مع بعضهما مرة أخرى. إذ إنهما أصبحا يعوّلان على تواصلهما المستمر عبر الهاتف وعبر البريد الإلكتروني.

ثرثرا لبعض الوقت في طريقهما إلى المطعم. تحدث عن قضاياه الأخيرة. بينما مرّا بجانب جامعة نيويورك ذكّرها بتفاؤل أنها ستغدو هناك عما قريب في كلية الحقوق، فابتسمت. كان مجرد التواجد معه والتحدث إليه عن الأمور من الأشياء السلسة والمريحة بالنسبة إليها. اعترفت له كم جرح شعورها عندما قالت إيلي إنها ليست قادمة للبيت.

قال وهو ينظر إليها بلطف: "إنّ هذا قاسٍ فرد. يجب علينا أن نكون أكثر صبراً. فليس من السهل أن نشاهدهم يكبرون ويرحلون عنا. لا أستطيع أن أصدّق كم افتقدت ولديّ هذا العام. لكن يجب عليهما أن يفردا أجنحتهما ليطيرا. يجب علينا أن ندعهم يحلّقون بعيداً. إن هذا قاسٍ، أعلم ذلك". أمسك بيدها حتى وصلا إلى المطعم. وفوجئت لمدى دفء المكان. فقد كان مطعماً إيطالياً جميلاً وصغيراً. أرشدهما النادل إلى طاولة في ركن هادئ، وجلست برفقة براد. وضعت معطفها على مسند الكرسي. ولم يسع براد إلا أن يلاحظ مدى جمالها. فقال لها مازحاً: "إنني أنسى مظهرك أحياناً. وعندما تصلني رسائلك تعودين في نظري في العاشرة من عمرك أو في الرابعة عشرة على الأكثر، وعندما أراك، تصبحين راشدة فجأة".

"هذا غريب. فهو يحدث معي أيضاً. فأنت دائماً في تفكيري في الرابعة عشرة وأنا في الثانية عشرة. أتذكر عندما وضعنا ضفدعاً في سرير جاك؟". ضحكت لمجرد التفكير في ذلك، وكذلك فعل براد.

"نعـم. كاد يقتلني بسبب ذلك. ووضع أفعى في سريري في المرة التالية التي أتيت فيها انتقاماً مني. كرهت أفاعي الذرة التي اعتاد أن يحضرها".

"وأنـا أيـضاً". ثم طلبا العشاء ونصف زجاجة من الشراب الفرنسي الأبيض. كان مكاناً مثالياً ليأتيا إليه، فقد كان جميلاً وهادئاً لمجرد الجلوس هناك بصحبته. بغياب ألكس عن المدينة، تسنّى لهما متسع كبير من الوقت.

"إذاً مـاذا تعـتقدين أنه سيحدث الآن عندما تبدأين الدروس في شهر كانـون الثانـي؟". كانا يعتقدان أن منهج امتحان القبول ليس على قدر من الأهمية فعلاً بالرغم من صعوبته. سألها براد بفضول وهما ينتظران الطبق الرئيـسي بعـد أن تناولا السلطة قائلاً: "هل تعتقدين أن ألكس سيعتاد على الفكـرة أم أنه سيستشيط غضباً؟"، فهو لم يعرف بشأن المنهج الذي كانت تأخذه، لذا لم يسعه أن يعترض.

"أعتقد أنه سيتذمر، ولكن الحقيقة هي أننا بالكاد نرى بعضنا، وبالكاد نتبادل أي حديث. فهو يأتي إلى البيت ويتناول العشاء ويأوي إلى الفراش، ويذهب في رحلات عمل بضعة أيام في الأسبوع. وهو يتطلب مني اهتماماً أقل بكثير مما يعتقد". فقد ضبطت كل الأمور في ذهنها.

سـألها براد بحدة: "وماذا عنك أنت؟ ما الذي تريدينه منه فرد؟"، بدا ذلـك من نوع الأسئلة التي اعتاد جاك أن يطرحها عليها ونادراً ما سألتها لنفـسها. إذ كانت فيث امرأة ذات متطلبات وحاجات قليلة. واعتنت بنفسها عاطفياً لوقت طويل، بالضبط كما فعلت وهي طفلة، باستثناء دعم جاك لها.

قالت له بهدوء وهي تنظر إلى يديها: "لا أحتاج إلى الكثير. فلدي كل شيء أريده". ورفعت نظرها إليه بشكل خاطف.

"إنـني لا أعـني الأمور المادية، بل أعني ما تحتاجين إليه منه كي يجعل حياتك ناجحة؟". وكان ذلك سؤالاً طرحه هو على نفسه مؤخراً.

"إن حياتـي ناجحـة كما هي الآن. وبالإضافة إلى ذلك، فألكس ليس شخصاً متفهماً لحاجات الآخرين". فلطالما كان منغلقاً على نفسه. لقد تقبلت تلك الناحية فيه لوقت طويل.

"كم هذا لطيف بالنسبة إليه إن استطاع أن ينجو بفعلته. ومن يساندك أنت فرد؟" كان السؤال مباشراً وصريحاً، فهزت فيث كتفيها. لعدة أسباب، عـزل ألكس نفسه عنها في السنوات الماضية. وأمضت وقتاً طويلاً وهي حـزينة علـى موت جاك. فركّزت كل طاقاتها العاطفية على الفتاتين في الـسنوات الأخيرة التي أمضتاها في البيت. لم يستمتع ألكس بقضاء الوقت معهـا كثيـراً في السنوات الماضية. فقد استغرقه العمل. ومنذ وفاة جاك بـشكل خاص، انجرفت بعيداً عن أصدقائها. أصبحت انعزالية كثيراً، مما جعلهـا الآن ممتـنة جداً لصداقة براد. فقد بدا من الأسهل بكثير أن تدخله حـياتها لأنه جزء من طفولتها وكان مقرباً من جاك. ومن بعض النواحي، فهي لم تُشفَ من صدمة وفاة أخيها بعد.

"كل ما أحتاج إليه فعلاً هما ابنتاي. فهما دائماً موجودتان إلى جانبي". قللت من مستوى حاجاتها حتى هذا الحد وأصبحتا كل ما يهمها الآن.

"حقـاً؟ لا يـبدو لي أن إيلي موجودة بينكم إن هي ستذهب إلى سان مَريتز في العطلة. إنها تحقق حاجاتها الخاصة بالرغم من أن هذا تصرف نموذجي من الأولاد". تحدث بصراحة عما رآه. وأزعجه أن تتعامل إلويز بلطف بالغ مع الدها وبمنتهى القسوة مع فيث.

قالت فيث بسرعة: "إنها صغيرة السن". كانت تختلق لها الأعذار كما لطالمـا فعلت مع الجميع. إن أصبح الجميع حولها انتقاديين، اعتادت فيث دائماً أن تبذل قصارى جهدها كي تعذرهم وتسامحهم. إذ إنها كانت سمحة النفس إلى أقصى الحدود.

"إن الحقـيقة هـي أن أولادنـا معظم الأوقات ليسوا موجودين من أجلـنا. فلـيس من واجبهم أن يفعلوا ذلك. وهم مشغولون جداً بالتخطيط لحياتهم الخاصة." ثم قال براد بحزن: "ولكن هذا يجعل المرء في بعض الأحيان يتساءل عمن يتواجد من أجله، إن وُجد على الإطلاق. إنه لأمر عظـيم أن يحظى المرء بعائلة كبيرة وإخوة وأخوات وزوج مشجّع. لكن إن لم يحدث ذلك، فمن يبقى؟ إنه ليس سؤالاً صعباً، بالمناسبة. ولكنني أنا

نفسي لا أعرف الإجابة عنه. فكّرت فيه وأنا على متن الطائرة في طريقي إلى هنا. إن بام مشغولة جداً بحياتها الخاصة واهتماماتها الشخصية، ولست واثقاً أنها ستهبّ لنجدتي إن احتجت إليها. إن إدراك هذا الأمر صعب. توجب عليّ أن أذهب إلى المستشفى مؤخراً لإجراء فحص روتيني عام، ولكنهم سألوني عن اسم الشخص الذي يمكن أن يتصلوا به في حال الطوارئ. فدونت اسم سكرتيرتي بعد أن فكّرت في هذا لأنني اعتقدت أنهم إن اتصلوا ببام فلن ترد على المكالمة. بدا هذا أشبه بصحوة مفاجئة بالنسبة إليّ".

سألته وهم يضعون طبق شريحة لحم كبيرة أمامه وطبق سمك مشوي أمامها: "ماذا ستفعل حيال هذا؟".

قال لها بصراحة: "لا شيء على الإطلاق. ولكن بين الحين والآخر يفيدني أن أواجه الحقيقة. وقد انتابتني الكثير من الأوهام بخصوص ما ينبغي أن يكون عليه زواجنا. والحقيقة هي أنه لم يكن هكذا قط. ولم يكن زواجنا هكذا على أي حال من الأحوال ولا زواج والديّ أيضاً. فقد كرها بعضهما لسنوات حتى تطلّقا. وألحقا الكثير من الأذى ببعضهما عندما فعلا ذلك، وبالكاد أصبحا يتحدثان إلى بعضهما بعد ذلك. ولم أرد قط أن أحظى بزواج من هذه الشاكلة. أنا وبام لا نكره بعضنا، والحمد لله. لست واثقاً من حقيقة شعورنا تجاه بعضنا بعد الآن، إن كنا نشعر بأي شيء. فنحن مجرد صديقين، بحسب اعتقادي، أو شيء من هذا القبيل، أو نحن مجرد غريبين يعيشان في العنوان نفسه". كان ذلك اعترافاً مؤلماً، ولكنه كيّف نفسه عليه منذ سنوات كما تسالمت فيث تماماً مع طريقة معاملة ألكس لها وقلة اهتمامه بحياتها اليومية. ولكنها تمنّت أن يظل حاضراً من أجلها إن هي مرضت. باستثناء ذلك، فقد اعتاد أن يمنحها النذر اليسير من الاهتمام اليومي والدعم. كان مهتماً أكثر بحياته الخاصة، ولطالما فعل ذلك لوقت طويل. لم تستطع حتى أن تتذكر متى آل الوضع إلى هذه الحال، أو مدى اختلافه من قبل. وليس الاختلاف كبيراً على الأرجح. لقد شغلت نفسها

بالفتاتين ولم يسنّ لها الوقت لتلاحظ مدى غيابه. وحتى إن تواجد بجسده معها، فقلبه وعقله كانا في مكان آخر.

قالت فيث متأملة: "إن هذا أشبه بتصريح عنا وليس عنهما. فاحتياجاتهما متوفرة أو أنهما يعيشان أوهامهما عن الزواج وتاريخهما. لا يبدو على أي واحد منهما أنه يحتاج إلى الكثير منا أو يريد أن تكون له علاقة وثيقة بنا. نحن نرى الأمور بشكل مختلف ونتعطش للمزيد، كما أعتقد، ولكننا سنتقبل دائماً النذر اليسير الذي يمنحاننا إياه. ألا تعتقد أن هذا يعبر عنا؟".

"لقد اعتدت أن أعتقد أن هذا يجعلني رجلاً صالحاً. مؤخراً، لم أعد واثقاً إلى هذا الحدّ. بل أعتقد أن هذا يتعلق أكثر بالجبن والحفاظ على الوضع الحالي من أي شيء آخر. فلا أعتقد أنني أريد أن أثير المتاعب. لا أريد أن أتشاجر معها، ولم أرد أن أطلّقها قط. فأنا أريد أن أنهي حياتي كما بدأتها وعلى الطريق نفسه والمنزل نفسه والزوجة نفسها وفي العمل الذي أقوم به الآن. أعتقد أنني أكره التغيير بسبب الطريقة التي نشأت عليها. فقد اعتاد والداي أن يهددا بعضهما باستمرار، ولطالما كان أحدهما على وشك أن يغادر. فكبرت والقلق يستبدّ بي مما سيحدث في المستقبل، ثم حدث ذلك فعلاً. لا أحب أن أعيش هكذا الآن. ولا أريد أي مفاجآت كتلك".

قالت فيث وهي تتنهد براحة: "ولا أنا". شعرت أنه من اللطيف أن تتحدث إليه حول هذه الموضوعات. فقد اعتادت أن تفعل ذلك مع جاك، ولكن لم يعد هناك أحد ليملأ الفراغ الذي خلّفه بعد موته.

علّق براد وهو ينهي تناول شريحة اللحم: "ولكننا ندفع ثمناً باهظاً بالرغم من ذلك". ثم وضع شوكته على الطبق. كانت فيث قد تناولت نصف سمكتها فقط، ولكن شهيتها كانت قليلة، وهذا ما انعكس على نحول قوامها. ثم قال براد: "إنك تضحّين بالكثير عندما تقبلين بالتسوية، وخاصة عندما تكونين راغبة بأن تدعي شخصاً آخر يملي قوانينه عليك. أعتقد أنني اكتشفت أن هذا يستحق التضحية أو أنني لم أكن لأفعل ذلك. وهذا هو ثمن

"السلام". تحدث بصراحة ملحوظة، فأعجبت به لأجل ذلك. أيقن هو ما تخلى عنه، وبدا مستريحاً لهذا الوضع، فبطريقة خاصة، لم تكن حياته مختلفة عن حياتها باستثناء أن ألكس بدا أكثر ديكتاتورية معها مما فعلت بام معه. بدا عليهما أنهما حلا مشكلتهما بالتوجه في طريقيهما الخاصين. كانت لا تزال تشترك بحياتها مع ألكس، معظم الأوقات على الأقل، حتى ولو لم يتواصلا كثيراً أو يتشاركا أفكارهما. وهي لم تفضِ إليه بأسرارها منذ سنوات.

قالت فيث بصوت خافت وكأنها خائفة أن تتفوه بالكلمات: "إن هذا يشعر بالوحشة أحياناً". كان هذا أمراً نادراً ما اعترفت به حتى لنفسها، ولكنها شعرت بالأمان لتقوله له الآن. فقد أحست بالأمان بصحبته. لطالما فعلت ذلك.

وافقها قائلاً: "هذا صحيح". أمسك بيدها مرة أخرى. كان التواجد برفقتها رائعاً. ثم سألها بعد صمت طويل: "هل تفتقدين جاك بقدر ما أفتقده فرد؟"، فأومأت برأسها، ونظرت إلى عينيه. بدأت عيناها تفيضان بالدموع.

"نعم، إنني أفتقده وخاصة في هذا الوقت من السنة. لا أعرف سبب ذلك. فأنا أفتقده طوال الوقت. ولا ينبغي أن يكون الميلاد مختلفاً عن أي وقت آخر، ولكنه يبدو كذلك نوعاً ما".

علّق براد بصراحة قائلاً: "ولكنني لا أفتقد ديبي بالرغم من ذلك". فضحكت فيث.

"يا الله، كلا. فقد كانت حقيرة جداً. تحدث عن التضحية بكل شيء من أجل السلام، ولكنني لن أعرف أبداً لماذا تحمّل جاك الحياة معها. فقد كانت فظيعة. ولا أعرف كم مرة هجرته أو هددته بالهجر. لقد أثارت جنوني. إن ألكس على الأقل يمضي في حياته الخاصة ويقوم بشؤونه، ويبدو أن بام تفعل الشيء نفسه. أما ديبي فقد ظلت قابعة في وجهه طوال الوقت".

ذكّرها براد قائلاً: "كان متيماً بحبها بالرغم من ذلك. لم أستطع أن أفهم ذلك بنفسي. وأعتقد أنه أحد الأسباب أنني وإياه لم نكن نرى بعضنا

كثيراً. فقد كانت تكرهني، ولم أكن معجباً بها كثيراً. وربما حال هذا بيني وبين جاك".

"لقد رحلت من دون أن تنظر خلفها". أخذت فيث تشرح له وهي تستند في كرسيها إلى المعطف الأحمر الذي بدا أشبه بوردة ضخمة تحيط بها. فقالت: "لقد أعلمنا محاميها أنها ستتزوج وتتنقل. ولم تتصل بنا أو تراسلنا قط. ولم أسمع أي خبر عنها مرة أخرى".

قال براد: "هذا عمل فظيع". وافقته فيث.

"بالرغم من أنني أكرهها، فإنني أتمنى لو أن جاك قد أنجب أطفالاً منها أو من امرأة أخرى على الأقل. فسيكون أمراً رائعاً أن أحظى بأطفاله الآن. أما هكذا، فلم يبق شيء... بل فقط الذكريات... ولا شيء آخر". قاومت فيث دموعها بينما أخذ براد يضغط على يدها مواسياً.

"إننا نحظى ببعضنا فرد. وهذا ما تركه لنا. فقد ترك لنا كل الأوقات الجميلة التي تشاركناها وكل تلك الذكريات والسنوات ونحن أطفال". فأومأت له برأسها، ولم تستطع أن تتكلم لبرهة وجيزة.

تناولا الكابتشينو بعد العشاء، وقررا ألا يتناولا التحلية. فوجئت فيث عندما نظر براد إليها بشكل مباشر، وقال: "هل تعتقدين أن هناك أي زيجات ناجحة فرد؟ إنني أتساءل عن هذا أحياناً. فعندما أنظر حولي إلى الناس الذين أعرفهم، لا أعتقد أن أي واحد منهم يملك شيئاً قد أتمناه. يبدو هذا مثيراً للسخرية، ولكنني بدأت أعتقد أن لا أحد يحقق أحلامه. نحن جميعاً نخدع أنفسنا بشأن ما نحصل عليه عندما نبدأ حياتنا وكيف ينتهي بنا المطاف في النهاية. الأمر ينتهي بنا جميعاً مثلك ومثلي فنقبل بتسويات تكلّفنا ثمناً غالياً، ونشعر بالامتنان لوجود أولادنا وأصدقائنا القدامى كي يساندونا".

"هذه وجهة نظر حزينة براد. فأنا أحب أن أعتقد أن هناك من هم سعداء. فلدي أصدقاء سعداء فعلاً. أنا أعتقد أنهم كذلك على الأقل. لا أستطيع أن أقول إنني لست سعيدة. فأنا فقط لا أملك ما اعتقدت أنني

ســأحظى به مع ألكس. الوضع مختلف، هذا كل ما في الأمر". لم تقل له هــذا ولكن إيمانها بالله ساندها وأضاف بُعداً آخر إلى حياتها. لطالما كانت تقية كثيراً، كما كان جاك. ولطالما أعجب براد بكليهما لذلك وحسدهما على قوة إيمانهما بالله.

"أعتقد أنك تخدعين نفسك فرد. إننا لم نكن لنراسل بعضنا عبر البريد الإلكتروني إكراماً للأيام الخوالي لأننا نملك ما نريده في زواجينا، لن يكون أولادنا محور حياتنا إلى هذا الدرجة، وربما كنا لنصبح حتى سعيدين عندما يكبرون ويرحلون عنا. ما الذي تعتقدين أنك تحظين به مع ألكس، يا فرد؟ مــا الذي ستقولينه صراحة؟ أعتقد أنني أحظى ببام كصديقة وزميلة عمل، والآن بعــد أن أصــبحنا لا نعمل معاً غدونا مجرد صديقين، إن كان هذا صــحيحاً، أو شــريكَي سكن، ولا أكثر من ذلك". وبدا الإصغاء إليه أمراً محــزناً لهــا، ولكنه بدا مستريحاً للوضع. توخى الصراحة بشكل ملحوظ معهــا ومــع نفسه في آن معاً. فلم تعد تراوده سوى أوهام قليلة، ولم تعد تنتابه أي أحلام.

قالــت متأملة: "أعتقد أنني وألكس صديقان". بالرغم من أنه اعتقد أنهــا تتحدث بسماحة نفس زائدة بسبب كل ما سمعه منها. لكنها لم تخدع نفــسها أنهما لا يزالان مغرمين ببعضهما. فهما لم يعودا كذلك، ولكنهما علــى الأقل كانا مغرمين ببعضهما في ما مضى، أو أنها هي على الأقل كانت مغرمة به. فهي لم تعد واثقة من مدى العواطف التي يمكن لألكس أن يكنّها لأحد. كانت على الأرجح أقل مما تمنته في ما مضى. ثم قالت: "إننا ندعم بعضنا. كلا، هذا خطأ". ثم صححت كلامها قائلة: "أنا أدعمه. وهو يوفر احتياجاتي. وهو والد صالح للفتاتين ومتحمل للمسؤولية ورجل محتــرم". أخذت تجهد نفسها لتعثر على المزيد وعانت من وقت عصيب وهــي تحــاول أن تجد كلمات لتصف دوره في حياتها. فقد كان صلباً، وأمكنها الاعتماد على ذلك. ولكنه لم يمنحها الكثير من الناحية العاطفية، ولم يفعل ذلك لسنوات.

"أتدركــين ما أعنيه؟ ليس هذا بالضبط ما اعتقدتِ أن الزواج سيكون عليه، أليس كذلك، يا فرد؟ وعندما ألقي نظرة فاحصة على حياتي، ألاحظ الــشيء نفسه. ولكنني لا أغيره، مثلك تماماً. أنا لا أعتقد أن هذا يحقق أي هــدف. وأعــتقد أن النتــيجة هي أن المرء يحصل على ما يحصل عليه ويحــاول أن يبذل أقصى جهده فيه، ولكن الحقيقة هي أن ذلك يترك الكثير مــن الفجــوات فــي حياته ليملأها. فيملأها بالأطفال والأصدقاء والعمل والأحلام والأوهام والندم وأي شيء يلائم حياته. ولكن مهما حاول أن يملأ الفجوات أو يخدع نفسه، فالفجوات تبقى موجودة".

قالــت فيث: "هذه طريقة قاسية لتنظر بها إلى الأمور". وقد هزها ما قاله، ولكنها لم تستطع أن تخالفه الرأي.

"إننــي أفضل أن أتوخى الصراحة مع نفسي. فعندما لا أكون كذلك، تتملكنــي التعاســة، وأحاول باستمرار أن أحول علاقتي ببام إلى شيء لم تــستطع أن تكــونه أبــداً وأن أحولها إلى شخص لم تكنه قط. حالما أتقبل الوضــع على ما هو عليه، وأتقبل حقيقتها في حياتها وحقيقة ما لا تستطيع أن تكونه، أعتقد أخيراً أنني أحقق السلام بيني وبين كل هذا".

سألته بصراحة: "هل هناك امرأة أخرى في حياتك؟". كان هذا سؤالاً كانــت لتطــرحه على جاك، ولكنه لم يكن صحيحاً قط بالنسبة إليه. إذ إنه كــان متيماً بديبي بحيث لا يمكن أن يخونها على الإطلاق بالرغم من أنها خانته. حطّمه هذا الخبر عندما اكتشف الحقيقة. لكن مهما فعلت به، فلطالما اعــتاد أن يــستعيدها. لطالمــا اعتقدت فيث أن أخاها قد وصل بتسامحه وإخلاصه إلى مستوى جنوني، في ما يتعلق بزوجته على الأقل. ولكن هذا هو أيضاً أكثر ما أحبته فيث فيه.

أجابهــا براد بصراحة كما كان أخوها ليفعل: "لقد كانت هناك امرأة أخــرى في ما مضى. وأعتقد أن بام قد شكّت في الأمر، ولكنها لم تفتعل مشكلة. ولا أعتقد أنها أرادت أن تعلم به. لكن تلك الأمور لا تصل إلى أي حــل. فهــي تسبب الإحباط للجميع إن أرادوا البقاء في زواجهم، وهذا ما

أردته، ولا أزال أريده. الناس يلحقون الأذى ببعضهم. لم أشعر قط أن هذا صحيح، لذا لم أفعله مرة أخرى. فالوضع أسهل على هذه الحال". بدا مسترخياً في وضعه كما هو.

سألته فيث وهي تشعر بالفضول بشأنه الآن: "هل ستطلّق بام إن وقعت في غرام امرأة أخرى؟". فما قاله لها في أثناء العشاء فتنها، وأصبح هو الآخر مفتوناً بها وبطريقة تفكيرها الآن بعد أن أصبحت راشدة وبالتسويات التي قامت بها مقارنة بالتي قام بها هو.

قال لها وهو يبدو مقتنعاً تمام القناعة: "أبداً. فعندما تزوجت بام، عنيت كلامي عندما قلت في السراء والضراء وحتى يفرق بيننا الموت. إنني لن أقترف الأخطاء نفسها التي اقترفها والداي. فأنا أدين لولديّ بذلك حتى الآن بعد أن كبرا نسبياً. فهما ليسا بحاجة إلى كل ذلك البؤس الذي يسببه الأباء الذين يكرهون بعضهم، ولا يتحدثون إلى بعضهم، ويدمّرون كل شيء بنوه. إنني لن أطلّقها، ولن أقع في غرام امرأة أخرى. فأنا لن أسمح لهذا أن يتكرر مرة أخرى".

قالت فيث بهدوء: "ولا أنا". بالرغم من أنها لم تسنح لها أي فرص كتلك، فهي لم تكن لتستغلها حتى لو سنحت، لأسباب دينية على الأقل، ولكن احتراماً لزواجها أكثر من كل شيء آخر. اتفقت معه قائلة: "إنني أشعر بالطريقة نفسها التي تشعر بها بهذا الخصوص. فكل ما تفعله هو أنك تستبدل مشكلة بأخرى. وليست هناك حياة مثالية".

قال لها ضاحكاً وهو يدفع الفاتورة: "إننا شخصان مثيران للأسى". ثم نظر إليها بنظرة جادة، وقال: "يسرّني أننا عثرنا على بعضنا مرة أخرى فرد. فأنت أشبه بهدية في حياتي. وجعلتها فجأة تصبح على قدر من الأهمية... مثل قطعة نقدية ذهبية يعتقد المرء أنه فقدها قبل سنوات ويجدها في قاع أحد الأدراج، ولا يجد فقط أنها جميلة كما كانت في الماضي، ولكنه يكتشف أنها أصبحت أكثر قيمة مما كانت عليه. إنني أحب التحدث إليك ومراسلتك وقراءة رسائلك. فأنت تنيرين أيامي فعلاً".

ابتسمت له وهي تشعر بالامتنان لما قاله. لقد خالجها الشعور نفسه حياله. ثم قالت له مازحة: "إن الذنب ذنبك أنت أنني عائدة إلى الكلية. وعندما أحل الفروض المنزلية عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل سألومك أنت على هذا".

"عندما تتخرجين، يمكنك أن تتركي ألكس وتأتي للعمل لدي".

فضحكت وقالت: "إن هذا سيجعل أسوأ الكوابيس تتحقق". غادرا المطعم يداً بيد. وقد قاربت الساعة الحادية عشرة، توجب عليه أن ينهض باكراً في اليوم التالي.

سألها وهما يمشيان عبر شارع برنس: "ألديك متسع من الوقت لتقابليني غداً؟". ثم استدعى سيارة أجرة.

"بالطبع. فألكس في لوس أنجلوس حتى نهاية الأسبوع. ولن تأتي زوي قبل عطلة نهاية الأسبوع". ثم قالت بفخر: "إنني متفرغة تماماً. فقد فرغت من التسوق للميلاد". فتغيرت ملامح وجهه.

قال: "إنني لم أبدأ بعد. يجب عليّ أن أنجز هذا عندما أعود إلى البيت". كان هذا يعني في حالته، توقفاً سريعاً عند تيفاني لشراء المجوهرات من أجل بام. فلطالما أحبت المجوهرات. اعتادت أن تخبره بما تريده بالضبط وبما شاهدته مؤخراً لتسهّل الأمور عليه. أصبح من المعقّد جداً أن يرسل شيئاً للولدين. فكان سيشتري لهما هدايا عندما يذهب لزيارتهما في الربيع. في ما عدا ذلك، أراد أن يشتري ساعة لسكرتيرته، وكان يستطيع أن يفعل ذلك في تيفاني أيضاً. بدا تسوقه من النوع الرجالي الذي يمكن إنجازه في متجر أو متجرين في أقل من ساعة واحدة في ليلة الميلاد. قال براد: "هل تريدين أن تتناولي العشاء مرة أخرى ليلة الغد؟ أعتقد أن هناك عشاء في المؤتمر، ولكنني أستطيع أن أتملّص منه. لمَ لا آتي لاصطحابك عند الساعة السادسة؟ سأتحدث إلى موظف الاستقبال مرة أخرى، وأرى ما يقترحه عليّ. إذ أعتقد أن هذه الليلة كانت جيدة جداً".

"أعتقد أنها رائعة. فقد كان طبق السمك مثالياً. وأحببت الشراب". لم تكن قد أنهت شرب كأس واحدة، فضحك براد مما قالته.

"لا تزالين تأكلين كالعصفور، يا فرد. من المثير للعجب أنك لم تتضوري جوعاً حتى الموت بعد". لكنها لطالما كانت كذلك، حتى وهم مراهقون. ففي بعض الأوقات، كانت تأكل كميات شحيحة من الطعام ثم تفاجئ الجميع بتناولها شطيرتي نقانق وطبقاً من حلوى الموز. كانت تحب حلوى الموز في طفولتها.

وضع ذراعه حولها في سيارة الأجرة، وجلست بجانبه براحة في طريق العودة إلى البيت. أضفى ذلك شعوراً دافئاً، وشعرت بالأمان لوجودها معه، فقد غذّى في داخلها جزءاً بقي محروماً منذ وفاة جاك. ذلك الجزء لم يغذه ألكس قط.

ترجّل من سيارة الأجرة، وطلب من السائق أن ينتظر عند وصولهم إلى منزلها. راقبها وهي تدخل المنزل الصغير الجميل.

"أراك ليلة الغد. وسأتصل بك قبل أن آتي، وأعلمك بما سنفعله. أتريدين أن تذهبي إلى مكان فاخر؟". كان راغباً بأن يأخذها إلى أي مكان تريده، ولكنها سارعت بهز رأسها.

"لقد أحببت المكان الذي ذهبنا إليه الليلة. ولا آبه إن تناولنا البيتزا أو المعكرونة. فأنا أريد فقط أن أتسكع بصحبتك". فعانقها مرة أخرى، وهي تبتسم سعيدة. أمضت الأمسية كما تمنت في كل شيء.

صاح لها من النافذة قائلاً: "أراك غداً!". وانطلق بسيارة الأجرة وهو يلوح بيده. أغلقت الباب وأقفلته. وبينما هي تصعد الدرج إلى غرفة نومها مرتدية معطفها الأحمر الكبير، خالجها شعور بالأمان لم تحظَ به منذ سنوات عدة.

* * *

الفصل التاسع

أتى براد لاصطحابها، كما وعدها، عند الساعة السادسة من الليلة التالية. كل ما أخبرها به هو أنهما سيذهبان لتناول عشاء بسيط وأن تتدثر بملابس سميكة، وهذا ما فعلته. ارتدت معطفاً صوفياً كبيراً وكنزة خضراء ذات ياقة عالية لها نفس لون عينيها وبنطالاً مخملياً أسود، وانتعلت جزمة مبطّنة بالفراء. أصبح الجو بارداً في ذلك اليوم.

سألته عندما أتى لاصطحابها: "إذاً، إلى أين نحن ذاهبان؟". كان قد أعطى العنوان للسائق قبل أن تركب السيارة.

فقال لها بغموض: "سترين".

توقفا عند متجر ساكس في شارع فيفث أفنيو، وعبرا الشارع. فأدركت أنهما ذاهبان إلى مركز روكفيلر ليتناولا العشاء، وليشاهدا الناس وهم يتزلجون على الجليد. فجلسا إلى طاولة أمام نافذة كبيرة. استمتعا بمشاهدة الناس وهم يلتفّون ويدورون على قدم واحدة، وآخرين وهم يترنّحون في الأنحاء ويقعون. بدا الجميع مستمتعين بوقتهم، وكان هناك عدد كبير من الأولاد بين الكبار.

سألت فيث بعينين مفعمتين بالذكريات السعيدة وابتسامة عريضة: "أتتذكر عندما اعتدنا نحن الثلاثة أن نذهب للتزلج في متنزّه سنترال بارك؟". كان قد فكر أن يصطحبها إلى هناك، ولكنه قرر أن يأتي بها إلى هنا عوضاً عن ذلك. إذ إنه اعتقد أن ذلك المتنزّه سيذكرها بأخيها، كما سيذكره به. فقد خاضوا مغامرات كثيرة معاً، وأحبها جميعها. كانت طفولتهم في ذلك الوقت في نيويورك ممتعة. وعاش هو وجاك وفيث في

منطقة أبر إيست سايد في بلدة ودودة شمال يوركفيل بالضبط. وارتاد وجاك المدرسة نفسها.

قال لها بنبرة متعالية: "من الواضح أنني أتذكر. ولهذا السبب نحن هنا. اعتقدت أنه ربما يمكننا أن نذهب في جولة تزلج بعد العشاء، أو أن نقع كما من المحتمل أن يكون الوضع. إذ إنني لم أتزلج منذ عشرين عاماً تقريباً. فالناس لا يتزلجون كثيراً في كاليفورنيا". اعتاد ثلاثتهم أن يذهبوا للتزلج وهم أطفال مرة أو مرتين على الأقل في الأسبوع. وكان جاك عضواً في فريق الهوكي في المدرسة.

"أتعني أن نتزلج؟ هنا؟". بدت مندهشة ومسرورة، ولكنها أحبت الفكرة. فقالت: "سيكون هذا ممتعاً!".

"يسرني أنك تعتقدين هذا. فيمكن لك أن تلتقطيني إن وقعت على الأرض".

"لا تعول على هذا. فأنا لم أتزلج منذ طفولتنا". أخذت الفتاتين للتزلج بشكل منتظم في طفولتهما، ولكنها اكتفت بالجلوس عند الحافة والمشاهدة.

"جيد. إذاً، نحن متناسبان بشكل متعادل".

طلبا العشاء، وأدركت فيث أنها أسرعت في تناوله كي يتمكنا من الذهاب للتزلج. وقد أحسن اختيار الوقت بشكل مثالي. فقد كان حجزهما عند السادسة والنصف، وانتهيا عند الثامنة في الوقت المحدد بالضبط للجولة التالية. فذهبا إلى غرفة الخزائن كي يستأجرا مزلجتين بينما أخذ أحد الرجال ينظف الجليد. بحلول الوقت الذي انتعلا فيه حذائي التزلج، استُهلت الجولة.

غامرت فيث بالخروج إلى الجليد بحذر قبل براد. وشعرت أنها غير متوازنة أول الأمر، وتساءلت إن كان الأوان قد فات بالنسبة إليها. لكن بعد أن دارت حول الحافة مرتين، فوجئت بكم بدأت تشعر بالشجاعة. بدأ براد يتزلج بجانبها بحلول ذلك الوقت بشكل غير مستقر في البداية، ولكنه استطاع التوازن مثلها بأسرع مما توقع. كانا متزلجين بارعين نوعاً ما في

الماضي. وفي غضون نصف ساعة، أخذا يتزلجان بسعادة وهما ممسكان بيدي بعضهما، وأمضيا وقتاً رائعاً.

قالت فيث وهي تشعر بالكفاءة بشكل مدهش: "لا أصدق أنني لا أزال أستطيع فعل هذا". وبدا خداها متوردين ومشرقين وأخذ شعرها يتطاير، وهي تنظر إلى براد. وسرها أنها أحضرت قفازين معها بعد تحذيره لها أن تتدثر بملابس سميكة. لم يخطر ببالها ما أراد أن يفعله، وتساءلت إن أراد أن يذهب في نزهة طويلة على الأقدام أو أن يقوم بشيء رزين بشكل مماثل. لم تتوقع أن يفعل هذا قط، ولكنها ابتهجت لأنه فكّر فيه. إذ إنه بدا أشبه بالعودة بالزمن إلى الماضي.

"لا تزالين بارعة نوعاً ما، يا فرد". لم يكد يقول ذلك حتى سقطت على الجليد، فأعطاها يده وضحكا، ونهضت.

بعد ساعتين، نال منهما الإنهاك، ولكنهما شعرا بالسعادة بما قاما به. أعادا حذائي التزلج بأسف، ولكن براد اعترف أنه لو بقي منتعلاً حذاء التزلج لساعة أخرى لمات على الفور.

فتذمر بلهجة غير مقنعة من دون أن يخدع فيث: "لا بد من أنني أتقدم في السن. وسيؤلمني جسمي من الرأس حتى أخمص القدمين غداً".

ابتسمت وقالت: "وأنا أيضاً. ولكنه يستحق كل لحظة أمضيناها". ولم تستمتع بهذا القدر في حياتها منذ طفولتها. كانت فكرة مذهلة. ثم قالت: "يا الله، أتتذكر كل تلك الأوقات عندما كنا نذهب للتزلج مع كل أصدقائك، وكنتم تجعلونني أتزلج خلفكم؟ لقد كنتم دائماً تحاولون أن تطاردوا الفتيات، وكنت دائماً أجعل خططكم تفشل. فعلت ذلك عمداً، لأنني كنت أكنّ لك إعجاباً كبيراً وأنا في الثانية أو الثالثة عشرة من عمري".

فقال لها مازحاً: "إذاً، كيف حدث أنني لم أتزوجك بدلاً من بام؟ إن هذا ينم عن الغباء، كما أعتقد". لم تكن هناك نغمة رومانسية في حديثهما منذ سنوات مراهقتهما.

ضـــحكت وقالـــت: "أعـــتقد أنني تجاوزت إعجابي بك عندما بلغت الرابعة عشرة". في الواقع، حدث هذا وهي في السادسة عشرة عندما ذهبت إلى الكلية وقابلت شباناً آخرين. لكن حتى ذلك الحين، ولمدة ثماني سنوات، كانـــت تعـــتقد أن كـــل شيء في العالم يتعلق ببراد. والآن، بعد أن وجدا بعضهما مرة أخرى، لا تزال تعتقد ذلك.

تمشيا ببطء باتجاه شارع فيفث آفنيو وخدودهما حمراء من شدة البرد وهما يشعران بتأثير الجهد عليهما، لكنهما كانا مسترخيين وسعيدين. وبينما هما واقفان في الزاوية ليبحثا عن سيارة أجرة، نظرت فيث إلى دار العبادة الكبيرة سانت باتريك، وخطرت ببالها فكرة.

فـــسألته بوقار قائلة: "أتريد أن تذهب وتشعل شمعة من أجل جاك؟". كادت النظرة في عينيها تفطر قلبه. اعتادت أن تشعل الشموع من أجله في الاحتفال الديني عدة مرات في الأسبوع.

"طـــبعاً". ولم يكن قد ذهب إلى دار عبادة منذ سنوات بالرغم من أنه ارتـــاد دار العبادة معها ومع جاك ووالدتهما وهم أطفال. لم يقل براد شيئاً وهو يتبعها عبر الشارع إلى دار العبادة.

كانـــت الـــساعة قد تجاوزت العاشرة مساء بقليل، ولا تزال الأبواب مفـــتوحة. كانـــت ثمـــة زينة ميلاد جميلة ونباتات في كل مكان. بدت دار العـــبادة مـــضاءة بـــشكل مدهش، وكان ذلك مشهداً مثيراً للإعجاب وهما يدخلان. فقاما بمجرد الوقوف هناك والنظر في الأنحاء.

جلسا بهدوء على أحد المقاعد الطويلة لبعض الوقت. ثم ركعت على ركبتـــيها وتـــضرعت من أجل جاك ووالدتها وتشارلز وابنتيها أخيراً. ثم التفـــتت وهي لا تزال جاثية على ركبتيها وابتسمت لبراد. لم يرها قط تبدو أكثر جمالاً. بدت وكأن هناك هالة من السلام تحيط بها ونظرة من الحنان العظيم في عينيها.

همـــست قائلـــة: "إنـــني أشعر بوجوده هنا معنا". وعلما عمن كانت تتحدث. وأومأ براد برأسه والدموع في عينيه، ثم ركع بجانبها.

قال: "وأنا أيضاً". ثم أطرق برأسه، وأغمض عينيه.

بـــدا ذلك تماماً كالأيام الخوالي. فقد كانا يتزلجان معاً، ويذهبان إلى دار العـــبادة. كان الشخص الوحيد المفقود هو جاك، ولكن لم يبدُ أنه غائب فعلاً.

مر بعض الوقت قبل أن يرفعا رأسيهما. أشعلت شمعة من أجل جاك، ثم حملت الشمعة المشتعلة إلى براد كي يتمكن من أن يشعل شمعة بنفسه. لطالما بدا ذلك فاتناً بالنسبة إليه وكأنّ شيئاً قوياً كهذا يستطيع فقط أن يؤدي إلـــى نـــتائج جـــيدة. فوقفا جنباً إلى جنب للحظة، وهما يفكران في أخيها ويتضرعان بصمت. ثم أخذ بيدها، وابتعدا ببطء.

همـــست قائلة: "شكراً لمجيئك معي إلى هنا". كانت قد أتت إلى دار العبادة في وقت أبكر من ذلك الأسبوع، ولكن عنى لها هذا أكثر الآن لأنه بصحبتها وكأن تضرعاتهما المشتركة كانت أقوى وكأن التضرع من أجل جاك معه قد عنى لها أكثر.

التـــزم براد الصمت وهو يتبعها إلى الخارج، وبدا متأثراً بعمق. فقد مـــضت ســـنوات قبل أن يأتي إلى دار عبادة. وفوجئ كم عنى هذا له. أو ربمـــا كان السبب هو مجرد الذهاب بصحبتها والذكريات التي حرّكها ذلك في نفسه.

ســـألها وهمـــا ينـــزلان درج دار العبادة يداً بيد: "أما زلت تحتفظين بمسبحتك؟". لقد شعر أنه أقرب إليها من أي وقت مضى، وكأنها أخته من لحمه ودمه، وليست مجرد صديقة.

"نعم".

"أما زلت تستعملينها؟" لطالما شعر أنه مهتم بالأمور الروحية، وأحب الطقـــوس والمهرجانات. اعتاد جاك أن يمازحه بشأن هذا ويقول إنه ينبغي عليه أن يصبح رجل دين.

"أحـــياناً. لكـــن أكثـــر في هذه الأيام بسبب جاك. أحياناً أقوم بمجرد التوقف في دار العبادة لأتضرع من أجله". فأومأ براد برأسه.

سألته وهما واقفان في فيفث أفنيو: "هل تذهب بصحبة بام إلى دار العبادة؟". وقد حان الوقت ليأخذها إلى البيت، ولكنه كان يكره أن يغادر.

فابتسم لسؤالها، وقال لها ببساطة: "لا".

قالت فيث: "كم هذا مؤسف". فابتسم لها براد. لطالما كان هناك شيء نقي يتعلق بفيث أحبه فيها وهي طفلة والآن أيضاً.

عندئذ دسّت يدها تحت ذراعه، وأخذا يمشيان ببطء في شارع فيفث أفنيو من دون أن يتفوها بكلمة واحدة.

* * *

الفصل العاشر

غادر براد نيويورك يوم الجمعة عصراً بعد ذهابهما إلى التزلج بيوم واحد. واتصل بها في الصباح ليخبرها كم يشعر بالألم، وكم أصبح جسمه متيبساً، وكيف أنه بالكاد استطاع أن ينهض من السرير. لكنه لم يمضِ وقتاً أطيب من ذلك في حياته. أراد أن يتوقف بجانب المنزل ويودعها، ولكن لم يكن لديه متّسع من الوقت لذلك، كما تبين له، وتوجب عليه أن يهرع ليستقل طائرته. فاتصل بها من المطار عوضاً عن ذلك.

قال لها بحزن: "لقد أردت أن أعانقك، وأتمنى لك ميلاداً مجيداً، يا فرد". خاب أمله لأنه لم يرها مرة أخيرة. ثم قال: "لقد أمضيت وقتاً طيباً جداً الليلة الماضية. وكان أفضل وقت على الإطلاق. سيتوجب علينا أن نقوم بذلك ثانية في المرة القادمة التي آتي فيها إلى المدينة"، لكن لم تكن لديه أي خطط، فنادراً ما كان يأتي إلى نيويورك بعد الآن سوى لحضور المؤتمرات كالمؤتمر الذي حضره أخيراً. عندما كان يعمل في شركة والد زوجته، اعتاد أن يأتي طوال الوقت.

قالت وهي تفتقده: "لقد أمضيت وقتاً رائعاً أنا أيضاً". كان من الرائع أن تراه. والآن بعد أن عاد إلى كاليفورنيا، بدا ذلك شبيهاً بتوديع جاك مرة أخرى. ثم قالت: "يسرّني أننا ذهبنا إلى سانت باتريك".

"كذلك أنا. وربما سأذهب وأشعل له شمعة في وقت ما في سان فرانسيسكو".

أومأت برأسها وقالت: "أعلم ذلك. وسأشعل شمعة لك في الاحتفال الديني منتصف الليل في ليلة الميلاد. فعادة ما أتمكن من إقناع زوي

بالــذهاب معــي". جعــل ذلك براد يعتقد أنه يجب أن يفعل ذلك بدلاً من حــضور حفلــة عشاء الميلاد التي ستقيمها بام. لكنهما في ليلة الميلاد لم يكــونا يفعــلان الكثيــر. فعادة ما كانا يتناولان العشاء في بيت والدها ثم يعــودان إلــى البــيت ليأويا إلى الفراش. بغياب الولدين عنهما، قررا ألا يشتريا زينة ميلاد تلك السنة.

"متــى ســتأتي زوي إلــى البيت؟" كان قد نسي، ولكنه علم أن ذلك سـيحدث فــي الأيام القليلة التالية. كان ألكس سيعود في اليوم التالي. وقد دخــل براد إلى البيت في الليلة السابقة لبضع دقائق عندما أوصلها. فأرته فــيث مكان دراستها حيث تحتفظ بالكمبيوتر وتكتب رسائلها. كانت غرفة صــغيرة دافئة، ومليئة بالصور وبما تسميه الحطام العاطفي. لكنه أحب أن يرى مكان كتابتها. فقد تسنى له بتلك الطريقة أن يتخيلها وهي تكتب له.

أجابــته عــندما اتــصل من المطار: "ستأتي زوي إلى البيت الليلة. وستــصبح الأوضــاع جنونــية بعــد ذلــك. فالأولاد سيدخلون من البيت ويخــرجون مــنه في كل الأوقات. وسترمى الثياب في كل مكان وستصل البيتزا عند منتصف الليل".

قــال وهو يبدو حزيناً: "إنني حقاً أفتقد هذه الأيام". كان يود أن يراها مــرة أخرى، ثم قال: "سأتصل بك في عطلة نهاية الأسبوع. فسأتواجد في المكتب خلال يومي العطلة. اعتني بنفسك فِرِد".

"وأنت أيضاً. شكراً لك على الأمسيتين الرائعتين. فقد أحببتهما كثيراً".

"كذلك أنا". عندئذٍ تم الإعلان عن قرب موعد إقلاع طائرته، فتوجب عليه أن يذهب. فقال: "أشعلي شمعة من أجلي في المرة القادمة التي تذهبين فيها إلى دار العبادة. فيمكنني دائماً أن أستفيد من المساعدة الإضافية".

"سأفعل ذلك. أتمنى لك رحلة طيبة". ثم أسرع للّحاق بطائرته. جلست تفكّر فيه. فقد كان أمراً غريباً جداً ورائعاً في آن معاً أن تحظى بعودته إلى حياتها. بدت لها عودته بمثابة هدية حقيقية. فقد كانت رؤيته الهدية الأفضل من بين كل هدايا الميلاد باستثناء عودة إيلي إلى البيت. كان لا يزال عليها

أن تخبــر زوي أن أختها ستذهب إلى سويسرا لتمضية العطلة هناك. لكن كــل ما استطاعت أن تفكر فيه الآن هو الوقت الذي أمضته مع براد وما عــناه لها. كانت محادثتهما في كل من دعوتَي العشاء مهمة. أحبت التزلج برفقته، وأدهشها مدى صراحتهما مع بعضهما الآن كالأيام الخوالي تماماً، ولكن ذلك أصبح أفضل لأنهما ازدادا حكمة. كان التحدث إليه مريحاً جداً. مــن بعض النواحي، بدا أكثر سلاسة في الحديث من جاك. فلطالما اختلفا فــي أمــور مــثل زواج والدتهما. فقد اعتقدتها فيث وحيدة وتعيسة طوال حــياتها فــي حــين أن جاك اعتقد أن تشارلز رجل محترم وأن أخته قد أجحفــت في حقّه. لم يتفقا بشأن زواجيهما. فهي لم تحب ديبي، وكره هو ألكــس. لكــن لم يكن ثمة خلاف بينها وبين براد. كانا ينظران إلى معظم الأمــور بالطــريقة نفسها ومن الجانب نفسه. أحزنها أن تدرك إلى أي حدٍّ تــنازل فــي زواجــه. وشعرت بالأسى من أجله. فقد بدت بام امرأة غير مناسبة له، ولكن بدا من الواضح أنه محصّن مدى الحياة. كان ذلك تصرفاً نبــيلاً منه، ولكنه بدا مضللاً نوعاً ما بالنسبة إليها على الأقل. ولكن ربما كان بسعه أن يقول الشيء نفسه عن ألكس. فلم يكن أي منهما زوجاً سلساً، ولكــنهما الشخصان اللذان اختاراهما وقررا أن يبقيا بصحبتهما. احترمته لأجل موقفه هذا، وفي الوقت نفسه، أشفقت عليه.

أرســلت إلــيه رســالة فــي تلك الليلة لتشكره على دعوتَي العشاء والتزلج. وبعد أن أرسلتها بالضبط، دخلت زوي إلى البيت وبحوزتها أربع حقائب سفر ومضرب التنس وحقيبة الكاميرا وكمبيوترها يتدلى عن كتفها. فوضعت كل ذلك في الردهة الأمامية، ودخلت المطبخ. كانت تصب لنفسها كوباً من الحليب عندما دخلت أمها.

"أهــلاً بعودتك إلى البيت". وأحاطتها فيث بذراعيها وعانقتها بحنان. وعرضــت أن تُعــدّ لها شيئاً لتأكله، ولكنها قالت إنها تناولت شطيرة في المطــار فــي طــريقها إلى البيت. فتناولت بعض المثلجات، وجلست إلى طاولة المطبخ بابتسامة عريضة بينما ابتسمت لها فيث.

"إن هذا منظر يبهج القلب. فمن اللطيف أنك هنا". لقد أتت لتمضي ثلاثة أسابيع في البيت. فشعرت فيث ببهجة عارمة.

فابتسمت زوي ابتسامة عريضة وهي تنهي تناول المثلجات بنكهة الفانيليا. ثم سألت قائلة: "متى ستأتي إيلي إلى البيت؟"، فتجهمت فيث بشكل واضح.

"إنها لن تأتي. فهي ذاهبة إلى سان مَريتز في سويسرا لتتزلج مع جف وعائلته".

فبدت زوي مصعوقة، وقالت: "هل أنتِ جادة؟ هل ستتزوجه؟". فقد بدا ذلك السبب الوحيد الذي استطاعت أن تفكر فيه لعدم قدوم إلويز إلى البيت، كأن تقابل أهل خطيبها وتمكث في أوروبا لتعقد خطوبتها.

"ليس على حدّ علمي. فقد أرادت فقط أن تقوم بذلك من أجل أن تستمتع بوقتها".

"أسمحتِ لها بذلك، يا أمي؟"، ولم تستطع زوي أن تفهم السبب. فقد كانت العطلات مهمة لفيث، ولم تستطع زوي أن تتخيل أمها تسمح لأختها أن تتهرب بتلك السهولة، ولم تكن فيث لتفعل ذلك لو أن ألكس لم يقل لها إنها تستطيع الذهاب.

"لقد اتصلت بوالدها أولاً على ما يبدو وأخبرها أنه لا بأس بذهابها. وهكذا سمحت لها بأن تنجو بفعلتها هذه المرة، ولكنني قلت لها إن السنة القادمة إلزامية. لذا لا تدعي بعض الأفكار تخطر ببالك". لوحت فيث بإصبعها مهددة، فابتسمت زوي ابتسامة عريضة.

"لا تقلقي، يا أمي. فأنا لست ذاهبة إلى أي مكان. ولكن من الغريب ألا نحظى بها هنا". وبدت زوي حزينة فجأة. فقد بدا من الصعب أن تتخيل الميلاد من دون أختها حتى لو لم تكونا تتفقان مع بعضهما بعضاً دائماً. كان ذلك سيبدو وضعاً غريباً جداً، وحزيناً بعض الشيء.

فوافقتها فيث قائلة: "أعلم ذلك. ستصبحين الابنة الوحيدة لثلاثة أسابيع". فأشرق وجه زوي لتلك الفكرة.

"في الواقع، يبدو هذا جيداً نوعاً ما. أين والدي، بالمناسبة؟".

"سيستقل الطائرة عائداً من كاليفورنيا. وسيصل في غضون بضع ساعات". لقد اتصل من المطار ليقول لها إنه قادم إلى البيت قبل يوم من موعده وإنه خائر القوى.

قالت زوي وهي تتناول سماعة الهاتف: "إنني أتساءل وحسب". بعد نصف ساعة، صعدت إلى غرفتها، وأخذت تفتح حقائبها، وتبعثر ثيابها في كل أرجاء أرض المنزل. شغلت الكمبيوتر ورن جرس الباب الأمامي ثلاث مرات، ووصلت صديقاتها المفضلات من المدرسة الثانوية إلى البيت. وبعد ساعة وصلت البيتزا. بحلول الوقت الذي وصل فيه ألكس إلى البيت، كانت الموسيقى الصاخبة تصدح في المنزل والفتيات يضحكن، وقالت زوي إنهن سيخرجن من المنزل، وعمّت المكان الفوضى العارمة. فبدت فيث في قمة السعادة بينما دخل ألكس إلى غرفة نومهما وهو يتأوه.

تذمر قائلاً: "لقد استولى سكان المريخ على منزلنا. لقد خرج عامل تسليم البيتزا وأنا أدخل البيت، وكان هناك شخص آخر يسلّم الطعام الصيني، واقترضت زوي لتوها مئة دولار وهناك حوالى مئتي فتاة في غرفتها. إنني أنسى أحياناً كيف تبدو الحال عندما تأتي إلى البيت. كم ستدوم إجازتها؟". وبدا خائر القوى ويائساً. كانت فيث قد أغلقت صنبور المياه في حوض استحمام زوي قبل أن يفيض الماء منه. ولكنها أحبت الحياة التي أضفتها زوي على البيت. جعل ذلك فيث تشعر أنها على قيد الحياة مرة أخرى بمجرد أن تحظى بها هناك.

"ستمكث في البيت لثلاثة أسابيع. كيف كانت رحلتك؟".

"منهكة، ولكنها مريحة بالمقارنة مع هذا. هل تعتقدين أننا نستطيع أن نطلب منها أن تخفض صوت الموسيقى أو أنه ينبغي عليّ أن أضع سدادات الأذنين طوال الأسابيع الثلاثة القادمة؟ هل كان الوضع دائماً هكذا؟"، وبدا مقهوراً.

"نعم. ولهذا السبب أشعر بالضجر الشديد عندما لا تأتيان إلى البيت". ثم نظرت إليه وهو يضع حقيبته وينهار على أحد الكراسي، وقالت: "لم تخبرني أنك تحدثت إلى إلويز بشأن عدم قدومها إلى البيت لتمضية الميلاد". حاولت أن تبتعد عن نبرة الاتهام، ولكن بدا واضحاً بالرغم من ذلك أنها لم تشعر بالسرور لهذا. ولم تكن قد تحدثت إليه طوال الأسبوع وهو في لوس أنجلوس. فهو لم يتصل بها قط، وهي لم تفعل ذلك.

فقال لها وهو يبدو غامضاً: "لا بد من أنني نسيت أن أذكر ذلك".

"لقد كان بإمكانك على الأقل أن تقول لي شيئاً قبل أن توافق على السماح لها بذلك. فقد وضعني هذا في موقف حرج عندما اتصلت بي".

"هل ستأتي إلى البيت؟". لم يبدُ عليه الشعور بالذنب بقدر ما بدا عليه القلق. إذ إن وجود شخص آخر في البيت في تلك المرحلة كان سيثير جنونه. فقد نسي ما كانت عليه ابنتاه حين تواجدهما في البيت.

"كلا، لن تأتي. لقد أخبرتني أنك قد قلت لها إنه باستطاعتها أن تبقى هناك. ولم يدع هذا مجالاً لي لأقول لها إنها لا تستطيع أن تذهب إلى سان مَريتز من دون أن يبدو هذا تصرفاً سيئاً جداً. ولهذا، قلت إنه يمكنها ذلك".

قال وهو يخلع حذاءه: "ستمضي وقتاً ممتعاً".

"لقد قلت لها إنها لا تستطيع أن تفعل هذا مرة أخرى. فأنا أريد أن تأتي كلتا الفتاتين إلى البيت لتمضية عطلة الميلاد كل عام، مهما حدث، وإن لم نحدد ذلك الآن، فلن تأتيا أبداً. ولطالما سيكون هناك شيء أكثر إغراءً لتفعلاه بدلاً من العودة إلى البيت".

قال محاولاً تهدئتها: "ستكون على ما يرام".

قالت فيث: "أعلم ذلك، ولكنني سأفتقدها على أي حال". ارتفع صوت الموسيقى في غرفة زوي أكثر فأكثر. وسمعا صوت باب يغلق بشدة.

قال ألكس بصراحة: "إنني لن أفتقدها. وبالإضافة إلى ذلك، فهما لم تنسجما جيداً في مناسبة الشكر على أي حال. فاعتقدت أنه سيكون من الجيد لهما أن تفترقا لبعض الوقت".

فقالت فيث بإصرار: "ربما من الأفضل لهما أن تقابلا بعضهما بعضاً وتتصالحا". وكانت تعتقد بشدة بحميمية العائلات وبكل ما ينطوي عليه ذلك. بينما هي تصغي إليه، تذكرت كل ما قالته وبراد في اليومين الماضيين. فهناك أوقات تصبح فيها وألكس في قطبين متعاكسين. في الواقع، فقد كان هذا يحدث معظم الأوقات.

"أتعتقدين أنك تستطيعين أن تحملي زوي على خفض صوت الموسيقى؟ فسأصاب بالجنون إن أبقتها هكذا طوال ثلاثة أسابيع". بدا تعيساً وهو يذهب ليأخذ حماماً.

سألت فيث محاولة أن تطغى على صوت الضجيج: "أتريد تناول العشاء؟"، فوقف لبرهة في مدخل الحمام وهناك تعبير حزين على وجهه.

"لقد تناولت طعامي في الطائرة. وأريد فقط أن آوي إلى الفراش. وأعتقد أن هؤلاء الفتيات سيسهرن طوال الليل على الأرجح".

"لقد قالت إنهن سيخرجن. وسأطلب منها أن تخفف صوت الموسيقى".

فقال لها: "شكراً". وأغلق الباب. ولم يقبّلها أو يعانقها أو يحييها بتحية عاطفية. بل قام بمجرد دخول الحمام والتذمر بشأن الضوضاء. لم يسعها أن تلومه لرد فعله على الضوضاء، ولكن كان ليبدو تصرفاً لطيفاً لو أنه قال لها شيئاً بعد أن غاب عنها لثلاثة أيام.

بعد بضع دقائق، دخلت لترى زوي وصديقاتها، وطلبت من الجميع محاولة السيطرة على الضوضاء، كانت هناك فطيرتا بيتزا مفتوحتان على السرير بينما أخذت اثنتان من الفتيات تتناولان البيتزا، وتشاهدان التلفاز، وأخذت زوي تجفف شعرها بالمجفف. كانت هناك تشكيلة من الطعام الصيني تنتظر في المطبخ في الطابق السفلي. فكانت زوي قد أتت إلى البيت بكل طاقتها.

قالت فيث بهدوء: "إن والدك سيأوي إلى الفراش في غضون لحظات. ربما يمكنكن تخفيف الضجيج قليلاً".

صاحت زوي لتغطي على صوت مجفف الشعر: "سنخرج يا أمي. ثلاث من صديقاتي قادمات في غضون بضع دقائق. وسنتناول شيئاً ما هنا ثم سنخرج جميعاً".

"لا تنسي أن توقفي عمل التلفاز والستيريو عندما تنزلين إلى الطابق السفلي".

"أعدك بذلك". نفذت ما قالته، ولكن عندما نزل الجميع بصخب إلى الطابق السفلي أخيراً، أدركت فيث أنها نسيت أن تفرغ حوض الاستحمام. وبدا من العبث أن تشير إليها بفعل ذلك، فلطالما كانت تنسى ذلك على أي حال. تركت زوي أيضاً شمعتين مضاءتين في الغرفة، مما أقلق فيث. إذ إنها خشيت أن يتسبب هذا بحريق في المنزل. لقد تسببت الشموع بمعارك دائمة بينهما، ولطالما اتهمت زوي أمها أنها شديدة الارتياب.

سأل ألكس بتفاؤل عندما عاودت فيث الدخول إلى غرفتهما: "هل خرجن؟"، وكان في السرير وبحوزته كتاب وهو مرتدٍ بيجامته، وشعره نظيف ومبلل.

"كلا، ولكنهن سيخرجن عما قريب". لم تخبره عن الفوضى التي خلّفتها وراءها. فقد علمت أنه سيغضب هو الآخر مثلها. ففي عمر زوي، هناك أوقات تتمتع بها الفتاة بجسم امرأة وعقل طفلة.

عندما نزلت فيث إلى الطابق السفلي لتتفقّدهنّ، كنّ يتناولنَ الطعام الصيني من العلب ويضحكن بجنون، تواجدت سبع فتيات هناك بحلول ذلك الوقت. وللحظة عابرة، شعرت بالراحة أن إيلي لم تأتِ إلى البيت لتضيف فوضاها إلى تلك الفوضى بالرغم من أنها كانت ستستمتع بها على أي حال، ولكن ألكس لم يكن ليفعل ذلك.

قالت فيث من فوق رؤوس الأخريات: "لقد فكّرت أن نشتري زينة الميلاد غداً".

"لا أستطيع ذلك، يا أمي. فسأذهب لقص شعري غداً، ويجب عليّ أن أقابل أصدقائي". وكان ذلك تقليداً تحب فيث أن تشاركه معها، ولكن الأمور

أصبحت مختلفة الآن. وبدا على تقاليدهما أنها تتبخر في الهواء. ثم قالت زوي: "إنني آسفة، أيمكن أن نقوم بذلك الأسبوع القادم؟". كان الميلاد سيحل بعد تسعة أيام.

قالت فيث بتفاؤل: "أتريدين أن تقومي بذلك يوم الأحد؟".

"لا أستطيع ذلك، فلدي حفلة في كونيكتيكت".

"إن اشتريتها أنا، فهل ستزينيها معي؟".

قالت زوي وهي تعانق أمها: "أعدك بذلك". ثم رن جرس الباب مرة أخرى، ووصلت أربع فتيات أخريات. ومضت نصف ساعة أخرى قبل أن يغادرن جميعاً. ووعدت زوي أن تعود إلى البيت في وقت مناسب، ولكنها لم تقل متى. بقيت فيث في المطبخ لتتدبر أمر كل تلك الفوضى. لم ترد أن تتذمر من ذلك في ليلة زوي الأولى في البيت. فقد كان من الأسهل أن تقوم بذلك بنفسها من دون أن يتطلب الأمر وقتاً طويلاً. عندما صعدت إلى الطابق العلوي لترى ألكس، وجدته مستغرقاً في النوم. فأطفأت الضوء، وعادت إلى غرفة مكتبها في الطابق السفلي. بدا المنزل فجأة هادئاً وساكناً. فابتسمت لنفسها. وبالرغم من الفوضى والصخب، أحبت أن تحظى بوجود زوي في البيت. فهذه هي الحياة التي استمتعت بها طوال أربعة وعشرين عاماً. كان من اللطيف أن تستعيدها مرة أخرى ولو لأسابيع قليلة فقط.

أرسلت رسالة إلكترونية أخرى إلى براد بالرغم من علمها أنه لا يزال على متن الطائرة. كان على الأرجح على وشك الوصول إلى سان فرانسيسكو بحلول ذلك الوقت. كانت تلك ثاني رسالة ترسلها إليه ذلك اليوم.

بدأت رسالتها قائلة: "عزيزي براد. إن الفوضى تعمّ المكان، والموسيقى تصدح في أذني، والبيتزا والطعام الصيني يملآن المنزل، بالإضافة إلى الفتيات الضاحكات وموسيقى الراب وجهازي الستيريو والتلفاز، أما المثلجات فتسيل عن الطاولة إلى أرضية المطبخ. لقد عادت زوي إلى البيت. وخرجت مجدداً مع صديقاتها، وعاد ألكس إلى البيت من

كاليفورنيا في غمرة ذلك كله، وأوى إلى الفراش. إنه نائم الآن، وهي خارج المنزل. أنا أستمتع بالفوضى، وبحلول الوقت الذي ستغادر فيه، سأعود إلى الكلية. كيف حالك؟ آمل أنك حظيت برحلة ممتعة. لقد كان من الروعة أن أقابلك مرة أخرى. فقد أحببت التزلج، ودعوتي العشاء، والذهاب إلى دار العبادة الكبيرة سانت باتريك بصحبتك. عد مرة أخرى عما قريب. فأنا أفتقدك منذ الآن. لقد استمتعت أيضاً بمشاركة آرائنا عن الزواج، والعلاقات، والتسويات، والطريقة التي تؤول إليها الأمور في النهاية. إننا لم نعتد قط أن نتحدث عن تلك الأمور ونحن صغيران. ولا يسعني أن أتذكر ما كنا نتحدث عنه. أعتقد أننا كنا نضحك كثيراً وحسب. لقد اعتدت أن أتحدث عن تلك الأمور كثيراً مع جاك. من الغريب ما آلت إليه أحوالنا، أليس كذلك؟ فهذه ليست الطريقة التي كان يفترض أن تنجح بها الأمور، ولكن هذه هي حالنا الآن. طالما أن الفتاتين موجودتان معي، فأنا لا أكترث فعلاً. إن الحال تصبح أكثر صعوبة عندما تغيبان عني. فعندئذ يدرك المرء قيمة ما يملكه وما لا يملكه".

"لقد أردت أن أشتري زينة الميلاد مع زوي غداً. ولكنها لا تستطيع أن توفر لي ساعة واحدة في ثلاثة أسابيع. ربما سيتوجب علينا أن نضع الزينة في الفصح هذا العام. أعتقد أنني سأشتريها بنفسي. ولا بأس بهذا طالما أنها هنا. فالبيت يبدو صامتاً وموحشاً عندما ترحل".

"لا ترهق نفسك بالعمل في عطلة نهاية الأسبوع. سأتحدث إليك لاحقاً. مع حبي فرد".

جلست إلى مكتبها لساعتين لتجيب عن رسائلها بعد ذلك. عند منتصف الليل بتوقيت نيويورك، وصلتها رسالة من براد.

"مرحباً... لقد وصلت إلى البيت لتوي. وشغلت الكمبيوتر لأكتب لك، ففوجئت برسالتيك. أرسلي إليّ شيئاً من تلك الفوضى. إنني أحظى بالوجه الآخر للعملة عادة كإطارات الدراجات، وألواح التزلج في الردهة الأمامية، وأحذية التنس المبعثرة في أرجاء المنزل، وصخب متضارب من الستيريو

والتلفاز، بالإضافة إلى اختفاء ملابسي دائماً. كيف يمكنهما أن يرتديا كل سراويلي القصيرة وجواربي؟ وهناك السيارات التي تُركن عند الرصيف خارج المنزل ومجموعة من الشبان الذين يلتهمون كل شيء في الثلاجة. إنني أفتقد كل هذا. أتمنى لو أن ولديّ قد عادا إلى البيت أيضاً. استمتعي بكل لحظة من لحظاتك! لقد استمتعت بكل دقيقة أمضيتها معك، يا فرد. يا لها من نعمة أن أجدك مرة أخرى بعد كل تلك السنوات. إنني آسف أنني فقدتك قبل ثلاث سنوات، أعدك أن هذا لن يحدث مرة أخرى. فأنت طيبة فوق الحد لتكوني حقيقية. لماذا لم أختطفك وأحتفظ بك عندما كنت في الرابعة عشرة؟ لقد كنت في تلك الأيام أطارد الفتيات الحسناوات اللواتي لا عقول لهن، وكان جاك ليقتلني على أي حال. الوضع أفضل هكذا. فأنا أحبك كصديقة وأخت صغرى. شكراً لأنك أضفيت الكثير من نور الشمس على حياتي. لو أن أمك لا تزال على قيد الحياة لشكرتها لكل الصفات التي تتمتعين بها الآن، ولكن الفضل لا يعود إليها على الأرجح. فأنت هكذا وحسب. إنني ذاهب لأنهار على السرير، أتمنى لو أنني معك لأزين زينة الميلاد. عانقي زوي نيابة عن صديق والدتها الكبير، لا تقبلي ألكس نيابة عني، فهو لن يتفهم ذلك. اعتني بنفسك، يا فرد. بقيت تسعة أيام فقط قبل الميلاد، وثمانية أيام فقط قبل أن أذهب للتسوق. مع حبي براد".

ابتسمت فيث لنفسها وهي تقرأ الرسالة. أخيراً، صعدت إلى الطابق العلوي لتقرأ في السرير. أرادت أن تبقى مستيقظة حتى تعود زوي إلى البيت، وهذا ما حدث عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل. فذهبت فيث لتقبلها قبل أن تنام. بدت سعيدة ومبتهجة لرؤية صديقاتها وخاصة صديقتها المفضلة من المدرسة الثانوية التي أتت إلى البيت لتمضي الليلة معها، وهذا كان أمراً حسناً بالنسبة إلى فيث.

قالت فيث وهي تغلق الباب: "أراكما في الصباح، أيتها الفتاتان". ثم فتحته ثانية، وقالت: "لا شموع، من فضلكما. فأنا أحاول ألا أحرق المنزل قبل الميلاد إن أمكنني أن أتدبر ذلك. أهذا ممكن؟".

قالت زوي وهي تضحك: "حسناً، يا أمي. تصبحين على خير".

كان ألكس يشخر عندما اندست في السرير بجانبه، والتفتت لتنظر إليه قبل أن تطفئ الضوء. لم تكن قط لتخوض معه النقاشات التي خاضتها مع براد في غيابه، لم يكن ليعي الهدف من ذلك. ولم يكن قط ليتحدث بشاعرية عن الفوضى المحببة التي يحدثها ولداه في المنزل أو ليتزلج معها أو يذهب إلى سانت باتريك ليشعل شمعة لجاك. لماذا يحدث أن المرأة تستطيع أن تفعل أموراً كتلك مع أصدقائها وليس مع الرجل الذي تحظى به في حياتها؟ لقد كان ألكس رجلاً صلباً وجاداً ويُعتمد عليه. وقد تزوجا مدى الحياة، ولكنه كان ليتجاهلها إن هي حاولت أن تتحدث عن التضحيات التي يقوم بها المرء في الزواج أو التسويات التي يجب على المرء أن يقدمها. لم يكن قط ليتفهم موقفها أو ليود أن يفعل ذلك. فقد اعتادت وألكس أن يتحدثا عن أمور مثل الفتاتين والعمل ورحلته الأخيرة أو شيء سمعته في الأخبار. لكنها لم تستطع أن تشاركه فلسفتها في الحياة أو أحلام قلبها. هذه هي طبيعة الوضع. ليس هناك هدف من التأمل فيها أو الندم على ما لا تحظى به في حياتها. أصبح الآن في وسعها أن تتحدث إلى براد. وبدا بمثابة هدية في حياتها، تماماً كما قال هو عنها.

أطفأت الضوء عندئذٍ، وبعد خمس دقائق استغرقت في النوم. عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، كان ألكس قد خرج لينزوي في مكتبه، ويستدرك العمل الذي فاته. وعندما خرجت فيث من الحمام وهي تلفّ نفسها بمنشفة دخلت زوي.

"يا أمي! من أين أتت تلك الكدمة؟". وبدت زوي مصدومة. فنظرت فيث بدهشة. وكانت هناك علامة طويلة سوداء وزرقاء على ساقها لم تلاحظها من قبل.

قالت وهي تجفف نفسها: "ماذا؟ آه... تلك... لا بد من أنني أصبت بها وأنا أتزلج". وبالرغم من أن الكدمة بدت واضحة إلا أنها بالكاد مؤلمة.

قالت زوي بدهشة: "ذهبت للتزلج؟ منذ متى وأنت تتزلجين؟".

"منذ كنت في الخامسة من عمري. لم أفعل ذلك منذ وقت طويل. ألا تتذكرين؟ لقد اعتدت أن آخذك للتزلج في المتنزه وأنت صغيرة". لقد ذهب جاك معهما مرة أو مرتين، ولكن زوي كانت على الأرجح صغيرة جداً بحيث إنها لم تتذكر ذلك.

قالت زوي بغموض: "نعم، على ما أعتقد". لقد أصبحت في ما بعد أكثر اهتماماً بالباليه والجياد. ثم قالت: "مع من ذهبت للتزلج؟"، ولم تستطع أن تتخيل أمها تتزلج وحدها. إذ إن ذلك بدا غريباً.

"مع صديق قديم من أصدقاء خالك جاك. لقد تربينا معاً، وأتى إلى نيويورك لبضعة أيام. فذهبنا للتزلج إكراماً للأيام الخوالي، وأمضينا وقتاً ممتعاً".

قالت زوي باهتمام بينما أخذت أمها ترتدي ملابسها وهما تثرثران معاً: "كيف يبدو؟"، وقد كان هذا جزءاً مما أحبته في وجود زوي في البيت. إذ إنها شكلت رفقة مسليّة لها.

"إنه رجل لطيف. وهو يذكّرني كثيراً بخالك جاك، ونحن نراسل بعضنا عبر البريد الإلكتروني منذ شهرين. لقد صادفته في جنازة تشارلز. إنه يعيش في سان فرانسيسكو، ويعمل محامي دفاع جنائي للأطفال المتهمين بارتكاب الجنح والجرائم الخطيرة وذلك النوع من الأمور. لقد قابلته في جنازة خالك جاك، ولكنك على الأرجح لا تتذكرينه". لقد قابلت الفتاتان كثيراً من الناس في ذلك اليوم، وسادت أجواء الحزن بين الجميع، وبدت زوي مستمتعة الآن.

"هل أنت معجبة به، يا أمي؟ إنك تبدين لطيفة جداً وأنت تتحدثين عنه".

"لا تكوني سخيفة. إنني أعرفه طوال حياتي".

"إن أغرب الأمور يمكن أن تحدث. أهو معجب بك؟".

"كلا، فنحن صديقان حميمان وأشبه بأخ وأخت. نحن نتحدث عن الكثير من الأمور، ونتشارك الكثير من الأفكار، وهذا على الأرجح لأننا نشأنا سوياً. أعتقد أن هذا يساعدنا على التواصل معاً".

"أهو متزوج؟"، أصبحت زوي مفتونة به. فقد بدا مثيراً للاهتمام بالنسبة إليها، ولم تستطع على الإطلاق أن تتذكر أمها وصديقها المقرّب، بالرغم من أنها كانت تعرف نساء متزوجات لديهن أصدقاء. لم تعتقد أن أمها تقيم علاقات غرامية حتى بالرغم من اعتقادها أن والدها كان غير لطيف معها. اعتقدت زوي أنه يستحق هذا وأنه ربما يكون أمراً جيداً لفيث. بدت منفتحة على كل الاحتمالات، أكثر من فيث بكثير.

"نعم، إنه متزوج. ولديه ولدان توأمان تطوّعا للعمل في أفريقيا هذا العام. وهما في مثل سن إيلي".

"ربما ستودين مقابلتهما يوماً ما. هل هما ظريفان؟"، كان قد أراها صوراً لهما، وبدوا شبيهين به.

"أعتقد ذلك".

قالت زوي: "إذاً، أعتقد أنهما ليسا ظريفين على الأرجح". وخرجت عائدة إلى غرفتها.

بدا أمراً غريباً لفيث أن تصبح زوي مهتمة كثيراً ببراد. وبعد بعض الوقت، خرجت زوي لتقص شعرها، وذهبت فيث لتشتري الزينة. فاشترت زينة تبدو جميلة في غرفة المعيشة، وتم توصيلها إلى البيت عصر ذلك اليوم، وشغلت نفسها بوضعها عندما أتى ألكس إلى البيت، ووقف ليشاهدها لبرهة، ثم جلس وكأن المشروع لا يهمه. ووقفت فيث على سلم لتعلق كرات ملونة بألوان مشرقة.

سألته بتفاؤل قائلة: "أتريد أن تساعدني؟"، ولم تكن زوي في الجوار. فهي لم تكن قد عادت إلى البيت بعد.

قال لها: "يبدو لي أنك تتولين زمام الأمور". ثم ذهب. كان يكره أعمال الزينة والاحتفال ولطالما قامت هي بذلك مع الفتاتين، ولكن يبدو أن تلك الأيام قد ولّت، فلم تعد الفتاتان تملكان الوقت الكافي أو الاهتمام للقيام بذلك بنفسيهما. أمضت في العمل ساعة أخرى، ثم تراجعت إلى الوراء، ونظرت إلى عملها بسرور. بدت الزينة جميلة ومبهجة، ووضعت قرصاً

مدمجاً لأغاني المناسبة، وذهبت لتبحث عن شيء ما على مكتبها، وعندما فعلت ذلك، اكتشفت أن رسالة وصلتها، ولم تكن قد تفقّدت بريدها طوال اليوم.

"مرحباً، يا فرد. إنه يوم عصيب، توجب عليّ أن أشاركه مع شخص ما. فقد تلقيت مكالمة من زوجين وقابلتهما قبل قليل. ابنتهما البالغة من العمر خمسة عشر عاماً متهمة بقتل أخيها البالغ من العمر ست سنوات. ومن كل ما استطعت جمعه من معلومات، عرفت أنها مريضة عقلياً، بالرغم من أن هذا ليس بادياً عليها، ولكن من الواضح أنها كذلك. قد تتعرض للمحاكمة نتيجة لهذا، بالرغم من أنني أعتقد أنني أستطيع أن أحصل على جلسة تقييم لقواها العقلية. سترسل على الأرجح إلى مؤسسة اجتماعية للمرضى العقليين المتهمين بارتكاب الجرائم، وهذه مأساة بالنسبة إليهم. لقد تحطمت حياتهم، ويا لها من هدية للميلاد! لقد فطرت صورة الصبي الصغير قلبي. وسأقابل الفتاة اليوم. فهي تخضع للتقييم الآن. إنني في بعض الأيام لا أحب عملي، فأنا لا أستطيع أن أبذل الكثير لأصلح هذه القضية أو أساعدهم سوى ببعض الأمور التقنية نوعاً ما. إنني آسف لأن أسبّب لك الكآبة. آمل أنك تحظين بيوم أجمل من يومي. هل اشتريت الزينة؟ أراهن أنها تبدو جميلة، وكذلك أنت. لقد أحببت معطفك الأحمر. هل أخبرتك بذلك؟ تبدين رائعة باللون الأحمر وبحذاء التزلج الذي كنت تنتعلينه. سأطلعك على المزيد قريباً. مع حبي براد".

بدا محبطاً جداً، فأجابته على الفور.

"إنني آسفة بشأن القضية فهي تبدو مريعة وأشبه بكابوس مرعب. سيكون ذلك بمثابة فقدانهما الولدين في أن معاً. كم هذا فظيع بالنسبة إلى الجميع. إنني آسفة جداً أن هذه القضية قد أوكلت إليك. كل شيء على ما يرام هنا. لقد وضعت زينة الميلاد، وتبدو جميلة جداً، وهربت زوي من المنزل طوال النهار. فأعفاها قص شعرها لمدة ست ساعات من مهمة التزيين. ستعود إلى البيت في أي لحظة. وأنا واثقة من ذلك. يجب عليّ أن

أبداً بطهو العشاء. أردت فقط أن أسلّم عليك. لقد بدوت جميلة جداً في حذاء التزلج، ولكن لدي الآن كدمة على طول ساقي حتى ركبتي. وفزعت زوي من منظرها. فأخبرتها إلى أين ذهبت ومع من، فشعرت بالتأثر. آمل أن تقابلها في المرة القادمة. اعتنِ بنفسك. وحاول أن تبتهج. مع حبي فرد".

دخلت زوي الغرفة بينما كانت فيث ترسل الرسالة. بدا شعرها رائعاً. كانت تضع مساحيق التجميل على وجهها وطلاءً على أظافرها أيضاً.

ابتسمت فيث وقالت لابنتها وهي لا تزال جالسة إلى طاولة مكتبها: "يا للروعة! كم تبدين متألقة!".

قالت زوي وهي تبدو فضولية: "إلى من تكتبين؟" وكانت جميلة وهي تضع الزينة على وجهها. وبدت شبيهة بفيث وهي صغيرة، مما يدعو للدهشة.

قالت فيث بلا مبالاة: "إنه براد، الصديق الذي تحدثت إليك بشأنه". فابتسمت زوي ابتسامة عريضة.

وقالت زوي بلهجة جادة: "هل أنت مغرمة به، يا أمي؟"، فهزت فيث رأسها.

وقالت: "بالتأكيد لا. فنحن مجرد صديقين".

"هل أنت على علاقة به؟"، وكانت مصممة أن تضخم المسألة، ولكنها بدت مأخوذة بها.

"بالطبع لا. فهو صديق لي. وهذا كل ما في الأمر".

قالت زوي بنظرة مصممة: "أعتقد أنك تحبينه، يا أمي. ينبغي عليك أن تنظري إلى عينيك عندما تتحدثين عنه. فهما تلمعان، وتومضان، وتتراقصان".

مازحتها أمها قائلة: "لا بد من أنك عدت تدخنين الممنوعات، يا زوي ماديسون".

"كلا. بل أعتقد أنني محقة. فأنت مغرمة".

فضحكت فيث وقالت: "وأنت أسخف شخص أعرفه".

"هل يعرف والدي بالأمر؟ أعني بشأنه".

"أعتقد أنني ذكرت أمره لوالدك. ولم يبدُ مهتماً كثيراً. فهو لا يملك المخيلة الجامحة التي لديك، والحمد لله. ولا براد أيضاً، لحسن الحظ. كنت معجبة به وأنا طفلة، وتخطيت هذا الإعجاب وأنا في الرابعة عشرة. حدث هذا قبل أعوام طويلة. إذاً، فأنا لست مغرمة به".

قالت زوي بلهجة جادة: "إذاً، ربما ينبغي عليك ذلك. فأنت تعيسة جداً مع والدي". فبدت فيث مرعوبة.

قالت: "لست كذلك. إن ما تتفوهين به فظيع".

"حسناً، إنه صحيح. فهو لا يتحدث إليك قط. وليس لطيفاً معك. وهو حتى لا يقبّلك أو يعانقك أبداً".

فقالت فيث مدافعة عنه: "إن والدك لا يحب التعبير عن عواطفه علناً أمام الناس الآخرين".

"إذاً، ماذا تفعلين يا أمي؟ أتوقظينه عندما يكون نائماً قبل أن تأوي إلى الفراش بثلاث ساعات؟ إنني لست غبية، يا أمي. وانظري إلى الطريقة التي يتحدث بها إليك. إنك تستحقين ما هو أفضل من هذا". بدت زوي صادقة، وشعرت فيث بالصدمة. إذ أرعبها أن تلاحظ ابنتها كل تلك الأمور وأن تتوصل إلى الاستنتاجات التي توصلت إليها وهي في الثامنة عشرة من عمرها. ولكن شيئاً من هذا لم يجعلها مغرمة ببراد. شعرت بالإحباط لأن تدرك أن لزوي وجهة نظر كئيبة عن زواجهما، والأسوأ من ذلك هو أن قولها بدا قريباً من الحقيقة. ولكن آلمها أن تسمعه بهذا الوصف الواضح. فقد جعل زواجها يبدو وكأنه قمامة يجب التخلص منها. ومن الواضح من وجهة نظر زوي، وحتى من وجهة نظر فيث، أن زواجهما لم يكن ناجحاً. لكن لطالما كانت لدى فيث أساليب مختلفة في النظر إليه لتجعله يبدو محتملاً وأفضل مما هو عليه.

"ما تقولينه ليس صحيحاً، يا زوي. فأنا ووالدك سعيدان معاً. نحن نفهم بعضنا بعضاً. وهذا مريح بالنسبة إلينا".

أنكرت زوي ما قالته أمها وقالت: "كلا". كانت تعرف أفضل، وكذلك فيث، ولكنها لم ترغب بأن تعترف بالحقيقة سواء لزوي أو لنفسها، ربما

باستثناء براد. ثم قالت زوي: "إنه مريح بالنسبة إليه، وليس بالنسبة إليك أنــت. كــيف يمكــنك أن تكوني مستريحة مع شخص يحط من قدرك كل الــوقت ولا يصغي إليك؟ إنك أفضل من هذا، يا أمي. وكل ما تفعلينه هو أنــك تــسهّلين الأمور عليه. ربما ستعثرين يوماً على شخص يتعامل معك بلطف، فتتركيه. أتمنى أن تفعلي هذا، من أجلك أنت. وستصاب إيلي بنوبة غضب من جراء هذا، ولكنها ستتخطى الأمر. سأكون أنا سعيدة من أجلك". وهكذا لخّصت الموضوع كله دفعة واحدة، ووضعت النقاط على الحروف، مما زاد في تعاسة أمها.

"يــا زوي!"، أحاطت فيث ابنتها بذراعيها، وحضنتها بحنان، وقالت: "كــيف يمكنك أن تقولي كل تلك الأمور عن والدك؟". وقد شعرت بالرعب من نفاذ بصيرة زوي.

"لأنــني أحــبك وأريدك أن تكوني سعيدة، يا أمي. فأنت لست كذلك، وأنــا ســعيدة أنك ستعودين إلى الكلية، فربما ستقابلين أحدهم هناك". بدت مصممة على عثور فيث على رجل جديد.

"إنــني لا أريد أن أقابل أحداً، يا زوي. فأنا متزوجة. وأحب والدك. ولست ذاهبة إلى أي مكان".

"إذاً، ينبغــي علــيك ذلك. وربما يكون هذا الرجل المدعو براد هو الرجل المناسب". صممت على أن تربط بين أمها وشخص آخر، وأصيبت فيث بالرعب من تلك الفكرة.

فصحّحت كلامها بسرعة وقالت: "كلا، ليس براد. فهو بمثابة أخ لي".

"إذاً، عمّ تتحدثان في رسائلكما؟"، كانت لا تزال تشعر بالفضول بشأنه.

"عــن أمور عادية، عنك وعن إيلي وعن ولديه وعمله، وعن ذهابي إلى الكلية وأخي جاك وزوجته ووالدك".

"هذا يبدو جيداً جداً. كيف يبدو؟ وكم عمره؟".

"إنــه طــويل القامة، أخضر العينين، أسود الشعر. وهو في التاسعة والأربعين من عمره".

"أهو ظريف؟".

"نعم. أعتقد ذلك. وأنا لا أفكر فيه من تلك الناحية. فهو أشبه بفرد من أفــراد عائلتي". لكن ما قالته لتوها لم يكن صحيحاً تماماً. فقد لاحظت هذه المــرة، فــي جنازة تشارلز، كم بدا وسيماً، ولكنها لم تُرد أن تعترف بذلك لزوي وإلا، فستنفعل وتتوصل إلى استنتاجات غير صحيحة.

"ألديك صورة له؟".

"كلا".

"أرأيت؟ لقد فعلتها مرة أخرى!"، بدت زوي ظافرة فجأة.

"ماذا فعلت؟".

"لقد ومضت عيناك عندما تحدثت عنه. إنني محقة. فأنت مغرمة به".

"توقفي عن التصرف كالمجانين، يا زوي ماديسون".

"ســترين أنني محقة. وربما أنت لا تدركين هذا بعد، ولكنك ستفعلين ذلك قريباً".

"لقد عرفته طوال تسعة وثلاثين عاماً. أعتقد أن الأوان قد فات على الوقوع في غرامه الآن".

"لا يفوت الأوان قط. ربما سيترك زوجته".

"ربمــا ينبغي عليك أن تتوقفي عن التفكير في هذه الأفكار الجنونية وأن تهدئي من روعك".

فــي تلــك الأثناء، دخل ألكس إلى الطابق السفلي، ومد رأسه بنظرة ســاخطة، وقــال: "ألــم تبدأي بتحضير العشاء بعد، يا فيث؟ إنني أتضور جوعاً. فقد أوشكت الساعة على السابعة".

"إنــني آسفة، يا ألكس. سأبدأ حالاً. وسأحضر وجبة سريعة". فأومأ برأسه، ودخل غرفة مكتبه، وأغلق الباب بينما أخذت زوي تنظر إلى أمها بغضب. لقد كرهت طريقة تحدثه إليها.

"لِمَ لا تقولين له أن يشتري خادماً؟".

"يا زوي!".

"لِمَ لا يطهو هو العشاء بنفسه أو يصطحبك خارج المنزل؟ يمكنه أن يصطحبك إلى مكان ما".

"إنه يعمل بجد، وهو متعب. وقد كان مسافراً طوال الأسبوع، وأمضى يومه بأكمله في المكتب".

"وأنت زيّنت، ونظفت غرفتي، وشكراً لك بالمناسبة. أعددت الفطور وها أنت الآن تعدّين العشاء. إنك لا تجلسين بكسل في الغرفة وتأكلين الحلوى وأنت تشاهدين التلفاز". فضحكت فيث لتخيل تلك الصورة. تبعتها زوي إلى المطبخ وهي تبدو غاضبة.

سألتها فيث وهي تتفقد الثلاجة: "هل ستتناولين طعامك هنا؟"، كانت لديها شرائح لحم للجميع.

"كلا، إنني خارجة، وأعتقد أنه ينبغي عليك ذلك أيضاً". ولم يبدُ على ألكس أنه في المزاج الملائم ليصطحبها إلى أي مكان، ولم تمانع فيث أن تطهو له. إذ إنها فعلت ذلك لستة وعشرين عاماً. ومهما اعتقدت زوي أنه ليس وضعاً منصفاً، فهي لم تعانِ من أي مشكلة معه. ثم قالت زوي: "لِمَ لا يصطحبك إلى السينما؟"، كانت محقة. فهما لم يذهبا منذ أشهر ونادراً ما كانا يذهبان أكثر من بضع مرات في السنة. لكن ألكس لم يحب الذهاب إلى السينما، وكان متعباً معظم الأوقات حين عودته إلى البيت.

قالت وهي ترتب مائدة العشاء: "إنك تقلقين كثيراً. أولاً تعتقدين أنني على علاقة عاطفية، ثم تعتقدين أن والدك لا يصطحبني خارجاً بما فيه الكفاية. لِمَ لا تفكرين في شيء آخر؟".

همست زوي لأمها قائلة: "أعتقد أنه ينبغي عليك أن تقعي في حب براد". ثم عانقتها، وصعدت الدرج. فهزت فيث رأسها وهي تضع شرائح اللحم تحت المشواة. ابتسمت لنفسها وهي تبدو مندهشة. كانت زوي فتاة رائعة، ولكن فكرتها كانت فكرة جنونية تماماً.

* * *

الفصل الحادي عشر

مرت عطلة نهاية الأسبوع بوجود زوي وصديقاتها وهن يدخلن ويخرجن من المنزل وإليه. طهت فيث الوجبات لهن، ودفعت ثمن البيتزا وأجرة سيارات الأجرة، وغيرت ملاءات الأسرّة، وغسلت المناشف، وساعدت على انتقاء الملابس وتسريحات الشعر، وسهرت ليلاً بانتظار عودتها إلى البيت. شعرت بالراحة أن زوي قد استقلّت قطاراً إلى حفلتها في كونيكتيكت بدلاً من قيادة السيارة. في تلك الليلة، عادت زوي عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.

شعرت فيث وكأنها تقوم بمهمة الدفاع لأن ألكس أصبح متوتراً بشكل متزايد بسبب الفوضى والصخب، وازدادت حدة شجاراته مع زوي. إذ إنه كان يكره الموسيقى التي تسمعها، واللهجة التي تستخدمها في حديثها، والفتيان الذين يزورونها، والفوضى التي يخلّفونها وراءهم، وطريقة ارتدائهم لملابسهم. اعتقد أنهم يبدون مثل المشردين وأن الأغاني التي يسمعونها بذيئة. كان بعض هذا صحيحاً في الواقع. ولكن فيث اعتادت عليه، وظلّت متحملة لأطوار من يبلغون الثامنة عشرة ونقاط ضعفهم. أكثر من مرة خلال عطلة الميلاد، أعلنت زوي أن أمها لطيفة إلى أقصى الحدود.

اتصلت إيلي من سانت مَريتز ليلة الاثنين، وكانت زوي خارج المنزل، ولكن فيث شعرت بالراحة أن كل شيء بدا على ما يرام. لقد أمضت وقتاً مذهلاً بالتزحلق على الجليد، وقابلت العديد من الناس، وقالت إن عائلة جف قد تعاملت معها بمنتهى اللطف، وبدت سعيدة، ولكن غير متيمة حباً، مما شكّل راحة لفيث. عندما أصغت إلى حديثها عن كل شيء

قامـت بـه، قررت فيث أن ألكس محق ربما، وأن الأمر يستحق تضحية السماح لها بالبقاء هناك. فقد أمضت وقتاً طيباً جداً أكثر مما كانت لتفعل لو أنها مكثت في نيويورك.

قالـت لـه بامتنان تلك الليلة في أثناء تناول العشاء: "لقد كنت محقاً. فهي تمضي وقتاً رائعاً هناك".

قال لها من دون تردد: "إنني عادة محق. وأنا محق بشأن ذهابك إلى الكلية أيضاً. إذ إنك ارتكبت خطأً فادحاً". لم تُرِد فيث أن تناقش الموضوع معـه وأن تتـسبب بـشجار، ولكنه لم يتراجع عن موقفه وهو ينظر إليها ويقول: "ألم تعودي إلى صوابك بعد، يا فيث؟". لم تعرف السبب في طرحه للموضوع الآن، ولكن هذا جعل القلق يتملّكها. فقد كانت ستخضع لامتحان القبول ولا تزال تشعر بالذنب لإخفاء هذا عنه.

"كـلا، يا ألكس، فسأبدأ الدراسة في غضون ثلاثة أسابيع". لقد دفعت رسـوم التعلـيم من مالها الخاص. فقد تركت لها أمها مبلغاً صغيراً عندما توفيت قبل عام. ذهب جميع مال جاك لأرملته، وترك مال تأمينه لها على حـدٍّ سـواء. فأخـذت كل شيء معها عندما رحلت. وتركت صندوقاً من ممتلكاته المفضلة لدى فيث وأخذت الباقي.

تابـع ألكـس بينما حاولت فيث بشجاعة أن تغير الموضوع وفشلت: "ستندمين على هذا. وقد ترسبين حتى في امتحان الفصل الأول".

قالـت بـصراحة أخيراً: "إنني حقاً لا أريدُ أن أناقش هذا الموضوع معـك". فأمسك عن الحديث معها بقية الوجبة. بعد ذلك، صعد إلى الطابق العلـوي ليقرأ، وشعرت أن همتها قد أثبطت وهي تغسل الصحون. بعد أن أنهت تنظيف المائدة، أرسلت رسالة لبراد.

أجابها بعد بضع ثوان فقط. فقد كان جالساً في مكتبه كالمعتاد وسمع الإشـارة أن رسـالة وصـلته. فقال لها في رسالته: "بالله عليك، ما الذي يتحدث عنه؟ لقد نلتِ علامات في المدرسة أفضل مني ومن جاك. تخرجت مـن كلـية بـرنارد مع مرتبة الشرف. ألا يعرف حقيقتك؟ لقد فشلتُ في

التخـرج في المرة الأولى التي حاولتُ فيها ذلك. وأراهن أنك ستتخرجين مـن المـرة الأولى. لماذا لا يتوقف عن إزعاجك؟ اطلبي منه وحسب أن يغرب عن وجهك في المرة القادمة التي يقول فيها هذا". بدا براد منزعجاً جـداً. ثـم تابـع قائلاً: "إنني أعتقد بشدة بقدرتك، يا فرِد. والآن عليك أن تعتقدي أنت بها أيضاً. مع حبي، براد".

أجابت فيث في رسالتها قائلة: "أعتقد أنه لا يزال غاضباً من عودتي إلـى الكلية، وكنت آمل أن يتجاوز المسألة". ذكّرها ذلك بكل الأمور التي قالتها زوي. ولم تقل له أن زوي قد اتهمتها أنها مغرمة به، وأنها اعتقدت أنه ينبغي عليها ذلك إن لم يحدث ذلك بعد. فهي لم تكن واثقة أن هذا الكلام سيعجبه. فهو أبعد ما يكون عن الصحة. وكانت تحبه كصديق بالضبط كما كان هو يحبها. ولكن بدا صعباً بالنسبة إلى فتاة في سن زوي أن تستوعب أمراً كالصداقة الأفلاطونية.

قـال لها براد عندما أجابها مرة أخرى: "لقد سئمت من إزعاج ألكس لك. كيف تستطيعين أن تتعايشي مع هذا الوضع من دون أن ينهكك؟".

فدافعت عن ألكس في رسالتها التالية قائلة: "لقد اعتدت عليه. وهو لا يتعمّد فعل ذلك. فهذه هي طبيعته وحسب".

لكـن لم تكن أمور براد تسير بسلاسة في تلك الأيام أيضاً. بدا على العطلة أنها تظهر الجانب الأسوأ في كل شخص، ولا سيما بام. فقد ذهبت من حفلة إلى أخرى، وأرادت من براد أن يذهب برفقتها، وكان هو غارقاً حتى أذنيه في العمل في مكتبه، ولم يهتم بالمناسبات الاجتماعية التي تحبها. أخبرها قبل وقت طويل أنه يفضل أن تذهب بصحبة أحد أصدقائها، ولكن فـي أوقـات محددة من السنة، كانت تصر على أن يصطحبها بنفسه، ولا سـيما في بداية الموسم الاجتماعي في أيلول وفي الميلاد. كانت بام تذهب إلـى حفـلات الكوكتيل، والعشاء، والرقص، والحفلات الخيرية، وحفلات الافتتـاح، وحفـلات العطـلات. لـم يستطع أن يبقي تقويمه الاجتماعي منـضبطاً، ولم يود أن يفعل ذلك. فقد كان يقوم بأمور أهم بكثير من وجهة

نظـره. وكانـت أمامــه محاكمة قصيرة قبل الميلاد، وهذا ما تحكّم بكل مواعيده الأخرى. ولكن ذلك سبب توتراً كبيراً بينهما. لم يعجب ذلك بام.

فقالت له: "بالله عليك، ألا تستطيع أن تجعل مساعديك يقومون بالعمل التحضيري؟ أيجب أن تقوم بكل شيء بنفسك؟". كان قد أخبرها لتوه أنه لا يـستطيع أن يـصطحبها خارجـاً تلك الليلة بعد أن مكث في المكتب حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل في الليلة الفائتة. وبدا المكتب مهرباً مناسباً له. وأحب ذلك.

"لا أسـتطيع أن أترك هذا العمل بين يدي شخص آخر، يا بام، وأنت تعلمين ذلك".

"لـمَ لا؟ فأنا أفعل ذلك. وأذهب إلى المحكمة أيضاً. ويقوم مساعدي بنصف العمل".

"أنتِ لا تحاولين أن تنقذي قصّاراً من تهم القتل. هذا مختلف. فهناك حياة على المحك هنا".

"فـي الحقـيقة، أنت محق، يا براد. فحياتنا على المحك. لقد سئمت، وتعـبت مـن عدم تواجدك بجانبي مطلقاً". أخذت ترغي وتزبد وهي تسير أمامــه مرتدية ثوب سهرة أزرق مزين بالترتر. بدت مهيبة وجميلة. كانت النظـرة فـي عينيها لترعب معظم الرجال، ولكن ليس براد. إذ إنه اعتاد علـيها وعلـى نوبات غضبها. لم تعد تثير اهتمامه كما فعلت في السابق، بالرغم من أن مشاهدتها في بعض الأوقات كانت تثير الخوف.

قـال لها وهو يبدو ساخطاً: "لقد اعتقدت أننا توصّلنا إلى تفاهم بشأن هذا قبل أعوام خلت".

"لقـد قلت إنك ستحضر بعض المناسبات على الأقل، إن كانت مهمة بالنسبة إليّ".

"لكـن لـيس عندما أحضّر لإحدى المحاكمات. إنني لا أستطيع ذلك ببـساطة". ورفـض أن يسمح لها بإثارة الخوف في نفسه. لقد اعتادت أن تفعل ذلك أو أن تحاول فعله لوقت طويل.

"لماذا، بالله عليك؟ ماذا عن صديقتك الصغيرة التي تفطر الفؤاد؟ ألا تـتوقع مـنك أن تخـرج معها بين الحين والآخر؟"، فصدم براد مما قالته لتوها، ونظر إليها من خلال جفنيه نصف المطبقين.

قال وهو يبدو مرتبكاً: "ما هذا؟ ما الذي تتحدثين عنه؟".

"لقد رأيت في أحد الأيام إحدى رسائلك الإلكترونية وهي تتحدث عن مدى كونها روحاً طيبة، وعن شيء مثل الذهاب إلى دار العبادة بصحبتها. منذ متى أصبحت متديناً؟ من هي؟ أهي ناذرة عفة؟".

"الأهم من ذلك، تطفلك على كمبيوتري الخاص، يا بام؟ إن هذا عمل وضيع لتقومي به".

"لقد تركته مفتوحاً عندما ذهبت إلى المرأب. إذاً، ما الذي يجري؟".

"إنهـا صديقة قديمة من الطفولة. كان أخوها جاك صديقي المفضل، وهي أخته فيث. ونحن صديقان. ولا شيء أكثر من ذلك. ولا أدين لك بأي اعـتذارات أو توضيحات. لقد تناولت العشاء معها في نيويورك. ونعم، لقد اصطحبتها إلى دار العبادة".

قالت له بام بغضب: "كم هذا مثير للشفقة؟ هل أنت على علاقة بها؟". لم يعد أي حب يجمع بينه وبين بام. والسبب في ذلك هو الشجارات من هذا الـنوع، من وجهة نظر براد، وكان واثقاً أن بام قد خانته عدة مرات على مـدى السنوات. وكان من الذكاء بمكان بحيث إنه لم يسألها عن أي شيء ولم يعد يكترث لذلك.

"كـلا، إننـي لست على علاقة بها، إن يكن ذلك من شأنك. وأنا لا أسألك عن حياتك الخاصة". وهما لم يعودا يمضيان وقتاً معاً بتفاهم ضمني بيـنهما. ولم يعد هو يحبها بعد الآن. فذلك يبدو أشبه بأن يحب آلة صمّاء. كانت كل جوانب شخصية بام تتعلق بالطموح والقيادة، وبعد بعض الوقت، شعر براد وكأنه متزوج بالكمبيوتر أو المكتب، ولم يعد يستطيع الاستمرار بعـد الآن. ففضل أن يعيش حياة العازبين على أن تكون له أي علاقة بها بالـرغم مـن أنهـا كانت على قناعة أنه أقام علاقات غرامية مع غيرها.

بسبب عاطفته الجارفة معها في بداية زواجهما، فلم يعد من المقنع لها أنه لم يقم علاقة عاطفية منذ سنوات. فكانت تلك إحدى التضحيات التي قدمها والتي تحدث وفيث عنها بالرغم من أنه لم يناقش ذلك الجانب من حياته معها، لم ينوِ أن يفعل ذلك. فهو موضوع لا يناسب النقاش.

لكن بام بدت مصدومة مما قاله لتوه. فقد جعلها شيء في عينيه تتوقف وتحدق إليه، وتقول: "هل تحبها؟".

"بالطبع لا. فهي صديقة، ولا أكثر من ذلك. وقد عرفتها منذ طفولتها".

"إن أنت لست على علاقة غرامية بها وذهبت معها إلى دار العبادة، إذاً، فأنا أراهن أنك تحبها، يا براد".

"أيجب أن يكون أحد الاحتمالين صحيحاً؟ ألا يمكن أن نكون مجرد صديقين؟ وهذا لا يفسر ما تفعلينه في كمبيوتري. فأنا لا أتجسس على كمبيوترك".

"إنني آسفة. لقد صدف وحسب أنني رأيته. وكانت رسالتك على الشاشة". تساءل إن كان قد كتب شيئاً غير محبب عنها، ولكنه شك في ذلك لأن بام لم تعلّق على الأمر. ثم قالت: "لا بد من أنها مثيرة للشفقة إن كانت تمضي وقتها في دار العبادة".

"إن ما تفعله ليس من شأنك. والآن، لنعد إلى صلب الموضوع. عليّ أن أعمل ولست خارجاً. بصراحة، بعد كل هذا الهراء، لن أذهب معك إلى أي مكان على أي حال. لذا اعثري لنفسك على أخرق مسكين لتتحكمي به. فأنت تعرفين الكثير من الرجال. اعثري على شخص يود أن يصطحبك إلى الحفلات كل ليلة. أما أنا فلن أذهب". وخرج من الغرفة بغضب، وعاد إلى غرفة مكتبه. كان قد عاد إلى البيت كي يأكل شيئاً ما ويحضر ملفاً، فجلس إلى مكتبه لبضع دقائق، ووجد نفسه يرتجف. وشعر أن خصوصيته قد انتهكت بقراءة بام لرسائله، وتحدثها عن فيث بتلك الطريقة. لم تكن لفيث أي علاقة بها، ولم يكن قد ارتكب أي خطأ، وثارت ثائرته لأن بام

اتهمته بإقامة علاقة غرامية مع فيث أو حتى لمجرد تلميحها أنه مغرم بها. فلم يكن شيء من ذلك النوع صحيحاً، من قِبَل كل منهما. واستمتعا برابطة الصداقة القيّمة لقرابة أربعين عاماً. هذا أمر لا تعرف بام شيئاً عنه، فليس ثمة شيء قيّم من وجهة نظرها.

عاد غاضباً إلى المكتب بعد نصف ساعة وهو يعاني بشدة من سوء الهضم والصداع، فلم يكن أحد على هذا الكوكب يستطيع أن يغضبه أكثر من بام. كانت تملك القدرة على أن تجعله يفقد صوابه. فلطالما تصرفت بعناد وعدم منطقية وعدوانية. إن سمح لها، فقد أمكنها أن تتجادل معه لساعات. كان لا يزال مستاء عندما عاد إلى المكتب. أخيراً، قرر أن يتصل بفيث ليرى إن هي في البيت.

كان ألكس خارج المنزل في عشاء عمل، فوجدها في البيت وحدها. سُرَّت لسماع صوته، وفوجئت باتصاله. هدأ على الفور تقريباً في اللحظة التي سمع فيها صوتها.

اعتذر قائلاً: "إنني آسف أنني أزعجتك". استطاعت أن تلاحظ من صوته أنه متوتر.

"هل أنت على ما يرام؟"، بدت قلقة عليه. ابتسم. وكانت تتمتع بكل شيء تفتقر إليه بام. فقد كانت لطيفة، وحساسة، وحريصة، ومراعية للآخرين، وسمحة النفس من كل ناحية ممكنة.

شرح لها قائلاً: "إنني متعب وسيئ المزاج وحسب. فقد عانيت من يوم عصيب. ماذا عن يومك أنت؟"، شعر بالذنب لأن يثقل عليها بهمومه ولا سيما المتعلقة ببام. لكن بدا أمراً لطيفاً أن يجد شخصاً ليبثه أحزانه. لم يحظَ بهذا النوع من الدعم والراحة منذ سنوات، إن هو حظي بهما على الإطلاق. وطوال الشهرين الفائتين، منحته فيث مساندتها بكل إخلاص.

"على ما يرام. فألكس وزوي خارج المنزل، بالرغم من أنهما ليسا معاً. كنت في الواقع أستمتع بأمسية هادئة في البيت، وأشعر وكأنني أدير فندقاً هنا، فأنا أقوم بشكل متواصل بغسيل المناشف، وتغيير ملاءات

الأسرّة، وإطفاء الشموع على أمل ألا يحترق المنزل. لكنه أمر لطيف أن أحظى بها في البيت. أخبرني عن يومك العصيب. ماذا حدث معك؟".

"لقد خسرت استدعاء في جلسة الاستماع صباح اليوم، ويجب عليّ فعلاً أن أحصل على استئناف في المحاكمة. لست مستعداً لذلك. ويجب عليّ أن أحصل على شهود آخرين أو أن هذه الطفلة ستخسر القضية. سكرتيرتي مريضة، وهذا يثير جنوني. ذهبت إلى البيت لساعة من الزمن كي أتناول العشاء، فتشاجرت مع بام. وهو ليس أمراً ذا أهمية، بل مجرد كمٌ كبير من الهراء".

"ما سبب الشجار؟"، لطالما أصغت فيث إليه بكل حرص.

"إنها تريد مني أن أذهب إلى آلاف الحفلات التافهة. فهي تذهب إلى حفلة أو اثنتين في الليلة. وليس لديّ متّسع من الوقت أو الرغبة في أن ألعب دور زوج الملكة. إنها تعلم أنني أكره تلك الحفلات. فحالما نصل إلى هناك تتلاشى على الفور. والغرض الوحيد من ذهابي إلى هناك هو الدخول. وليس لدي وقت لهذا الهراء، يا فيث. فأنا دائماً أعمل على إحدى المحاكمات أو أحضّر لها. هؤلاء الأولاد يحتاجون إليّ لأقوم بما هو صواب من أجلهم".

سألت فيث بهدوء: "هل اعترفت بخطأها؟"، فأخذ نفساً عميقاً وهدأ قليلاً. بدا قلقاً جداً وهو يخبرها عن شجاره مع بام.

قال لها: "في نهاية المطاف". ثم أصبح منزعجاً من جديد. فقد فكّر أن يخبر فيث عما حدث، ولم يرَ أي سبب في ألا يفعل ذلك، فلم يكن لديه شيء ليخفيه. فقال: "لقد قرأت إحدى رسائلي في أحد الأيام، وهذا ما أثار جنوني فعلاً".

"لا ألومك على هذا". لطالما كرهت هذا النوع من التدخّل أيضاً. إذ إنها كانت شخصاً يحب الخصوصية ولا تحب أن يقرأ أحد رسائلها حتى ابنتاها، ولا سيما رسائل براد.

"على ما يبدو، فهي إحدى الرسائل التي أرسلتها إليك. أعتقد أنني أشكرك فيها على الوقت الذي أمضيته معي في نيويورك. وليس هناك أي

شيء غير ملائم فيها، ولكن ذلك أزعجني كثيراً". ثم ضحك وقال: "وقالت إنني مغرم بك. وهي غير محقّة في ظنها كثيراً".

ابتسمت فيث وهو يقول هذا، ثم قالت: "لقد قالت لي زوي الشيء نفسه في أحد الأيام، وسألتني عن ذلك على الأقل. وأرادت أن تعرف إن نحن على علاقة عاطفية".

"ماذا قلتِ لها؟".

"قلت لها إن ذلك ليس صحيحاً. فخاب أملها كثيراً، وقالت إنه ينبغي علينا ذلك، وإنني أستحق هذا، وكذلك ألكس بسبب الطريقة التي يعاملني بها. اعتقدت أن ذلك رأي مثير للاهتمام يصدر عنها".

"إنها على حق. فهو لا يفعل أي شيء من أجلك، يا فيث. ولا يبدو عليه أبداً أنه يصطحبك إلى العشاء أو السينما. يبدو أن كل ما يفعله هو العمل والنوم والتذمر... مثلي أنا". ضحك فجأة من الصورة التي رسمها. ثم قال: "أعتقد أنه ينبغي على بام أن تفعل هذا أيضاً، إلا أنه صحيح على الأرجح في حالتها".

قالت فيث وهي تبدو مرعوبة: "هل أنت جاد؟"، لم يخبرها أنهما منفصلان عاطفياً عن بعضهما بعضاً. فهناك أمور لا يقولها لأحد، حتى لفيث.

"إنني لا أسألها عن ذلك. وأعتقد أنه لم يعد من شأني بعد الآن". كان ذلك كل ما أراد أن يقوله بهذا الخصوص، لكنها أدركت فحوى قوله، ودهشت له. لم يبدُ من النوع الذي يفصح عن واقع الأمور، ولكن، لا أحد يعلم ما يجري خلف الأبواب المغلقة. ثم قال: "إن ما أفعله ليس من شأنها. ولا أريدها أن تطعن في سمعتك". شعر أنه يريد حماية فيث، ولم يخبرها عن تعليقات بام عن ذهابهما إلى دار العبادة. فقد علم أن ذلك سيجرح شعورها، وكان محقاً. ثم تابع قائلاً: "إنني آسف لأنني أتصل بك وأتذمر، يا فرِد. فكما قلت لكِ، إنني متعب فقط. وأثارت بام جنوني". كان أمراً لطيفاً أن يحظى بشخص يبثّه أحزانه. فتحدثا لبعض الوقت قبل أن يعود للتحضير لمحاكمته. سُرّت لأن تتحدث إليه لينفّس عن مشاعره. كالعادة،

شعرا أنهما بحال أفضل عندما أغلقا الخط. صعدت إلى الطابق العلوي كي تأخذ حماماً، وتستعد للنوم. بينما جلس إلى مكتبه لبضع دقائق وهو يحدق إلى اللاشيء، ويفكر فيها.

قد صدمته غرابة اتهام بام له بإقامة علاقة عاطفية مع فيث وأن زوي قد سألت أمها عن الموضوع نفسه. والأغرب من ذلك هو أنهما لمحا في حديثهما أنهما مغرمان ببعضهما بعضاً. كما قال لبام، لم يكن هذا حتى خياراً ممكناً، بالنسبة إليهما. فكل ما جمع بينهما على الإطلاق منذ البداية هو الصداقة، واستمتاعه بصحبتها لم يغير شيئاً من الحقيقة. لقد أصبحت الآن في حياته الشخص نفسه الذي كانت عليه وهي طفلة صغيرة عندما ساعدها على تسلق الأشجار، وصبغ ضفائرها باللون الأخضر. ثم أنها كانت كذلك؟ فجأة جعله هذا يفكر في قيمتها بالنسبة إليه، وكيف أنه أصبح يعتمد عليها في الشهرين الفائتين. بينما يفكر في الأمر، راودت مخيلته صورتها وهي تتزلج بجانبه في مركز روكفيلير، وتشعل شمعة في دار العبادة الكبيرة سانت باتريك... لم يرّ قط في حياته وجهاً أجمل من وجهها. فقد رآها مشرقة وهي واقفة هناك تتضرع. فجأة تساءل إن كانت بام محقة... أو أنها ربما ينبغي عليها أن تكون كذلك. ثم هزّ رأسه بابتسامة واهنة. إذ إنه بدأ يتخيل أموراً لا أساس لها من الصحة. وهو لم يكن مغرماً بها مهما بدت جميلة وهي طفلة أو الآن. فهي صديقته، ولا أكثر من ذلك.

في نيويورك، أخذت فيث تفكر في الأفكار نفسها، وتطرح الأسئلة نفسها وهي جالسة في بيتها. توصلت إلى الاستنتاجات نفسها التي توصل إليها براد. لقد كانت كل من بام وزوي حمقاوين. فهي وبراد لم يكونا مغرمين ببعضهما، كما أكدت فيث لنفسها، بل مجرد صديقين. وأكثر من ذلك، كانا بمثابة أخ وأخت. ذلك كل ما أراداه واحتاجا إليه من بعضهما، أي مجرد الصداقة. بالإضافة إلى ذلك، فلو تحولت العلاقة إلى أكثر مما هي عليه لأفسدت كل شيء. وأرادت فيث أن تتجنب حدوث ذلك بأي ثمن.

* * *

الفصل الثاني عشر

في صباح اليوم الذي تلا شجار بام مع براد، كان في طريقه إلى العمل. فقاد سيارته مروراً بدار العبادة الكبيرة سانت ماري، وخطرت له فكرة مفاجئة. كان لديه موعد عند التاسعة صباحاً، ولم يكن لديه متّسع من الوقت ليتوقف، لذا أعطى سكرتيرته ملاحظة عندما وصل إلى المكتب، ووعدته أن تحصل على المعلومات من أجله. دسّت له ورقة دُوّن عليها عنوان بعد ساعة وهو يتحدث عبر الهاتف مع مكتب محامي المقاطعة، فأشار إليها شاكراً، وأومأ برأسه. خرج ليؤدي المهمة عند الساعة الحادية عشرة. واستغرقت منه وقتاً أطول مما اعتقد، ولكنه عاد بحلول الساعة الواحدة.

دوّن رسالة لفيث بعد أن وضع صندوقاً صغيراً على مكتبه، ثم طلب من سكرتيرته أن ترسله عبر البريد الفدرالي السريع إلى نيويورك. هكذا أنجز على الأقل مهمة شراء هدية واحدة. كل ما توجب عليه فعله الآن هو أن يذهب إلى متجر تيفاني ويعتني بالباقي. كان ينوي أن يفعل ذلك عصر اليوم التالي.

كانت خطط فيث وعائلتها للميلاد تقليدية جداً. فكانوا سيتناولون وجبة عشاء رسمية معاً عشية الميلاد. وكانت فيث تذهب عادة إلى احتفال منتصف الليل الديني بمفردها أو بصحبة زوي إن هي توصلت إلى إقناعها بذلك. ثم كانوا يتناولون عشاء رسمياً أكثر ليلة الميلاد، ويفتحون الهدايا صباح الميلاد، ويمضون اليوم باسترخاء في المنزل. بدا يوم الميلاد أكثر إثارة في أثناء طفولة الفتاتين، ولكنه لا يزال يوماً مهماً لهم جميعاً.

تحدثوا إلى إيلي في سويسرا في صباح اليوم السابق للميلاد. كان وقت تناول العشاء في سويسرا. بدت عاطفية عندما سمعتهم جميعاً عبر الهاتف. تلك أول مرة تمضي فيها الميلاد بعيداً عنهم. بدا ذلك أصعب عليها مما اعتقدته بالرغم من أن الجميع في سان مَريتز عاملوها معاملة رائعة.

قالت فيث عندما حان دورها للكلام: "إننا نفتقدك، يا عزيزتي".

سألت إلويز وهي تبدو صغيرة جداً ومشتاقة إلى عائلتها: "لِمَ لا تأتين إلى لندن في رأس السنة، يا أمي؟".

"لا أستطيع ذلك يا عزيزتي. فسأبدأ الدراسة. وسيتوجب عليّ أن أنتظر حتى أحظى بإجازة. أو ربما يمكنك أنت أن تأتي إلى البيت في عطلة نهاية أسبوع طويلة".

قالت وهي تبدو خائبة الأمل: "لم أعتقد أنك قررت فعلاً الذهاب إلى الكلية". هذا ما أكد على اعتراضات ألكس لخططها بحجة أنها ستتعارض معه ومع عائلتهما. لم يتسنَّ لها متّسع من الوقت لتخبرها متى سجلت اسمها. إذ إن محادثتهما الأخيرة دارت كلها حول ذهابها إلى سويسرا مع جف وعائلته لتمضية العطلات. فنسيت فيث أن تطلعها على أخبارها.

قالت فيث متوقعة أن تسمع منها تهنئة: "سأبدأ الدراسة في غضون أسبوعين". لكن إيلي بدت مستاءة.

قالت: "هذا أمر بغيض لتفعليه لأبي". بدت معارضة للفكرة، وجرح شعور فيث مما قالته. كان من الصعب أن تتحدث إليها بشأن ذلك بوجود ألكس واقفاً بجانبها. علمت أن زوي ستكون مستاءة من رد فعل أختها أيضاً. فلم يبدُ ذلك تصرفاً سمحاً منها تجاه فيث.

قالت فيث بهدوء: "لقد تحدثنا بخصوص هذا، وأعتقد أنه قد تصالح مع هذه المسألة". لم تُرِد أن تحدث فوضى في الميلاد بسبب خططها كما حدث في مناسبة الشكر. أرادت أن تغير الموضوع بأسرع وقت ممكن. فقالت: "الأهم من ذلك هو، كيف حالك، يا عزيزتي؟ هل تستمتعين بوقتك؟".

"إنني أفتقدكم جميعاً كثيراً. المكان جميل هنا، ولكنني مشتاقة إليكم جميعاً أكثر مما اعتقدت. وسنقيم حفلة كبيرة الليلة. سنذهب لركوب المزلجة على الجليد. وهذا مخيف نوعاً ما، ولكنه يبدو ممتعاً".

حذرتها أمها قائلة: "توخي الحذر. ولا تقومي بأي عمل سخيف". شعرت بالقلق عليها تقريباً كما اعتادت أن تقلق عليها وهي طفلة. مهما كبرت الفتاتان، لا تزال تلك وظيفتها. مررت السماعة لزوي عندئذٍ، وتحدثت الفتاتان لوقت طويل. وسُرَّت فيث أنه بدا عليهما أنهما قد تصالحتا. قالت زوي إنها افتقدتها مرات عديدة. كان ألكس آخر من تحدث إليها، ولم يكن لديه سوى القليل ليقوله، ولكن بدا واضحاً من نبرة صوته واختياره للكلمات مدى القرب الذي شعر به تجاهها. مرت بهم جميعاً لحظات حلوة ومرة، عندما أغلق السماعة أخيراً.

قالت زوي وهي تبدو حزينة: "من الغرابة ألا نحظى بوجودها هنا". ثم التفتت إلى أمها قائلة: "أيمكنني أن أذهب إلى لندن لزيارتها في المرة القادمة التي أحصل فيها على إجازة؟".

فابتسمت فيث لابنتها الصغرى وقالت: "سيكون هذا رائعاً. إن حظيت بإجازة عندئذٍ، فيمكنني أن أذهب معك. وإن لم يحدث هذا، فيمكنك أن تذهبي وحدك ثم سأذهب أنا عندما يتسنى لي ذلك".

قال ألكس: "من السخف أن تصبحي مقيدة بالإجازات، يا فيث. فينبغي عليك أن تكوني قادرة على زيارة ابنتك متى شئت. هذا هو بالضبط ما عنيته". ثم خرج من الغرفة. ولم تقل فيث شيئاً رداً على كلامه. وتمنت وحسب أن تتمكن من أن تتدبر كل الأمور التي تحتاج إليها لتجعل حياتها العائلية وجدول عملها ينسجمان بنجاح. كان ذلك سيشكل تحدياً بالنسبة إليها.

تناولوا العشاء معاً تلك الليلة كما خططوا، وطهت فيث بطة لهم بوصفة حصلت عليها من إحدى الصديقات. كانت وجبة شهية. ثم خرجت زوي من المنزل بعد ذلك. وتلكأ ألكس عند المائدة لبعض الوقت، وحاول

أن يــتحدث إلــيها، ولكــن لم يكن لدى أي منهما الكثير لقوله. فقد تلاشى التواصل بينهما تقريباً لوقت طويل بحيث إنه أصبح من الصعب عليهما أن يعيدا تأسيسه ثانية.

ســألها ألكــس بشكل مرتجل: "هل ستذهبين إلى دار العبادة الليلة؟". بدأت فيث تطفئ الشموع، وتوضّب الأشياء في أماكنها.

"أعــتقد أنني سأذهب إلى احتفال منتصف الليل الديني. هل تود أن تأتي معي؟". لم يفعل ذلك قط، ولكنها لطالما عرضت عليه ذلك. وقالت زوي إنها تود أن تلتقيها في دار العبادة إن هي استطاعت ذلك. ولم تلحّ فــيث علــيها. وكانت ستذهب إلى دار عبادة سانت إغناتيوس في بارك آفنيو.

رفــض ألكس عرضها قائلاً: "كلا، شكراً لك". ثم صعد إلى الطابق العلوي ليقرأ. وحتى في ليلة الميلاد، لا تزال جذوة العاطفة بينهما خامدة.

أخــذت فــيث تــسلّي نفسها في غرفة دراستها عند الساعة الحادية عشرة، وتستعد للذهاب إلى دار العبادة عندما رن الهاتف. فوجئت لسماعها صوت براد. كانت الساعة تشير إلى الثامنة بحسب التوقيت عنده.

قــال لها بصوت ودود ودافئ: "ميلاداً مجيداً فرد". لكنها اعتقدت أن صــوته بدا حزيناً أيضاً. فقد كان وقتاً عصيباً للجميع، ووقتاً ليتذكر المرء فيه ما حظي به في الماضي وما تمنى أن يحظى به وكل أحلامه الضائعة.

"شكراً لك براد. وأنا أيضاً أتمنى لك ميلاداً مجيداً".

"هــل حــصلتِ علــى هديتي؟"، لم يتحدثا منذ بضعة أيام. بل تبادلا رسائل قصيرة وسريعة. فقد أمضيا وقتاً حافلاً في تلك الأيام.

ابتــسمت وقالــت: "نعــم". كانت عبارة عن صندوق صغير ملفوف بــورق الهــدايا موضوع على طاولة مكتبها. وصل في طرد عبر البريد الفدرالــي السريع. لقد أجّلت فتح الهدية ليوم الميلاد. أرسلت إليه مجموعة من الكتب القانونية القديمة مربوطة مع بعضها بشكل جميل. وقالت: "إنني جالسة هنا. وأنا أؤجل فتحها حتى الغد".

"لهــذا السبب اتصلت بك". بدا مسروراً، ثم قال: "لقد أردت أن أتأكد من أن تفتحيها الليلة".

"هل أنت واثق من هذا؟".

"بالتأكــيد. لــمَ لا تفتحيــنها الآن؟"، بــدا مبتهجاً، فضحكت من شدة الترقب.

قالــت له: "إنني أحب الهدايا. فهذا ممتع. هل حصلتَ على هديتي؟"، بدأت تنزع الورق بحرص، وجلست لتنظر إلى الصندوق الأبيض الصغير مسطّح الشكل. لم تستطع أن تتخيل ما يمكن أن يكون بداخله. فلم يوحِ إليها شكله بمحتوياته.

"إننــي أؤجّل فتحها حتى الغد. لكنني أريدك أن تفتحي هديتي الليلة. هــيا، افتحيها فرد". فرفعت بعناية غطاء الصندوق، وأطلقت شهقة قصيرة لما رأته. إذ كانت هناك مسبحة أثرية. كانت بعض خرزاتها من الكوارتز الأصفر القديم الجميل وبعضها الآخر من الزمرد المستدير. بدت وكأنها قد تمّــت إحاطتها بالعناية والمحبة لوقت طويل. لم ترَ في حياتها أجمل منها، وسُرَّ براد أنه عثر عليها، وتمنى أن تعني لها الكثير.

قــال لها بصوت ناعم: "لقد قالت المرأة إنها إيطالية وتعود إلى مئة ســنة خلــت، وقالت إنها مباركة. وأردت أن تأخذيها معك إلى دار العبادة اللــيلة، يا فرد." ملأت الدموع عينيها، واستغرقت وقتاً طويلاً لتقول شيئاً، فقال لها: "فرد؟ فرد... أما زلت على الخط؟".

"لا أعــرف ما أقول. فهي أجمل شيء رأيته في حياتي. شكراً لك مــن كــل قلبــي. سأستعملها الليلة. وسأتلو أنشودة من أجلك". ابتسمت. ولطالمــا كانت هناك صفة قديمة الطراز في فيث، بالرغم من مظهرها. فقــد تمتعت بقيم صلبة وشغف لعائلتها. كبرت لتصبح أفضل بكثير مما اعــتقد علــى الإطلاق. ثم قالت: "وسأشعل شمعة من أجلك، ومن أجل جاك".

"ربما سأشعل أنا واحدة لك".

فقالــت وهــي تبدو متفاجئة: "هل ستذهب إلى دار العبادة؟"، فهي لم تعتقد أنه سيفعل ذلك.

"لقــد اعتقدت أنني قد أذهب. فليس لدي شيء آخر لأفعله. سنتناول العــشاء مع بعض الأصدقاء بعد وقت قصير. ووالد بام موجود هنا. لكن بحلــول الحاديــة عشرة، سننتهي تماماً. اعتقدت أنه سيبدو أمراً لطيفاً أن أذهــب". وقد فكر أن يذهب إلى دار العبادة سانت دومينيك القديمة، وسأل أيــضاً المــرأة في المتجر عندما اشترى المسبحة لفيث إلى أين يذهب. ثم قال: "هناك دار عبادة قريبة إن ذهبتُ إليها، فسأشعل لك شمعة هناك".

قالت وهي تنظر إلى المسبحة مرة أخرى: "لا أصدق أنك أرسلت إليّ هــذه الهدية". ومنحتها إحساساً ناعماً رائعاً وهي في يدها. كانت كل أطر الجواهــر من الذهب الأصفر، ومعها كيس صغير من الساتان لتضعها فيه وتحفظهــا في حقيبة يدها. لم تكن قد رأت أجمل منها في حياتها. وقالت: "أعــتقد أن مسبحتي الخشبية يمكن أن تحال إلى التقاعد". عنت تلك الهدية لها الكثير.

تحــدثا لبــضع دقائق، وكل ما توجب عليه فعله هو أن يترك رسالة للــوالدين. فلم يكن هناك خط هاتف مباشر إلى المحمية حيث كانا يعيشان. من الواضح أنهما لم يتمكنا من الحصول على خط في مكتب البريد، لأنهما لــم يتّــصلا بالبــيت. جعل ذلك العطلة أشد وطأة عليه، ناهيك عن التوتر الــسائد بينه وبين بام. شعر وكأنه غريب في بيته في تلك الأيام. كالعادة، دعــت بــام إلى حفلة العشاء أناساً لا يعرفهم جيداً، ولطالما كانت لوالدها طريقة في احتكار المحادثة، وجعلها تنصب عليه هو.

قالت فيث: "يسرني أنك لن تعمل الليلة". أمسكت المسبحة بيدها. فقد جعلتها تشعر أنها أكثر قرباً منه.

"لقــد اعتقدت أنه من الأفضل لي أن أتلكأ في مكاني لبعض الوقت، وأقــوم ببعض العمل قبل أن أبدأ حرباً شاملة". لم يكن هناك هدف من فعل ذلــك، واتفقــت معــه فــيث في رأيه، وعلمت أنهم كانوا في اليوم التالي

سيقيمون عشاء ضخماً باللباس الرسمي مرة أخرى. لطالما أسعده أكثر أن يــرتدي الــسراويل القطنية وسراويل الجينز والكنزات ذات الياقة العالية، وينــتعل الجزمات، بالرغم من أنه كان يبدو وسيماً بالبذلة الرسمية أيضاً، كمــا لاحظــت في نيويورك. وتابع قائلاً: "سأفكر فيك الليلة وأنت في دار العبادة".

"ســأحمل مسبحتك الجميلة في يدي طوال الوقت، وسأفكر فيك". لقد تشكلت بينهما صلة دافئة تحتاج بالكاد إلى كلمات لتعبر عنها.

ألقت نظرة خاطفة على ساعتها بعد بضع دقائق وأخبرته أنه يتوجب علــيها أن تذهب إلى دار العبادة، أو أنها لن تحظى بمقعد شاغر. فقد كان احتفال منتصف الليل مشهوراً، وعادة ما تمتلئ دار العبادة بالناس، وعلمت أنــه يتوجب على براد أن ينضم إلى عائلته وضيوفه على العشاء على أي حال.

"شكراً لك مرة أخرى على الهدية الجميلة. ستصبح هديتي المفضلة".

"مــيلاداً مجيداً، يا فرِد... يسرّني أنها أعجبتك... شكراً لك على كل شــيء منحتنــي إيــاه فــي الــشهرين الفائتين. فقد كنت أنفس هدية على الإطلاق".

قالــت لــه بصوت ناعم: "ميلاداً مجيداً لك أيضاً". بعد لحظة، أغلقا الخــط. وذهــبت لــتودع ألكــس، ولكنها وجدته نائماً على أحد الكراسي وبحــوزته كــتاب. بعــد بضع دقائق، خرجت من الباب الأمامي مرتدية معطفها الأحمر الكبير، واستدعت سيارة أجرة.

فــي ســان فرانسيــسكو، بذل براد مجهوداً ليتحدث إلى الجميع في الغرفة. كان يرتدي سترة فضفاضة وسروالاً، وكذلك والد زوجته. لطالما كانــت لــيلة الميلاد مناسبة غير رسمية في منزلهم، بالرغم من أن جميع الرجال يرتدون فيها ربطات عنق، وارتدت بام ثوباً حريرياً أحمر وانتعلت صــندلاً ذهبياً ذا كعب عال. لطالما بدت جميلة ومبهجة المظهر كمنحوتة مثالــية، ولكن كل مرة نظر فيها براد إليها ازداد يقيناً مما آلت إليه الأمور

بينهما. فقد أصبحت أكثر قسوة وصعوبة وقوة مما تخيل على الإطلاق. لقد اشترى لها عقداً من الذهب والألماس، ومعه سوار وخاتم مناسبان. علم أن ذلــك هـــو نـــوع الأشياء التي قد تضعها كثيراً. ولكنه شعر بالبهجة أكثر للمسبحة التي أرسلها إلى فيث. إذ إنها عنت له أكثر، وكذلك لها.

كانوا جالسين إلى المائدة في غرفة الطعام بحلول الوقت الذي بدأ فيه احــتفال منتصف الليل الديني في نيويورك. كانوا يتناولون وجبة إنكليزية تقلــيدية تــتكوّن مـــن اللحـــم المـــشوي وبودنغ يوركشاير وبودنغ الخوخ والصلـــصة والتحلية. لكنه بدا مشوش الذهن عندما بدأوا بتناول طعامهم. وشرب والدها الشراب الفرنسي احتفالاً بهم. كل ما استطاع براد أن يفكر فـــيه هـــو فيث وهي راكعة على ركبتيها في دار العبادة كما رآها في دار العبادة الكبيرة سانت باتريك عندما اصطحبها إلى هناك.

قالـــت لـــه بام عندما نهضوا أخيراً: "إنك تبدو مشوشاً بعض الشيء الليلة. هل أنت على ما يرام؟".

قـــال لها بغموض: "إنني أفكر في إحدى القضايا فقط". فالتقت عيناها بعينيه.

"حقـــاً أم أنـــك تفكر في صديقتك في نيويورك؟"، كانت تعرفه بشكل أفـــضل مما يعتقد. ثم سألته بريبة: "هل أرسلت إليها رسالة الليلة؟". بدت أشـــبه بـــصيادة تسعى وراء طريدتها، فهز رأسه. ولم يكن قد أرسل إليها رسالة، بل اتصل بها عوضاً عن ذلك.

"لا تضخمي الموضوع. فهي كما أخبرتك مجرد صديقة قديمة".

"إننـــي أعرفك بشكل أفضل من ذلك. فأنت رومانسي بشكل ميؤوس منه، يا براد. وهذا بالضبط هو نوع الأمور التي قد تغرق حتى أذنيك فيها، وخاصة إن كانت هي قضية ميؤوس منها".

قـــال محاولاً أن يصرفها عن الموضوع: "لا تكوني سخيفة". لكن ما قالـــته بدا صحيحاً. فقد كان رومانسياً ميؤوساً منه قبل سنوات عندما التقى بـــام. لكـــنها أخمـــدت تلك العاطفة فيه قبل وقت طويل، أو أن ذلك هو ما

اعتقده. لم يصدق ما قالته عنه وعن عواطفه تجاه فيث. فقد كان أكثر ذكاء مـــن ذلـــك. حاولت بام حماية ملكيتها، وأرادت أن توضح له أنها لا تزال تملكه سواء أأرادته أم لا، أو أرادها هو أم لا.

غادر ضيوفهما جميعاً عند قرابة الساعة الحادية عشرة، وأتى سائق والـــد بام، واصطحبه بالسيارة. فهو لم يعد يحب أن يقود سيارته في الليل بعـــد الآن. وعـــندما صـــعد براد وبام إلى الطابق العلوي، نظر براد إلى ساعته.

فقالـــت له مازحة: "ألديك موعد غرامي؟"، أصبحت تمعن في انتقاده كثيـــراً في تلك الأيام، بالرغم من أنه لاحظها وهي تغازل عدة رجال في تلـــك اللـــيلة. لم تتردد في أن تفعل ذلك أمامه، أو حتى أن تقبّلهم. إذ إنها اعتادت أن تفعل ما تريده، مهما قالت له بخصوص فيث.

قـــال لهـــا بلا مبالاة: "في الواقع، لقد كنت أفكر في الذهاب إلى دار العبادة، إنه تقليد جميل. وأنا أفتقد الوالدين".

قالت له: "وأنا أيضاً أفتقدهما". خلعت حذاءها ووضعت قرطيها على طاولة الزينة.

أخـــرج ســـيارة الجـــيب من المرآب، وقادها إلى دار العبادة سانت دومينيك. كانت دار عبادة قديمة جميلة وكبيرة.

اتخـــذ كرســـياً في أحد الصفوف في آخر دار العبادة، وشعر بالتأثر لجمال وفخامة مراسم احتفال منتصف الليل. بدأت الدموع تسيل على خديه ببطء. ولم يكن واثقاً من السبب أو لمن كانت تلك الدموع، أو حتى ما بكى من أجله. كل ما عرفه هو أنه تأثر من أعماق قلبه. وفي طريق عودته إلى البيت تلك الليلة، شعر أنه أخف عبئاً مما كان عليه خلال سنوات. وخالجه شعور غريب من السلام والسعادة والسكينة. وابتسم وهو يقود سيارته.

* * *

الفصل الثالث عشر

فـي صباح الميلاد، تبادلت فيث وزوي وألكس هداياهم. كانت زوي قـد اشـترت لأمها حقيبة ظهر جلدية رائعة لتستخدمها في الكلية ووشاحاً صوفياً طويلاً كي تبدو كإحدى الطالبات، واشترى ألكس لفيث سواراً ذهبياً جمـيلاً من كارتييه، وأهدته بذلة جديدة وبعض القمصان وربطات العنق، وأهـدت فيث زوي قرطين صغيرين من الماس، وبدت كل هداياهم موفقة جـداً. كانـت وليمة العشاء هادئة وجميلة، بالرغم من أنهم اعترفوا جميعاً أنهم افتقدوا إلويز. وطهت فيث ديك حبش محشواً بطريقتها المشهورة التي أحبها الجميع، ولكن ثلاثة أشخاص على مائدة العشاء بدا عدداً قليلاً بعض الشيء. فحاولوا أن يتصلوا بإلويز، ولكنها كانت خارج المنزل حينها. في نهايـة اليوم، شعرت فيث بالحزن. فلم تعجبها فكرة أن يتقلص عدد أفراد عائلتها حتى ولو لسنة واحدة بالرغم من أن إلويز قد وعدتها أنها ستأتي لتمضية العطلة في العام المقبل.

اتصل بها براد بعد أن أنهوا العشاء مباشرة كي يشكرها على هديتها الجميلة، وأجابت على الهاتف في المطبخ وهي تقوم بالتنظيف. جلس ألكس وزوي فـي غـرفة المعيشـة ليشربا القهوة ويتحدثا وهما يتأملان الزينة معجبَـين، وكانـت تلك لحظة لطيفة نادرة الحدوث بينهما، وشعرت فيث بالـراحة. واعـتقدت أن إلويـز ربما تكون على الخط عندما أجابت على الهاتف، ولكنها فوجئت بسماع صوت براد.

"شكراً لكِ على الكتب الرائعة. إنها مدهشة. وستكون أجمل كتب في مكتبتـي. شـكراً جزيلاً لكِ". شعر بفخر عارم وبالتأثر الشديد عندما فتح

الهديـة. وحـرص على أن يفتحها وهو بمفرده كي يتجنب أي تعليقات لا لزوم لها من جانب بام.

قالـت لـه بسعادة: "إنها ليست بقدر جمال المسبحة". وجدت أنه من الـصعب أن تعثـر علـى الهدية المناسبة له. فهي لم ترد أن تهديه شيئاً شخـصياً فوق اللازم، وشعرت أن كل شيء آخر بحثت عنه غير مناسب، وبـدا علـى الكـتب أنها توحي بالعلاقة الحقيقية بينهما. فقد كانت مميزة وثمينـة، وليـست حمـيمة فوق الحدّ وكأنها تقريباً رمز لما يربط بينهما، بالرغم من أنها عرفته طويلاً بما يكفي لتكون جريئة في اختيارها، ولكنها اعتقدت أن عدم فعل ذلك أفضل.

بادرها قائلاً: "لقد ذهبت إلى دار العبادة سانت دومينيك ليلة البارحة، وأشعلت شمعة لك ولجاك".

"لقد وافتني زوي في دار العبادة، وكان أمراً لطيفاً أن نكون بمفردنا فقـط. فتمشينا في طريق العودة إلى البيت وبعد ذلك بدأ الثلج يتساقط. إنها ليلة الميلاد المثالية".

"كيف كان عشاء الميلاد؟".

"علـى مـا يرام. وقد بدا بسيطاً بوجودنا نحن الثلاثة فقط. وسأكون أكثر سعادة بوجود إلويز في البيت العام المقبل. ماذا عنك؟".

"إن ولايـة كاليفورنيا برمتها ستأتي إلى العشاء باللباس الرسمي في غضون ساعتين. وبالكاد أطيق الانتظار. فهذا حميم جداً وذو مغزى. وإنه لأمـر يمـس شـغاف قلب المرء أن يقابل مئة شخص غريب تقريباً وهم يـتجولون فـي أنحاء غرفة الجلوس، ويتناولون المقبلات، ويسرفون في احتـساء الشراب الخفيف. فهذا يذكّر المرء فعلاً بالمعنى الحقيقي للميلاد. ومن المؤسف أنك لست هنا". فضحكت لسماع وصفه، ولم تستطع حتى أن تتخيله. وبالرغم من أن الميلاد في بيتها بدا هادئاً، فقد كان الميلاد في بيته حتـى أسـوأ. ثم قال براد مازحاً: "إن بام تتمتع بموهبة خاصة حقيقية في إحداث الأجواء الحميمة التي تجعل الناس يشعرون بالتميز لوجودهم هنا".

وتمنى لو أنه يستطيع أن يتواجد هناك معها بالرغم من أن هذا سيبدو بالتأكيد محرجاً وصعب التفسير حتى بالنسبة إليها.

فاقترحت عليه قائلة: "ربما يمكنك وحسب أن تستسلم لهذا الوضع، وتستمتع بوقتك وألا تتوقع أن ينطوي على أكثر من ذلك". حاولت بذلك أن تساعده.

"هذا هو ما أقوم به نوعاً ما بالإضافة إلى احتساء الكثير من الشراب الفرنسي الأبيض. فهذه الحفلات ثقيلة على معدة المرء إن لم يشرب شيئاً معها". لاحظت أنه لم يكن يشرب سوى القليل عندما تناولا العشاء معاً، لذا لم تستطع أن تتخيله يسرف في الشراب حتى ولو دفاعاً عن نفسه. ثم قال لها: "ماذا ستفعلين الليلة؟".

"سآوي إلى الفراش".

"يا لحسن حظك! سأتصل بك غداً أو أرسل إليك رسالة". كان ذاهباً إلى العمل في اليوم التالي. فشعر بالراحة أنه سيفعل ذلك. إذ إنه نال كفايته من العطلة التي لم تعن له شيئاً بغياب الولدين.

"ميلاداً مجيداً براد. أتمنى لك وقتاً طيباً الليلة. وقد تحظى بمفاجأة لطيفة".

فقال لها وهو يبدو غامضاً ويفكر فيها: "ربما يحدث هذا".

ثم أقفلا السماعة، وعادت لتنظيف المطبخ. وبينما هي تفرغ من عملها، دخلت زوي وطلبت منها بعض المال لتذهب إلى السينما مع أصدقائها.

فقالت لها وهي تجفف يديها: "خذي ما تحتاجين إليه من حقيبتي". ثم علّقت المئزر الذي ارتدته فوق فستانها الحريري الأسود، وعقدها المرصع باللآلئ. لقد صففت شعرها بتسريحة فرنسية، وبدت أشبه بالممثلة غريس كيلي عندما كانت شابة. أشارت إلى حقيبتها التي تركتها على أحد كراسي المطبخ في الليلة الفائتة عندما عادت من دار العبادة، فبحثت زوي في داخلها لدقيقة، ثم نظرت إليها.

قالت وهي تمسك بالمسبحة التي أهداها إياها براد: "ما هذه؟". كانت قد وقعت من كيس الساتان الصغير وبقيت حرة في الحقيبة.

قالت فيث ببساطة: "إنها مسبحة". أمسكت بها في يدها خلال الاحتفال الديني في الليلة الفائتة، ولكن زوي لم تلاحظها.

قالت زوي بفضول: "إنني لم أرها معك من قبل. من أين حصلت عليها، يا أمي؟"، وبدت وكأنها تتمتع بحاسة سادسة.

"إنها هدية الميلاد من أحد الأصدقاء".

فغيّرت زوي ملامح وجهها وقالت: "من صديق؟"، وبدت قصة غريبة لتسمعها، ثم أدركت الحقيقة، وقالت: "يا الله، لا تقولي لي إن ذلك الرجل الذي نشأت معه أرسل إليك مسبحة، يا أمي؟".

"إنها ليست هدية تسبب الصدمة. فقد بدت هدية محترمة تماماً بالنسبة إليّ".

"نعم، هذا صحيح إن كان ذلك الرجل مغرماً بك. فلا أحد آخر قد يفهمك جيداً بحيث يرسل إليك شيئاً يعني لك كثيراً هكذا... وهي تبدو باهظة الثمن أيضاً".

"إنها أثرية. وأنت تتمتعين بعقل ملتو. لقد حاول الرجل المسكين أن يرسل إليّ شيئاً محترماً وملائماً للميلاد وأنت تفسّرينها كدلالة على حبه لي. إنني أحبك، يا زوي، ولكنك مريضة عقلياً". ابتسمت لها فيث ببراءة.

"إنني لست كذلك، بل أنا على حق، وسترين. وفي الواقع، إنها هدية رائعة جداً". بدت زوي متأثرة.

"نعم، هذا صحيح. لكن هل تعتقدين أنك تستطيعين أن تعيدي ضبط تفكيرك لتتقبلي فكرة أنني متزوجة وأنني أحب والدك وأن لا أحد آخر يحبني؟ وقد يصبح هذا الضبط تغييراً شاملاً بالنسبة إليك".

"ربما، ولكنه ليس صحيحاً. فهذا الرجل متيم بك، يا أمي. انظري إلى هذه، هناك زمرد وياقوت على هذه المسبحة، حتى لو كانت صغيرة الحجم. ولا بد من أنه رجل لطيف جداً".

"هذا صحيح. وهو صديق طيب. وآمل أن تلتقيه يوماً ما".

"أنا أيضاً." عاودت وضع المسبحة في حقيبة أمها. وأخذت عشرين دولاراً للذهاب إلى السينما مع أصدقائها.

"سأصرف شيئاً غداً، وأعطيك بعض المال. وبالمناسبة"، وذهبت لتعانق ابنتها، ثم قالت: "لقد أحببت حقيبة الظهر والوشاح. وسأبدو أجمل طالبة في الكلية".

"نعم، فأنت كذلك، يا أمي. وكل الشبان سيقعون في حبك".

فأشاحت فيث بوجهها وقالت: "أنت مهووسة". وبدا مفهوم وقوع براد في حبها سخيفاً برمته من وجهة نظر فيث، وبطريقة مهينة. إذ إنه استخفّ بنعمة صداقتهما وجعلها تبدو أقل قيمة مما هي عليه. فقد كانت مهمة جداً بالنسبة إليها. لم يخالجها أي شعور أنه مغرم بها ولا أنها مغرمة به. فقد كانا مجرد صديقين مقربين جداً سواء أصدقت زوي ذلك أم لا.

خرجت زوي بعد بضع دقائق، وذهبت فيث لتجلس مع ألكس بجانب الزينة. كان يرتشف كأساً من الشراب، ويسترخي وهو هائم في أفكاره الخاصة.

قال لفيث بسماحة نفس: "شكراً لك على العشاء الشهي".

فقالت وهي تقبله على خده: "شكراً لك على السوار الجميل". لكنه لم يتجاوب معها كعادته. فمن وجهة نظر ألكس كان التعبير عن العواطف يحرجه إن حدث في غير وقته المناسب. وهو لم يعد يحدث إلا نادراً على أي حال.

قال لها وهو يبدو مسروراً: "يسرني أنه أعجبك. وقد أحببت أنا أيضاً البذلة الجديدة والقمصان وربطات العنق. إنك تتمتعين بذوق رفيع. لطالما انتقيت لي أشياء أفضل مما يمكنني أن أنتقيها لنفسي". بدت تلك مجاملة لطيفة منه، وأمضيا وقتاً ممتعاً وهما جالسان بجانب المدفأة. أجرى حديثاً لطيفاً مع زوي قبل أن تخرج من المنزل، وهذا ما علما أنه أمر نادر الحدوث.

أمضى ألكس وفيث أمسية سارة معاً، مما يدعو للدهشة. وصعدا إلى الطابق العلوي بعد وقت قصير. لم يكن ميلاداً مبهجاً لأي منهما، ولكنه كان يوماً ساراً. شاهدا التلفاز لبعض الوقت. فكّر ألكس أن يكمل سهرته مع فيث، ولكنه غفا أمام التلفاز، فابتسمت له. بدت حياتهما حياة غريبة. فهما لم يكونا مسنّين، ولكنهما كانا يعيشان حياة المسنّين. أصبحت الآن تشعر أحياناً أن حياتها بأكملها قد مضت وأن المستقبل لم يعد بانتظارها.

كان شعور براد مشابهاً عندما أوى إلى الفراش تلك الليلة. فقد أمضى ليلة منهكة وهو يقوم بدور المضيف لمئة شخص لا يكترث البتة لأمرهم ويلعب دور زوج الملكة مع بام في طموحاتها ومساعيها الاجتماعية التي لا نهاية لها. ولم يستطع حتى أن يتخيل نفسه يمضي بقية حياته وهو يقوم بهذا، ومع ذلك فقد أيقن أنه سيقوم به. فهذا هو ما صمم على فعله قبل خمسة وعشرين عاماً. ومهما كلفه هذا من أمر، فسيتابع القيام به. ولكن عيش هذه الحياة بدا أصعب وأكثر كآبة مما تخيل على الإطلاق.

* * *

الفصل الرابع عشر

خضعت فيث لامتحان القبول المرعب في الأسبوع الواقع بين الميلاد ورأس السنة. بدا صعباً كما خشيت، ولم تكن لديها فكرة كيف أبلت فيه. شعرت أنها أبلت بشكل سيّئ، وحاول براد أن يطمئنها عندما اتصل بها في ما بعد. كان الشخص الوحيد الذي علم بخضوعها للامتحان. فهي لم تخبر حتى زوي بذلك. وأصبح ذلك الامتحان وراء ظهرها الآن على الأقل. تخطّت عقبة واحدة. وكل ما استطاعت أن تفعله الآن هو أن تأمل أنها قد أحرزت درجة مقبولة.

غادرت زوي إلى كلية براون في صباح رأس السنة. كانت ستبدأ الدراسة في اليوم التالي. وكرهت أن تغادر. فقد استمتعت بصحبة أصدقائها في العطلة، ولطالما كرهت أن تترك والدتها بالرغم من أنه كان لدى فيث سبب لتشعر بالسعادة. إذ إنها كانت ستبدأ الدراسة في الكلية في اليوم التالي.

التزم ألكس الصمت المطبق في أثناء تناول العشاء بعد مغادرة زوي، وأيقنت فيث السبب، فقد كان لا يزال منزعجاً من عودتها إلى الكلية، وأثارت زوي جلبة كبيرة حولها قبل أن تغادر، وجهزت فيث حقيبتها ومعداتها الدراسية لليوم التالي، ووضعتها وهي كلها جاهزة على أحد الكراسي في غرفة مكتبها، ونزلت إلى الطابق السفلي لتتفقد كل شيء قبل أن تأوي إلى الفراش. لم تشعر بهذا المقدار من السعادة منذ طفولتها.

استلمت رسالة من براد في ذلك اليوم، وتمنى لها فيها التوفيق، وأخبرها أنها ستبلي بلاء حسناً جداً. لم تشعر باليقين من هذا، ولكن شعرت

بالإثارة فعلاً لعودتها إلى الكلية. أيقنت أنها ستبدو لها صعبة، ولكنها كانت أخيراً ستحقق ما تريده.

نهضت عند بزوغ الفجر في اليوم التالي، وارتدت ملابسها عند الساعة الثامنة عندما أعدت الفطور لألكس. غادر عند الساعة الثامنة والنصف كعادته من دون أن يتفوه بأي كلمة لها. فقد أراد أن يتأكد من أنها تعلم أنه لا يزال غير موافق على ما تقوم به، ولم يعد هذا سراً بالنسبة إليها أو إلى أي شخص آخر في البيت. فقام بمجرد التحديق إليها ثم أغلق الباب الأمامي.

أعدت لنفسها فنجاناً آخر من الشاي، وظلت تنظر إلى الساعة. كانت ستغادر عند الساعة التاسعة وتستقل سيارة أجرة إلى وسط المدينة. لم يتوجب عليها أن تسجّل اسمها حتى الساعة التاسعة والنصف. عندما أخذت حقيبة ظهرها، وهمت بالمغادرة أخبرها كمبيوترها المحمول أن لديها رسالة إلكترونية، فضغطت عليها وفوجئت لأن ترى أنها من براد. لم تكن الساعة السادسة قد حانت بحسب التوقيت عنده بعد.

"العبي جيداً في صندوق الرمل. وامضي يوماً رائعاً! كوني فتاة طيبة، واتصلي بي عندما تعودين إلى البيت. مع حبي براد". كان ذلك لطفاً منه. فضغطت على زر الرد بسرعة، ونزعت حقيبة ظهرها لتجيبه.

"شكراً لك. لقد استيقظت مبكراً جداً! ليس خصيصاً من أجلي، كما آمل. سأتصل بك... ادعُ من أجل ألا يتصرف الآخرون بلؤم معي. إنني خائفة، ولكنني مبتهجة أيضاً. أتمنى لك يوماً طيباً. مع حبي، فرد." لطالما كانت زوي تخاف من أن يتعامل الطلاب معها بلؤم في المدرسة، ولكنهم لم يفعلوا ذلك قط. أما فيث فكان ما خشيت منه أكثر هو ألا تبلي بلاءً حسناً في المنهج الذي ستدرسه. فقد مضى عليها وقت طويل منذ تركت الكلية.

أسرعت خارجة من المنزل عندئذ، واستقلت سيارة أجرة إلى كلية نيويورك. بدا المكان مربكاً عندما وصلت إليه، ولكن كانت بحوزتها رزمة من الأوراق تخبرها ما تفعل وأين تذهب. كانت واضحة ودقيقة بشكل

ملحوظ، فعثرت على غرفة صفها بسهولة مدهشة، ووجدت الصف، واسمه: الدعاوى القضائية، ساحراً وأفضل بكثير مما توقعت. بدت الأستاذة مثيرة للاهتمام والتحدي، فشعرت بالبهجة بحلول الوقت الذي توقفوا فيه لتناول الغداء. توجب عليها أن تحضر صفاً آخر لذلك اليوم عن القانون الدستوري. كانت سترتاد الكلية ليومين في الأسبوع، وعلمت أن هذا سيساعدها من أجل كلية الحقوق في فصل الخريف. بدا المنهج الأول رائعاً.

نال منها الإرهاق في الوقت الذي توجهت فيه إلى البيت عصر ذلك اليوم، ولكنها أمضت أكثر يوم ممتع عاشته منذ سنوات. كانت تدرّس صفَ الدعاوى القضائية أستاذةٌ في مثل عمر فيث تقريباً. وودت فيث أن تتوقف وتتجاذب معها أطراف الحديث، ولكنها شعرت بالخجل من ذلك، كما علمت أن عليها أن تعود إلى البيت بعد محاضرتها في القانون الدستوري. كانت الساعة ستشير إلى الرابعة حين عودتها إلى البيت، فلم يسعها أن تبدد وقتها في الكلية.

وضعت حقيبة ظهرها أرضاً حالما دخلت من الباب الأمامي وهي تفكر منذ الآن في الواجبات الدراسية التي كُلّفت بها. كانت مثيرة للتحدي وتستغرق وقتاً. بدأ الهاتف يرن حالما دخلت وهي لا تزال ترتدي معطفها. وكانت المتصلة هي زوي.

"كيف كانت الكلية؟ هل أحببتها، يا أمي؟".

"إنني أعشقها! فهي حتى تفوق توقعاتي". شعرت بالسعادة والسرور وهي تقول هذا، وشعرت زوي بالفخر بها من كل قلبها. تحدثتا لنصف ساعة. أخيراً قالت فيث إن عليها أن تقفل الخط. فلا يزال عليها أن تعد العشاء لألكس، ولم تكن واثقة مما لديها في البيت من أغراض. ولكن حالما أغلقت الخط، رن الهاتف ثانية. وهذه المرة، كان براد هو المتصل.

كان أول ما قاله: "لا أستطيع أن أتحمل التشويق. هل أحببتها؟"، فابتسمت فيث.

"لقد أحببتها كثيراً. ولدي أساتذة رائعون. ويبدو وكأن الطلاب في صفي أذكياء. مر الوقت بلمح البصر. والواجب المنزلي مرعب، ولكنني أعتقد أنني أستطيع أن أتولى أمره". ثم أطلقت صيحة إثارة وابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت: "إنني أعشقها فعلاً. وقد وصلت لتوي إلى البيت".

قال وهو يشعر بالإثارة من أجلها: "ستبلين بلاء عظيماً فيها". كان ذلك بالضبط ما تمناه لها.

"شكراً لك على الرسالة التي أرسلتها صباح اليوم". ولم يخبرها أنه قد ضبط ساعته المنبهة على الساعة الخامسة والنصف كي يرسل إليها رسالة متقنة الكتابة. ثم قالت له: "لقد خفت كثيراً".

"لقد اعتقدت ذلك. ولهذا السبب لم أتصل بك. فلم أرد أن أمنحك فرصة لتتداعي. وأرسلت إليك رسالة عوضاً عن ذلك".

"هذا تصرف ذكي".

"إنني مسرور جداً من أجلك. هل الواجب المنزلي صعب؟".

"يبدو أنه كذلك، ولكنني أعتقد أنني أستطيع أن أتولى أمره إن لم أغرق بالأعباء الخارجية الأخرى مثل وجبات العشاء التي يتوجب عليّ أن أعدّها لألكس. فسيصبح هذا صعباً".

"من الجيد أنك لست متزوجة بشخص على شاكلة بام". لقد أقامت بام حفلة ضخمة أخرى ليلة رأس السنة. أمضت فيث وألكس وقتهما في البيت وشاهدا التلفاز كعادتهما. قال براد إنه يحسدهما. ثم قال: "ماذا ستفعلين تالياً؟".

"سأجهد نفسي بالعمل. وأصل إلى كلية الحقوق بحلول فصل الخريف، كما آمل". لا يزال ألكس غاضباً بخصوص هذا، ولكنها أخذت تتقدم إلى الأمام ببطء وتزداد ثقة بعد يومها الأول في الكلية. ثم قالت: "سأتقدم إلى كلية الحقوق بعد وقت قصير".

"أين؟".

"في جامعة كولومبيا، أو نيويورك، أو فوردهام، أو كلية نيويورك للقانون، أو كلية بروكلين للقانون. فليس لدي خيار في انتقاء المكان. إذ يجب أن يكون ذلك في نيويورك".

قال لها براد مبتسماً: "من المؤسف أنك لا تستطيعين أن تأتي إلى هنا".

"سيُشعِر ذلك ألكس بالسعادة. وسيحب هذا الوضع فعلاً. زوجةٌ تأتي من الكلية إلى البيت في الإجازات فقط! وبالرغم من ذلك فأنا أحياناً أتساءل إن هو يلاحظ غيابي. ربما يمكنني أن أوظف ممثلة بديلة كي تؤدي دوري". وأياً يكن دورها في تلك الأيام، فقد تضمن بمعظمه وجبات العشاء والفطور، وحفلة عشاء بين الحين والآخر، وأدنى قدر ممكن من المحادثة، وعاطفة نادرة الحدوث. فقد أصبحت بالكاد وظيفة بدوام كامل.

ضحك براد وقال: "سيسرني فعلاً أن أوظف رجلاً ليؤدي وظيفتي. فيمكنه أن يحضر باللباس الرسمي كل حفلات العشاء والأوبرا وافتتاحيات السيمفونية. يا الله، كم سأحب هذا!". فانفجرا ضاحكَين. ونظرت فيث إلى ساعتها.

"من الأفضل أن أستعد وإلا فسيصبّ ألكس جام غضبه عليّ عندما يصل إلى البيت. فأي خطأ أرتكبه من الآن فصاعداً سيكون بسبب الكلية. ويجب عليّ أن أتحلى بسلوك مثالي الآن. فأطهو وجبات عشاء مثالية، وأنجز كل شيء في وقته المحدد، وأعدّ حفلات عشاء تليق بوصفات طعام مارثا ستيوارت وجوليا تشايلد. فليس من المسموح لي أن أخفق الآن أبداً". فكرت أن تعد له وجبة عشاء مميزة في تلك الليلة لتثبت له أنها تستطيع أن تتدبر ذلك كله، ولكن لم يعد لديها متسع من الوقت لذلك أو رغبة به.

قال لها براد بتعاطف: "هذا ضغط شديد عليك. يجب عليك ألاّ تثبتي له جدارتك كثيراً. فليس الأمر وكأنك تقومين بعمل مريع فعلاً".

"إنني كذلك من وجهة نظره. سأرسل إليك رسالة في ما بعد. فعليّ أن أعرف ما سأعد للعشاء. وعندئذ سيتوجب عليّ أن أؤدي واجبي الدراسي".

فابتسم وقال: "إنك فتاة طيبة".

"وأنت أيضاً. شكراً لك براد". أغلقت الخط بسرعة وتفقدت الثلاجة. وقررت أن تسرع وتشتري شيئاً يحبه ألكس فعلاً.

بحلول الوقت الذي وصل فيه إلى البيت، كانت قد وضعت السمك المحشو في الفرن، وأعدت الهليون مع الصلصة الهولندية، وطبق أرز مدهشاً من وصفة لجوليا تشايلد. فقدمت الطعام بنظام مثالي وهي فخورة بنفسها لتدبرها كل ذلك في وقت قياسي. فلم يدلِ ألكس بأي تعليق، بل تناول العشاء بهدوء ولم يسألها عن الكلية. فكانت فيث أكثر من مصعوقة.

احتالت لتحظى بتعليق منه فسألته قائلة: "هل أحببت السمك؟"، اعتقدت أنه من أفضل الأطباق التي أعدتها. ثم قالت: "إنها وصفة جديدة عثرت عليها". وشعرت أنها سيدة منزل مثالية بعد أن أعدت عشاء مثالياً، وتدبرت الذهاب إلى الكلية مع أنه يومها الأول.

قال لها بوجه خالٍ من التعبير: "إنه جيد".

"كيف وجدت الصلصة الهولندية؟"، أيقنت أنها محضرة بالضبط بالطريقة التي يحبها. كان الهليون مطهواً بشكل جيد تماماً.

فعلق قائلاً: "إنها سميكة بعض الشيء". ثم أدركت أنها لا تملك أي فرصة. فسواء أحب العشاء أم لا، فهو لم يضمر النية في أن يخبرها بذلك. شعرت بالغضب يتصاعد في داخلها كضغط بخار الماء. ولكنها لم تقل شيئاً. بعد ذلك قامت بمجرد تنظيف المائدة بعد الوجبة من دون أن تقول له كلمة أخرى. بدا تصرفه وضيعاً. فهو لم يكن ليذعن بأي شيء، وهذا ما بدا تصرفاً صبيانياً سخيفاً بالنسبة إليها. الآن بعد أن عادت إلى الكلية، فقد أصبح بإمكانه أن يستغل الوضع ويتعامل معه. لكن من الواضح أنه لم ينوِ أن يسهّل الأمور بالنسبة إليها. بينما كانت تضع الأطباق في آلة غسيل الأطباق، خرج من المطبخ. فثارت ثائرتها، وعادت بغضب إلى غرفة مكتبها، وأخرجت كتبها الدراسية حالما فرغت من عملها. مكثت فيها حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وهي تنجز الوظيفتين اللتين كُلّفت بهما. انتهت بحلول وقت الإيواء إلى

الفـراش بعد أن تخطت غضبها من ألكس أخيراً. الآن لم يعد لديها عمل لتقوم به في اليوم التالي. فأصبح كل شيء تحت سيطرتها.

لم يتحدث إليها في أثناء تناول الفطور في صباح اليوم التالي أيضاً. فغضبت منه.

قالت له: "لا بأس، يا ألكس. لست ذاهبة إلى الكلية اليوم. في وسعك أن تـتحدث إلـي. وليس عليك أن تعاقبني حتى يوم الغد". كانت لا تزال غاضبة منه للطريقة التي عاملها بها في الليلة الفائتة.

"لا أعرف عمّا تتحدثين، يا فيث. هذا كلام سخيف لتتفوهي به".

"إنهـا طـريقة سخيفة لتتصرف بها. فنحن راشدان. وأنت لا تحب حقـيقة ذهابـي إلـى الكلية. ولا بأس بهذا! ولكنني أحاول أن أبذل ما في وسـعي مـن أجلك، وليس عليك أن تجعل من المستحيل لهذا الوضع أن ينجح. وأنت تعاقب نفسك بقدر ما تعاقبني".

"أنت من فعلتِ ذلك، يا فيث. فأنت تعلمين كيف أشعر حيال هذا. إن كانت ردود فعلي لا تعجبك، فيمكنك أن تنسحبي من الكلية". هكذا بدا الأمر ببساطة من وجهة نظره.

"أهـذه هي حقيقة الوضع؟ أهو ابتزاز؟ ألن تتحدث إليّ سوى بالكاد وسـتحول حياتـي إلى بؤس حتى أترك الكلية؟"، لم يجبها. فارتفعت نبرة صـوتها. لـم تكن هذه الطريقة التي يحب أن يبدأ يومه بها، وكذلك هي. فقالـت: "أعـتقد أن هـذه طريقة تعاملك مع الوضع. وهي ليست طريقة ناضجة. أتعتقد أنه يمكنك أن تمنحني فرصة في هذا؟ وأن ترى على الأقل كيف ستجري الأمور قبل أن تبدأ بمعاقبتي؟ لقد ذهبت إلى هناك ليوم واحد فقط. أعني، كم من الممكن لهذا أن يكون سيئاً؟".

"إنـه سيئ بما فيه الكفاية. ما كان ينبغي عليك أن تسجّلي اسمك في المقام الأول. فالفكرة برمتها سخيفة".

"كـذلك مـوقفك سخيف". رمقته بنظرة غاضبة، وهذا تصرف نادر منها. حظيت ببداية سيئة جداً لحياتها الدراسية، وكانت كلية الحقوق ستزيد

الوضع سوءاً. لكن موقفه بدا واضحاً، أرادها أن تتوقف قبل أن تصل إلى هذا الحدّ. ولكنها لم تكن لتتخلى عن الكلية بهذه السهولة. فقد قوّى ذلك من عزيمتها على الأقل.

قـال لها ألكس ببرود: "أعتقد أن سلوكك بائس". تناول صحيفة وول ستريت، وخرج من المطبخ، ولم يأكل من طعامه شيئاً، لم تفعل هي ذلك. وبدا هذا الحوار نذير شؤم لما سيحدث في الأشهر التالية.

أرسـلت رسالة إلى براد لتحدثه عن هذا عصر ذلك اليوم. وأجابها تلك الليلة. فقد بقي في المحكمة حتى الخامسة مساء.

"عزيزتـي فـرِد. آسف أنني استغرقت وقتاً طويلاً لأجيبك. فقد كان يومي طويلاً، وحققت نصراً ضئيلاً لأحد الأولاد. إن الإصغاء إلى حديثك عـن ألكس يثير جنوني. فهو يعيش في العصور الوسطى. كيف يمكنه أن يـنجو بهـذه الأفعـال؟ ينبغي علينا أن نرسله إلى معسكر تدريب مع بام، فـستعيد تـشكيل شخصيته في غضون أسبوع، وسيتوجب عليه أن يتقبل الوضع ويتخطاه. لا يمكن أن تتنازلي عن حياتك إكراماً له. فمن الخطأ أن تفعلي ذلك.

"أيمكن أن تركزي على دراستك وهو يتصرف معك بهذه الوضاعة؟ يجـب علـيك أن تحاولي ذلك. ابذلي أقصى طاقتك. لا يمكنك أن تكوني مثالية طوال الوقت، فلا أحد يمكنه ذلك. بل ابذلي ما في وسعك فقط. لكن اعلمـي أن هـناك إخفاقات وامتحانات وليالِيَ لا تستطيعين فيها أن تعدّي طعام العشاء وتقومي بواجبك الدراسي. وسواء أأحب ذلك أم لا، فعليه أن يـتعايش معـه. وإن تـنازلت عن الكلية الآن أو استسلمت، فستندمين إلى الأبد. أعلم أن جاك كان ليقوم بالشيء نفسه وليشعر ببهجة عارمة لعودتك إلـى كلية الحقوق. ولطالما اعتقد أنه ينبغي عليك أن تفعلي هذا. قال إنك تتمتعـين بموهـبة طبيعـية في ذلك أكثر منه. هل أخبرك بذلك قط؟ لقد أخبرنـي عـدة مرات، وخاصة عندما كنا في كلية الحقوق. ظل يعتقد أنه سيُطرَد من الكلية. اصمدي، يا فرِد العزيزة... فستفوزين! مع حبي، براد".

لطالما جعلها تحس بحال أفضل وتشعر بالامتنان لتشجيعه. فقد احتاجت إليه من كل قلبها. ظل ألكس يعمل على تحويل حياتها إلى جحيم طوال الشهر التالي.

استمرت فيث في تدبر أمر واجباتها الدراسية والامتحانات الثانوية والاعتناء بالمنزل والطهو لألكس، وبقي براد وزوي يرفعان من روحها المعنوية. كان العمل قابلاً للإنجاز بشكل ملحوظ، وأيقنت ذلك. لقد استطاعت أن تتدبر أمر كل من الزواج والكلية، وتمكنت حتى من أن تنهي تقديم أوراقها لكلية الحقوق. أدهشها، أنها أحرزت درجات عالية في امتحان القبول، وأملت أن تعوض درجاتها عن حقيقة أنها لم تعمل أو تذهب إلى كلية الحقوق طوال السنوات الخمس والعشرين المنصرمة.

كان الجزء الصعب هو التعامل مع ألكس الذي أحدث جواً كئيباً في المنزل. فقد غمره الشعور بالامتعاض لعودتها إلى الكلية. كل ما حدث هو أن الوضع ازداد سوءاً بمضي الأسابيع. وفي مطلع شهر شباط، أصبحت في وضع صعب حقيقي. فقد أعلن صف الدعاوى القضائية القيام برحلة ميدانية إلى واشنطن لأربعة أيام. لم تكن تلك الرحلة إجبارية، ولكنهم أوصوا بالذهاب إليها، ونصحتها أستاذتها بذلك. كان هناك بحث مطلوب كتابته في ما بعد من أجل المزيد من العلامات الإضافية لدرجتها النهائية. تحدثت إلى كل من براد وزوي بشأن ذلك. فاعتقدا أنه ينبغي عليها أن تذهب. المشكلة، بالطبع، متعلقة بألكس. فلم تمتلك فيث الشجاعة لتخبره عنها. أرادت أن تتخذ قراراً مسبقاً قبل أن يمارس ضغطه عليها لئلا تذهب، وهذا ما شكّت في أنه سيفعله.

حلّ الأسبوع السابق للرحلة عندما أخبرته بشأنها وبما تنطوي عليه. فالتزم الصمت المطبق عندما شرحت له عنها بعد تناول العشاء، وعانت من ألم في معدتها طوال الوجبة وهي تنتظر أن تخبره. كالمعتاد، تناولا طعامهما من دون أن ينبسا ببنت شفة. منذ عادت إلى الكلية، لم يُبدِ أي رغبة بالحفاظ على علاقة طيبة معها. أصبح يزداد إصراراً على طردها من حياته.

فقالت له بإيجاز: "هذه هي المسألة كلها. سأذهب إلى واشنطن لأربعة أيام. أستطيع أن أترك لك وجبات عشاء مجمدة ولا أعرف كيف يبدو برنامج سفرك هذه الأيام. هل أنت ذاهب إلى أي مكان الأسبوع القادم؟". تمنت أن يكون كذلك، بحيث لا يؤدي غيابها إلى أزمة معه. فكان هذا ليبسّط كل الأمور.

فقال لها بجفاء: "كلا، لست ذاهباً." حدق إليها وكأنها قالت لتوها إنها قد اعتقلت بتهمة السطو المسلّح وستذهب إلى السجن. ثم قال لها: "إنني لا أصدق ما تفعلينه. فأنت تتنكرين بهيئة طالبة في حين أن لديك مسؤوليات هنا".

"كن منطقياً، يا ألكس. فقد كبرت ابنتانا، وغادرتا المنزل، ونحن راشدان. فماذا أفعل أنا هنا؟ لا شيء. إنني أطهو لك العشاء ليلاً. وليس لدي شيء لأفعله طوال اليوم. عانيت من ملل شديد قبل أن أعود إلى الكلية". أصبحت تمثيليته تزداد سخافة كل يوم. كانت تتعلق فقط بغروره وسيطرته عليها. إذ إنه أراد أن يتأكد من أنه استطاع أن يحملها على فعل ما يريده. لكنه تمادى في تصرفاته هذه كثيراً حتى من وجهة نظرها هي.

"يؤسفني أنك تشعرين بالضجر بسبب زواجك بي، يا فيث".

"إنني لم أقل ذلك. لكن ليس لدي الكثير لأقوم به في هذه الأيام، وأنت تعلم هذا. فهذا ليس سراً".

"إنه لا يبدو منطقياً لي أنا".

فعادت لموضوع النقاش مباشرة قائلة: "ماذا عن الرحلة إلى واشنطن؟" قال كل ما قاله من قبل، وسئمت من الإصغاء إليه ومن التذلل وهي تعتذر له. فقد أصبح هذا قديماً بالنسبة إليها، إن لم يكن بالنسبة إليه أيضاً.

"افعلي ما تريدينه".

"ماذا يعني هذا؟". أرادت أن تعرف كم سيكون الثمن الذي ستدفعه باهظاً. فكم سيثير هذا غضبه؟ وكم سيكون مدى قسوة العقوبة التي ستنالها

سراً؟ وكانت ستذهب على أي حال، إذ إنها اتخذت قرارها، ولكنها أرادت أن تحظى بفكرة عن الثمن الذي ستسدده قبل أن تفعل ذلك.

"إنــه يعنــي أن تفعلــي ما تريدينه. هيا، افعلي ذلك وخاطري على مــسؤوليتك الشخــصية". شــكّل ذلك تهديداً غير مبطّن كالعادة. فأثار هذا غضبها.

"لقد سئمت من هذا، يا ألكس. إنني لم أقترف جريمة، ولم أخنك. ولم أهجــرك أو أهجــر الفتاتين. فلماذا يجب عليك أن تتصرف وكأنني فعلت ذلك؟".

فقــال لها: "إنك مجنونة". نظر إليها باشمئزاز وهو ينهض، ويستعد لمغادرة الغرفة.

"إن كنت أنا مجنونة فأنت من جعلني هكذا".

"لا تلوميني إن لم تعجبك عواقب أعمالك".

قالــت له بحزم: "حسناً، لن ألومك. سأذهب إلى واشنطن، وسأغيب لأربعة أيام، ويمكنك أن تتصل بي إن احتجت شيئاً. سأترك لك كل الطعام الذي يمكنك أن تأكله".

فقال لها من خلال أسنان مطبقة: "لا تزعجي نفسك، فسأتناول طعامي في الخارج".

"لــيس عليك أن تفعل ذلك. فسأترك لك وجبات العشاء لأربعة أيام، ولــديك حــرية الاختيار إن أردت أن تأكل في البيت أو خارجه". لم يتفوه بكلمة واحدة، بل أدار ظهره، وغادر الغرفة.

لــم ترسل رسالة إلى براد أو إلى زوي بخصوص ما حدث. فقد بدا المــشهد مسبباً للإذلال والإحباط بحيث إنها لم ترغب أن تخبر أحداً عنه. أرادت أن تــتعامل معه بمفردها. في الصباح التالي، غادرت وودعته. فلم يجــبها. بــل تابع قراءة صحيفته، وتصرف وكأنها غير موجودة. إن أراد بذلك أن يجعلها تشعر بالذنب، فقد حصل على النتيجة المعاكسة. إذ إنه أثار غــضبها، وأشعرها بالراحة لخروجها من المنزل. شعرت وكأنه قد أُطلق

ســراحها من السجن للتو عندما خرجت وهي تحمل حقيبة ظهرها وحقيبة قماشية وكمبيوترها المحمول في حقيبته يتدلى عن كتفها. أخذته معها لتعمل علــيه، وكــي يتسنى لها مراسلة براد وزوي. لكن شعوراً عظيماً غمرها لأنها غادرت.

كــان أكثــر من نصف طلاب صفها ذاهبين في الرحلة الميدانية. فالــتقوا في المكان المحدد، واستقلّوا حافلة إلى مطار ريغان الدولي في واشــنطن العاصــمة. كانوا سيمكثون في فندق صغير في ماساشوستس أفنــيو مليء بالطلاب الأجانب ورجال الأعمال القادمين من بلاد أخرى. بــدا مجــرد التواجد هناك مثيراً لفيث. وبعد أن أمضت وقتاً في مركز سميثسونيان ومكتبة الكونغرس، شعرت ببهجة عارمة كونها شاركت في هــذه الرحلة. طرأت لها فكرة للبحث الذي كانت ستكتبه عندما تعود إلى البــيت، وبدأت تكتب الملاحظات في غرفة الفندق تلك الليلة، وأوصلت جهــاز الكمبيوتر بالكهرباء لتعمل عليه لبعض الوقت. تناولوا العشاء في مطعم هندي، وأمضت ساعة وهي تتحدث إلى الأستاذة، وهي المرأة التي اســتلطفتها كثيراً. ودخلت في نقاش رائع مع بعض زملائها الطلاب عن الدســتور وســريان مفعول القوانين التي يدعمها. أدى ذلك إلى مناقشة حامية بشأن التعديل الأول للدستور، وبحلول الوقت الذي عادت فيه فيث إلــى غــرفتها، شــعرت بالانــتعاش والإلهام. كانت تطبع بسرعة على الكمبيوتر عندما وصلتها رسالة عبر البريد الإلكتروني. ووجدت أنها من براد.

"مــرحباً فرد... إذاً، كيف هي الدعاوى القضائية؟ هل تسير أمورك بــشكل جــيد فــيها؟ أتستمتعين بوقتك؟ إنني أحب العاصمة. فقد كانت لي صديقة هناك عندما التحقت بالكلية. كانت ابنة السفير الفرنسي، واعتدت أن أزورها هناك، ولم أحظَ بقدر أكبر من المتعة في حياتي. حاولت أن أعرّف جــاك إلى أختها، ولكنه تصرف بفظاعة كبيرة بحيث إنه أخافها بشدة. إذاً، ماذا تفعلين الآن؟ ألديك زملاء طيبون وأستاذ جيد؟".

"كل شيء على ما يرام هنا. فأنا منشغل بالعمل ولدي محاكمة الأسبوع القادم. أعلمتني سكرتيرتي أن الرابع عشر من شباط سيحل الأسبوع القادم، وهذا هو اليوم الذي يتذكر فيه المرء شخصاً يحبه ثم يدرك أنه قد نسي أمره، أو شيئاً من هذا القبيل. ستسود الأزهار والشوكولاته وتنتشر حمى القش وتسوّس الأسنان. يبدو عليّ أنني أفقد روحي الرومانسية. لقد كنت لأصطحب بام لتناول العشاء خارجاً، إلا أنها قد تحضر على الأرجح مئتي صديق، وتصر على أن أرتدي اللباس الرسمي. أعتقد أنني سأشغل نفسي بالعمل وأخبرها أنني نسيت. فهي على الأرجح ستنسى أيضاً. إنني أثرثر كثيراً. وسأعود الآن إلى العمل. ابقي على اتصال بي. إن رشّحت نفسك لمنصب رئيس الجمهورية، فأحيطيني علماً بذلك. ستحظين بصوتي بالتأكيد. سأطلعك على المزيد قريباً. مع حبي براد".

كانت تحب أن تسمع أخباره. فلطالما جعلها تضحك أو تبتسم على الأقل. وذكّرها حديثه عن الرابع عشر من شباط أنها تريد أن ترسل حلوى إلى الفتاتين. أيقنت أن ألكس لم يكن ليذكر لها اليوم على الإطلاق، فهو لم يفعل ذلك من قبل قط. إذ إنهما أصبحا بالكاد يتمتعان بالمزاج الملائم للرابع عشر من شباط بعد الآن، ولا سيما مؤخراً. ولم يعد هذا اليوم يعني الكثير لها.

بدت بقية الرحلة إلى واشنطن أمراً مدهشاً، واستمرت في المضي بسرعة ثابتة. ذهبوا إلى المتاحف والمكتبات والجامعات، وقاموا بجمع المعلومات لتوضيح منهجهم. في صباح اليوم الأخير، واجههم عقبة كبيرة. فقد كان لا يزال أمامهم يوم أخير ليكملوه وليلة أخيرة. لكن الأستاذة تلقت مكالمة هاتفية طارئة عبر هاتفها الخليوي علمت فيها أن والدتها قد أخذت إلى المستشفى بعد أن تعرضت لنوبة قلبية، ولم يكن من المتوقع لها أن تنجو. بدت مستاءة بشكل يمكن تفهمه، وقالت إنه يجب عليها أن تغادر. حثت الآخرين على إكمال اليوم والليلة الباقيين. لم يكن من المفروض أن

يعودوا إلى البيت حتى عصر اليوم التالي. كان ذلك عصر يوم الجمعة على أي حال. لم يتوجب عليهم التواجد في نيويورك حتى وقت متأخر من يوم السبت. بحلول الوقت الذي أعلنت فيه الأستاذة ذلك، أدركت فيث أنها قد أنجزت كل ما عليها أن تنجزه بعدما حظيت بمعلومات أكثر من كافية من أجل البحث. قرر أكثر من نصف أفراد المجموعة العودة إلى البيت. فقد شعروا أنهم فقدوا الحماسة بسرعة من دون وجود قائدتهم لتوجههم. قرر البعض أن يبقوا من دونها، ولكن فيث كانت من بين الذين آثروا المغادرة عند الظهر. إذ سمح لها ذلك أن تمضي عطلة نهاية الأسبوع مع ألكس، وهذا ما أملت أن يخلّصها من ذنبها بعد غيابها لثلاثة أيام. ولم يكن قد اتصل بها ولو لمرة واحدة أو أجاب عن مكالماتها اليومية منذ غادرت.

حزمت أغراضها في الفندق، واستقلت سيارة أجرة إلى المطار مع خمسة من زملائها، ثم استقلوا حافلة إلى البيت، ووصلوا إلى نيويورك بحلول الساعة الثانية. بدا ذلك مثالياً. تسنى لها أن تصل إلى البيت وترتب أوراقها، وتطهو له عشاء لذيذاً كعرض سلام، فتوقفت عند السوق في طريقها إلى البيت. وسرعان ما دخلت البيت بعد الساعة الثالثة بقليل وهي تحمل كيسين من مواد البقالة، فوضعتهما على أرض المطبخ مع كل حقائبها وأغراضها الأخرى. شعرت وكأنها غابت عن المنزل لأسابيع. وبينما هي تنظر في أنحاء المطبخ، أدهشها أن تلاحظ أنه بدا مرتباً بشكل يدعو للإعجاب. تساءلت إن كان قد تناول طعامه خارج المنزل كل يوم على أي حال. بينما كانت تضع الحقائب على الأرض لاحظت وجود زوج أحذية من الساتان الأسود تحت أحد الكراسي. لم تكن تملك أي حذاء من هذا النوع. لكن ما فاجأها أكثر عندما أمسكت إحدى الفردتين لتنظر إليها عن كثب هو أنها وجدتها أكبر من مقاس قدمها. فبدأ قلبها ينبض بسرعة عندما رأتها. صعدت إلى الطابق العلوي وهي تشعر بالاشمئزاز.

وجدت السرير في غرفة نومهما مرتباً بطريقة تشير إلى أنّ ترتيبه قد تمّ بشكل عاجل، والملاءة ملقاةً فوق السرير غير المرتب. عندما رفعتها

لاحظت على الفور وجود قطعة ملابس نسائية سوداء حريرية. بينما هي تنظر إلى الأرض، وجدت قطعة ملابس أخرى مشابهة بدا عليها أنها ألقيت على الأرض بعجلة. فغمرها على الفور إحساس بالاشمئزاز. جلست على السرير وهي تشعر بالوهن، فلم يكن من الممكن أن يحدث هذا لها. لم تجد أي طريقة لتفسر الوضع سوى بما هو واضح. لم تكن هناك ضيفة أو ابنة أو أي امرأة يستطيع وجودها أن يفسر هذا. أحضر ألكس امرأة إلى البيت في أثناء غيابها، وعندما دخلت الحمام، وجدت أدوات زينة تملأ طاولة الزينة من ماركة لا تستعملها. كان هناك شعر أسود طويل في المغسلة. فلم تجد ما يساعدها لترسم لنفسها صورة أجمل للوضع عندما رأت زوجاً آخر من الأحذية وكنزة معلقة على علاقة المناشف. وكل ما استطاعت أن تفعله وهي تنظر إلى ثوبين وثلاثة أطقم غير مألوفة عثرت عليها في خزانتها هو أنها أجهشت بالبكاء. فأياً تكن المرأة التي مكثت مع ألكس فمن الواضح أنها قد انتقلت إلى المنزل لتمضي الأيام الأربعة بأكملها.

تملّكها شعور مفاجئ بالرعب عندما أدركت أنهما سيعودان تلك الليلة أو حتى عصر ذلك اليوم.

ركضت نازلة الدرج من دون أن تفكر بشكل واضح بعد أن أعادت فرد الملاءة على السرير كما وجدتها، وتركت كل شيء آخر من دون أن تحركه. حرصت على أن تطفئ كل الأضواء. ثم ركضت عائدة إلى المطبخ، وأخذت حقائبها وكيسي البقالة اللذين اشترتهما، وغادرت المنزل. ألقت بالكيسين في صندوق قمامة في الشارع، واستدعت سيارة أجرة وليست لديها أي فكرة على الإطلاق إلى أين ستذهب. فلم يكن لديها صديق ترغب أن تعترف له بهذا الكابوس أو أي مكان لتلجأ إليه. فطلبت من السائق أن يأخذها إلى فندق كارليل على بُعد مجمعين سكنيين. جلست على المقعد الخلفي، وأخذت تبكي.

نظر السائق إليها بارتباك وقال: "أهذا كل شيء؟". فقد كانت المسافة قريبة، وأمكنها أن تسير إلى هناك.

فقالت بتشوش تام: "نعم، اذهب وحسب". شعرت بالرعب من أن تلتقي بألكس والمرأة الأخرى وهما عائدان إلى المنزل. لكن الأسوأ من هذا هو أنه منزلها أيضاً. فقد دنّس ألكس منزلهما وسريرهما بفعلته تلك. كل ما استطاعت أن تفكر فيه في الطريق هو مشهد الملابس على سريرها. كل ما أرادته هو أن تموت. فهذا هو الثمن الذي دفعته لذهابها إلى واشنطن، إن كان هذا هو ما قصده. لكنها أدركت عندما توقفت عند الفندق وفتح لها البواب الباب، أن هذه ليست امرأة جديدة في حياة ألكس. فلم يكن من الممكن أن يُدخل غريبة إلى المنزل لتمكث لأربعة أيام. لا بد من أنه قد أقام علاقة معها لوقت طويل، فشعرت فيث بالاشمئزاز عندما سألها موظف الاستقبال إن كانت تريد تسجيل اسمها للإقامة في الفندق، فقالت نعم.

لم تُرِد أن تواجه ألكس وتثير فضيحة. كانت ستمكث في الفندق، وتذهب إلى البيت عصر يوم السبت كما هو مخطط لها، وهذا يعني أن ألكس وتلك المرأة، أياً تكن، كانا سيمكثان معاً بحرية في منزلها. كل ما أرادت فعله هو أن تدخل غرفة الفندق، وتتقيأ.

طلبت غرفة. ومن حسن حظها أنها وجدت غرفة شاغرة لأنها لم تكن قد حجزت مسبقاً. وأخبرتهم أنها تريد الإقامة لليلة واحدة أو طوال عطلة نهاية الأسبوع على الأكثر. سجلوا اسمها، وسلموها مفتاحاً، وحمل أحد الحمالين أغراضها إلى الطابق العلوي. تشبثت بجهاز الكمبيوتر وكأنه كنز ثمين يصلها بالعالم الحقيقي. لكنها لم تصله بالتيار الكهربائي عندما وصلت إلى الطابق العلوي. قامت بمجرد الجلوس على السرير وهي تنتحب. كان الظلام قد هبط بحلول الوقت الذي توقفت فيه عن البكاء. لم تعرف الوقت، وعندما نظرت بشكل خاطف إلى الساعة، رأت أنها تشير إلى السادسة. لم تستطع حتى أن تتصل بزوي لتخبرها. لم تعتقد أنه من الإنصاف أن تحرّضها ضد ألكس. بل توجب عليها أن تحل تلك المسألة بمفردها. لم تبدُ لها مسألة مستحيلة. لكن بدا من الواضح لها أنه على علاقة غرامية بامرأة أخرى. بعد كل بروده معها وكل غضبه واتهاماته

بسبب عودتها إلى الكلية، وكل القسوة الباردة التي أظهرها لها لوقت طويل، وكل الصمت والفتور واللامبالاة التي عاملها بها كامرأة، كان على علاقة بامرأة أخرى، والأسوأ من كل شيء هو أنها شعرت أنها محطمة وليست غاضبة. بدأت تتساءل إن كان قد توجب عليها أن تبقى في البيت وتواجههما، ولكنها لم تشعر أنها قادرة على ذلك، واحتاجت إلى بعض الوقت كي تستجمع قواها وتفكّر في ما ينبغي عليها فعله.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة عندما اتصلت ببراد. أرادت أن تناقش المسألة معه بهدوء وأن تحظى بنصيحته الأخوية بالضبط كما كانت لتتصل بجاك لو أنه على قيد الحياة. علمت من براد أن بام قد أقامت عدة علاقات وأنه تورط بعلاقة مرة واحدة. توقعت منه أن يكون أكثر هدوءاً وواقعية منها بشأن هذا الموضوع. لكنها حالما سمعت صوته، بدأت تبكي، ولم تستطع حتى أن تصوغ الكلمات. أخذت تنتحب بشكل خارج عن السيطرة. فلم يعرف من المتّصل لبعض الوقت. لم يكن من المعتاد بالنسبة إليه أن يتلقى مكالمات هستيرية من زبائن محتملين أو من ذويهم. للحظة اعتقد أنها إحداهم، ثم أدرك برعب أنها فيث.

"فرد؟... يا للهول... يا الله، ما الأمر؟... هيا، يا عزيزتي... تحدثي إليّ... أخبريني بما حدث..."، وخشي أن يكون مكروه قد حدث لإحدى ابنتيها. ثم قال: "عزيزتي فرد... من فضلك... حاولي أن تهدأي... خذي نفساً... أخبريني بما حدث... هل تعرضت للأذى؟... هل أنت على ما يرام؟... أين أنت؟". بدأ يصبح يائساً أكثر في تلك اللحظة. ولم يصبح كلامها منطقياً بعد.

فصاحت قائلة: "إنني في نيويورك". ثم تلاشى صوتها في النحيب ثانية.

"هيا الآن، حاولي أن تخبريني بما حدث. هل تعرضت للأذى؟".

"كلا... ولكنني أتمنى لو أنني مت..."، بدت كفتاة صغيرة. كل ما استطاع أن يتخيله هو الفتاة الصغيرة ذات الأعوام الثمانية التي عرفها

وأحبها قبل وقت طويل بضفائرها الشقراء وفمها الخالي من الأسنان عندما التقاها للمرة الأولى.

"هل الفتاتان على ما يرام؟"، كان هذا أسوأ مخاوفه وما يخافه الآباء أكثر من كل شيء آخر. فدعا ألا يكون ذلك هو ما حدث.

"نعم... أعتقد ذلك... ليس الأمر يتعلق بهما... بل بألكس..."، استمرت في البكاء، ولكنها استطاعت أن تصوغ الكلمات الآن. شعر براد بالراحة لما سمعه حتى الآن باستثناء أنها بدت مستاءة بشدة. تساءل إن تعرض ألكس لحادث أو لنوبة قلبية وتوفي.

"هل تعرض للأذى؟".

"كلا، بل أنا. إنه شخص وضيع". أدرك براد فجأة أنهما لا بد من أنهما قد تشاجرا، وليس الوضع سيئاً بقدر ما خشي. لكن لا بد من أنه كان وضعاً مريعاً لتؤول إلى حالة كتلك. فهو لم يسمعها تتحدث بهذه الطريقة قط. تساءل إن كان قد ضربها. ففكر براد بغضب أنه سيعتقله بنفسه، إن هو فعل ذلك.

"لقد اعتقدت أنك في واشنطن. ماذا تفعلين في نيويورك؟"، علم أنها لم تكن ستعود حتى اليوم التالي.

"لقد مرضت أم الأستاذة فتوجب عليها أن تغادر. هكذا عدت إلى البيت باكراً". كانت لا تزال تبكي، ولكن كلامها أصبح مترابطاً بما يكفي لتتحدث إليه على الأقل. وشعر بالفزع عليها.

"ثم ماذا؟"، وقد تشوق ليسمع منها ما حدث.

"ذهبت إلى البيت".

"هل تشاجرت معه؟"، أشار براد لسكرتيرته لتبتعد عن مكتبه، وكانت تشير إليه أن لديه ثلاث مكالمات تنتظره، ولكنه لم يكترث لذلك. فقد أراد أن يتحدث إلى فيث من دون مقاطعة. توجب على الآخرين جميعاً أن ينتظروا أو يذهبوا إلى الجحيم. فأولويته هي فيث.

"كلا، لقد وجدت المنزل فارغاً". فجأة استبد به فزع حقيقي. فربما يكون متطفل ما قد اعتدى عليها.

"ماذا حدث؟ يجب عليك أن تخبريني فرد". بدأت تثير جنونه. فهو لا يستطيع أن يساعدها إن لم يعرف ما الذي جعلها على تلك الحالة.

قالت وهي تمسح دموعها بمنديل من الصندوق الذي بجانب السرير: "لقد أحضر امرأة إلى البيت".

صُدم براد وقال: "أوجدتها هناك عندما وصلت إلى المنزل". لم يبدُ ألكس من ذلك النوع، بناء على ما قالته له.

"كلا، بل وجدت ثيابها هناك. كان هناك زوج من الأحذية في المطبخ وملابسها في خزانتي وأغراضها في كل أنحاء الحمام وملابسها على سريري. إنه على علاقة بها!"، بدا الوضع كذلك بالنسبة إلى براد بالتأكيد. فلم تكن هناك تفسيرات أخرى لما رأته. ثم قالت: "إن هذا مثير للاشمئزاز". وتلاشى صوتها في الدموع مرة أخرى، ولم يسعه إلا أن يبتسم تعاطفاً معها. يا للطفلة المسكينة!.

"يا طفلتي المسكينة! أتمنى لو أنني معك. أين أنت، بالمناسبة؟"، فقد بدا من الواضح أنها قد ذهبت إلى مكان ما لتتصل به. إذ إنه لم يستطع أن يتخيلها جالسة في المنزل بانتظارهما ليعودا إلى البيت.

"إنني في فندق كارليل. فقد استأجرت غرفة لأمضي عطلة نهاية الأسبوع. ولا أعرف ماذا أفعل. أتعتقد أنه ينبغي عليّ أن أعود إلى البيت وأطردها؟".

"لا أعتقد أن هذه فكرة عظيمة جداً. أولاً، يجب عليك أن تهدأي. ثم يجب عليك أن تكتشفي ما تفعلينه. هل تريدين أن تطلبي الطلاق منه؟ أن تتركيه؟ هل تريدين حتى أن تخبريه أنك تعرفين الحقيقة؟ إن لم تفعلي شيئاً، فربما سينتهي كل ذلك وحسب". كان هذا هو ما فعله مع بام، رغبة منه بإنقاذ زواجهما. لكنها كانت من الذكاء بما فيه الكفاية بحيث إنها لم تحضر أحداً إلى البيت على الأقل. اعتقد أن ألكس قد ارتكب عملاً غبياً جداً.

قالت فيث وهي تبدو ذاهلة: "ماذا إن كان جاداً حيالها؟".

"عندئذ، فأنت في مشكلة كبيرة". لكنهما أيقنا أنها في مشكلة على أي حال. فقد ظل زواجهما تعيساً لسنوات، وقضى ألكس لتوه على أي مودة بينهما وعلى أي احترام تكنه له. إذ إنه فطر قلبها بما فعله. شعرت وكأن حافلة قد صدمتها. ثم طرأت فكرة لبراد، فقال: "أتريدين أن آتي إليك بالطائرة؟ فيمكننا أن نناقش المسألة قبل أن تعودي إلى البيت، ويمكنني أن أستقل رحلة متواصلة وأعود غداً ليلاً، إن أردت هذا".

"كلا... لا بأس... فيجب عليّ أن أكتشف حقيقة الأمر... وما سأفعله". تساءلت عما كان جاك ليقوله، وقد خالجها شعور أن براد قال الشيء نفسه. فقد كانا متشابهين جداً في وجهات نظرهما.

"أعتقد أنه يجب عليك فعلاً أن تكتشفي ما تريدينه قبل أن تواجهيه. أنت تمسكين بزمام الأمور الآن فرد". لم تفكر في الأمر من هذه الناحية، ولكنها لم تكن مقتنعة.

"ربما لا يكون هذا صحيحاً إن كان مغرماً بها".

"وإن لم يكن كذلك؟ هل تريدين أن تبقي متزوجة به؟ أيمكنك أن تسامحيه على هذا؟ إن الكثيرين من الناس يفعلون ذلك، لذا، لا تشعري بالإحراج إن كنت تريدين أن تنسي الأمر. فهذه الأمور تنقضي في نهاية المطاف، معظم الأوقات على الأقل، كمجرد مشكلة عابرة عادة". كره ما فعله ألكس بها على أي حال، ولكنه حاول أن يتعامل معها بإنصاف وألا يثير استياءها أكثر مما هي مستاءة أصلاً. سبق وسامح أناس آخرون أزواجهم على علاقات تورطوا بها. فقد سامح هو بام وسامحته هي. كان هذا يعتمد على وجهة نظر فيث.

"كيف أمكنه أن يفعل هذا بي؟"، عانت من رد فعل نموذجي بالنسبة إلى أي شخص في مثل موقفها.

"إنه غبي على الأرجح، أو سئم من زواجه، أو أن غروره قد احتاج إلى ما يعززه، أو شعر أنه يتقدم في السن. ولديه كل الأسباب الغبية نفسها التي يملكها كل شخص آخر يقدم على ذلك النوع من الأمور. في معظم الأوقات، ليس هذا حباً حقيقياً، ولكنه مجرد رغبة عابرة".

"عظيم. إنه لا ينظر إليّ إطلاقاً، ويقيم علاقة مع امرأة ذات شعر أسود طويل". تذكرت شعرها في المغسلة. فابتسم براد. وتمنى لو استطاع أن يعانقها. فقد بدت بأمس الحاجة إلى ذلك. ثم قالت: "إنها ربما صغيرة السن فعلاً".

"أستطيع أن أضمن لك أمراً واحداً، يا عزيزتي، وهو أنك أجمل منها. ولا يهم إن كانت لها لحية أو كانت تضع شعراً مستعاراً. فهو على الأرجح يستمتع بوقته في أثناء غيابك".

"في غضون ذلك، يتصرف وكأنني ارتكبت جريمة لأنني عدت إلى الكلية. عانيت الأمرين لشهر كامل كي أعوض عليه. وهذه ربما هي فكرته عن الانتقام".

"إنني واثق تقريباً أن لا علاقة لهذا بك، بل به هو. انسي أمره. دعينا نقلق بشأنك أنت. ما رأيك أن تغسلي وجهك، وتطلبي فنجاناً من الشاي من خدمة الغرف أو ربما شراباً؟ سأتصل بك بعد نصف ساعة لنحاول أن نحل هذه المسألة. كل ما أريده هو أن أساعدك على أن تقرري ما تريدينه. وما أعتقده أنا هو أمر غير متصل بالموضوع".

"لكن ما رأيك أنت؟"، وقد أرادت فعلاً أن تعرف رأيه.

قال محاولاً أن يحافظ على رباطة جأشه: "رأيي أنا؟ إنني أعتقد أنه وضيع تماماً وحقير ومثير للشفقة، ولكن ليس فقط بسبب هذا. فهو يهينك بشكل مستمر، بطريقة أو بأخرى، وهو يمنعك من التصرف بأي شكل من الأشكال، وأنت وحيدة طوال الوقت. الآن يرتكب حماقة كهذه. إن طلبت رأيي الشخصي، فأنا أعتقد أنه يجب أن يردى قتيلاً. لكن إن كنت تريدين أن تبقي متزوجة به، فأنا أدعمك مئة بالمئة لا لأنني أحبه، بل لأنك أنت من تحبينه، وأنا لست متزوجاً به بل أنت". احترم زواجها ورغبتها بالبقاء متزوجة بقدر ما احترم زواجه بالرغم من أنه تمنى لو أنها تركت ألكس قبل سنوات عدة، من أجل مصلحتها.

"لست واثقة مما أشعر به تجاهه بعد الآن. ففي هذه اللحظة، أكرهه وأشعر أنني مهانة وغبية وغير محبوبة. ولا أعرف إن أنا أحبه أم لا.

اعتقدت فقط أنني سأبقى متزوجة به دائماً، والآن لست واثقة تماماً". فقد انفتح باب أخافها كثيراً. شعرت أنها تفتقر إلى الأمان.

"حسناً، لا تتخذي أي قرارات متهورة حتى تكتشفي حقيقة الأمر. سأتصل بك في غضون نصف ساعة". وقد وردته إحدى عشرة رسالة هاتفية طارئة بحلول ذلك الوقت. فأجاب عن سبع منها، وطلب من السكرتيرة أن تهتم بالباقي. بلغت الساعة السادسة بحسب التوقيت المحليّ عنده بحلول ذلك الوقت. وعلم لحسن الحظ أن بام كانت ستخرج مع بعض أصدقائها.

طلبت فيث إبريقاً من الشاي، ورشت بعض الماء البارد على وجهها. ثم اتصل بها براد، ولكن لم تكن لديها أي فكرة عما ستفعله بشأن ألكس. جعلها مجرد التفكير في وجوده في منزلهما تلك الليلة بصحبة تلك المرأة الأخرى تشعر بالغثيان.

سألها بتعاطف: "كيف حالك الآن؟".

"لا أعرف. إنني أشعر بشعور غريب". بدا صوتها موحياً بذلك، وكأنها منهارة ومتعبة.

"كيف تشعرين؟"، ساوره قلق فجأة من أن تكون قد أخذت بعض الحبوب أو اقترفت أي مكروه آخر بحق نفسها، ولكنها كانت أكثر عقلانية من ذلك.

"أشعر بالغرابة فقط، وأنني تحررت من وهم كبير، وأنني خُدِعت وتعرضت للخيانة، وأن شعوري مخدر، وأنني حزينة". لم تستطع أن تفكر في أي صفات أخرى، ولكنه شعر بالراحة.

"هذا النوع من المشاعر طبيعي. فينبغي عليك أن تشعري بذلك. كنت أفكر في هذا الأمر، يا فرد. أعتقد أنه ينبغي عليك على الأرجح أن تحيطيه علماً بما تعرفينه. فإن لم تفعلي ذلك، فسيسممك هذا. دعيه يكتشف كيف سينهي هذه المسألة، ولكن لا تفعلي أي شيء لا تريدين فعله. فأنا أخبرك برأيي فقط".

"أعتقد أنك قد تكون على حق. وأنا لا أعرف حتى كيف أخبره بما رأيته".

"هذا هو الجزء السهل من الموضوع. فهو يعلم، وهذا ليس أمراً جديداً عليه، بل عليك أنت فقط".

"أعتقد أن هذا صحيح".

قال لها بنبرة شريرة: "والخبر الجديد عليه هنا هو أنك تعلمين بأمره. وبالطبع يمكنك أن تتصلي به الليلة، وأن تتسببي له بنوبة قلبية، وتخبريه أنك تراقبين المنزل. يجدر بهذا أن يسبب له صدمة".

"إنه لا يجيب على الهاتف". حاولت الاتصال به طوال الأسبوع.

"حسناً، إن هذا تصرف ينمّ عن الذكاء على الأقل. وهو على الأرجح سيتصف بعدائية تماماً عندما يعرف أنك تعلمين بأمره حينما تخبرينه. فالرجال لا يحبون أن يتم القبض عليهم. وبطريقة أو بأخرى، سيحاول أن يجعل الأمر يبدو غلطتك".

"كيف؟".

"سيقول إنك أهملت شأنه، ولم تعودي تحبينه بعد الآن، وأنه اعتقد أنك على علاقة غرامية برجل آخر. بالرغم من أن هذا من غير المحتمل فسيتهمك به". لطالما كانت امرأة نظيفة السمعة، واعتقدت أن ألكس يعلم هذا أيضاً. ثم قال براد: "ربما سيقول إن هذا قد حدث لأنك عدت إلى الكلية. ومهما يكن السبب، فسيحاول أن يلقي باللائمة عليك كي يُحل نفسه من تبعة عمله".

"هل تعتقد أنه جاد حيال هذه الفتاة؟"، بدت فيث مرعوبة من هذه الفكرة وكأنها خائفة من أن يطردها من منزلهما. لم تستطع أن تتخيل حتى ما ستفعله عندئذ. لكن براد أيقن أن هذا لا يمكن أن يحدث لها. وإن توجب على أحد أن يغادر المنزل، فسيكون هو.

"من الصعب معرفة هذا. وهو على الأرجح ليس صحيحاً. فأغلب ظني هو أنها مجرد فتاة وضيعة. إنني آسف لأنني أتحدث بهذه الفظاظة. وقد تكون حتى إحدى فتيات الشوارع".

"إنني لا أتخيله يفعل ذلك، يا براد". لكن ملابسها بدت مناسبة لهذا بالتأكيد، بالرغم من أن الكثير من الفتيات يرتدين ملابس مشابهة في هذه الأيام، حتى ابنتا فيث. ثم قالت: "لا أعتقد أن هذا من شيمه".

"إنك لا تعرفين قط. إنني أكره أن أفكر فيك وأنت جالسة في تلك الغرفة وأنت تقلقين بشأن هذا طوال الليل. لا أعتقد أنك ستنالين قسطاً كافياً من النوم".

"ربما سأنهض في الصباح وأذهب إلى دار العبادة. إن المسبحة التي أهديتني إياها بحوزتي الآن". كانت تحتاج إلى ما هو أكثر من المسبحة الآن. تحتاج إلى ذهنٍ صافٍ، وربما إلى محامٍ بارع. فتمنى براد لو أنه موجود معها.

"يجب عليك أن تفكري في هذا بهدوء، يا فرد. اكتشفي ما تريدين أن تفعليه قبل أن تخطي أي خطوة".

"أعتقد أنني أريد أن أعرف ما يجري ومن هي وما تعنيه له. أريد أن أعرف الحقيقة".

"إن هو منحك إياها، فهو لا يبدو لي من هذا النوع. أعتقد أنه سيبذل كل ما في وسعه كي يتهمك أنت، ثم سيطردك كي يحمي نفسه". كان براد يعرف نوعيته جيداً. إذ إنه شاهد الكثير من أمثاله في سنوات حياته من بين الموكلين والأصدقاء والزملاء. وقد اقترف بعض الأخطاء، بالرغم من أن واحدة منها ليست على هذا القدر من الحماقة.

وافقته فيث قائلة: "أعتقد أنك على حق. شكراً لإصغائك إليّ. آسفة أنني في هذه الحالة من الفوضى". لكنها بدت أفضل بكثير مما بدت عليه عندما اتصلت به أول الأمر. فقد اعتقد أن أحداً قد مات.

"لقد أخفتني بشدة. فقد اعتقدت أن مكروهاً ما قد حدث معك أو مع الفتاتين. هذا وضع سيئ جداً، ولكن الجميع على قيد الحياة على الأقل".

قالت وهي تبدو محبطة: "لست واثقة جداً أنني كذلك".

"ستصبحين كذلك حالما تحلّين هذه المسألة". تجاوزت الساعة السابعة في سان فرانسيسكو والعاشرة في نيويورك بحلول ذلك الوقت. ثم قال براد: "أعتقد أنه ينبغي عليك أن تأخذي حماماً، وتذهبي للنوم. سأذهب أنا مباشرة إلى البيت. إن احتجتِ إليّ، فاتصلي بي. يمكنك الاتصال بي في أي وقت. فأنا هنا من أجلك، يا فرِد. أتمنى فقط لو أن هناك ما أستطيع أن أفعله أكثر من هذا".

قالت وهي تبدو حزينة جداً: "لقد فعلت كل شيء باستطاعتك فعله. فعلت ما كان جاك ليفعله. فكل ما في وسعك أن تقوم به هو أن تتحدث إليّ، وفعلت ذلك. يجب عليّ أن أكتشف حقيقة هذا بنفسي".

"ستفعلين هذا، يا فرِد. أنا واثق أنك ستقومين بالصواب".

"ماذا سأقول للفتاتين إن انفصلنا بسبب هذا؟ لا أعتقد أنه ينبغي عليهما أن تعرفا على الإطلاق".

"لمَ لا؟ إنك لم ترتكبي أي خطأ. بل هو من فعل ذلك. يجب عليه أن يواجه عواقب تصرفه الغبي. ليس من واجبك أن تحفظي السر من أجله. فأنت لا تدينين له بهذا، يا فرِد".

"إن زوي ستكرهه بسبب هذا". كانت إيلي ستجد له عذراً ما.

فقال براد بلهجة عملية: "إنها لا تحبه على أي حال. ولست واثقاً تماماً أنها مخطئة. فهو لم يقم بدور الأب بالنسبة إليها أو الزوج بالنسبة إليك، مما يمكنني أن ألاحظه".

فاعترفت فيث قائلة: "لم يكن دوراً عظيماً، ولكن هذه هي حقيقته". أعاد ذلك ذهنه إلى المحادثة التي أجرياها في الليلة التي تناولا فيها العشاء معاً عن التسويات التي يقبل بها المرء ليحافظ على زواجه عندما تؤول الأمور إلى حال لم يتمناها. تساءل إن كان الوضع يستحق أن تبقى متزوجة بألكس حتى النهاية وأن تدفع ثمن الحفاظ على السلام. لم يأمل أن تفعل ذلك، ولكنه لم يود أن يؤثر في قرارها. فهو لم يكن يملك الحق في ذلك لأنه فعل الشيء نفسه مع بام، وغض الطرف عن علاقاتها لسنوات.

فقد بدا الوضع أسهل بتلك الطريقة، بالنسبة إليه على الأقل. لكنه اعتقد أن فيث تستحق فرصة أفضل، وكذلك هو، ولكنه فضّل ألا يثير المشاكل وأن يحافظ على الوضع الراهن.

"تبدين منهكة. حاولي أن تنالي قسطاً من النوم". أيقن أنه لم يكن سيغمض لها جفن طوال الليل، وكذلك فعلت هي. لكنه اعتقد أنه ينبغي عليها أن تحاول النوم. ثم قال: "لمَ لا تطلبين جلسة تدليك؟ إنهم على الأرجح يعرفون شخصاً يمكنه أن يأتي في مثل هذه الساعة".

"سأستحم فقط". لم تكن معتادة على تدليل نفسها، بل على تدليل الآخرين فقط. كانت هذه عادتها منذ سنوات.

"اتصلي بي في البيت، إن أردت ذلك. فسأصل إلى هناك في غضون عشر دقائق".

"شكراً لك، يا براد... أحبك، يا أخي الأكبر...". لقد أحبته فعلاً.

"أنا أيضاً أحبك، يا صغيرتي. ستخرجين من هذه الفوضى... بطريقة أو بأخرى. فالمشكلة ستحل نفسها بنفسها. وسترين".

قالت وهي تبدو خائرة القوى: "نعم، ربما يحدث هذا". لكنها لم تبدُ مقتنعة، وكذلك هو. فقد كان ألكس شخصاً لا يمكن توقع تصرفاته، ومن الصعب معرفة ردّ فعله، إن واجهته فيث بالحقيقة. اعتقد براد وهو يقود سيارته في طريق العودة إلى البيت أنه سيكون رد فعل سيئاً. وود أن يبرحه ضرباً لما اقترفه في حق فيث لتوه. فكان هذا الضرب سيحتسب نقطة في مصلحة فريق فيث.

* * *

الفصل الخامس عشر

تقلّبت فيث على فراشها طوال الليل. أخيراً، غفت قرابة الساعة الرابعة فجراً واستيقظت مرة أخرى عند الساعة السادسة. نهضت وراقبت الشمس وهي تشرق. كان يوماً مشمساً جميلاً، ولكن شعورها لم يكن أسوأ من ذلك قط. فكل ما استطاعت أن تفكر فيه هو ألكس والمرأة ذات الشعر الأسود الطويل وهما نائمان بعمق في سريرها. ولم تكن واثقة أنها ستتمكن على الإطلاق من أن تنام فيه مرة أخرى.

طلبت إبريقاً من القهوة السوداء عند الساعة السابعة، وارتدت كنزة وسروال جينز. ثم ذهبت إلى دار العبادة سانت جين في شارع ليكسنغتون أفنيو، وحملت مسبحة براد في يديها، ولكنها لم تستطع أن تركز بما يكفي. فقامت بمجرد الركوع على ركبتيها والتحديق إلى الفضاء. وعندما انتهى الاحتفال الديني، عادت إلى الفندق. ولم تعرف ما تفعله طوال اليوم. لم يكن يفترض بها العودة إلى البيت قبل الساعة الرابعة أو الخامسة. وقد خشيت أن تذهب لتتمشى أو أن تغادر الفندق لأنها قد تلتقيهما صدفة.

اتصل بها براد عندما نهض، وكانت الساعة لديها تشير إلى الحادية عشرة. وقد تملّكه القلق عليها ولكنها بدت على ما يرام. قالت إنها ستتصرف بحسب ما يقتضيه الوضع عندما تصل إلى البيت. فقد توجب عليها أن تعرف كيف ستشعر، وهذا ما اعتقد براد أنه تصرف منطقي.

ذكّرها قائلاً للمرة الأولى منذ اليوم الفائت: "لا تتقبلي منه أي هراء"، فابتسمت.

وردت قائلة: "لن أفعل هذا، أعدك".

"اتصلي بي عندما يتسنى لك ذلك". كان سيلعب كرة المضرب مع أحد أصدقائه. لقد وعد بام أن ينجز معها إحدى المهمات. فقد أرادت أن تشتري جهاز ستيريو جديداً من أجل غرفة المعيشة. وقال إنه سيرى بعض الأجهزة بصحبتها. كان يحمل هاتفه النقال، فطلب من فيث أن تستخدمه إن هي اتصلت بالبيت ووجدته خارجاً. إذ إنه أراد أن يكون متوفراً بشكل دائم من أجلها، ولم يكترث البتة لأي تعليقات تدلي بها بام. فقد وجد أنه من السهولة بمكان أن يفسر لها الحقيقة بالرغم من أنه لم يعتقد أنه سيفعل ذلك. فهو لم يفعل شيئاً ليشعر بالذنب بشأنه، وكذلك فيث. فقد كانت صداقتهما نقية تماماً وطاهرة كلياً، على عكس بعض صداقات بام. اعتقد أن بام قد تشعر بالأسى لفيث إن عرفت بشأنها. إذ إنها كانت تكره أن تتعرض النساء للاستغلال أو إساءة المعاملة، وكانت لتقول لها كيف تعاقب ألكس بشكل أفضل مما يستطيع براد قوله حتى. لكنه بذل ما في وسعه نيابة عنها.

عانت فيث من القلق طوال اليوم في غرفتها. عند الساعة الخامسة استدعت الحمال ليحمل حقائبها، وطلبت من البواب أن يستدعي لها سيارة أجرة. فقد كان بحوزتها أغراض كثيرة جداً بحيث لا تستطيع أن تمشي مسافة الشارعين إلى المنزل. دخلت المنزل بيد مرتجفة وهي تدير المفتاح في الباب. كانت الأنوار مضاءة في الردهة من دون أي دلالة على وجود ألكس. فافترضت أنه في الطابق العلوي. وضعت حقائبها على الأرض في الردهة، وصعدت ببطء إلى غرفتهما. وجدت السرير مرتباً وكل شيء آخر يبدو خالياً من العيوب. فاعتقدت أنه لا بد من أنه قد رتب السرير بنفسه. تساءلت إن كان قد تمتع باللياقة ليغير الملاءة، ولكنها لم تنظر إليها. ووجدته جالساً على كرسيه المفضل بجانب مدفأة غرفتهما وهو يقرأ كتاباً. بدا صورة للبراءة بحدّ ذاتها. لم يتفضل حتى بالنظر إليها وهي واقفة هناك تراقبه. للحظة، شعرت بموجة من الاشمئزاز والكراهية والأذى تغمرها. وتوجب عليها أن تكبح دموعها.

قال من دون أن ينظر إليها: "لقد تأخرت". لم تستطع أن تصدق مدى برود أعصابه. فلم تجبه. أخيراً نظر إليها بشكل خاطف. فهي لم تتحرك منذ دخلت الغرفة. فقال: "كيف كانت رحلتك؟".

لم تجب عن سؤاله، بل بادرت بسؤال آخر، فقالت: "كيف كان أسبوعك أنت؟"، لم يستطع أن يستطلع شيئاً من وجهها، ولم تستطع هي ذلك.

"طويلاً وصعباً. فقد توجب عليّ القيام بالكثير من العمل".

فقالت: "هذا لطيف". ثم جلست في الطرف المقابل له. وبينما هي تفعل ذلك، أيقنت أنه لا يسعها أن تستمر في التمثيلية. فقد توجب عليها أن تطلعه على الحقيقة كما عرفتها سواء أراد ذلك أم لا.

"ماذا فعلت في واشنطن؟"، لقد استطاع أن يلاحظ شيئاً في عينيها، ولكنه لم يعرف ما هو. فظل يتحدث إليها وهو يحاول أن يكتشف حقيقة الأمر.

"ماذا فعلت أنت في نيويورك؟".

قال لها وهو يبدو منزعجاً: "لقد قلتُ لك إنني عملت. ماذا تعتقدين أنني فعلت؟"، وكان على وشك أن يعود إلى قراءة كتابه، ولكنه توقف عند ما قالته.

"لست واثقة تماماً. لقد عدت إلى البيت البارحة، يا ألكس. إذ إننا انتهينا في وقت أبكر مما خططنا له".

قال وهو يبدو مصعوقاً: "ماذا تعنين بأنك عدتِ إلى البيت البارحة؟"، ولم يُبدِ أي اعتراف بالذنب.

"لقد مرضت والدة الأستاذة، وتوجب عليها أن تغادر، ولهذا عاد بعضنا إلى البيت. وصلت عند الساعة الثانية، وتوقفت لأشتري مواد البقالة. فقد اعتقدت أنني سأُعِدّ لك شيئاً تحبه فعلاً، وعدت إلى البيت... من التي كانت نائمة في سريري؟ أياً تكن، فقدماها كبيرتان بعض الشيء وشعرها أسود طويل". فشحب وجهه، ولكنها لم تتفوه بكلمة أخرى لوقت طويل.

قال لها بنبرة اتهام محاولاً أن يقلب الوضع عليها: "أين كنت منذ البارحة؟"، لقد حذرها براد من هذا، لذا استعدّت له. فلم تكن ستقبل منه أي شيء.

"لقد ذهبت إلى فندق كارليل حالما اكتشفت ما فعلته هنا. اعتقدت أن هذا سيوفر علينا الإحراج أمامها. ماذا يجري، يا ألكس؟ من هي؟ منذ متى وهذا يحدث؟"، لم تُبعِد عينيها عن عينيه أبداً. ولم يرها هو بهذا الشكل قط.

"هذا غير متصل بالموضوع". شكّت فيث في أنه كان لينكر وجودها لو استطاع ذلك. ولكن لم تكن هناك فرصة لحدوث هذا بعد كل شيء شاهدته. ثم قال لها: "لو لم تكوني تتجولين في الأنحاء متظاهرة أنك طفلة صغيرة تذهب إلى الكلية، لما كانت أمور كهذه لتحدث". بدا هذا بالضبط ما توقع براد أنه سيفعله. فقد حاول أن ينحى باللائمة عليها لكل شيء فعله.

"أيعني هذا أنك تتوقع مني عندما تذهب في رحلات عمل أن أفعل ما يحلو لي، وأن هذه غلطتك أنت؟ إن هذا هو الشيء نفسه تماماً".

"لا تكوني سخيفة. يجب عليّ أن أعمل لكسب رزقي. لم يتوجب عليك أن تعودي إلى الكلية".

"أتعتقد أن هذا يمنحك سبباً لتخونني؟ يا للروعة، إن هذه بالتأكيد طريقة منطقية للنظر إلى الموضوع".

"لقد قلت لك إنك تجازفين بالكثير عندما عدت إلى الكلية".

"لم أدرك أن خيانتك لي هي المجازفة التي عنيتها. إننا نراهن بمبالغ طائلة هنا، أليس كذلك؟"، لقد شعرت بالغضب، ولكنها مع ذلك لم تعرف ما تريده منه أو ما ستكون عليه النتيجة. فلم يتراجع أي منهما. وكان لا يزال يحاول أن يلومها. وبينما هي تنظر إليه، نهض عن كرسيه، وأخذ يخطو في أنحاء الغرفة.

"كل هذا غلطتك أنت، يا فيث". أخذ يتهمها من دون أن يرمش له رمش. لم تستطع أن تصدق ما سمعته. ثم قال: "لو لم تتصرفي بحماقة

بشأن العودة إلى الكلية، لما حدث هذا قط. فقد ألقيت بزواجنا عرض الحائط في اليوم الذي فعلت فيه هذا".

"كلا". أخذ الشرر يتطاير من عيني فيث، واستعدت لتتشاجر معه، فقالت: "لقد ألقيت بزواجنا عرض الحائط عندما أحضرت تلك الوضيعة إلى بيتي. كيف تجرؤ على أن تفعل شيئاً مماثلاً؟".

"كيف تجرئين أن تتحدثي إلي بهذه اللهجة! إنني لن أتحمل هذا منك، يا فيث". وأراد بهذا أن يطفئ النار بالنار.

"أنت لن تتحمل هذا؟! كيف تعتقد أنني شعرت عندما عدت إلى البيت ووجدت ملابسها على سريري وشعرها في مغسلتي؟". لم يكن هناك ما في وسعه أن يقوله رداً على هذا، ولكن فيث لم تستعد لما كان سيقوله تالياً. فهو لم يبدُ راغباً أن يدع فيث تحظى بسيطرة أكبر على الموقف.

فقال: "سأنتقل من المنزل". دخل إلى حمامه، وأغلق الباب بعنف. استطاعت أن تسمعه وهو يلطم ويضرب الأشياء في غرفة ملابسه. بعد عشرين دقيقة، وبينما هي جالسة على أحد الكراسي وتبدو مصعوقة، خرج وهو يحمل حقيبة سفر. لم تقل له كلمة واحدة. فلم تستطع حتى أن تفكر في ما تقوله.

ثم قالت وهي تبدو محطّمة: "إلى أين أنت ذاهب؟"، فقد بدا هذا كابوساً يتحقق. فجأةً بدأت تتساءل إن كانت الغلطة غلطتها هي، وإن كانت قاسية عليه فوق الحد، وهي الملامة لأنها عادت إلى الكلية. فلم تعد تعرف ما هو صحيح بعد الآن.

"سأقيم في فندق في الوقت الحاضر. ويمكنك أن تتصلي بي في المكتب إن أردت التحدث إليّ". لقد أرادت أن تقول له إن محاميها سيفعل ذلك، ولكنها لم تُرد أن تتهور، كي تكون لها الكلمة الأخيرة فقط. ولم تعرف حتى إن هي ستحتاج محامياً، ولم ترد أن تسأله عن ذلك.

سألت فيث بنبرة مثيرة للشفقة: "هل أنت مغرم بها، يا ألكس؟"، لقد علمت أنها ستكره أن تسمع ذلك منه إن كان صحيحاً، ولكنها أرادت أن تعرف الحقيقة.

قال لها بقسوة: "ليس من شأنك إن أنا مغرم بها أم لا". لم يعتذر لها لمرة واحدة منذ واجهته.

قالت فيث وهي تبدو أكثر هدوءاً مما هي عليه: "أعتقد أن لي الحق في معرفة ذلك. من هي؟". كان هناك الكثير مما أرادت أن تعرفه.

"لقد خسرت حقوقك في هذا الزواج، يا فيث، عندما تجاهلت زواجنا وعدت إلى الكلية". بدا ذلك قولاً سخيفاً ليتفوه به، وحتى فيث عرفت ذلك. فقد أخذ يتحدث بحقد وقسوة.

"أتقول لي إن هذه هي أول مرة تخونني فيها، وكل هذا هو بسببي أنا؟".

"إنني لن أقول لك شيئاً. وستسمعين ما أريد قوله عندما أقرر ما أريد فعله". بدا تهديده لها أمراً لا يصدق. فقد قلب الوضع ضدها. كان سيخرج من المنزل، ولكنها هي من تعرضت للظلم. بدا ذلك واضحاً تماماً لها.

لم تتفوه بكلمة واحدة وهو ينزل بصخب إلى الطابق السفلي، ويرطم حقيبته على الجدار. بعد لحظة، سمعت الباب الأمامي يُغلق بعنف. لم تعرف منه أكثر مما عرفته عندما عادت إلى البيت. كل ما عرفته هو ما شاهدته في غرفة النوم في اليوم الفائت لا شيء أكثر. لم يكن ينوي أن يحيطها علماً بشيء. فمشت في أنحاء المنزل من دون هدف لبعض الوقت وهي تبدو مصعوقة. بعد نصف ساعة، اتصلت ببراد.

سألها بتعاطف قائلاً: "كيف حالك فرد؟"، لم تبدُ بحال جيدة، ولكنها لم تنتحب هذه المرة. بدا صوتها خافتاً جداً.

"لقد انتقل من المنزل".

"هل تمزحين؟".

"لقد قال إن الغلطة غلطتي أنا لأنني عدت إلى الكلية، وإنه ليس من شأني من تكون أو ما تعنيه تلك المرأة له".

"لقد قلت لك إنه سيلومك". لكن براد لم يتوقع منه أن ينتقل من المنزل. فقد حوصر كما يحاصر جرذ. كان ذلك الدفاع الوحيد الذي يملكه،

ألا وهو الهروب، وكان تصرفاً وضيعاً ليقوم به، كما قال لفيث. ثم قال: "أود أن أقول لك إنه من الأفضل لك أن ترحلي، ولكنني واثق من أنك لا تشعرين برغبة بذلك في الوقت الحاضر".

"إننا متزوجان منذ ستة وعشرين عاماً. بدأت أتساءل إن كنت حتى أعرفه".

"ربما اعتدت أن تعرفيه، يا فرد. فالأمور تتغير. لكننا لا نلاحظ ذلك دائماً أو نود أن نعترف بالأمر." لقد كان محقاً. فقد عزلها ألكس عن نفسه عاطفياً لسنوات، وآثرت ألا تلاحظ ذلك وأن تقوم بمجرد التعايش مع الأوضاع الراهنة. لكن عاجلاً أم آجلاً، كانت المشاكل القديمة ستظهر في حياتهما. ثم تبادرت إلى ذهنها فكرة مخيفة أخرى.

"ماذا سأقول للفتاتين؟".

"لا تقولي لهما شيئاً في الأيام القليلة التالية على الأقل؟ إنهما لن تعرفا إلى ما بعد مضي بعض الوقت، ما لم يخبرهما بنفسه، وهو على الأرجح لن يفعل ذلك. دعي الأمور تستقر. فربما سيعود إلى البيت مرة أخرى عندما يهدأ. ربما يكون اكتشافك للحقيقة قد وضعه في موقف لا يتحمله. قد يقوم بمجرد التسلل عائداً إن لم يفقد الكثير من ماء وجهه".

قالت فيث وهي تبدو متفائلة: "أتعتقد أنه سيفعل ذلك؟". هذا ما كاد أن يفطر قلب براد. فهو لم يود أن تدفن نفسها في الحياة مع رجل يعاملها بالطريقة التي يعاملها بها ألكس. أراد لها حياة أفضل، ولم يكن ذلك نيابة عن جاك فقط. إذ إنها استحقت أكثر بكثير مما منحها إيّاه ألكس.

"ربما يفعل ذلك. حاولي أن تهدئي من روعك وحسب. ربما ينبغي عليك أن تتصلي بمحامٍ غداً، فقط لتحمي نفسك. سأرى إن كان باستطاعتي أن أعثر لك على أحدهم في نيويورك. سأتصل ببعض أصدقائي الذين يعملون في قانون الأحوال الشخصية هنا، وأرى بمن يوصون. إنني آسف، يا فرد، فأنت لا تستحقين هذا الوضع. ليست الغلطة غلطتك. آمل أنك تدركين هذا".

"لست واثقة مما يجب أن أصدق". لم تعد واثقة كيف تشعر بعد الآن. فقد شعرت أنها ميتة.

انتقلت إلى غرفة زوي تلك الليلة. فهي لم تستطع أن تتحمل فكرة نومها في سريرها سواء أكان قد غير الملاءة أم لا. اتصل براد ليتفقدها في وقت متأخر من تلك الليلة، وعلّقت بام على ذلك عندما أقفل الهاتف. فهي لم تره مستاء هكذا منذ وقت طويل عندما أصيب أحد ولديهما بمرض خطير.

"ما الذي يجري؟"، كانت قد عادت لتوها من تناول العشاء مع بعض الأصدقاء، وبقي هو في المنزل ليقوم ببعض العمل كما زعم. لكنها أيقنت تمام اليقين أنه لم يرغب وحسب أن يخرج معها ومع أصدقائها.

"إنها صديقة في ورطة".

"لا بد من أنها مشكلة شائكة جداً بحيث تبدو هكذا. هل أعرفها؟".

"كلا، إن الأمر على ما يرام، وهي مجرد مشكلة عائلية". تساءلت بام إن كانت الصديقة هي فيث، ولكنها قررت ألا تسأله. فقد بدا براد مستاء جداً بحيث لا يمكن أن تستفسر منه. كانت ذكية بما فيه الكفاية في مثل تلك الأمور. فانسحبت.

بحلول ظهر اليوم التالي، أرسل إليها براد عبر البريد الإلكتروني اسم محامٍ في نيويورك. اتصلت به فيث، وتركت له رسالة. شعرت بالراحة عندما عاود الاتصال بها، فشرحت له ما حدث، وسألها المحامي إن هي تود أن تستخدم محققاً خاصاً ليروا إن كان بإمكانهم أن يكتشفوا هوية المرأة الأخرى. مما فاجأها كثيراً، فقد وافقت على هذا.

شعرت وكأنها تسبح تحت الماء طوال الأيام القليلة التالية. ذهبت إلى الكلية، وتحدثت إلى براد. ولكنها لم تسمع كلمة واحدة من ألكس. عاود المحامي الاتصال بها يوم الجمعة. صعقت لأن تسمع منه أنه عرف هوية المرأة. كانت امرأة مطلّقة في التاسعة والعشرين من عمرها ولديها طفلة وتعمل موظفة استقبال في شركة الاستثمار المصرفي التي يعمل فيها

ألكس. بحسب قول السكرتيرات اللواتي يعرفنها، كانت قد انتقلت من أتلانتا إلى نيويورك قبل عام، وأصبحت على علاقة بألكس طوال الأشهر العشرة المنصرمة. عشرة أشهر! ليس لهذا علاقة بعودتها إلى الكلية. فقد خانها لعام كامل تقريباً. بمجرد الإصغاء إلى المحامي، شعرت فيث بالاشمئزاز.

حددت موعداً لتذهب إلى مكتبه في الأسبوع التالي، وهي لا تملك فكرة عما يجب فعله. فلم تعرف إن كان يجب عليها أن تطلب الطلاق منه أو تطلب منه أن يعود إليها. لم يتحدثا طوال الأسبوع. فلم تعرف مدى جديته حيال تلك الفتاة. من دون أن تعرف شيئاً آخر لتفعله، اتصلت بألكس في المكتب عصر ذلك اليوم. شعرت بالراحة عندما تلقى مكالمتها. خشيت ألا يفعل ذلك، ولكنه بدا أبعد ما يكون عن السرور حين سمع صوتها.

اقترحت فيث عليه قائلة: "هل تود أن نجتمع ونتحدث؟"، حاولت ألا تبدو غاضبة بقدر ما هو شعورها في الواقع. صدمها ما قاله لها المحامي صباح ذلك اليوم، وكذلك فعل رد ألكس.

قال لها بجفاء: "ليس هناك ما يقال، يا فيث". فملأت الدموع عينيها مرة أخرى. أمضت أسبوعاً وهي تبكي، وخالجها الشعور نفسه عندما توفي جاك، ولكن ذلك كان أسوأ فقط. بدا هذا، بطريقته الخاصة، شبيهاً بالموت أيضاً. فقد أشعرها بفقدان الأمل والأحلام والثقة أو حتى زواجها.

"لا يمكننا أن نتجاهل هذا ببساطة، يا ألكس. يجب علينا أن نتحدث على الأقل". حاولت أن تبدو أكثر هدوءاً مما هي عليه، وذلك كي لا تخيفه.

قال: "ليس لدي شيء لأقوله لك". قال ذلك وكأن الذنب لا يزال ذنبها، فأخذت نفساً، وقامت بخطوة كانت لتخيف زوي وبراد. لكن ذلك كان كل ما استطاعت أن تفكر في فعله. في وجه نقده الذي لا ينتهي، لطالما شعرت أنه ينبغي عليها أن تبذل الجهد وتضحي مهما شعرت أن ذلك مجحف أو لا مبرر له. أخذت طفولتها تطاردها مرة أخرى وهي تحاول أن تكون الفتاة المثالية من دون أن تصل إلى المستوى المطلوب منها على أي حال.

"ماذا إن تخليت عن الكلية؟"، كانت هذه أقصى تضحية ممكنة، ولكنها أرادت أن تنقذ زواجها، وهذا كثير جداً لتتخلى عنه من دون أن تحاول أن تنقذه على الأقل. إن تكن تلك هي المشكلة بالنسبة إليه، إذاً، ربما ليس لديها خيار آخر. لم ترد أن تقايض زواجها الذي دام ستة وعشرين عاماً بشهادة في القانون.

فأجابها بصوت مكتوم: "لقد فات الأوان على هذا". شعرت فيث بالغرفة تدور حولها.

"هل أنت جاد؟ أتريد أن تتزوج هذه الفتاة؟"، كان ذلك هو السبب الوحيد الذي استطاعت أن تفكر فيه لعدم عودته. لطالما كانت زوجة صالحة له. وخطأها الوحيد، إن أراد أن يدعوه كذلك، هو أنها عادت إلى الكلية.

"لا يتعلق الأمر بهذه الفتاة، يا فيث، بل بك أنت".

"لماذا؟ ما الذي فعلته؟"، بدأت الدموع تسيل على خديها.

"إن زواجنا ميت منذ سنوات. أشعر أنني ميت عندما أتواجد معك". شعرت وكأن كلماته بمثابة صفعة على خدها، فقد بدت قاسية جداً. ثم قال: "إنني في الثانية والخمسين من عمري، وأريد حياة أفضل. لقد انتهت حياتنا معاً. كبرت ابنتانا، ولم تعودا بحاجة إلينا معاً". جعله ذلك يبدو وكأنه خطط له لسنوات. وقعت في فخه عندما عادت إلى الكلية. ما قاله لها مزق قلبها. إذ إنها مكثت معه بسبب إخلاصها واحترامها لزواجهما. وكل ما فعله هو أنه انتظر فرصة أخرى من دونها.

قالت بصوت متهدج: "إنني لم أدرك قط أنك تشعر هكذا".

"حسناً، هذا هو شعوري. إننا نستحق ما هو أفضل من هذه الحياة". وقد كان على حق، ولكن فيث لم تكن لتنتهز الفرصة على حسابه. فقد توفرت لديها كل النية في البقاء معه، مهما بدا الوضع صعباً. لم يتمتع هو بذلك النوع من الإخلاص لها. ثم قال ألكس: "لقد سبق واتصلت بمحام. ومن الأفضل لك أن تعثري على محام أيضاً". لم تخبره أنها قد سبق

وفعلت ذلك. أخذت هذه الكارثة تتطور بسرعة البرق. فودت لو أنها تصبح أبطأ على الأقل، واعتقدت أنه ارتكب خطأً جسيماً.

"ماذا ستقول للفتاتين؟"، استطاعت فقط أن تتخيل مدى التلفيق الذي سيضيفه إلى القصة وأنه سيجعل الغلطة تبدو غلطتها. لم تكن لديها النية في أن تطلعهما على القصة الدنيئة المتعلقة بالفتاة. لقد بدت مهينة كثيراً لها، ولكنها تفسر كل شيء. أيقنت أن إيلي كانت ستنحي باللائمة عليها، كما فعل والدها.

أجابها ألكس قائلاً: "سيتوجب علينا أن نحل هذه المشكلة. أوكلي محامياً، يا فيث. فأنا أريد الطلاق".

"يا الله". لم تستطع أن تصدّق أنها سمعت تلك الكلمات. ثم قالت: "كيف يسعك أن تفعل هذا، يا ألكس؟ ألا يعني لك زواجنا أي شيء؟".

"إنه لا يعني أكثر مما عنى لك عندما قررت أن تتخلي عن كونك زوجتي وتصبحي محامية".

"كيف يمكنك أن تقارن بين الحالتين؟"، فجأة أدركت جاذبية الفتاة الأخرى. فقد كانت أصغر من ألكس بثلاثة وعشرين عاماً، وتعمل موظفة استقبال، أي ليس في مهنة هامة، مما سيمكنه أن يتحكم بها بعد أن فقد قبضته على فيث. لم يسعه أن يسامحها على هذا.

"لا يتوجب عليّ أن أبرر لك أي شيء، يا فيث. فأنت من تسببت بهذا لنفسك". صدقته جزئياً، وفي الوقت نفسه أرادت أن تصرخ. إذ كان الوضع برمته مجحفاً. بعد لحظة واحدة أغلق الخط. لم يخبرها عن مكان مكوثه، وتساءلت فجأة إن كان يمكث عند الفتاة. فقد أصبح كل شيء ممكناً الآن. شعرت فيث وكأنها خسرت عالمها بأكمله في أسبوع واحد، وبدأت تبكي بصوت خافت عندما سمعت صوت الباب الأمامي يغلق. قفزت ولم تستطع أن تتخيل من أتى إلى أن سمعت صوت زوي.

"مرحباً، لقد عدت إلى البيت". كانت قد أتت إلى البيت على سبيل المفاجأة. فلم تعرف فيث ما تفعل أو كيف تفسر غياب ألكس عن البيت. ولم تكن مستعدة لأن تخبرها بأمر الطلاق، فلم تكن حتى قد استوعبت ذلك بعد.

كفكفت فيث دموعها بسرعة، وأسرعت نحو الردهة بابتسامة عريضة، ولكن مظهرها بدا مشوشاً، فلم تكن قد سرّحت شعرها طوال اليوم، وتشكلت هالات داكنة حول عينيها بسبب أرقها طوال الأسبوع.

قالت زوي: "مرحباً، يا أمي". وضعت حقيبتها على الأرض في الردهة الأمامية، ثم ألقت نظرة أخرى عن كثب إلى أمها بعينين قلقتين، وقالت: "هل أنت مريضة؟".

"لقد أصبت بالأنفلونزا وقد أثرت في معدتي. لقد عانيت من شعور مريع طوال الأسبوع".

قالت زوي بتعاطف: "هذا مؤسف. يبدو من صوتك وكأنك تعانين من البرد أيضاً".

فوافقتها فيث بسرعة قائلة: "هذا صحيح". في الحقيقة، كان مظهرها سيئاً بقدر شعورها. وبدا عليها وكأنها ستعاني كثيراً من محاولتها إخفاء الحقيقة عن زوي طوال عطلة نهاية الأسبوع، ولكنها شعرت أيضاً بالراحة لوجودها هناك. فقد منحها ذلك شيئاً لتتشبث به ولتؤكد فيه على حقيقتها بعد أن بدأت حياتها برمّتها تتحول إلى حلم مزعج.

سألتها زوي وهي تتفقد الثلاجة: "أين والدي؟"، فبالكاد كان هناك طعام. إذ إن فيث لم تتسوق أو تطهو أي طعام طوال الأسبوع.

"إنه خارج المدينة. فقد ذهب إلى فلوريدا". ذلك أول مكان خطر ببالها. فأومأت زوي برأسها. بدت القصة معقولة بالنسبة إليها. إذ اعتاد والدها أن يسافر كثيراً.

"إننا بحاجة إلى بعض مواد البقالة. آسفة أنني لم أتصل بك. فقد اعتقدت أنه سيكون من الممتع أن أفاجئك. وأنا آسفة أنك مريضة". التفتت إلى أمها مبتسمة.

"سأكون على ما يرام". فأومأت زوي برأسها. لم تفكر في الموضوع كثيراً. ثم فوجئت لأن ترى قميص نوم أمها في غرفتها وسريرها غير مرتب عندما صعدتا إلى الطابق العلوي.

فقالت وهي تبدو مندهشة: "من كان نائماً في غرفتي؟".

"لــم أود أن أوقــظ والــدك بسبب مرضي، لهذا نمت هنا. آسفة، يا عزيزتي، سأرتب السرير في الحال".

"لقــد اعــتقدت أنــك قلت إن والدي غائب عن المنزل". راود الشك زوي. فقد بدا من الواضح أن هناك خطباً ما، وتساءلت إن كان والداها قد تشاجرا.

"إنه كذلك، ولكنه غادر اليوم فقط. سأعاود الانتقال إلى غرفتنا الليلة". لكــن الغرفة الصفراء الكبيرة الجميلة، المفروشة بقماش مزركش أصبحت أشــبه بحفــرة من الجحيم في نظرها الآن. لم تستطع أن تتخيل نفسها تنام فيها مرة أخرى.

"كــيف حــدث أنه غادر في عطلة نهاية الأسبوع؟"، لم يكن هذا من عادته.

"أعــتقد أنه قد خشي ألا يصل. فهم يتوقعون عاصفة ثلجية كبيرة في شيكاغو في نهاية الأسبوع. لديه اجتماع مهم جداً، ولهذا غادر مبكراً ليتأكد من وصوله في الوقت المحدد".

"يــا أمــي!"، جلــست زوي على طرف سريرها، وجذبت أمها إلى جانــبها. طــوال ســنوات حياتها الثماني عشرة، لم ترَ أمها في حالة من الارتباك والحيرة كهذه، ولا حتى عندما تحطمت طائرة أخيها جاك. كانت زوي في الخامسة عشرة عندئذ، وتذكرت الحادثة جيداً. فقد بدت أمها ذاهلة ومشوشة كلياً. ثم قالت زوي: "لقد قلت إنه ذهب إلى فلوريدا. ماذا يحدث، يا أمي؟ ما الخطب؟".

فأصــرت فــيث قائلــة: "لا شيء". ثم بدأت تبكي. لقد مضى عليها الأسبوع وكأنه جحيم. بدأت تتهاوى، ولم ترد أن تخبر زوي أي شيء بعد.

"قولي لي الحقيقة، يا أمي. أين والدي؟".

أيقــنت أن علــيها أن تقــول شيئاً ما، إن لم تود أن تصرّح بالحقيقة كاملــة. فقالــت: "لقد تشاجرنا قليلاً. ليس هذا على قدر من الأهمية، وأنا

مستاءة فقط. هذا كل ما في الأمر. ليست مسألة مهمة". لكنها كانت كذلك، وأيقــنت أن عليها أن تخبر زوي الحقيقة إلى حدٍّ ما. فقد كرهت أن تكذب عليها. فاعترفت قائلة: "حسناً، لقد تشاجرنا شجاراً عنيفاً جداً". أخذت تمسح دموعها بينما ظلت زوي تحيط أمها بذراعيها بقوة. فلطالما تعاطفت معها.

"إلى أي حدٍّ هو عنيف؟".

"عنيف جداً. فقد غادر المنزل".

"تــرك المنزل؟"، بدت زوي مصدومة. فجأة سرّها أنها أتت إلى البيت. فقد بدت والدتها في حالة سيئة جداً. ثم قالت: "هل انتقل من المنزل؟".

"نعم". توجب عليها أن تكبح نحيبها.

"لماذا؟".

"هــذا معقــد جــداً بحيث لا يمكن أن أفسره لك. أنا لا أريد فعلاً أن أطلعــك علــى هذا الجزء من القصة. عليك أن تثقي بي في هذا". قررت زوي أن تحترم حدود والدتها، في الوقت الحاضر على الأقل.

"هل وجّه اللوم إليك أنت؟".

قالــت فيث: "بالطبع. فأي شخص آخر يمكنه أن يلومه؟ إنه لن يلوم نفسه بالتأكيد؟".

"هــل ســيعود؟". أرادت فيث أن تقول نعم، ثم توقفت وهزت رأسها وهي تجهش بالبكاء.

"يا للهول. أن يعود؟ هل أنت واثقة؟"، بدت زوي مصعوقة.

"لقد أخبرني لتوه أنه يريد الطلاق". لم تعد زوي فجأة مجرد ابنة لها بــل أصبحت صديقتها الحميمة. خشيت فيث أن تثقل عليها، ولكن بدا على زوي أنها تتقبل الوضع أفضل من أمها.

"متى حدث كل هذا؟".

"قبل أسبوع. إنني آسفة لأنني في هذه الحالة من الفوضى".

"يا للوضاعة!"، أكد موقفها على رأيها فيه لسنوات، نظرت إلى أمها ثانية وقالت: "هل تعرف إيلي بما حدث؟".

"لا أحد يعرف. لقد تحدثت إليه لتوي قبل نصف ساعة. لقد انتقل يوم السبت وأخبرني لتوه أنه يريد الطلاق، ويقول إن لديه الحق في أن يحظى بحياة خاصة، وإنه يشعر أنه ميت وهو متزوج بي!".

"يا لهذا الهراء!".

"لا تتحدثي بهذه الطريقة عن والدك".

"لِمَ لا؟ فهذا صحيح. متى كنتِ تنوين أن تخبرينا؟".

"لا أعـرف. فهـذا كله جديد عليّ. لقد قمت بمجرد الجلوس والبكاء طوال الأسبوع".

"يـا لـك مـن مـسكينة، يا أمي! إنني آسفة جداً... أتمنى لو كنت أعرف... ويسرني كثيراً أنني أتيت إلى البيت. لا أعرف حتى لماذا أتيت، ولكنني افتقدتك طوال الأسبوع".

قالت فيث: "وأنا أيضاً". عانقت المرأتان بعضهما بعضاً، وبكت فيث بمـرارة. ثم نهضت زوي وغطت والدتها في سريرها. نزلت إلى الطابق الـسفلي، وأعدت لها بعض الحساء والبيض المخفوق المقلي. شعرت أنها مـصدومة من الخبر الذي سمعته، ولكن ليس بقدر فيث. كل ما أرادت أن تفعله هو أن تعتني بأمها.

أوت إلـى الفراش معها عندما صعدت إلى الطابق العلوي. احتضنتا بعضهما وهما تتحدثان وتشاهدان التلفاز. عندما اتصل براد في تلك الليلة، أخبـرته بوجـود زوي، فشعر بالراحة لذلك، وأخبرته بما قاله ألكس، فبدا عليه التجهم.

قال براد وهو يشعر بالاشمئزاز: "يا له من وضيع!". عندما غادرت زوي الغـرفة لتنظف أسنانها، همست فيث له أنها تعلم بشأن الفتاة وأنهما على علاقة منذ عام تقريباً.

"أعلم أنك لا تعتقدين هذا الآن، ولكن ربما يكون هذا لمصلحتك فرد، فأنت لم تكوني لتتركيه قط، ولكنه كان سيدمر حياتك". لكن هذا الزواج قد دام ستة وعشرين عاماً، وهذا كثير لتفقده في أسبوع واحد. مهما يكن ألكس

صعباً أو بارد العواطف، فهي لم تستطع أن تتخيل حياتها من دونه. ثم قال بـراد: "لا أريد أن أزعجك في أثناء وجود زوي. سأتصل بك غداً. نامي قليلاً".

"سأفعل هذا". طلبت منها زوي أن تنام معها على سريرها، وشعرت فيث بالراحة لذلك. فهي لم تستطع أن تتخيل نفسها تنام على سريرها مرة أخرى.

سـألتها زوي عـندما انهت تنظيف أسنانها: "من المتصل؟"، شعرت زوي وكأنها أم تعتني بطفلتها، لا العكس.

"إنه براد باترسون".

"أهـو الـرجل الذي أهداك المسبحة؟"، أومأت فيث برأسها وهي لا تزال تبدو حزينة، فابتسمت زوي، وقالت: "ربما يمكنك أن تتزوجيه الآن".

"لا تكونـي سـخيفة. إنــه بمثابة أخ لي، وهو متزوج، وأنا لا أزال متـزوجة بأبـيك". لكنهما أيقنتا أن ذلك لن يدوم لوقت طويل. لم يسع فيث حتـى أن تـستوعب ذلك وهي ممددة بجانب زوي على الفراش. أخيراً، استغرقت في نوم مضطرب.

* * *

الفصل السادس عشر

عادت زوي إلى الكلية يوم الأحد ليلاً. وتحدثنا طوال عطلة نهاية الأسبوع قبل ذلك. كانت فيث لا تزال في حالة صدمة. بالرغم من شدة تعاستها، لم تخبر زوي شيئاً عن الفتاة. قالت فقط إن والدها يريد حياة أكثر إثارة مما يحظى به معها، وإنه غاضب من عودتها إلى الكلية، وليس هذا خبراً جديداً على زوي.

قالت زوي بمنطقية: "هذه أسباب غبية لطلب الطلاق، يا أمي؟ هل تعتقدين أنه على علاقة بامرأة أخرى؟"، لكن فيث لم تبح لها بالسبب الحقيقي. فهي بالرغم من كل شيء لا تزال مخلصة له.

فقالت لها: "إنني لا أعرف فعلاً". هذا كل ما قالته.

لكنها شعرت أنها أفضل حالاً عندما غادرت زوي. قابلت المحامي الذي رشّحه براد لها في الأسبوع التالي. فقال لها كل شيء يجب عليها أن تعرفه، وأطلعها على تقرير المحقق الخاص. كان اسم الفتاة ليزلي جيمس، وأظهرت صورةٌ مرفقة مع التقرير فتاةً جميلة جداً، وطويلة القامة، وذات مظهر جذاب شبيه بمظهر عارضات الأزياء، ذات شعر أسود طويل متموج عرفته فيث سابقاً. كانت لها طفلة عمرها خمس سنوات، كما ذكر التقرير، وكانت محبوبة في المكتب. بدا على العلاقة العاطفية بينهما أنها سرّ مكشوف في الشركة. اعتقدت السكرتيرات الأخريات أنهما قد يتزوجان، ولكن ألكس لم يقل الكثير من هذا القبيل لأي شخص.

شعرت فيث وكأنها تعرضت لصفعة عندما غادرت. فقد كانت فتاة جميلة بالتأكيد، وفتية جداً، وربما أصغر من فيث بثمانية عشر عاماً، وهذا ما شكّل صفعة أخرى.

جلست في مكتبها وهي تحدق إلى الفضاء عندما رن الهاتف. كان المتصل براد. لقد أراد أن يقف على سير الاجتماع.

"لا بأس، لقد رأيت التقرير. إنها فتاة جميلة، يا براد، وأعتقد أنه لا يسعني أن ألومه". بدت مكتئبة بشكل واضح.

"أنا يمكنني أن ألومه. فهذا الرجل أحمق لأنك أنت جميلة أيضاً". كانت جميلة قلباً وقالباً أكثر من أي شيء آخر يعرفه براد.

قالت له بأدب: "شكراً لك". لكنها لم تبدُ مقتنعة. لقد شعرت وكأن حياتها بكاملها قد تداعت، وحدث ذلك فعلاً. ضحكت وزوي لحقيقة أنها قد فوتت الرابع عشر من شباط كلياً. إذ إنه تلاشى في دخان الجحيم الذي عاشته. لم تعد حتى تتذكر أي يوم كان، فلم يعد ذلك يهمها. لكن زوي حصلت على الشوكولاته التي أرسلتها والدتها، وكذلك فعلت إيلي في لندن بعد تأخير بسيط.

قال براد محاولاً أن يبهجها: "لدي خبر لك". لقد تملكه القلق بشأنها لأكثر من أسبوع. فقد بدت مكتئبة، وأيقن ذلك من معاناتها في الكلية، ولكنها على الأقل ذهبت إليها.

فسألت وهي تشعر أنها شبه ميتة: "ما هو؟"، شعرت وكأنها معلقة في مكان ما في الفضاء الخارجي. فقد بدا كل شيء من حولها غير حقيقي فجأة.

"يجب علي أن آتي إلى نيويورك لتمضية عدة أيام. فلدي بعض الأعمال لأقوم بها هناك. كنت آمل أن تتناولي العشاء معي، فيمكننا أن نذهب لتناول البيتزا إن لم تشعري أنك تريدين أن تتأنقي بملبسك".

قالت بابتسامة حزينة: "هذا خبر جيد". لم تبدُ مقابلتها له حتى سعيدة كما كانت لتُشعرها قبل أسابيع. لكنها بدت جيدة نوعاً ما وشيئاً لتتطلع إلى حدوثه. ثم قالت: "متى ستأتي؟".

"في الحقيقة، في عطلة نهاية الأسبوع. يجب عليّ أن ألتقي محاميين هناك لأستشيرهما في قضية شائكة. سأصل يوم الجمعة ليلاً في وقت

متأخر. يمكنني أن آتي إليك يوم السبت صباحاً. ربما يمكننا أن نذهب للتزلج في المتنزه".

قالت له بغموض: "لقد اعتقدت أنه يجب عليك أن تعمل". ابتسم. فهي لم تكن ميتة كما اعتقد.

"سأعمل. لكنني أود أن أراك. احتفظي لي بليلة السبت، يا فرد. فسأعود إلى البيت في رحلة طوال الليل ليلة السبت. فهي رحلة سريعة". تدبر أمر الرحلة خصيصاً من أجلها. إذ تملكه قلق شديد عليها. اعتبر أنه مدين لجاك بذلك، فأراد أن يذهب إلى نيويورك ليلقي نظرة عليها ويتأكد من أنها بخير. لم يتوجب عليه أن يقابل أحداً، ولكنه قال لها ذلك كي يتوفر لديه العذر ليأتي ويزورها. بدا وكأن ذلك أقل ما يمكن أن يفعله.

بحلول الوقت الذي وصل فيه إلى نيويورك، كانت فيث قد تخطّت أسبوعاً آخر منذ اكتشافها خيانة ألكس. كان محامياهما يتصلان ببعضهما بعضاً. أخذت الأمور تتقدم. لم يخبرا إيلي بعد، ولكن ألكس قال إنه سيتصل بها في أثناء عطلة نهاية الأسبوع، وخشيت فيث من رد فعلها. فقد كان من السهل أن تخمّن أنها ستقف إلى جانب والدها مهما بدا تصرفه خطأ أو قاسياً. لكن بما أن علاقة إيلي بألكس وثيقة أكثر، فقد وافقت فيث أن تسمع الخبر منه، لا سيما أن زوي سمعت الخبر منها. أيقنت أنه لن يسعها أن تقنع إيلي بوجهة نظرها، وتمنت فقط لو أن إيلي تحاول أن تتفهم موقفها.

قرر براد أن يمكث في فندق كارليل كي يبقى قريباً منها. فوصل إلى المنزل صباح يوم السبت عند الساعة التاسعة بعد أن استحمّ وحلق ذقنه. كان متعباً جداً، لذلك، نام نوماً عميقاً في الطائرة. كل ما أخبره لبام هو نفس ما أخبره لفيث، أي أنه يجب عليه أن يقابل محاميَين في نيويورك بخصوص قضية شائكة. لم تستفسر بام عن هذا. في النهاية، لم تفعل فيث ذلك أيضاً. وخشي أن تعترض على قدومه إن اعتقدت أنه من أجلها فقط. فهي لم ترد أن تفرض نفسها عليه أكثر مما فعلت في السابق.

تملكه القلق عندما رآها تفتح الباب الأمامي. إذ إنها بدت شاحبة جداً وشديدة النحول وهي مرتدية كنزة سوداء ذات ياقة عالية، وبنطال جينز أسود، ولم تضع أي زينة، وهناك هالات داكنة حول عينيها، وشعرها الأشقر المسترسل مفرود على جانبي وجهها. بدا من الواضح أنها خسرت وزناً. لكنها ابتسمت حالما رأته وعانقته بحنان. لم تبدُ تحت تأثير الصدمة كما بدت عبر الهاتف أول الأمر، بل بدت فقط متعبة وحزينة جداً.

سخّنت له بعض الكعك الإنكليزي، وأعدت القهوة والبيض المقلي، وجلسا في المطبخ، وتحدثا لوقت طويل. بعد ذلك جلسا في غرفة المعيشة، وأشعل النار. كانت لا تزال تنام في غرفة زوي. فبدأت تعتقد أنها ستفعل ذلك دائماً.

اعترفت لبراد قائلة: "إن هذا غريب جداً. فأنا أشعر كما شعرت بعد موت جاك وكأن كل شيء مختلف ولن يعود إلى سابق عهده قط. فقد تلاشت ستّ وعشرون سنة من حياتي لتوها".

قال براد بهدوء وهما جالسان بجانب المدفأة: "أعلم، يا صغيرتي. وستعتادين على هذا بعد فترة من الوقت. سيصبح الوضع أفضل يوماً ما. هذا مختلف عن وفاة جاك، فهذا يمنحك فرصة كي تحظي بحياة أفضل، كان ألكس يقتلك ببطء، وأنت من تستحقين أن تحظي بحياة أفضل، وليس هو". سألها إن أرادت أن تذهب للتزلج، ولكنها قالت إنها متعبة. في الحقيقة، كان هو أيضاً متعباً. فقد قطع مسافة طويلة ليمضي معها عطلة نهاية الأسبوع بعد أسبوع حافل، ولكن ذلك استحق العناء. سرّه كثيراً أنه أتى، وكذلك فعلت هي.

سألته: "متى يتوجب عليك أن تذهب إلى العمل؟". كاد ينسى، ولكنه تذكر قبل أن تلاحظ ذلك.

"قرابة الساعة الرابعة أو ربما الخامسة. فأنا بحاجة إلى بضع ساعات مع المحاميَين، ولكننا لم نستطع وحسب أن ننجز ذلك عبر الهاتف، فهناك الكثير من الملفات". فكّر أن يذهب إلى الفندق ويأخذ قيلولة، ثم يقابلها مرة أخرى لتناول العشاء.

قالت بارتياب وهي تبتسم ابتسامة مألوفة: "إنك لم تأتِ خصيصاً من أجلي، أليس كذلك، يا براد؟"، فضحك.

قال: "بالطبع لا. فأنا أحبك، يا فرد. ولكنني لم أكن لأقطع كل تلك المسافة من أجل أن أداوي قلبك المفطور".

"هذا أفضل، فلديك أمور أفضل لتفعلها بوقتك بدلاً من القلق بشأني".

فقال لها مازحاً: "وأنا أقول هذا لنفسي كل يوم. وفي الواقع، إنك تستحقين أن أقلق بشأنك، يا فرد. فقد تعرضتِ لصدمة كبيرة، يا صغيرتي. أعتقد أن أسوأ ما حدث لك هو أنك تزوجته".

"هذا بالضبط ما كان جاك يقوله دائماً". ولكنها تعرضت لأوضاع أسوأ في حياتها قبل الزواج أيضاً، وهذا ما هيأها لأن تتقبل الكثير من المعاملة السيئة من ألكس.

"لقد كان جاك محقاً حيال الكثير من الأمور".

اصطحبها خارجاً لتناول الغداء، وذهبا إلى متجر للطعام الجاهز في الجوار. أكلت مقداراً ضئيلاً من شطيرة بسلطة البيض. ألح عليها حتى أنهت نصفها. شاركها بزبدية من حساء خبز الفطير. كان ذلك أحد الأمور المفضلة لديه في نيويورك.

قال لها: "إنهم لم يعودوا يعدّون حساء خبز فطير كهذا في كاليفورنيا". فابتسمت ابتسامة عريضة، وبدت على طبيعتها أكثر. كان مجرد التواجد بصحبته عزاء لها.

بعد ذلك، خرجا في نزهة طويلة على الأقدام، ودخلا متنزه سنترال بارك. كانت الأشجار لا تزال مجردة من الأوراق، فبدا المتنزه كئيباً، ولكن الهواء المنعش والمشي أفاداهما كثيراً. كان الوقت منتصف فترة العصر قبل أن يعودا إلى منزلها، أعدت له فنجاناً من الشوكولاته الساخنة وهو يشعل المدفأة. تساءل إن كانت ستحتفظ بالمنزل. لم يود أن يزعجها بالسؤال، فقد كان منزلاً جميلاً، ولكنه اعتقد أن الانتقال سيفيدها. بالرغم من ذلك، لا يزال الوقت مبكراً ليقول لها هذا.

سألته فيث: "ما الذي يجعلك تبدو جاداً هكذا؟"، ناولته فنجان الشوكولاته الساخنة الذي يتصاعد منه البخار، ومعه حلوى المارشميلو، وهي من الحلويات المفضلة لهما منذ طفولتهما.

قال لها بصراحة: "إنني أفكر فيك، وكم أنت امرأة مدهشة. الكثير من النساء كن ليتعاملن مع مسألة كهذه بطريقة مختلفة كلياً، وليخبرن أولادهن عما فعله أزواجهن. لكنك دائماً تتعاملين بإنصاف ولباقة وطيبة مع الجميع إلى حدّ مفرط. هذه صفة لطيفة لتتحلي بها". لكنهما أيقنا أن ذلك قد جعلها تدفع ثمناً باهظاً.

قالت وهي تبتسم بلطف: "شكراً لك". كان أخوها هكذا أيضاً. فلطالما كانا شخصين طيبين بطبيعتهما. لكنهما عانيا الكثير أيضاً قبل وفاة والدهما وحتى بعد ذلك. كانت هناك أمور تتعلق بهما لم يعرفها براد قط. لطالما أعجب بطيبتهما مع الناس وتسامحهما وصدقهما بالإضافة إلى الرابطة التي جمعت بينهما. لو كذب الأطفال الآخرون، اعتاد جاك دائماً أن يقول الحقيقة. علم جاك مرة واحدة أن فيث قد كذبت عليه، فمرّت في وقت عصيب حينها. كانت في العاشرة من عمرها تقريباً، وكان براد لا يزال يتذكر الدموع التي رآها تسيل على خديها عندما وبخها جاك. لم تبدُ الآن مختلفة كثيراً عن ذلك المشهد، فتلك هي الصورة التي احتفظ بها في ذهنه لها. لقد أحضره تفكيره بها وهي باكية إلى نيويورك ليراها. فهو لم يستطع أن يحتمل أن يعرف أنها تعيسة من دون أن يفعل أي شيء لمساعدتها. عنت لها رؤيته والتحدث إليه كثيراً. لقد احترمت كل ما يفكر فيه ويقوله، ووثقت به بقدر ثقتها بجاك.

"كيف تشعرين، يا فرد؟"، بدا عليه القلق وهو متمدد على السجادة أمام المدفأة. بدا لها تماماً كما كان وهو صبي صغير بتلك الطعبة نفسها التي تتوسط ذقنه وبساقيه الطويلتين. ظل شعره داكناً كما كان في الماضي تقريباً. حتى وهي جالسة بجانبه، لم تستطع فيث أن ترى أي شعر رمادي.

"إنني أفضل حالاً بفضلك". فضاعف ذلك من سروره لأنه أتى. أصبحت أفضل حالاً مما بدت عليه صباح ذلك اليوم عندما فتحت له الباب. بدت أكثر سعادة وسلاماً. ثم قالت: "لم أعد أشعر بشعور الغرابة نفسه. سأستغرق وقتاً حتى أعتاد على الوضع. إذ إن الحياة ستبدو غريبة وأنا غير متزوجة به". ظلت متزوجة بألكس منذ كانت في الحادية والعشرين من عمرها. شعرت بتلك الفترة وكأنها عمر كامل.

"ربما ستحبين هذا الوضع في نهاية المطاف. كيف تبلين في الكلية؟"، قلق بشأن ذلك في البداية.

"ليس بشكل رائع، ولكنني لم أخفق بعد. أعتقد أنني سأكون على ما يرام". كانت ستتقدم إلى كلية الحقوق عما قريب.

سألته بعد أن قلقت بشأنه: "ألا يتوجب عليك أن تذهب إلى العمل؟"، أوشكت أن تحين الساعة الرابعة. لم يبدُ عليه أنه في عجلة من أمره للذهاب إلى أي مكان. بدا عليه الاسترخاء والرضا وهو مستلق بالقرب منها.

قال لها من دون أن يلقي أي نظرة على ساعته: "نعم، قريباً". بدأ النعاس يداعب جفنيه من الشوكولاته الساخنة، ودفء نار المدفأة، والشعور بالسعادة وهو بجانبها. ثم تابع قائلاً: "إن الحياة غريبة، أليس كذلك؟ فقد نشأنا معاً وحظينا بكل فرصة كي نقع في الحب ولم نفعل ذلك قط. وبدلاً من ذلك، تزوجت بام التي لا يربطني بها أي قاسم مشترك وأنت تزوجت ألكس الذي يعاملك معاملة مزرية. كان الوضع ليبدو أكثر بساطة لو أننا ألقينا نظرة فاحصة على بعضنا بعضاً، ووقعنا في الحب في ذلك الوقت من الماضي. ليس هناك شيء بسيط على الإطلاق، أليس كذلك؟". أخذ يتأمل النار وهو يقول هذا، ثم نظر إليها بابتسامة ناعسة. لكنه شعر بشيء عميق وحزين في عيني فيث. كان هناك الكثير مما لا يعرفه وخاصة ما قد هيأ الطريق لألكس ليعاملها بتلك الطريقة.

قالت فيث وهي تتنهد: "إن الأمور لا تحدث بتلك الطريقة قط. فنحن جميعاً نخرج للحياة، ونبحث عن أناس آخرين، ونعقّد الأمور. نتزوج أناساً

معقدين، ثم نعتقد أننا فعلنا ذلك بطريقة صحيحة. إن تزوج المرء شخصاً قريباً منه فهو يعتقد أنه فشل نوعاً ما. فهذا سهل جداً، كما أعتقد. هناك ما هو أكثر من هذا بالنسبة إليّ". تساءلت إن كان جاك قد ذكر له شيئاً عن معاملة والدهما، ولكنها شكّت أنه فعل ذلك. فقد شكّل ذلك سراً في طفولتهما بأكملها وجزءاً هاماً من حياتهما كراشدين.

لم تكن قد أخبرت أحداً عن إساءة المعاملة التي تعرّضت لها. لم تشعر قط أنها قادرة على أن تخبر ألكس، ولطالما خشيت أن يعتبر ذلك ضدها نوعاً ما. ناقشت الأمر مع المعالج النفسي ومع جاك نقاشاً مسهباً قبل سنوات. استنتجت أن ألكس ليس مناسباً لذلك. لقد كانت طفولته باردة، وخالية من العواطف، ولكنها طبيعية نسبياً وحذرة خلافاً لذلك. لم يسعها أن تعتقد أنه كان ليصدق أن يحدث هذا لها من دون أن يلومها عليه، وهذا ما كان ليفطر قلبها. ولكن شعورها حيال براد بدا مختلفاً. أيقنت أنها تستطيع أن تخبره أي شيء. فقد شكّل ما منحها إيّاه وما أعطاها إياه حباً غير مشروط.

قال براد ببساطة وهو يراقبها: "إن التعقيد ليس دائماً صحيح". استطاع أن يلاحظ شعوراً مؤلماً في عينيها. فقال: "هل أنت بخير، يا فرد؟".

"نعم. في الواقع، إنني أفكر وحسب بكل تلك الأمور القديمة البشعة. لكنني أعتقد أنها شكلت دائماً جزءاً كبيراً من حياتي مع ألكس بطريقة ضمنية. أعتقد أنني سمحت له أن يهيمن عليّ، ويعاملني بقسوة في بعض الأوقات لأنني لطالما اعتقدت أنني أستحق أي شيء يقترفه في حقي". أخذت عيناها تعبّران عن الكثير من الكلام لبراد، فأمسك يدها بقوة، وكأنه يشعر أنها تواجه أشباح ماضيها معه وفي داخلها.

سألها بلطف: "لماذا؟"، فخفضت نظرها، ثم رفعته إليه ثانية. فقد بدا من الصعب أن تتفوه بالكلمات أكثر مما اعتقدت، حتى له هو.

"هناك أمور سيئة نوعاً ما حدثت معي وأنا طفلة. كان جاك يعلم بها... ليس في البداية، ولكنه اكتشف الحقيقة في نهاية المطاف. بدا ذلك

قاسياً عليه هو الآخر". حتى قبل أن تقول شيئاً، شك براد في الأمر، وشد قبضته على يدها. لم يعرف كيف أو لماذا عرف، ولكنه فعل ذلك. استطاعت أن تشعر بقبوله حتى قبل أن تتحدث إليه.

"إنني آسف جداً، يا فرد... آسف جداً... يا له من شعور فظيع لتضمريه في نفسك طوال تلك السنوات. ولا أعرف لماذا، ولكنني أدركت لتوي كل شيء قبل أن تقوليه. وأنا آسف جداً أنه حدث لك. هذا لا يجعلك أقل قيمة... بل يزيدك قيمة... بمرات عدة. يا لها من قسوة لتعامل بها فتاة صغيرة! ولكن كل شيء انتهى الآن".

"اعتدت أن أفكر بتلك الطريقة أيضاً. ثم أشعر بالذنب لذلك. فهذا يحدث للكثير من الأطفال، كما أعتقد. يا لها من حياة موحشة ومخيفة".

لقد أثر ذلك في حياتها بأكملها وفي قرارها بالزواج وكيفية تعاملها مع زوجها وسماحه لها أن يعاملها بتلك الطريقة لسنوات. لكن رد فعل براد أتى بالضبط كما تمنت عندما استجمعت شجاعتها بما فيه الكفاية لتتحدث. فبراد لم يخذلها قط، على عكس ألكس، الذي لم يكف عن تخييب أملها في كل موقف ولوقت طويل. جعلها التحدث إلى براد والشعور بذراعيه حولها تشعر بالأمان. أخيراً، أخبرت شخصاً ما وتقبلها بالرغم من ذلك. أخيراً، تحررت من السلاسل التي قيدتها معظم حياتها. كانت تلك هدية رائعة قدمتها لها. جلسا معاً بصمت لوقت طويل، وهو يضمها. كان الأخ والصديق الذي لطالما أحبته وعرفته. وعندما ابتعدت عنه أخيراً، ابتسم لها.

"إنني أحبك، يا فرد... أحبك حقاً... كم أنت شخص رائع ومدهش. يا له من عار كبير أنك تزوجت ذلك الوغد بدلاً مني. لقد أخفقتُ في هذا فعلاً، يا صغيرتي". لكن كل شيء قاله لها في ذلك اليوم بدا صحيحاً. وكان إخبارها له بسرّها أفضل شيء فعلته على الإطلاق. فقد بدا ذلك أشبه بإمساكها مرآة ورؤية صورتها في عينيه. ما رآته كان فتاة صالحة بل امرأة فخورة بنفسها، تجاوزت محنتها، واستحقت الحب والأمور الجيدة

لتحدث معها. كان ذلك بالضبط المفتاح الذي احتاجت إليه لتفتح آخر باب من أبواب الحرية. فقد حررها، وحررت هي نفسها أخيراً.

"شكراً لك، يا براد. أعتقد أن الأمور تنجح بالطريقة التي يقصد لها ذلك بها. فقد كنت على الأرجح لتشعر بالضجر إن تزوجتني". ابتسمت فيث مرة اخرى. ثم قالت: "بالإضافة إلى ذلك، فقد كان زواجي بك ليبدو أشبه بزواجي بأخي. فهو محرم، على الأقل". ربما بدا الوضع معه هكذا أفضل، أي كصديقين حميمين.

"هذا هو ما لطالما اعتقدته. أخبرني جاك أنه ينبغي عليّ أن أخرج معك في إحدى المرات ونحن في الكلية، فاعتقدت أنه مجنون لقوله هذا، فلطالما بدوت بمثابة أختي الصغرى". ثم قال بخجل: "وكنت غبياً نوعاً ما في تلك الأيام".

"هذا ليس صحيحاً". بقيا جالسين وهما يتحدثان براحة وسعادة لبعض الوقت. ثم نظر أخيراً إلى ساعته، وكره أن يتركها، لكن توجب عليه ذلك كي يحافظ على التمثيلية التي اخترعها لقدومه إلى نيويورك في رحلة عمل وليس فقط ليراها. لم يود أن يتركها بعد ما تشاركاه لتوهما. كل ما توجب عليه أن يفعله هو أن يستلقي في فندقه لساعتين، ويشاهد مباراة في كرة السلة أو ينام. لكنه أيقن أن عليه أن يحافظ على قصته الملفّقة ويتركها لبعض الوقت. شعر أن علاقته بها أصبحت أوثق من ذي قبل، ولكنه حاول أن يبدو طبيعياً وهو ينهض على قدميه.

سألها وهو يتثاءب: "أين تريدين أن تتناولي طعامك اليوم؟".

ضحكت وقالت: "ستبدو شعلة من النشاط في مقابلتك اليوم إن لم تستيقظ". فابتسم ابتسامة عريضة وهز رأسه. ثم قالت: "ما رأيك بالطعام الصيني؟"، بدا الوضع وكأنه لم يذَر أي حديث غير ممتع بينهما. وشعرا أنهما أوثق صلة من ذي قبل.

"هذا يبدو جيداً بالنسبة إليّ. إذ إنني نسيت أن أحضر ربطة عنق معي. لقد اعتقدت أنني سأشتري واحدة إن أردت مني أن أرتدي ربطة عنق لأصطحبك خارج المنزل".

فمازحته بعد تذمره بشأن بام قائلة: "لقد اعتقدت أنك ستأتي باللباس الرسمي". لم يحضر معه سوى سترة رسمية وسروال جينز وبعض القمصان الزرقاء. كان ذلك مظهراً جيداً. بدا وسيماً وهو يشمّر عن ساعديه، ويتظاهر أنه ذاهب إلى العمل.

قال لها: "سآتي لآخذك عند السابعة مساء. ما رأيك بذلك؟"، وطبع قبلة على رأسها، وجذبها نحوه.

قالت بدهشة: "أهناك وقت كاف من أجل اجتماعك؟".

"هناك متسع من الوقت. فيجب علينا فقط أن نناقش قضية قاصر واحد".

قالت وهي توصله إلى الباب الأمامي: "لا بد من أنه قاصر مميز جداً بالنسبة إليك لتقطع كل هذه المسافة البعيدة لتناقش قضيته لساعتين". كان قد تفوه بما هو كاف، وليس بالكثير ولا القليل عن البوح الذي قامت به معه.

أكد لها قائلاً: "هذا صحيح". ثم احتضنها بحنان قبل أن يغادر. مشى مسافة الشارعين إلى الفندق، وفكّر في ما قالته له، وبمدى كونها امرأة مدهشة، وبمدى حماقته لأنه لم يتزوجها. تمنى الآن لو أنه اتخذ قراراته بشكل مختلف مما فعل قبل سنوات. لكن لم يعد هناك مجال للعودة الآن. كل ما كان يسعه أن يفعله هو أن يبذل أقصى جهده في الوضع الراهن، ويعترف لنفسه بالخطأ الذي اقترفه. لم يستطع حتى أن يعترف لها أنه اقترف هذا الخطأ. لكنه بدا حزيناً ومكتئباً وهو يدخل الفندق مفكراً في الأهوال التي عانتها، وفي الحب الذي أغدقته على الجميع بالرغم من ذلك، وفي مدى حسن طالعه لأن يحظى بصداقتها.

كل ما استطاعت فيث أن تفعله هو أن تحمد الله أن الشجاعة قد واتتها أخيراً لتحرر نفسها من العبء، وتخبره الحقيقة. كان براد الشخص المناسب لتخبره. فقد عزز هذا من قوة الصلة التي ربطت بينهما والحب الذي شعرت به تجاهه. انزاح عن قلبها عبء ثقيل كالجبل كانت قد تحملته عمراً كاملاً.

* * *

الفصل السابع عشر

ذهبت فيث وبراد إلى مطعم صيني تلك الليلة. حدثها عن الاجتماع الذي حضره واخترع كل شيء قاله عنه أو اقتبسه من قضية عمل بها في سان فرانسيسكو. لكن كل ما فعله في الفندق هو أنه خلد إلى النوم. لم يراودها شك في شأنه قط، وفتنت بالقضية التي وصفها لها. بعد ذلك، تحدثا عن أولادهما. كان متلهفاً لأن يرى ولديه، وكانت هي متشوقة لأن تتحدث إلى إيلي بعد أن تحدث إليها ألكس.

سأل براد وهو يبدو قلقاً: "كيف تعتقدين أنها ستتقبل الخبر؟".

اعترفت فيث قائلة: "أخشى أن تلومني. فالله وحده يعلم ما سيقوله ألكس لها، ولكنه شعر أنه ينبغي عليه أن يتصل بإلويز بما أنني أخبرت زوي".

قال لها براد بتفاؤل: "إنها راشدة بما يكفي كي تتصرف بعقلانية نوعاً ما حيال هذا".

"نعم، هذا صحيح، ولكنك لا تعرف أبداً ما قد يحدث. فلا يزال هذا يشعرني أنه كابوس من كل ناحية. لا أستطيع حتى أن أحمل نفسي على أن أستوعب فكرة أن كل شيء قد انتهى. قبل أسبوعين، كنت لا أزال متزوجة، وأعتقد أن كل شيء على ما يرام". في الواقع، مرّ ستة عشر يوماً منذ ذلك الحين. ثم قالت: "إن الأمر أشبه بموت أحدهم... فالمرء يظل يعتقد أنه قبل يومين كان على قيد الحياة... ثم تمضي ثلاثة أسابيع... ثم شهران... ثم يوماً ما يدرك أن سنوات قد مضت على موته". فكرا في جاك وهي تقول تلك الكلمات.

قالت: "أتريد أن تذهب إلى دار العبادة غداً؟"، قال هو الجملة نفسها في الوقت نفسه، فضحكا.

فقالت: "أود أن أفعل ذلك كثيراً. أتريد الذهاب إلى دار العبادة الكبيرة سانت باتريك أم إلى دار عبادة أخرى في الجوار؟".

اقترح قائلاً: "لنذهب إلى دار العبادة الكبيرة سانت باتريك، فأنا أشعر أنها أصبحت دار العبادة الخاصة بنا الآن". قدّم لها كعكة من كعكات الحظ التي تحتوي قطع ورقٍ صغيرة دُوّن عليها ملاحظة أو حكمة معينة. وقد أشارت الورقة التي وجدتها في كعكتها أنها تتمتع بالفضيلة والصبر والحكمة بما يفوق عمرها، أما بالنسبة إلى براد، فهو سيعقد صفقة ممتازة.

تذمرت فيث قائلة: "إنني أكره كعكات الحظ هذه. فهي مملة جداً، وأحب الكعكات التي تشير أوراقها إلى أننا: سنقع في الحب الأسبوع القادم. فكعكتي لا تشير إلى هذا أبداً. أعتقد أنني عرفت السبب الآن".

فسألها بنظرة حنونة: "لماذا؟"، وقد أحدث شيء ما حيالها تأثيراً في أعماقه. فقد لمست شغاف قلبه.

قالت وهي تفكر في ألكس: "إنه سوء الحظ". جعلها كل شيء حدث خلال الأسبوعين الفائتين تشعر أنها سيئة الحظ جداً.

قال لها بهدوء: "أحياناً يتبع سوءَ الحظ أفضلُ حظ في العالم".

مازحته فيث قائلة: "أهذا ما ورد في كعكة الحظ أم أنك اخترعته؟"، لاحظ أنها بدت أفضل بآلاف المرات وأكثر استرخاء مما بدت عليه صباح ذلك اليوم عندما وصل. فقد تناولت طعاماً، وتمشّت، وجعلها تضحك كعادته.

"لقد اخترعته. ولكنه صحيح. فأحياناً عندما تحدث أسوأ الأمور مع المرء، تمهد الطريق لأمور عظيمة لتحدث في حياته، بالرغم من أنه لا يعرف ذلك بعد".

"هل حدث هذا معك؟".

"كلا، ولكنه حدث مع أناس أعرفهم. إذ فقد أحد أصدقائي زوجته قبل أربع سنوات، وكانت امرأة رائعة، وانفطر قلبه لموتها. توفيت من ورم في الدماغ في غضون ستة أشهر. ثم قابل أكثر امرأة مدهشة قابلتها في حياتي، والآن هو سعيد معها. إنك لا تعلمين أبداً، يا فرد. يجب عليك أن تعتقدي بهذا. فهو ما تحدثنا عنه... أي التضرعات المستجابة... يجب عليك أن تعتقدي بهذا الآن. فأنت الآن في وضع صعب لبعض الوقت، ولكنك ستتحسنين مرة أخرى، وربما ستصبحين أفضل حالاً مما تعتقدين".

قالت فيث من دون أن تجيب عما قاله: "يسرني أنك أتيت إلى نيويورك، يا براد".

"كذلك أنا". أمسك بيدها عبر الطاولة، وضغط عليها، ثم قال: "لقد قلقت عليك. فقد بدوت في حال رهيبة في الأيام الماضية".

"لقد كنت في حال رهيبة فعلاً، أصبحت أفضل حالاً الآن. لكنني أعتقد أنني سأعاني لبعض الوقت. فأنا لا أعتقد أن ألكس سيكون لطيفاً معي".

"كلا على الأرجح، بناء على ما سبق وفعله". ثم خطرت فكرة ببال براد. فقال: "هل تريدين طبقاً من حلوى الموز؟"، كانت تلك الحلوى نقطة ضعفها وهي طفلة.

"الآن؟"، ابتسمت له. فقد تعامل معها بكل طيبة طوال اليوم، وشعرت أنه أفسدها بالدلال وبالراحة وبالمحبة. بدا ذلك أشبه بتواجدها مع جاك، وحتى أفضل أحياناً. ثم قالت: "لقد أكلنا بنهم قبل قليل؟".

"وماذا في ذلك؟ إنهم يقدمون حلوى لذيذة في مطعم أعرفه. وسأتشارك معك طبقاً منها".

قالت وهي تضحك: "من الجيد أنك لا تعيش هنا. فقد كنت لتجعلني بدينة جداً. حسناً، هيا. لمَ لا؟".

دفع الفاتورة، ثم استقلا سيارة أجرة وذهبا إلى شارع إيست سكستينث. وجدا المكان مزدحماً. فقد كانت تلك ليلة السبت، ولكنهما عثرا على طاولة مستديرة صغيرة لأجلهما تحت مصباح من طراز تيفاني. طلب

براد طبق حلوى الموز وملعقتين. فوصل الطبق مع الكريما المخفوقة والمكسرات وصلصة الشوكولاته والفريز وثلاث نكهات من المثلجات وموز معلق على أطراف الزبدية. فتناولاه بنهم. لم يستطع براد أن يصدق كم أكلت، ولا سيما بعد ما تناولته مسبقاً.

هددته قائلة: "سأصاب بالغثيان إن لم أتوقف عن الأكل". ثم تناولا قضمتين أخريين. فهي لم تكن تستطيع قط أن تقاوم حلوى الموز.

فحذرها قائلاً: "إن كنت ستتقيئين عليّ، فمن الأفضل أن تتوقفي. الصداقة تصل إلى حدّ معين فقط". فضحكا، وقد استمتعا بوقتهما. أخذا يضحكان على قصص من طفولتهما. ذكرها بالوقت الذي قامت فيه بخدعة معهما، وأخبرت صديقتيهما أنهما خارجان مع فتاتين أخريين. كادا أن يقتلاها عندما اكتشفا حقيقة الأمر. كانت غاضبة بشأن أمر ما، وأرادت أن تنتقم منهما. كانا في الرابعة عشرة من عمرهما وهي في الثانية عشرة. سألها براد بابتسامة عريضة وهو يدفع الفاتورة: "لماذا فعلت ذلك؟".

"لأنكما لم تأخذاني للعب البولنغ معكما، لذلك غضبت".

"لقد ثارت ثائرة جاك من الغضب بحيث إنني اعتقدت أنه سيشنقك".

قالت فيث وهي تبدو مستمتعة: "نعم، وأنا أيضاً. وهذا لأنه كان معجباً بالفتاة فعلاً. ولم أعتقد أنك كنت مهتماً كثيراً بفتاتك".

"إنني حتى لا أتذكرها. أتتذكرينها أنت؟".

"بالطبع. إنها شيري هينيسي. كانت صديقة جاك تدعى سالي ستاين".

"لديك ذاكرة هائلة. فقد نسيت تماماً أمر شيري هينيسي. فهي أول فتاة واعدتها على الإطلاق".

قالت فيث بنظرة العارفة: "كلا، ليس هذا صحيحاً، بل هي تشارلوت وولر. وكنت في الثالثة عشرة من عمرك".

قال لها وقد تذكر جيداً: "آه، أيتها البغيضة. لقد كنت تتجسسين عليّ، وأخبرت جاك. فأنا لم أرده أن يعرف لأنه كان معجباً بها. ولم أرد أن أزعجه".

"لقد أخبرته هي على أي حال. وأخبرت نصف الجيران".

"كلا، هذا ليس صحيحاً. بل أنت من فعلت هذا، أيتها الوغدة". كان قد نسي هذا. فأخذ يضحك وهما يخرجان من المطعم إلى الشارع.

"حسناً، نعم، لقد ساعدتها على ذلك. لكنها أذاعت الخبر بشكل فعال أكثر بنفسها. إذ إنها اعتقدتك صيداً ثميناً".

فقال متظاهراً بالتباهي بنفسه: "لقد كنت كذلك في تلك الأيام".

قالت وهي تدس يدها تحت ذراعه ببراءة: "لا تزال ظريفاً نوعاً ما عند الأخذ في الاعتبار كم بلغت من العمر".

حذرها قائلاً: "احترسي لما تقولينه". ثم اقترح عليها أن يذهبا إلى بيتها مشياً على الأقدام كي يهضما طبق حلوى الموز. فاعتقدت أنها فكرة حسنة لأنهما أفرطا في الأكل.

"أعتقد أنني سأنفجر".

"إنك صغيرة الحجم جداً، يا فرد. ومن المؤسف أنك لم تكبري قط".

"لطالما اعتقدت ذلك، وكرهت أن أكون قصيرة القامة".

"إنك تبدين جيدة جداً بالنسبة إلى فتاة". كان ذلك من نوع الأمور التي اعتاد أن يقولها لها وهي طفلة. شعرت وكأنها عادت طفلة وهي بصحبته تلك الليلة، وهما يتذكران أناساً اهتما لأمرهم كثيراً وهما صغيران. بدا من الغرابة أن يفكرا فيهم مرة أخرى، ويتساءلا أين وصل بهم المطاف. فقد فقدا الاتصال بهم جميعاً، ولا سيما براد عندما انتقل من الولاية.

سارا الهوينا إلى آخر شارع ثيرد أفنيو وهما يتجاذبان أطراف الحديث عن الناس الذين عرفاهم في طفولتهما، ويتذكران الوجوه والأسماء التي لم يفكر أي واحد منهما فيها لسنوات. انعطفا غرباً عندما وصلا شارع سيفنتي فورث. بعد برهة قصيرة وصلا إلى بيتها.

"لقد كان غباء مني أن أدعك تقيم في الفندق. فقد توجب عليّ أن أدعوك للإقامة هنا. فأنا أنام في غرفة زوي. ويمكنك أن تنام في غرفتي".

قال لها وهو يتثاءب: "إنني على ما يرام هناك. متى موعد دار العبادة غداً؟".

"يمكننا أن نذهب متى تشاء. فلديهم الكثير من الاحتفالات الدينية، ولا بد أن نلحق بأحدها. لِمَ لا تأتي لتناول الفطور؟".

"سأتصل بك عندما أستيقظ. ربما سآتي عند الساعة التاسعة أو العاشرة". ثم دخلت فيث المنزل، وبدا موحشاً ومظلماً. فالتفتت إلى براد مبتسمة.

"أتريد الدخول لتحتسي كأساً من الشراب؟".

"لن أتمكن قط من العودة إلى الفندق إن فعلت هذا. فأنا مرهق جداً. يفضل أن أنال قسطاً من النوم، وأنت أيضاً". شعرا بالتعب والشبع. لقد أمضيا أمسية لطيفة. عنى له ما باحت به في وقت مبكر من اليوم الكثير. فما أفضت إليه به دلّ على بادرة ثقة كبيرة منها.

قالت له بامتنان: "يسرني أنه توجب عليك حضور ذلك الاجتماع كي تأتي إلى هنا". لقد أصبحت عطل الأسبوع قاسية جداً عليها الآن، وكانت ستبقى كذلك لوقت طويل.

قال لها وهو يعانقها: "وأنا أيضاً. أتمنى لك نوماً هنيئاً". راقبها ليتأكد من أنها أقفلت الباب، وأشعلت الأضواء حالما دخلت، ثم مشى عائداً إلى الفندق وهو يبتسم. فقد أحب فيث واحترمها أكثر من أي شخص آخر في حياته.

* * *

الفصل الثامن عشر

أتى براد إلى المنزل وبحوزته حقيبته عند الساعة التاسعة تماماً عندما خرجت فيث من الحمام. فتحت له الباب مرتدية ثوباً من الكشمير، وسلمها صحيفة صنداي وهو يدخل.

"إنني آسف، هل أنا مبكر جداً؟ لقد استيقظت عند انبلاج الفجر".

"لا بأس بهذا. سأستعد في غضون خمس دقائق". انطلقت مسرعة.

"سأبدأ بإعداد الفطور بينما ترتدين ملابسك". دخل إلى المطبخ بينما صعدت الدرج جرياً وهي حافية القدمين وشعرها مبلل.

عندما نزلت إلى الطابق السفلي بعد خمس عشرة دقيقة وهي مرتدية كنزة ذات ياقة عالية وسروال جينز، كان يصدر صوت قعقعة من المطبخ، وفاحت رائحة القهوة في الأجواء.

قالت: "يا للروعة. هذه الرائحة طيبة". فالتفت إليها مبتسماً. كان واقفاً بجانب الموقد وهو يقلي البيض بعد أن وضع خبزاً في آلة التحميص.

"أتريدينه مقلياً على جانب واحد أو على جانبين؟"، بدا مسترخياً ومستريحاً وكأنه في منزله.

"على جانب واحد. هل تريد أن أقوم بذلك؟"، اقتربت خطوة نحو الموقد.

فقال: "إنني أعد الفطور من أجلك". ثم سكب لها كوباً من القهوة، وناولها إياه. أراد أن يدللها قبل أن يغادر، وكان ذلك هو السبب في مجيئه. ثم قال: "أتريدين بعض اللحم؟ لقد نسيت أن أعده".

"لا أعتقد أن لدي لحماً، ولكن لا بأس من دونه". تفقدت الثلاجة، ولم تجد هناك أي لحم. عرضت عليه أن تقطع بعض شرائح الفاكهة عوضاً

عن ذلك، فطلب منها أن تقطع بعض شرائح البرتقال والإجاص. أنهى تحضير البيض بحلول ذلك الوقت، ووضعه في طبقين ووضع الزبدة على الخبز ووضعه على الطبق. فأعدت المائدة، وأحضر هو الطعام. ثم جلسا.

كان البيض لذيذاً، وأخذ براد يمضغ الخبز الذي يصدر صوت قرمشة فابتسمت وقالت له: "إنك طباخ ماهر".

"إنني طباخ طعام سريع رائع أعد الهمبرغر والفلفل الحار والكعك والفطائر المحلاة، ويمكنني دائماً أن أحظى بوظيفة في حافلة طعام إن فشلت في كل الوظائف الأخرى".

"سأتذكر هذا". شعرت أنه من اللطيف أن تحظى به معها. فقد ذكّرها هذا بالأوقات التي زارها فيها جاك في الكلية أو في المناسبات القليلة عندما كان وديبي ينفصلان. لطالما أحبت قدومه ليقيم عندها بالرغم من التوتر الدائم بينه وبين ألكس. ولم يسعها إلا أن تتساءل، فيما كانت هي وبراد ينهيان تناول الفطور الذي أعده، عن مكان وجود ألكس وإن كان مع تلك الفتاة المدعوة ليزلي جيمس. لقد طبع اسمها في ذاكرة فيث.

علّق براد قائلاً: "فيم تفكرين؟ لقد بدوت مستاءة فجأة". أخرج صفحة الرياضة من الصحيفة وسلمها الباقي.

"لقد فكرت في ألكس وفي تلك الفتاة. أتساءل إن هما معاً".

قال لها بلطف: "حاولي ألا تفكري في هذا". أخذ كوب قهوته، ونظر إليها بكآبة، ثم قال: "من الغرابة كيف تتغير الحياة، أليس كذلك؟ من كان ليعتقد قبل ستة أشهر أنني سأتناول الفطور معك اليوم". فقد فقدا الاتصال مع بعضهما لوقت طويل قبل ذلك.

"نعم، وأن ألكس سيكون غائباً عن المنزل. وقبل أن أفكر فيهما، فكرت في أنه من اللطيف أن أحظى بك هنا. هل تأتي إلى نيويورك كثيراً؟". كانت تلك المرة الثالثة له في غضون أربعة أشهر. ولكنه لفّق عذراً هذه المرة كي يراها. سره أنه فعل ذلك. إذ إنها بدأت تبدو أفضل حالاً من اليوم الفائت وأكثر استرخاء بكثير. أثمرت رحلته كما أراد لها.

"هذا يعتمد على الظروف. فأنا آتي إلى هنا بشكل متقطع اعتماداً على المؤتمرات التي يتوجب عليّ حضورها وعلى العمل المترتب عليّ في الديار. معظم الأوقات، لا أستطيع أن أتملص منه". فقد كان عمله معتمداً على الأزمات، ولديه الكثير من الموكلين بحيث لا يسعه أن يترك عمله كثيراً. ثم قال: "سآتي إلى المدينة على الأرجح ليوم واحد عندما أسافر إلى أفريقيا لأرى الولدين في الشهر المقبل. وبام قادمة معي". قال ذلك وكأنه يحذرها.

قالت فيث ببساطة: "ربما يمكننا نحن الثلاثة أن نتناول العشاء معاً". فضحك براد.

"هذا سيكون ممتعاً جداً. فهي تعتقد أصلاً أنني مغرم بك. إن ألقت نظرة فاحصة عليك فهي لن تتركني وشأني قط".

قالت فيث بثقة: "أعتقد أنني أشعر بالإطراء. ولكنني لا أشكّل تهديداً عليها. فأنا بمثابة أختك الصغرى. وستكتشف هذا بنفسها".

فقال لها: "ربما لا يحدث هذا". ثم استغرق بقراءة الصحيفة. بقي منهمكاً بها طوال نصف ساعة بينما سكبت لهما كوبين آخرين من القهوة، ونظفت المائدة. كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف عندما فرغت من عملها، فنظر إليها.

قالت له: "أما زلت تريد أن تذهب إلى دار العبادة؟"، فلم تود أن تضغط عليه ليفعل أي شيء. لقد أحبت أن تذهب معه، ولكنها لم تكن مسألة حياة أو موت بالنسبة إليها، ولا سيما إن لم يرغب هو بالذهاب. فكان في وسعها أن تذهب بعد أن يغادر.

"في الواقع، أريد ذلك". ثم نهض وشدّ جسمه، وأحاطها بذراعه. دهشت مرة أخرى لمدى شعورها بالراحة معه ولبساطة رفقته لها. وبدا لها من الصعب أن تصدّق عدم انسجامه مع بام. فقد كان أبسط رجل عرفته على الإطلاق.

"سأحضر حقيبتي". هرعت إلى الطابق العلوي كي تحضر حقيبتها وتسرح شعرها. وبعد خمس دقائق، ذهبت إلى الردهة الأمامية لتخرج

معطفاً من الخزانة. فارتدت سترة سميكة من الصوف ووضعت وشاحاً أحمر. كان براد يرتدي سروال جينز وكنزة سميكة ومعطفاً. إذ كان الطقس بارداً في الخارج، وكان الثلج على وشك التساقط.

استقلا سيارة أجرة إلى دار العبادة الكبيرة سانت باتريك. ووصلا في الوقت المحدد لحضور الاحتفال الديني الذي يقام عند الساعة الحادية عشرة. انحنت فيث وجلست على أحد المقاعد الخشبية وجلس براد معها جنباً إلى جنب بهدوء طوال الاحتفال. لاحظ أنها تحمل المسبحة التي أهداها إياها بيدها فابتسم. وبعد ذلك، أشعلا شمعة لجاك. كانت تلك تجربة مريحة لكل منهما. بدوَا هادئين وهما يخرجان من دار العبادة. كان الثلج قد بدأ يتساقط في أثناء الاحتفال.

سألته وهي ترفع نظرها إليه: "أتريد أن تمشي؟"، كانت تحب أن تمشي تحت الثلج.

فقال لها مبتسماً ابتسامة عريضة: "نعم، لمَ لا؟"، فلم يكن يرى الثلج في سان فرانسيسكو قط. وشكّل ذلك جزءاً من الأمور التي يحبها في نيويورك.

تمشيا حتى آخر شارع فيفث آفنيو. عند شارع سيكست عبرا إلى الطرف المقابل، وتمشيا على طول الطرف الخارجي لمتنزه سنترال بارك. مرا بحديقة الحيوانات والملعب في شمالها. أصبح شعرهما مغطى بالثلج واحمرّ وجهاهما من البرد. كان ذلك الثلج من النوع الذي يتراكم ويجعل السكون يسود في الأجواء. شعرت بشيء غريب وهي تمشي ويدها المكسوة بقفازها مدسوسة تحت ذراعه.

قالت بحزن: "سأفتقدك غداً عندما ترحل. فقد كان هذا اليوم ممتعاً حقاً. وبعد ذلك، سأعود إلى الحياة الواقعية وإلى الكلية والطلاق. أنا لا أتطلع إلى حدوث هذا، إنما ألكس على عجلة كبيرة من أمره". بدأت تتساءل عن السبب، ولم يسعها إلا أن تسأل نفسها عن مدى علاقة هذا بليزلي جيمس وإن كان سيتزوجها بعد انتهاء كل شيء.

"ماذا ستفعلين بالمنزل؟"، تساءل إن كان الوقت مبكراً لهذا السؤال.

"لا أعرف. فهو لم يقل شيئاً. ولا أعرف إن هو يريدني أن أبقى أو أن أنتقل كي يتسنى له أن يبيعه. لقد دفع ثمنه لذا أعتقد أنه سيحاول أن يطالب به. لا أعرف كيف تسير تلك الأمور". كانت أموال ألكس هي التي سددت ثمن كل شيء يملكانه. كان سيحاول الآن أن يطالب بكل شيء على أنه ملك له. قال إن كل ما ستناله منه هو أقل مقدار من الدعم لأنها شابة بما يكفي لتعمل. بدأت تشعر وكأنه ليس لها أي حقوق.

قال براد بعقلانية محاولاً أن يهدّئ من مخاوفها: "إن أجبرك على الانتقال، فعليه أن يعطيك منزلاً مقابله لتعيشي فيه، فلا يستطيع أن يرمي بك في الشارع هكذا ببساطة".

"أمل ألا يفعل ذلك". لكن ذلك لم يعد مؤكداً بعد الآن. فلم يكن ثمة مجال لأن تعرف أي إجراءات حمقاء سيتخذها ألكس. ثم قالت: "أعتقد أنه يمكنني أن أحصل على منزل أصغر حجماً بعد رحيل الفتاتين، ولكنني سأشعر بالغرابة للانتقال من المنزل. فقد عشنا هناك لثمانية عشر عاماً، منذ ولادة زوي". فجأة تلاشى كل شيء في الهواء، واختفى كل إحساس لديها بالثقة والأمان.

قال براد بهدوء: "ربما سيسمح لك بالبقاء ولن يبيع المنزل". فلم يود أن يضايقها. أيقن أن محاميها كان سيرتب التفاصيل بشكل منصف بالنسبة إليها. ثم تمشيا قليلاً في المتنزه حول البحيرة، وراقبا الثلج وهو يتراكم على تمثال أليس بطلة قصة أليس في بلاد العجائب. كان هناك أطفال يلعبون بالثلج. لقد تشكل ثلج كاف فقط كي يتزحلقوا على التلال الصغيرة بأغطية العلب البلاستيكية. شاهد براد وفيث الأطفال، وبدا عليهم وكأنهم يستمتعون بوقتهم.

قالت فيث بكآبة: "أتمنى لو أن الفتاتين لا تزالان صغيرتين. فأنا أفتقد تلك الأوقات". لقد كانت أوقاتاً سعيدة جداً في حياتها. كان كل يوم مليئاً بالفرح، فلم يتسنّ لها الوقت قط لتفكر في أي شيء سوى ما تفعله معهما

ووجودها مع ألكس ليلاً. لم تقلق أبداً بشأن ما سيجلبه لها المستقبل، ولم يتسنَّ لها الوقت لتفكر في ذلك. كانت تنهض كل يوم وهي تشعر أنها سعيدة ومطلوبة، وأصبح كل شيء مختلفاً الآن. فهما لم تعودا بحاجة إليها، وأصبحت لديهما حياتهما الخاصة. أصبحت حياتها فارغة، وفوق كل هذا، فقد رحل ألكس أيضاً. شعرت وكأنها فقدت عالمها بأكمله، وربما منزلها الآن أيضاً. بدا كل ذلك كثيراً لتستوعبه ولتخسره.

قال براد بصراحة: "إنني أفتقد تلك الأيام. فقد مضت بسرعة كبيرة، وهذا شعور سخيف فعلاً. أعلم أننا نشعر أننا تقدمنا في السن، ولكننا لسنا كذلك، فهناك أناس ينجبون أول أطفالهم في مثل سننا".

ضحكت فيث وقالت: "يا الله، يا لها من فكرة!".

"هل كنت لتفعلي هذا مرة أخرى؟"، استطاعت أن تلاحظ أنه جاد في قوله. فأمسكت عن الكلام للحظة وهي تفكر.

"هذا سؤال جنوني. لو سألتني قبل شهر من الآن، لقلت لك كلا، بالإضافة إلى ذلك فقد كان ألكس ليقتلني، فلطالما اعتقد أن طفلتين عدد كافٍ. خلافاً لذلك، كنت ربما لأنجب طفلاً أو طفلين آخرين. أقصد عندئذ. أما الآن، يا الله، لا أعرف. فهذه تبدو فكرة جنونية تماماً في سن السابعة والأربعين. إن الفتاتين ستصابان على الأرجح بنوبة غضب أو صدمة على الأقل. كلا، لا أعتقد أنني سأفعل هذا. بالإضافة إلى ذلك، فأنا لن أتزوج في غضون بضعة أشهر. ولا أستطيع حتى أن أتخيل حدوث هذا الآن".

"هذا هو بيت القصيد، يا فرد. إنك ستصبحين عازبة مرة أخرى". جعلها مجرد سماع ذلك تشعر بالصدمة. فلا يزال عليها أن تقرص نفسها كي تذكّر نفسها أن ما حدث بينها وبين ألكس ليس كابوساً مزعجاً، بل حقيقة واقعية. ثم قال: "ماذا إن التقيت رجلاً يريد مزيداً من الأطفال؟ هل ستفعلين ذلك؟".

فضحكت وقالت: "سأعرفه إلى إلويز". ثم أصبحت جادة مرة أخرى، وقالت: "لا أعرف، يا براد. إنني أود أن أحظى بمزيد من الأطفال، ولكنني

لم أعد في ريعان شبابي. ففي سني هذه، لست واثقة حتى من أنني أستطيع ذلك. أعرف نساء ينجبن في نفس سني. ولا أعرف... نعم... قد يكون هذا لطيفاً... ورائعاً أن أنجب طفلاً آخر... سيجعلني أشعر أنني مفعمة بالأمل والحياة والشباب. المشكلة الوحيدة هي أنني لست هكذا. فأنا متعبة، وحزينة، ومسنة. والأسوأ من هذا أيضاً هو أنني وحيدة".

"لن يستمر هذا الوضع إلى الأبد. فستلتقين شخصاً ما ألطف بكثير من ألكس، يا فرد. ستنطلقين في حياتك في غضون بضعة أشهر. على الأرجح ستتزوجين في غضون عام واحد". بدا مكتئباً وهو يقول هذا. فابتسمت له.

"حسناً، لقد قمت بالتأكيد بتحديد تفاصيل حياتي بأكملها. ماذا عنك أنت؟"، كانت مدركة لمدى تعاسته مع بام وتصميمه على البقاء معها مهما كلّف الأمر. فقالت: "ألا تريد أن تحظى بأكثر مما تملكه؟". لطالما بدت حياته مع بام موحشة بالنسبة إليها، ولكن حياتها مع ألكس كانت كذلك أيضاً. فلم تكن لتنهيها، لولا أنه تخلى عنها.

فأجابها بصراحة قائلاً: "بالطبع أريد ذلك. لكن هذا هو ما أحظى به. أنا لا أفكر في هذا كثيراً". لم يكن ذلك صحيحاً كلياً.

"ربما ينبغي عليك ذلك طالما أنك لا تزال شاباً إلى حدّ معقول. ماذا إن فعلت بام ما فعله ألكس بعد عشر سنوات من الآن؟ ألن تشعر أنك قد بددت حياتك في حين أنه كان في وسعك أن تمضيها مع امرأة تسعد بصحبتها؟ ربما يستحق هذا بعض التفكير".

قال وهو ينظر إليها مباشرة: "هذا ينطوي على مخاطرة كبيرة. أنا أعلم ما لدي مهما يكن محزناً وفاشلاً. لن أتخلى عنه من أجل حلم قد لا يتحقق أبداً. إن الحياة لا تسير بهذه الطريقة، بل الأفلام السينمائية، أما الحياة الواقعية فلا. معظم الناس يفعلون ما فعلته وإياك. يستقرون في أوضاع ناجحة تقريباً، ويتحملونها بأفضل طريقة ممكنة. أنت تعلمين هذا بنفسك".

"نعم، هذا صحيح. أنا أتساءل عن هذا الآن. ربما يكون ألكس محقاً في ما فعله. وأنا أكره هذا الوضع، ولكن ربما واتته الشجاعة أخيراً ليفعل ما كان ينبغي علينا أن نفعله قبل سنوات. فعل ذلك بطريقة مؤذية، ولكنه يسعى وراء الوضع الأفضل".

"في مثل هذه الحالة، أعتقد أن المآل سيؤول به إلى الفشل لأنه حقق ذلك بإيذائه لك. لا أعتقد أن المرء يفوز بأي شيء بهذه الطريقة، بل يخسر عادة. إنه يطارد امرأة صغيرة بعد أن طردك في طريقه إليها. هذا سيعود ليطارده في نهاية المطاف. إن بقي معها، فربما ستفعل ذلك به يوماً ما".

قالت فيث مبتسمة ابتسامة صغيرة: "الآن هذه فكرة مبهجة!". ثم قالت وهي تتنهد: "لا أعرف ما هي الإجابة". بدأت رقاقات الثلج تستقر على رموش عينيها وتتراكم على شعرها.

لم يرَ في حياته من هي أجمل منها. وبينما هو ينظر إليها، تألم في أعماق قلبه. تمنى لو أنه يستطيع أن يعيد عقارب الساعة ثلاثين عاماً. لكنه علم بوضوح تام أنه لا يسعه أن يفعل ذلك. فما لم يستطع أن يحظى به، ولم يكن ليفعل ذلك قط هو فيث. لم تكن لديها أي فكرة أن الفكرة قد خطرت بباله قط. كانت لتشعر بالصدمة لو أنها عرفت هذا. لم يجل بخاطرها أنه ينظر إليها بتلك الطريقة. فهو لم يفعل ذلك منذ وقت طويل. لكنه فعل ذلك الآن عندما سمح لنفسه بهذا التفكير. جعله مجرد الوقوف بجانبها في متنزه سنترال بارك وهو يحيطها بذراعه يحلم بالمزيد. لكن براد كان يعلم أكثر من أي شخص آخر أنه مجرد حلم.

قالت فيث وهي تقترب منه: "إنك تبدو جاداً جداً". بدأ الطقس يزداد برودة والرياح تعصف. ثم قالت: "هل أنت على ما يرام؟"، فأومأ برأسه وابتسم. لقد أحب كل شيء قام به معها، كإعداد الفطور لها، والتحدث إليها لساعات، والذهاب إلى دار العبادة، والسير في نزهات، وحتى تناول طبق الحلوى بالموز في الليلة الفائتة. لقد كانت طفلة مشرقة في الماضي. وأصبحت حتى أكثر إشراقاً الآن.

"لقد فكرت أنه ينبغي علينا أن نعود إلى منزلك ونشعل المدفأة. في الواقع، فكّرت في إعداد الغداء".

تذمرت قائلة: "إن كل ما أفعله معك هو الأكل". لكنها أحبت تواجدها بصحبته أيضاً. بدأت تشعر بالجوع وهما يمشيان. ثم قالت: "يجب علينا أن نتوقف، ونشتري بعض الطعام. فليس لدي الكثير في المنزل. وكنت أجوّع نفسي منذ رحيل ألكس".

قال لها بنبرة عملية: "إن هذا لن يجدي نفعاً". أمسك يدها بيده.

توقفا عند متجر البقالة في طريقهما إلى البيت، وجعلها تشتري طعاماً يكفيها طوال الأسبوع. ثم أصرّ على أن يدفع ثمنه، وهذا ما قالت إنه ليس منصفاً.

"إنك لن تبقى هنا لتتناول كل هذا. إذاً، لماذا ينبغي عليك أن تدفع ثمنه؟".

فقال وهو يأخذ بقية النقود: "إذاً، سأعود لتناول العشاء غداً".

"أتمنى لو أنك تستطيع أن تبقى. من المؤسف أننا لا نعيش في المدينة نفسها". اعتقد هذا أيضاً، ولكنه علم أيضاً أن ذلك سيشكل في نهاية المطاف تحدياً لا يحتمل بالنسبة إليه. إذ إنه بدأ يضمر لها مشاعر لم يشعر بها من قبل قط. وطالما أنها ليست مدركة لذلك، وهناك ثلاثة آلاف ميل تفصل بينهما، فقد علم أنه بأمان، وكذلك هي.

حمل لها البقالة. وبعد نصف ساعة، بدأت بتحضير الغداء، بينما أخذ هو يشعل المدفأة. استمر الثلج في التساقط خارجاً.

أعدّت حساء وشطائر، وأصرت على أن تشتري حلوى المارشميلو والبسكويت وأصابع الشوكولاته لتعد طبقاً من الحلوى كانا يحبانه وهما طفلان. شعرت أن وجودها معه أشبه برحلة إلى الماضي، وجعلها ذلك تتمنى في بعض الأوقات لو أنهما لم يكبرا قط. فلو حدث ذلك، لبقيت الحياة بسيطة بالنسبة إليهم جميعاً، ولبقي جاك على قيد الحياة.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة تقريباً عندما أنهيا تناول الغداء. ضحك براد عندما نظر إليها. وكانا قد أعدا الحلوى على النار. قالت فيث وهي تبدو غاضبة جداً: "ما الذي يضحكك؟".

"إن المارشـميلو والـشوكولاته يغطـيان كل وجهك. أنت في حالة فوضـى". اسـتخدمت منديلها كي تحاول أن تنظف وجهها، ولكن هذا زاد الطـين بلـة، فأخذ المنديل منها، ومسح فمها، وذقنها، وطرف أنفها وهي تحدق إليه بنظرة بريئة. بينما هو ينظر إليها، تطلب الأمر منه كل ما يملكه كي لا يستسلم لتلك اللحظة ولكل ما شعر به تجاهها. ثم قال: "ها أنت الآن تتمتعـين بـوجه نظـيف". لم يلمح شيء في سلوكه ولو تلميحاً طفيفاً إلى المشاعر التي بدأت تعتمل في داخله.

سـألته بابتـسامة عريضة: "أتريد واحدة أخرى؟"، فتنهد وتمدد على الأرض بجانب المدفأة. وبدت ساقاه طويلتين وكتفاه عريضتين وقويتين كما كانتا بالضبط وهو صبي.

"كلا. أتساءل إن كانت طائرتي ستؤجل بسبب الثلج". تمنى أن يحدث هـذا، بالرغم من أنه توجب عليه أن يعود. لكنه لم يحب شيئاً أكثر من أن يمكث معها في نيويورك بسبب الثلج. خالجته مشاعر لم تكن لديه أي فكرة عمـا يفعله حيالها. أيقن أن عليه أن يعود عندما يستطيع ذلك. صعب عليه أن يعـرف أنهـا ستعاني من أوقات عصيبة في المستقبل وأنه لن يتواجد هـناك لمساعدتها سوى بصوته عبر الهاتف أو برسائله. لم يبدُ ذلك كافياً. فقد أراد أن يحميها من المعاملة المجحفة التي كان ألكس سيعرّضها لها.

قالـت لـه: "سأتصل وأتفقد رحلتك". ذهبت إلى الهاتف في الردهة. وعادت بعد خمس دقائق. كانت الرحلة لا تزال في وقتها المحدد.

قال لها بابتسامة ناعسة: "هذا سيئ جداً".

بعد ساعة، نهض عن الأرض كعملاق نائم. فقد حان الوقت لأن يذهب. عند الساعة الخامسة، حزم حاجياته، وارتدت فيث معطفها.

قـال وهو يراقبها: "ليس عليك أن تأتي". لم تكن لديها أي فكرة عن مدى جمالها، وهذا ما شكّل دائماً جزءاً من سحرها.

"أعلـم أنه ليس عليّ ذلك، ولكنني أريد أن آتي على أي حال. فليس لدي شيء آخر لأفعله". أرادت أن تمضي معه أطول وقت ممكن.

اسـتدعى بـراد سيارة أجرة، ووضع حقائبه في الصندوق. ثم جلس بجانـبها علـى المقعـد. أصبح الثلج أكثر غزارة مما كان عليه وهما في المتنـزه. بدأ الظلام يسود. ولم تكن هناك حركة مرور عصر يوم الأحد. فوصلا إلى مطار كنيدي في وقت قياسي بالرغم من الثلج. فقد أبقت وزارة المواصـلات الطرقات خالية من الثلج. وبدا كل شيء طبيعياً في المطار. كانت الرحلة لا تزال في وقتها المحدد.

ذهـبت معه ليشتري بعض المجلات، واشترت له كتاباً اعتقدت أنه سيعجبه.

قالـت وهـي تبتـسم بامتنان: "شكراً لك على إطعامي واصطحابي خارجاً. لقد أمضيت وقتاً رائعاً. وسأفتقدك كثيراً".

"سأتـصل بك. تأكدي فقط من أن تحسني التصرف. تناولي طعامك، واذهبـي إلـى الكلية، ولا تعملي فوق الحدّ. ولا تدعي ألكس يثير جنونك. افعلـي مـا يقوله لك محاميك... ونظفي أسنانك... واغسلي وجهك... ولا تلوثي وجهك بالحلوى... وكوني طيبة مع نفسك، يا فرد".

قالت له وهي تبدو كطفلة ضائعة وهو يعانقها مودعاً: "وأنت أيضاً". قبّل رأسها.

"سأتصل بك غداً. فسيكون الوقت متأخراً جداً لأتصل بك عندما أصل إلـى البـيت". لم يكن ليصل إلى بيته قبل الساعة الثانية بتوقيت نيويورك. كان يأمل أن تخلد إلى النوم بحلول ذلك الوقت.

قالت له مرة أخرى: "شكراً لك على كل شيء". وتشبثت به. شعرت أن وداعـه مثل انسياب جاك من بين يديها مرة أخرى. سادت لحظة فزع وموجة من الحزن واليأس. شعرت أنها حمقاء لتعلقها به. ثم تركته أخيراً.

عانقها مرة أخيرة. ثم تبع المسافرين الآخرين في الممر الرئيسي إلى الطائرة. عندما انعطف في الزاوية، ابتسم ولوّح لها مرة أخيرة. وقفت في مكان الأمتعة وهي تراقب الطائرة تدرج بعيداً. ثم خرجت من المطار وهي مطرقة. واستدعت سيارة أجرة.

بدا الطريق إلى المنزل طويلاً جداً. ووجدت المنزل صامتاً كالقبر عندما وصلت إليه. كان الثلج لا يزال يتساقط، ولم يبدُ المنزل أكثر سكوناً من ذي قبل. لم تتناول العشاء تلك الليلة، فقد افتقدته كثيراً. قامت بمجرد الصعود إلى الطابق العلوي، وأوت إلى الفراش. كانت نائمة بعمق عندما رن الهاتف عند الساعة الثانية. لبرهة وجيزة، لم تعرف حتى أين كانت.

كانت إلويز هي المتصلة من لندن قبل ذهابها إلى العمل. بدت غاضبة جداً، وكانت فيث لا تزال نصف نائمة عندما أجابت.

"آه... ماذا؟... آه... ايلي... مرحباً، يا عزيزتي... كلا، كلا، إنني مستيقظة". لم تعرف لماذا اعتادت أن تكذب إن أيقظها أحدهم، ولكنها كانت دائماً تفعل ذلك. استغرقت دقيقة كي تستجمع أفكارها. ثم أدركت أن الوقت بدا مبكراً بالنسبة إلى إلويز. كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً بتوقيت لندن. فقالت: "هل أنت بخير؟".

فقالت بغضب: "نعم". حالما استيقظت فيث بدا لها بوضوح أن ابنتها الكبرى كانت تستشيط غضباً. ثم قالت بلهجة تدل على الأهمية: "لقد تحدثت إلى والدي البارحة وأخبرني بما فعلتِه".

فقالت فيث وهي تبدو خالية من التعبير: "ما فعلتُه؟"، ثم شعرت بموجة من الخوف تغمرها بشعور بارد. تساءلت عما قاله لها. ثم قالت: "ما الذي فعلتُه؟".

"لقد أخبرني أنك قررت ألا تبقي متزوجة، وأن تذهبي إلى الكلية".

"قال ذلك؟"، بدت فيث مرعوبة. كيف يمكنه أن يكذب على ابنته بتلك الطريقة؟ كانت زوي على الأقل تعرف الحقيقة.

"نعم، لقد فعل ذلك، يا أمي. كيف يمكنك أن تدمري عائلتنا بهذه الطريقة من أجل كلية الحقوق السخيفة؟ ألا تأبهين لأمرنا؟ أو لأمره، بعد كل تلك السنوات؟ كيف يمكنك أن تكوني أنانية وخائنة؟"، في أثناء كلامها، أجهشت بالبكاء. وبكت فيث أيضاً.

"ليس هذا ما حدث... يا إيلي. وهذا أمر معقد. وهو بيني وبين والدك". شعرت فيث أن الشرف يحتم عليها ألا تنشر غسيلها القذر أمام الفتاتين، ومهما يكن ألكس وضيعاً معها، فلم ترد أن تنحدر لنفس مستوى الألاعيب التي يلعبها. وثقت أن ابنتيها ستدركان الحقيقة في النهاية، وظلت فيث متشبثة بهذه اللياقة كما تتشبث بحبل النجاة في العاصفة.

"ألا تعتقدين أن هذا يؤثر فينا؟ ألا تعتقدين أنه يهمنا؟ إننا لن نحظى حتى بمكان لنمكث فيه عندما نعود إلى البيت. فهو يقول إنك تريدين أن تبيعي المنزل". كانت هذه إجابة عن سؤالها المتعلق بالمنزل. كعادته، وجّه أصابع الاتهام إليها.

"إننا حتى لم نتكلم عن المنزل. كلا، لا أريد أن أبيعه. لكن ربما هذا هو ما يريده والدك. أنا لم أرد هذا الطلاق قط. بل هو من أراده".

"هذه كذبة. فهو يقول إنك أنت من تريدينه، وإنك أجبرته على ذلك بعودتك إلى الكلية".

"إنني لم أجبره على شيء، بل عرضت عليه حتى أن أترك الكلية".

"لا أصدق أي كلمة مما تقولينه. فوالدي يقول إنك تخططين لهذا منذ وقت طويل وإنك أخبرته قبل عام إنك تريدين الطلاق". شعرت فيث بالغثيان وهي تصغي إليها، واستطاعت أن تدرك خطة اللعبة الآن. فإن استطاع أن يقنعهما أنها أخبرته بذلك قبل عام، فهذا قد يبرر موقفه حالما تعرفان بأمر علاقته بليزلي جيمس، إن هما اكتشفتا الحقيقة. بدت خطة بالغة الذكاء. نجحت معه حتى الآن، مع إلويز على الأقل. كانت القصتان المختلفتان اختلافاً جذرياً ستجعلان الفتاتين تتشاجران مع بعضهما بعضاً.

قالت فيث وهي تبذل جهدها لتحافظ على هدوء أعصابها: "يا إلويز، إنني لا أريد أن أقول إن والدك لم يكن صادقاً معك، ولكنه ليس صادقاً. إنني لم أطلب منه الطلاق قط. لم أرد أن أضع حداً لزواجنا. كانت هذه خطته هو، وما أراده. أنا لا أريد ذلك. لا أريد أن أبيع المنزل، وهو لم يقل لي كلمة واحدة بهذا الصدد". شعرت بأنها إن تشبثت بقول الحقيقة من دون

أن تسيء إليه، فستدرك إيلي الموقف في النهاية. ولكن إيلي لم تسهّل الأمور عليها.

"أنت كاذبة. أعتقد أنه من الوضاعة أن تهجريه. آمل أن تفشلي في التخرج وأن تطردي من الكلية لأنك دمّرت حياتي". وبهذا، أغلقت الخط. جلست فيث وهي مصعوقة والدموع تنهمر من عينيها. بدا تصرفاً مشيناً من جانبه أن يسمم أفكار إيلي ضدها. كان من المحتم لهذا أن يسبب شجاراً كبيراً بين الفتاتين لأن زوي كانت تعلم الحقيقة، على الأقل في ما يتعلق بمعاملة ألكس لها. لم تعرف بالضبط السبب في ذلك. فقد أرادت فيث أن تحميهما من معرفة الحقيقة لأنها ستشوه صورة ألكس في نظر ابنتيه. شعرت فيث أن ذلك ليس منصفاً. لكن ألكس لم يكن يعرف شيئاً عن الإنصاف. وما فعله كان أقسى تصرف قام به ليفصلها عن إلويز. الآن بدأت فيث تقلق بشأن المنزل.

تمددت على سريرها وهي مستيقظة لساعة من الوقت. ثم اتصلت بزوي وهي تشعر بالذنب. علمت أن زوي كانت تسهر حتى وقت متأخر. فردت على الهاتف حالما رن.

قالت وهي تبدو مسرورة لسماع صوت أمها: "مرحباً، يا أمي".

سألتها فيث بتوتر: "هل أيقظتك؟".

"بالطبع لا. فأنا مستيقظة. هل أنت على ما يرام؟".

قالت فيث بصراحة: "كلا. لقد اتصلت بي إيلي لتوها".

سألتها زوي قائلة: "هل أخبرتها؟"، شعرت بالاستياء للتغييرات في حياة والديها منذ سمعت الخبر. أجرت حديثاً موجزاً مع والدها. فلم يقل لها الكثير، ولا سيما بعد أن قالت زوي إنها أمضت عطلة نهاية الأسبوع مع أمها. وأنهى المكالمة بعد ذلك.

شرحت لها فيث قائلة: "كلا، لم أخبرها، بل فعل والدك ذلك". شعرت فيث بالقلق الشديد من أن تصرفها بعدالة ولياقة كان سينقلب عليها ويخرّب علاقتها بإيلي إلى الأبد.

"كيف حالها؟".

"غاضبة جداً. إنها تكرهني. فقد أخبرها والدك أنني لم أكن أريد أن أبقى متزوجة به بينما أذهب إلى الكلية، لذا طلبت الطلاق. أخبرها حتى أنني طلبت الطلاق قبل عام من الآن".

"لماذا سيقول شيئاً مماثلاً؟ هل هو صحيح؟"، بدت زوي متفاجئة، ولكنها كانت في صف والدتها دائماً.

"بالطبع لا. أعتقد أنني أعرف السبب في قوله هذا، ولكن ذلك بعيد عن الموضوع. وبيت القصيد هنا هو أنه جعل إيلي تعتقد أنني أردت ذلك، وطردته من حياتي. هذا مجحف جداً". لم تعد فيث في قاموس مفردات ألكس، وربما لم تكن فيه قط، كما أدركت الآن.

قالت زوي: "ما الخبر الجديد في هذا؟ إن والدي لم يتعامل معك بإنصاف قط". عرفت لوقت طويل أنه يكذب. فقد كذب عليها بشأن أمور صغيرة عدة، وساهم هذا في هدم ثقتها به. ثم قالت زوي: "ستكتشف الحقيقة. وما كان ينبغي عليها أن تشعر بالاستياء هكذا لو أنك الشخص الذي أراد الطلاق. فهذا أمر بديهي تماماً". لكن فيث لم تشعر بالاطمئنان. فقد تعرضت إيلي للاستغلال التام على يد أبيها.

"إنها لا تعرف حتى مدى استيائي. فهي لم تمنحني فرصة للكلام قط. قالت فقط إنني متوحشة وإنني دمرت حياتها". لم تخبر زوي عن المنزل. إذ إنها أرادت أن تتحدث إلى ألكس أولاً. أرادت أن تعرف موقفه من ذلك لأنه إن أجبرها على بيع المنزل فسيثير ذلك استياء الجميع وليس استياءها هي فقط.

"دعيها تهدأ وحسب. سأتحدث إليها. يمكنك أن تتحدثي إليها عندما تأتي". أرادت إلويز أن تأتي للزيارة في شهر آذار، ولكن فيث تساءلت الآن إن كانت ستأتي إلى البيت.

قالت فيث وهي تبدو قلقة: "ربما ينبغي عليّ أن أذهب إليها هناك".

"اتركيها تهدّئ من روعها أولاً. اكتبي لها رسالة أو شيئاً من هذا القبيل، يا أمي، وستكتشف الحقيقة. فمن الواضح أنك لا تريدين هذا الطلاق". ما لم يكن واضحاً لزوي الآن، وما لم تقله أمها، هو لماذا أراد والدها الطلاق، ولكن بدا من الواضح لها أن أمها لا تريد أن تذكر السبب. تملكها شعور أن هناك ما هو أكثر من ذلك في القصة. وكانت على حق كعادتها.

قالت فيث: "إنني أشعر بالاشمئزاز من هذا". شعرت بالراحة أنها تمكنت من أن تتحدث إليها. فقد أصبحت زوي صديقة بالإضافة إلى كونها ابنتها. كانت عاقلة وحكيمة بما يفوق عمرها.

"لطالما كانت ردود فعل إلويز سريعة هكذا، ثم تصبح منطقية في ما بعد. أعتقد أن والدي قد تصرف بدناءة تامة عندما قال هذه الأمور، ولكنني لست متفاجئة". لم يعد ذلك ذنب فيث بعد الآن. لم يكن هناك حدّ للمستوى الذي بدا ألكس راغباً بأن يصل إليه ليخرّب علاقتها بابنتها.

قالت فيث وهي متوترة: "سأتصل به غداً". كانت لا تزال تعتقد أنها تستطيع أن تقنعه بالمنطق، وهذا ما كان اعتقاداً ساذجاً.

"نامي قليلاً، يا أمي. حاولي أن تنسي هذا الموضوع، لهذه الليلة على الأقل. هل فعلت شيئاً في عطلة نهاية الأسبوع؟"، أرادت أن تتصل بها، ولكنها شعرت بالذنب لأنها لم تفعل ذلك. إذ لم يكن لديها متسع من الوقت.

قالت فيث بغموض: "لقد أتى صديقي براد إلى هنا من الساحل الغربي." كل ما استطاعت أن تفكر فيه الآن هو إيلي. بدا على زيارة براد أنها تلاشت من ذاكرتها.

قالت زوي وهي تبدو متأثرة: "هل أتى ليراك؟".

"كلا، لقد توجب عليه القيام ببعض الأعمال. ولكن كان من اللطيف أن أراه". تساءلت زوي عن ذلك، ولكنها قررت أن الوقت غير مناسب لأن تمازح أمها بشأنه. إذ إنها كانت تعاني من الكثير. ومهما تكن مشاعره تجاه أمها، فقد أيقنت أنه بالنسبة إلى فيث ليس سوى صديق.

ولكنه على الأقل شتت انتباهها عن مشاكلها لبضعة أيام. كان هذا مهماً على الأقل.

"اخلدي إلى النوم، يا أمي. وسأتّصل بك غداً. أحبك".

أغلقتا الخطّ، وتمددت فيث على سريرها مستيقظة لبقية تلك الليلة. كل ما استطاعت أن تفكّر فيه هو ما قالته لها إيلي. كل ما أرادت أن تفعله هو أن تتصل بألكس. لكن توجب عليها أن تنتظر حتى يذهب إلى مكتبه. فهو لم يخبرها عن مكان إقامته. أخيراً، عند الساعة السادسة صباحاً أرسلت رسالة إلى براد، وأيقنت أنه قد عاد إلى البيت بحلول ذلك الوقت. لم تطق أن تنتظر للحظة أخرى. فكتبت له كل شيء قالته إيلي. وبكت وهي تطبع الرسالة. بدا الكلام أسوأ حالما كتبته في الرسالة.

"... وماذا تعتقد أنها تعني بخصوص المنزل؟ يبدو وكأن ألكس يريد أن يبيعه. لماذا لم يخبرني أولاً؟ على أي حال، أنا محطّمة. أشعر بالغثيان لأن إيلي قد صدقت ما قاله لها. كيف سيسعني على الإطلاق أن أقنعها بالحقيقة؟ إنني لا أنوي أن أخبر أياً من الفتاتين عن المرأة الأخرى على الإطلاق. فهذا مهين لنا جميعاً. إنه يشعرني أنني وضيعة بقدر وضاعته إن أخبرتهما عنها. فهما لن تسامحا والدهما أبداً. أنا لا أحاول أن أخرّب علاقتهما به. فلماذا لا يسعه أن يكون منصفاً؟ لقد أخبر إيلي أنني طلبت الطلاق قبل عام من الآن. إنه يعتقد أن هذا على الأرجح يبرر تصرفه إن أردت أنا الطلاق. هذا يجعله يبدو جاداً حيال المرأة". استمرت في الحديث عنه محاولة أن تبقى منصفة معه بسبب إحساس باللياقة العقيمة وتشكو من الإجحاف الذي عانته في ذلك الوضع كله. تساءلت إن جعلتها معتقداتها الدينية العميقة منصفة فوق اللازم. كان ألكس يعرفها جيداً ويعرف أين تكمن نقطة ضعفها.

"إنني آسفة لأنني أهذي كالمجنونة. فأنا مرهقة ومستاءة. لقد أمضيت عطلة نهاية أسبوع جميلة. وأنا آسفة لأنني أزعجتك طوال هذا الوقت. لقد تصرف معي بمنتهى الوضاعة. ليس هناك ما يسعك أن تفعله حيال هذا،

ومجـرد التحدث إليك يساعدني. شكراً لك لتدليلي وإطعامي والتعامل معي بكـل طيـبة. لقد استمتعت كما هي العادة. سأعلمك بما يحدث معي هنا. أتمنى لك يوماً طيباً. مع حبي، فرد".

عند الساعة التاسعة اتصلت بألكس، وكان قد دخل المكتب لتوّه. فبدا منزعجاً عندما رفع السماعة.

"ماذا حدث؟".

قالت فيث وهي تبدو متوترة: "الكثير. أعتقد أنك قد تحدثت إلى إيلي. وذلك تصرف مشين لتقوم به".

"إنني لن أستمع إلى إهاناتك، يا فيث". هددها بإغلاق الخط. ثم قال: "لـدي الحـق في أن أخبر ابنتي بما أريده". اتخذ موقفاً دفاعياً على الفور، وكان يعلم مدى دناءته.

"ربما يكون من الأفضل لو أنك التزمت بقول الحقيقة، ولكنك أخبرتها أن الطلاق فكرتي أنا".

"حـسناً، هـذا صـحيح، ألـيس كذلك؟ لقد رميت بزواجنا في سلة المهملات عندما التحقت بالكلية".

"إننـي لم أفعل شيئاً من هذا القبيل. بل أنت من أحضرت امرأة إلى بيتي. هل أخبرتها بذلك؟".

"كلا. هل فعلت أنت ذلك؟".

"كـلا، لأننـي أريـد أن أكون منصفة معك، يا ألكس. وأنت سممت أفكارها ضدي". بدأت تبكي وهي تتحدث.

فاتهمها قائلاً: "هذا هو ما فعلته مع زوي، أليس كذلك؟".

"كـلا، هـذا ليس صحيحاً. أنت كذبت على إيلي، وجعلتها تعتقد أن الوضـع كله غلطتي أنا. أخبرتها أنني طلبت الطلاق قبل عام، وهذه كذبة مفضوحة". لم يتفوه بكلمة. ساد الصمت. فقد أمعن في التصرف بإجحاف. ثـم قالت فيث: "إنها تعتقد أنني أريد أن أبيع المنزل. فماذا يعني كل هذا؟"، بدأت دقات قلبها تتسارع وهي تتحدث إليه.

"إنك لا تتمتعين بأي خيار. فأنا أريد أن آخذ منك مالي. وستحصلين على نصف ثمن المنزل".

"لا أريـد أي مـال. بـل أريد المنزل، لأعيش فيه على الأقل. فأين سأعيش؟"، بدأت تجهش بالبكاء بسبب ما فعله بها.

قـال لها بدناءة: "يمكنك أن تسكني في الكلية". شعرت فيث بالرعب. فقـد كـان أكثر رجل حاقد عرفته في حياتها، ولم تعتقد قط أنه قادر على هذا. جعلها هذا تتساءل عما كان عليه دائماً. فتحت ظاهره الجليدي القاسي، لا يوجد أي قلب على الإطلاق.

قالت وهي تبدو مرعوبة: "أستطردني من المنزل؟".

"سـيناقش محاميّ المسألة مع محاميك". أوحت إليها الطريقة التي تحـدث بهـا أنه سيفعل هذا. لقد أراد أن يسلبها منزلها وزواجها وإحدى ابنتـيها بأكاذيبه. لقد دمر حياتها تماماً كما اتهمتها إيلي. لكن ألكس هو من فعل ذلك حقاً. قلقت من أن حقيقة تسديد ألكس لثمن المنزل لم تكن ستمنحها أي حق فيه على الإطلاق. لقد استثمرت حياتها ووقتها وقلبها في زواجها، ولكن المال المستثمر فيه كان ماله هو طوال فترة الزواج.

"لماذا تفعل كل هذا؟ كيف يمكنك أن تكرهني إلى هذا الحد؟ أكلُّ هذا لأنني ذهبت إلى الكلية؟ كم هذا تصرف مريض؟".

"إنه مريض بقدر تخليك عني لتتظاهري أنك مراهقة". لكن السبب لم يكـن يـتعلق بـذلك، كما أيقنت فيث، بل بالفتاة. شكّت في أن المرأة هي السبب في ما حدث كله. فقد كان هو من حاول أن يستعيد شبابه، ودمر كل شيء يحظيان به، ودمرها هي.

اتهمـته فيث قائلة: "إن كل هذا يتعلق بالمرأة". شعرت أن فعلها لذلك مبـرر، ثـم قالـت: "إنك تحاول أن تخفي هذا، ولكن ما فعلته يتنافى مع الاحتـرام الذي ينبغي عليك أن تكنّه لي. الآن تحاول أن تجعل نفسك تبدو نقـياً في نظر ابنتينا، ولكنك لست كذلك. أنت تعلم هذا، يا ألكس. ما الذي تفعله بالله عليك؟ هل ستتزوجها؟".

فقال لها ببرود: "ليس لدي المزيد لأقوله لك". أغلق الخط من دون أن ينتظر رداً منها. فجلست فيث وهي تحدق إلى الفضاء بعد أن فعل ذلك. ثم اتصلت بمحاميها لتطلب منه أن يحل مشكلة المنزل، فوعدها أن يفعل ذلك.

عندئذ لاحظت أن براد قد أرسل إليها رسالة في وقت ما خلال الساعات القليلة الفائتة عندما كانت تتحدث إلى ألكس على الأرجح.

"فرد المسكينة... يا له من مغفل! لا تقلقي بخصوص إيلي. فستدرك حقيقة الوضع. فالأولاد دائماً يتصرفون هكذا. لقد فعل والداي الأمر نفسه معي، ولكنني تجاوزته. بدا أنهما مصممان على تدمير بعضهما بعضاً. حاول كلاهما أن يستخدماني كرهينة، وهذا وضع بشع. لكنك لن تفعلي هذا. ستدرك إيلي من الذي يقوم به. انتظري وتحلّي بالصبر ورباطة الجأش. دافعي عن نفسك ضده، وتحدثي إلى محاميك. لا تتخلي عن المنزل. فهو مدين لك بهذا القدر. اصمدي. يجب عليّ أن أذهب إلى العمل مبكراً وأرى أي مصائب حلّت بي خلال عطلة نهاية الأسبوع. لقد أمضيت معك وقتاً رائعاً. أنت الإنجاز الأعظم والأجمل الذي تحقق في حياتي. اذهبي وتناولي طبق حلوى بالموز... وتأكدي فقط من أن تمسحي ذقنك. سأتحدث إليك لاحقاً. مع حبي، براد".

لطالما جعلها تبتسم، وأشعرها بالراحة. الآن عاد إلى حياتها ووقف إلى جانبها. عدّلت فيث جلستها على كرسيها، وقرأت الرسالة مرة أخرى، وشعرت أنها أكثر هدوءاً مما كانت عليه لسنوات. كل ما استطاعت أن تفعله هو أنها حمدت الله على وجوده في حياتها.

* * *

الفصل التاسع عشر

إنّ مخاوف فيث المتعلقة بالمنزل بدت صحيحة، أو صحيحة نوعاً ما على الأقل بالرغم من أن محاميها قد بدا مطمئناً في ذلك الموضوع. اتصل بها في اليوم التالي بعد أن عادت من الكلية. كانت تبلي بلاءً حسناً في الكلية، ولكن توجب عليها أن تبذل جهداً كي تركّز في الدروس. فقد أصبح ذهنها مشوشاً جداً بحيث لم تكن الأبحاث التي كتبتها مترابطة كما رغبت. وعكست درجاتها تلك الحقيقة. لكنها ظلت صامدة.

أجابت على الهاتف وهي تدخل من الباب. لم يحمل المحامي أخباراً سارة.

"إنك محقة. فهو يريد أن يجعلك تنتقلين من المنزل. ويمنحك مهلة تسعة عشر يوماً". وهذا يعني نهاية شهر أيار.

شحب وجه فيث وقالت: "يا الله. أيمكنه أن يفعل هذا؟".

"فقط إن وافقت على ذلك. ولا أعتقد أنه ينبغي عليك ذلك". فشعرت بالراحة لسماعه يقول هذا على الأقل. فقد راودتها خيالات عن أغراضها وهي ملقاة في الشارع. ثم قال المحامي: "إنه يدين لك بنصف المنزل بحسب قانون الملكية المشتركة، وإن أردت أخذ مالك، فينبغي أن تبيعي المنزل. فهو يريد أن يأخذ نصف المال، ويمكنه أن يجبرك على الانتقال بمرور الوقت ويطالبك بالبيع. ولكنه سيعقد تسوية من نوع ما معك. إن رغبت يمكنك أن تجعلي حصته من المنزل جزءاً من هذه التسوية فهذا هو ما سنفعله. أعتقد أنني أستطيع أن أحصل على ذلك من أجلك، يا فيث، إن كان هذا هو ما تريدينه. وإن لم يكن هذا ما تريدينه، فيمكنني أن أجبره

علـى الـسماح لـك بالبقاء وأعلّق مسألة حصوله على حصته لمدة غير محددة".

قالـت بصوت متهدج: "أريد أن أحتفظ بالمنزل". كل ما أرادته فعلاً هو ألا تنتقل، وألا تغير أي شيء، وأن تتشبث بكل ما يسعها أن تتشبث به من حياتها المألوفة التي استمرت لستة وعشرين عاماً. كانت تقاوم التغيير بقدر ما كانت تفقد المنزل.

"سـنناقش الموضوع معه في المحكمة. فلم تَردنا أي ملاحظات رسمية مـنه بعد. دعينا ننتظر لنعرف ماذا سيفعل. يجب عليه أن يمنحك مهلة زمنية على أي حال، فهو لا يستطيع أن يجبرك على الانتقال حتى تُحلّ هذه القضية".

لكـنه لم يستغرق وقتاً طويلاً، فقد استلمت رسالة من محاميه بحلول نهايـة الأسـبوع، فأرسلتها إلى محاميها طبعاً، ولكن ذُكِرَ في الرسالة أن ألكـس كان يريدها أن تنتقل وأن تعرض المنزل للبيع بأسرع وقت ممكن. مـنحوها مهلة زمنية لبضعة أيام، وطلبوا منها الانتقال بحلول نهاية شهر حزيـران. كان ذلك أقسى تصرف استطاعت أن تفكّر فيه، أي أن يطردها من منزلها، ولكن الأسوأ من ذلك كان إحضاره لصديقته إلى منزلها وكذبه على ابنتهما.

حـاول براد أن يطمئنها حالما تحدثا معاً. تركت لإيلي أكثر من ست رسـائل، ولكـنها لـم ترد على مكالماتها، وشعرت براحة قصوى عندما أخبرتها زوي أخيراً في نهاية شهر آذار أن إلويز كانت قادمة إلى المنزل.

"لماذا لم تخبرني؟ إنها لم ترد على أي من مكالماتي؟".

لـم يفاجئ ذلك زوي. فقد تشاجرت الأختان مع بعضهما بعنف عبر الهاتـف، وأخذت زوي تدافع عن أمها وإلويز تدافع عن أبيها، وكل واحدة منهما على قناعة تامة أن الأخرى قد تعرّضت للخداع والكذب.

كانـت زوي قد صاحت في وجهها في منتصف الليل قائلة: "إنك لا تعرفين عما تتحدثين!". ثم قالت زوي: "لقد تخلى عنها. فقد رأيتها في ذلك الأسبوع، وكان ينبغي عليك أن تريها وهي في ذلك الوضع".

"إنهـا تستحق ذلك. فقد طلبت منه الطلاق قبل عام من وراء ظهرنا، وهي الآن تجبره على بيع المنزل".

"هـذه كلها أكاذيب. ألا تدركين هذا، أيتها البلهاء؟ هذه هي حقيقته. فهـو يطـرد والدتـي، ويـريدها أن تخرج من المنزل في مطلع شهر حزيران".

"سيفعل ذلك، إذ ليس لديه خيار آخر. فهو يقول إنها تطلب منه الكثير من المال، وهذا أمر مشين أيضاً. والدتي تتصرف بوضاعة تامة، وهذا كله خطأها. أنت لا تريدين وحسب أن تدركي كم هي شريرة".

قالـت زوي مـتهمة أختها الكبرى: "أنت عمياء. وتعرضت لغسيل دمـاغ على يده". في النهاية أغلقتا الخط في وجه بعضهما بعضاً. توجب علـى زوي أن تقـوم بالمهمة البغيضة، وتخبر والدتها أن إلويز تنوي أن تمكـث مـع ألكـس في الأسبوع الذي ستمضيه في المدينة في الشقة التي اسـتأجرها بعـد أن رفضت أن تقيم في منزل والديها. كانت ستذهب إلى هناك فقط لتأخذ بعض الأغراض.

وصـلت إلى نيويورك في يوم سانت باتريك لتمضي أسبوع إجازة. ومضى يومان كاملان قبل أن تتصل بوالدتها التي بقيت في المنزل بانتظار أن تسمع خبراً منها وهي تشعر بالاشمئزاز من كل ما حدث. كل ما سمعته لدى اتصالها بشقة ألكس، حالما أعطتها زوي رقم الهاتف، كان صوت آلة الـرد. فلم ترد إيلي على أي من مكالماتها. تلهفت فيث لأن تسمع صوتها بحـيث إنهـا لم تذهب حتى إلى الكلية، ولكنها على الأقل مكثت في البيت لتدرس لامتحاناتها.

كـادت تجهش بالبكاء عندما سمعت صوت إيلي. لكن المكالمة كانت مختصرة ومباشرة. قالت إيلي إنها قادمة لتأخذ بعض ثيابها وإنها تأمل ألاّ تكون والدتها موجودة هناك. بالنسبة إلى فتاة تكاد تبلغ الخامسة والعشرين مـن عمرها، بدت طفولية بشكل غريب بالنسبة إلى فيث وقاسية من دون حاجة إلى ذلك.

كانت فيث في غرفة نومها عندما وصلت إلويز إلى البيت. لقد استغرقت فيث شهراً لتعاود الانتقال إلى غرفتها. فلم يبدُ لها تصرفاً عملياً أن تعيش في غرفة زوي. أخيراً، قررت أن تتجاهل كبرياءها ونفورها من النوم في سريرها مرة أخرى. كانت مستلقية عليه عندما رأت إلويز تدخل البيت. رأت والدتها ولم تنبس بكلمة واحدة.

خرجت فيث إلى رواق غرفتها، ووقفت لتشاهدها. سألتها بنعومة قائلة: "هل ستسلمين عليّ، يا إلويز؟". كان هناك ألم لا حدّ له في عينيها. كانت زوي لتقتل أختها لو أنها شاهدت أمها تبدو هكذا. لقد تمتعت إلويز بطبيعة أقسى وقلب بارد عاطفيّاً أكثر من أختها.

"لقد طلبت منك ألا تكوني هنا". وقفت هناك وهي تواجه أمها من أسفل الرواق. بدا أمراً مثيراً للعجب أن تعجز عن نسيان موضوع طلاق والديها وتشعر بالحاجة إلى أن تتحيز لأحدهما بتلك الطريقة. لكن والدها استغل تلك الناحية جيداً.

قالت فيث بهدوء: "هذا بيتي. وقد أردت أن أراك. فلا أريدك أن تفترقي عن العائلة بسبب هذه الفوضى. إن كان والدك مصمماً على هذا، فيجب علينا جميعاً أن نتجاوز هذا الوضع، فنحن لا نزال عائلة سواء أمكثت وإياه أم لا".

"لماذا تكترثين؟ فأنت من دمّرت العائلة وليس هو، وستبيعين هذا البيت، لذا، لا تتحدثي عن بيتك".

"لا أريد أن أفعل ذلك، ولكنني أستطيع أن أريك رسائل من محاميه يخبرني فيها أنه يتوجب عليّ أن أنتقل. فهو يحاول أن يطردني، يا إيلي. وأنا أحاول أن أبقى وأحافظ على البيت".

قالت وهي تبدو كطفلة وقحة: "يجب عليه أن يفعل ذلك لأنك تطلبين منه الكثير من المال".

"إننا حتى لم نتحدث عن ذلك بعد. ولا أعرف ما أريده. في هذا الوقت بالذات، أريد أن أبقى في هذا المنزل. أقسم لك بحياتنا جميعاً إن هذا صحيح".

قالت لها إلويز بغضب: "أنت تكذبين". ثم دخلت غرفتها، وأغلقت الباب بعنف. وقفت فيث وهي تتساءل كيف يمكن لابنتها أن تتصرف بهذا القدر من الكراهية وقلة الثقة والاحترام والطيبة. لم يعبّر ذلك عن الطريقة التي ربتهما بها، ولا عن شعور إلويز تجاهها. لم تكن طفلة، بل راشدة. كانت تستخدم أسلحة فتاكة لتدمر أمها. لقد أعطاها ألكس تلك الأسلحة، ولكنها لم تتردد في استخدامها ضدها. فُطر قلب فيث لأن تفكر في الضرر الذي يمكنها أن تلحقه بهم. لن تعود عائلتهم إلى سابق عهدها مرة أخرى. لقد كانت هذه هدية ألكس الأخيرة للجميع.

خرجت إلويز من غرفتها بعد نصف ساعة وبحوزتها بعض الثياب وحقيبتان صغيرتان بينما راقبتها فيث بقلب متألم.

سألتها فيث بهدوء: "لماذا تكرهينني إلى هذا الحد، يا إيلي؟"، لقد أرادت فعلاً أن تعرف. لم يسعها أن تدرك ما فعلته لتتسبب برد فعل كهذا.

"إنني أكره ما فعلته لوالدي". شعرت فيث بالإغراء للحظة لأن تخبرها ما فعله والدها وعن المرأة التي أحضرها إلى البيت والملابس التي وجدتها. لكن أخلاقياتها أجبرتها على ألا تقدح في ألكس أمام ابنتيهما بالرغم من أن إغراء فعل ذلك أخذ يزداد قوة كل يوم، ولا سيما في وجه اتهامات إيلي. لكنها لم تود أن تجر ابنتيها إلى حرب مع والدهما. ظلت أخلاقياتها سائدة مهما كلفتها من ثمن، بالرغم من أنها شعرت بالحماقة بسببها في بعض الأوقات.

"إنني لم أفعل له شيئاً، يا إيلي. ولا أعرف كيف أقنعك بذلك. يحطم قلبي أنك لا تثقين بي إلى هذا الحد".

"ما كان ينبغي عليك قط أن تعودي إلى الكلية. فقد فطر هذا قلب والدي". لم يخطر ببالها قط كم يبدو موقفه غير منطقي. إذ إنها بدت متأثرة بكلامه بشكل كامل.

قالت فيث محاولة أن تحافظ على هدوئها وألا تبدو مثيرة للشفقة كما كان شعورها: "أود أن أراك في أثناء فترة مكوثك هنا".

قالت إلويز بقسوة: "ليس لدي متسع من الوقت. أريد تمضية وقتي مع والدي".

"ما رأيك بتناول الغداء؟".

قالت إلويز: "سأعلمك". ثم نزلت الدرج بحركة تنمّ عن غضب وتوتّر، وخرجت من الباب. حالما أغلقت الباب خلفها، جلست فيث على الدرج، وانفجرت بالبكاء. في ما عدا اليوم الذي خرج فيه ألكس من البيت ويوم وفاة أخيها، كان ذلك أسوأ يوم في حياتها. شعرت وكأنها فقدت ابنتها الكبرى. لم يكن لديها القدرة لتتصل بزوي أو براد. لم تزعج نفسها بإشعال الأنوار تلك الليلة. فحالما هبط الظلام، خلدت إلى النوم.

ما لم تعلمه فيث هو أن زوي قد سافرت إلى نيويورك، وقابلت إلويز، وتشاجرت الفتاتان شجاراً عنيفاً آخر. اعتقدت زوي أنه من المثير للاشمئزاز أن تخون إلويز أمها وتنحاز إلى أبيها. تشاجرتا حول ذلك لساعات، ثم توجب على زوي أن تسافر عائدة إلى مدينة بروفيدنس. لم تُرِد حتى أن تعرف والدتها أنها أتت إلى المدينة وأنها وإلويز قد تشاجرتا. إذ إنها علمت أن ذلك سيثير استياء فيث أكثر من ذي قبل.

شعرت فيث وكأنها تسبح في أعماق البحر في الأيام التي تلت ذلك. فقد حاولت أن تحافظ على درجات جيدة في الكلية وأن تعيد السلام بينها وبين إلويز، بالرغم من أن جهودها لم تؤتِ ثمارها، فقد عادت إيلي إلى لندن من دون أن تراها. بعد يومين من سماعها ذلك، أصبحت فيث طريحة الفراش وهي مصابة بالأنفلونزا. كانت على تلك الحال عندما وصلتها أوراق الطلاق. كان محاميها يتفاوض مع ألكس بشأن المنزل. تصرف بدناءة تامة حيال ذلك، وأصر أنه يريدها أن تنتقل منه. في غمرة أحزانها، لم تواتها الشجاعة قط لتكتب لبراد. اتصل بها كل يوم ليطمئن على حالها. فأحياناً لم تكن تجيب على مكالماته، بل تكتفي بالتحديق إلى الفضاء وهي تسمع صوته عبر آلة الرد.

أخيراً، قال لها بعد أن مضت أربعة أيام لم تتحدث إليه فيها: "لقد قلقت عليك". اتصل بها عند منتصف الليل. فأجابت.

قالت بضعف: "إنني على ما يرام". كانت لا تزال تسعل من الأنفلونزا، ولكنها عادت إلى الكلية.

"هذا غير صحيح. فأنتِ تبدين ضعيفة وتعيسة". علم أن إلويز قد عادت إلى لندن من دون أن تراها، وأثار هذا استياءه كثيراً. فلقد تعرضت إلويز للاستغلال التام على يد ألكس. وكره براد ما حل بفيث جراء ذلك. لقد عانت من وقت عصيب جداً. ثم قال: "إنك بحاجة إلى إجازة. ينبغي عليّ أن آخذك معي إلى أفريقيا".

"إنني واثقة أن بام ستحب هذا كثيراً".

"إنها في الواقع ستحبه فعلاً، وخاصة إن ذهبت بدلاً منها. فهي تكره دول العالم الثالث. إنها خائفة من الرحلة. ولم أرَ في حياتي هذا المقدار من الأدوية وطاردات الحشرات. فهي ستأخذ حقيبة كاملة مليئة بتلك المواد والطعام المعلّب. إذ إن بام لا تترك أي شيء للصدفة".

سألته وهي تضحك أخيراً: "هل ستجعلك تسافر باللباس الرسمي؟"، لطالما أبهجها التحدث إليه.

"على الأرجح. في الواقع سأسافر عن طريق نيويورك، وسأقابلها في لندن. إنها ستسافر من هنا مباشرة إلى هناك، وسأمضي يوماً وليلة في المدينة". هذه المرة توجب عليه فعلاً أن يقابل أحد المحامين بخصوص قضية من قضاياه، وخشي أن يترك القاصر تحت رحمة قانون ربما يتركه معرضاً لعقوبة الإعدام إن تمّت إدانته. أراد براد أن يحظى ببعض النصائح من محام يحترمه في نيويورك، وأراد أن يمضي بعض الوقت معه وجهاً لوجه لساعة أو لساعتين على الأقل. ثم قال براد: "أيمكنك أن تتناولي العشاء معي إن بقيت على قيد الحياة حتى ذلك الوقت؟ هل تتناولين دواء لهذا السعال؟".

"ليس الكثير. فدواء السعال يصيبني بالنعاس، ولدي ثلاثة واجبات عليّ إنجازها".

"لدي خبر لك. إن الموتى لا ينالون درجات جيدة".

فضحكت وقالت: "هذا ما أخشاه. متى ستصل؟".

"يوم الخميس. فكري أين تريدين أن تتناولي العشاء واحجزي لنا طاولة، ما لم تودي أن أطهو لك". كان راغباً أن يفعل أي شيء لتمضية الوقت معها. شعر بالراحة لأن بام لم ترد أن تذهب إلى نيويورك. ثم قال: "لا أطيق الانتظار لأرى الولدين". لكنه حالما قال ذلك أدرك أنه ذكّرها بإلويز، وشعر بالأسف أنه طرح ذلك الموضوع.

قالت فيث: "وأنا لا أطيق الانتظار لأراك". فقد مضى شهر تقريباً منذ زيارته الأخيرة إلى نيويورك.

"أنا أيضاً، يا فرد. اعتني بنفسك". اعتقد أنها كانت بحال مريعة، وتملّكه قلق حقيقي عليها. لقد عانت الكثير من المتاعب، وأيقن أنها تعاني من توتر إضافي وهي تنتظر أن تسمع خبراً من كلية الحقوق. لكن ذلك كان آخر همومها، ولم تتوقع أن تسمع خبراً منهم قبل مرور شهر.

بحلول الوقت الذي أتى فيه إلى المدينة بعد ثلاثة أيام، كانت حالها قد تحسّنت، وكأنها شفيت تقريباً من الأنفلونزا. بدت نحيلة وشاحبة وأكثر توتراً مما بدت عليه قبل شهر. لكنه أدرك مدى استيائها بسبب إيلي وبشأن المنزل. فقد سبب لها ذلك الكثير من المعاناة.

قررت أن تعدّ له العشاء. وقالت إنها لا تود فعلاً أن تخرج من المنزل. أقلقه ذلك أيضاً. تمكن من إقناعها باصطحابها لتناول طبق حلوى الموز كتحلية بعد ذلك. بعد أن تناولت مقداراً ضئيلاً من العشاء الذي طهته، سرّه أن يراها تتناول الحلوى. لقد استقبلته كما تستقبل أخاً تاه عنها منذ وقت طويل، فرمت بنفسها بين ذراعيه عندما دخل المنزل، ورفع جسمها النحيل عن الأرض. لقد أصبحت أكثر هزالاً من ذي قبل.

سألته وهي تتناول ملعقة كبيرة من المثلجات بالشوكولاته: "إذاً، كم ستمكث في أفريقيا؟"، ابتسم وهو يمسح بقعة صغيرة من الكريما المخفوقة عن أنفها.

مازحها قائلاً: "لماذا تلوثين وجهك بالطعام طوال الوقت؟"، ثم أخبرها أنه سيغيب لأسبوعين. شعر بالرعب لأنه لن يتحدث إليها. فقد أحب أن

يعلم عن حالها وأن يتواجد إلى جانبها. فعندما لم تكن في حالة سيئة بسبب الطلاق أو شيء فعله ألكس لها، اعتادا أن يتحدثا أو يتراسلا عبر البريد الإلكتروني. استمر ذلك لخمسة أشهر حتى الآن. أصبحت جزءاً هاماً من حياته، وأصبح يعوّل على التواصل معها. لم يكن يصغي إلى مشاكلها فقط وقلقها، ولكن يشاركها مشاكله أيضاً. لم تعجبه حقيقة أنها لن تتمكن من مراسلته. فأعطاها ورقة دوّن عليها بضعة أرقام يمكنها أن تترك له رسائل عليها، لا أكثر من ذلك. بالضبط كما لم يستطع أن يتواصل مع ولديه في المحمية، لم يكن يسعها هي أن تتواصل مع براد وهو هناك مع ولديه. فقال لها بحزن: "سأمضي أسبوعين طويلين من دون التحدث إليك". وكان باستطاعته أن ينتظر في الصف في مكتب البريد لعدة ساعات على أمل أن يحظى بخط هاتف. لكن ولديه لم يتمكّنا من ذلك في أغلب الأحيان. لم يكن هناك مجال لأن يفسر ذلك لبام.

قالت وهي تبدو حزينة: "أعلم هذا. كنت أفكر لتوي في الأمر". لقد حظيت بأصدقاء عدة على مدى السنوات، وصديقات كبر أطفالهن مع ابنتيها أو نساء أخريات في لجان الأعمال الخيرية. لكن منذ وفاة جاك، أصبحت انعزالية كثيراً. لم يحب ألكس أصدقاءها قط. وأصبح من الصعب أن تفسر سبب عدم انسجامهم. في النهاية، انجرفت بعيداً عنهم ببساطة، وأصبح الشخص الوحيد الذي تفضي إليه بأسرارها هو براد. وحالما عادت إلى الكلية، والآن بعد أن طلب ألكس الطلاق، انسحبت من حياة الجميع، باستثناء براد. وأصبح من دون شك صديقها الوحيد والمفضل.

حذّرها وهو يشاركها بعضاً من طبق الحلوى: "من الأفضل لك أن تحسني التصرف في أثناء غيابي، يا فرد. هل يمكنني أن أعوّل عليك لتعتني بنفسك؟"، لقد تملّكه قلق حقيقي عليها.

"كلا على الأرجح. ولكنني سأكون على ما يرام. ربما سأسمع خبراً من كلية الحقوق قبل أن تعود. ولكن ربما ما زال الوقت مبكراً".

"كوني طيبة وحسب، وتناولي طعامك، واخلدي إلى النوم، واذهبي إلى الكلية، وتحدثي إلى زوي كثيراً". لم يقابلها بعد، ولكنه أعجب بها بعد كل ما أخبرته إياه فيث عن موقفها إزاء طلاق والديها، واعتقد أنها قد قدّمت نصيحة جيدة لأمها. بدا من الغرابة لفيث أيضاً أنه ذاهب إلى لندن وأن إلويز كانت هناك، ولكنه لم يكن يستطيع أن يزورها أو يحمل لها أي رسائل. لقد واظبت فيث على الاتصال بها عدة مرات في الأسبوع لتبقي مجال الحوار مفتوحاً بينهما على الأقل، ولكن إلويز أمعنت في تجاهلها. فكانت محادثاتهما مختصرة ومباشرة إن هي تلقّتها على الإطلاق. معظم الأوقات، اعتادت إيلي أن تتفقد مكالماتها لتتجنب التحدث إلى والدتها، ونادراً ما تسنى لفيث أن تتحدّث إليها.

سارا عائدين إلى منزلها بعد ذلك. فدخل لبعض الوقت، وجلسا في غرفة نومها هذه المرة. أشعل براد ناراً في المدفأة، وجلس على الكرسي المريح الذي اعتاد ألكس أن يجلس عليه، وجلست عند قدمي براد وهو يربّت على شعرها. خالجها إحساس مريح جداً ومحب بشأنه. لم يسعها إلا أن تفكر في مدى وفرة حظ بام. لكنها أدركت عندئذٍ أن بام لم تعد ترى هذا الجزء منه أو تريده. فقد أقصت نفسها عنه لسنوات. لقد أصبحت تنال العزاء الذي تحتاج إليه من أصدقائها في حين أن فيث كانت تنعم بدفء كل تلك المشاعر التي منحها إياها.

قال لها بهدوء: "سأفتقدك، يا فرد". استندت إليه وهي لا تزال جالسة عند قدميه. فمد يده، وأمسك بيدها. جلسا بصمت على هذا النحو لوقت طويل وهما يتأملان النار. للمرة الأولى، أدركت فيث شعوراً لم تشعر به من قبل قط نحوه وبمدٍّ من الأحاسيس يندفع باتجاهه. لم تكن لديها أي فكرة عما تفعله حيال هذا أو ما تقوله له، إن أرادت أن تقول شيئاً. لكن عندما رفعت نظرها إليه، تملّكها الخوف فجأة. لاحظ شيئاً في عينيها، وقال: "أهناك خطب ما؟"، فحدثتها نفسها أن هناك خطباً كبيراً. فلم يكن لها الحق في أن تخالجها تلك المشاعر تجاهه أبداً. كل ما استطاعت أن تفعله هو هزّ

رأسها. فقال لها: "لقد بدوت خائفة فجأة. أكنت تفكرين في المنزل؟"، فأومأت برأسها وهي لا تعرف ما تقول. لكن المسألة لم تكن تتعلق بالمنزل، بل به هو. تملّكها الرعب فجأة من أن تكون زوي محقة، ليس بشأن براد، ولكن بشأنها هي. فقد أسعدها وجوده كثيراً بحيث إنها أرادت المزيد منه. لقد بدأت تقع في حبه، وأيقنت أن تلك الفكرة كانت لترعبه، بالضبط كما كانت لتفعل بها. كان آخر شيء أرادته هو أن تجعل حياته الهادئة مضطربة كما حدث في حياتها. مهما يكن شعورها نحوه، فقد علمت أنها يجب أن تدفنه من دون أن يعلم به أبداً.

التزمت الصمت بشكل غريب تلك الليلة. ولاحظ هو ذلك. فأخذ يتصرف بحذر مماثل كيلا يستغلّها. أرادها أن تشعر بالراحة والأمان معه طوال الوقت، وكانت تشعر هكذا فعلاً.

غادر عند منتصف الليل تقريباً، وتوجب عليه أن ينهض باكراً في صباح اليوم التالي. كان سيذهب من اجتماعه مباشرة إلى المطار في أثناء وجودها في الكلية. عرضت عليه أن تتغيب عن بعض محاضراتها كي ترافقه إلى المطار، ولكنه لم يعتقد أن تعطيل حياتها من أجله فكرة حسنة.

"سأتصل بك من المطار في لندن. بعد ذلك سيتوجب علينا أن نتصرف كالأولاد الكبار طوال الأسبوعين التاليين؟ أتعتقدين أنك تستطيعين ذلك؟". لم تكن هناك خيارات أخرى. لكنهما شعرا بالقلق لاحتمال عدم قدرتهما على التواصل لأسبوعين. أيقنت فيث أن الرابطة التي تشكلت بينهما رابطة غير عادية وأنها أصبحت أشبه بالإدمان لكل منهما. كان السفر اختباراً لقدرتهما الذاتية على تدبّر أمريهما من دون بعضهما الآن.

اعترفت له قائلة: "سأعاني كثيراً من دون التحدث إليك".

"وأنا أيضاً". لكن لم يعد هناك ما يسعهما أن يفعلاه.

احتضنها بحنان بين ذراعيه لوقت طويل قبل أن يغادر، وضمّها بقوة بحيث إنه أصبح بالكاد في وسعها أن تتنفس.

قال لها بالضبط كما كان جاك ليقول: "أحبك، يا فرد". مع ذلك فقد خالجتها مشاعر أكثر من تلك تجاهه. في وقت لم يعلما فيه ما كان يحدث، تسلل براد إلى جزء آخر من قلبها. توجب عليها أن تخرجه من هناك مرة أخرى من دون أن يعلم بذلك قط. أيقنت أن الأمر عائد إليها. فلم تذكر له شيئاً عن ذلك وهي تقبّله على خده وتلوح له عندما غادر.

نهضت فيث، وغادرت المنزل بحلول الساعة السابعة والنصف في اليوم التالي. مشت مسافة الشارعين إلى دار العبادة في شارع ليكسنغتون آفنيو تحت المطر. بدت تلك عقوبة مناسبة شعرت أنها تستحقها. تحدثت إلى رجل الدين هامسة قبل بدء الاحتفال الديني وهي تعلم أن عليها أن تخبر أحداً. فقد اقترفت عملاً رهيباً. اكتشفت ذلك لتوها. لقد كانت مغرمة به من كل قلبها وروحها وهو متزوج بامرأة أخرى، وينوي أن يحافظ على هذا الزواج. لم يكن لها الحق أن تجازف بحياته وزواجه وسلامه النفسي. أخبرت نفسها ورجل الدين بذلك، كما أخبرته أنها أساءت استخدام الصداقة الأخوية التي منحها إياها، وأنه يجب عليها الآن أن تعثر على طريق العودة وأن تتخلى عن مشاعرها تجاهه.

كان قلق عميق لا يزال يتملكها وهي تمشي عائدة إلى البيت تحت المطر. عندما وصلت وأصغت إلى رسائلها على آلة الرد، كانت ثمة رسالتان من براد. لقد اتصل بها قبل أن يغادر الفندق ليشكرها على تمضية الليلة الفائتة بصحبتها، وبدا صوته لطيفاً كعادته وكلماته على القدر نفسه من اللطف. شعرت بموجة من الحب نحوه تغلّفها وهي تصغي إليه، فأغمضت عينيها. شعرت بالسعادة الآن أنه سافر إلى أفريقيا وأنهما لن يتمكنا من أن يتحدثا إلى بعضهما بعضاً في أثناء غيابه. لقد احتاجت إلى بعض الوقت كي تغير مجرى مشاعرها نحوه وتعيدها إلى وضعها الطبيعي. لقد حظيت الآن بأسبوعين كي تنتزعه من قلبها مرة أخرى، وتشفي جرحها.

* * *

الفصل العشرون

لم يتصل براد قبل مغادرة رحلته إلى لندن لأنه كان يعلم أنها في الكلية. لكنه فكّر فيها وهو جالس في المطار وبعد أن أقلعت الطائرة. وقام بمجرد الجلوس وهو يحدق من النافذة ويفكّر فيها. كان الجلوس بجانبها أمام النار في الليلة الفائتة كل ما أراده من الحياة على الإطلاق، وأدرك أنه لن يحظى به. فقد أيقن أنه لا يملك أي حق فيها، إذ إنها استحقت حياة طيبة مع شخص يحبها ويتعامل معها بطيبة. لم تكن لديه النية في أن يترك بام، وكانت فيث تستحق أكثر من جزء بسيط من حياة رجل متزوج. لم يود أن يفعل هذا بها قط. بل شعر فقط بالامتنان أنها لم تبدُ مدركة لمشاعره تجاهها. لكنه على عكس فيث لم تتولد لديه الرغبة بأن يخمد المشاعر التي خالجته نحوها. كل ما أراده هو أن يخفيها ويعتز بها. وفي ما عدا حبه لولديه، أصبحت هي أكثر ما يهمه في حياته.

بعد وقت قصير، خلد إلى النوم، وبقي نائماً معظم الرحلة. استيقظ لتناول العشاء، ثم عاد إلى النوم مرة أخرى. أخيراً، عندما استيقظ قبل الهبوط بقليل، كان لا يزال يفكر في فيث. تولّد لديه انطباع واضح أنه حلم بها طوال الليل.

هبطت الطائرة قبل الساعة الواحدة بالضبط بتوقيت نيويورك. توجّه نحو الهاتف مباشرة، واستخدم بطاقته الائتمانية ليتصل بها. أراد أن يسلّم عليها قبل أن ينضم إلى بام في الفندق. كانا سيغادران إلى زامبيا تلك الليلة.

رن الهاتف مرتين، فرفعت فيث السماعة، وأجابت بصوت ناعس. كان الوقت منتصف الليل عندها.

"مرحباً؟"، ولم يسعها أن تتخيل أنه المتصل. ابتسمت عندما سمعت صوت براد.

اعتذر لها قائلاً: "آسف لأنني أيقظتك. فقد أردت فقط أن أودعك مرة أخرى".

نهضت من سريرها وهي تحمل الهاتف، وفتحت عينيها، ثم سألته قائلة: "كيف كانت اجتماعاتك في نيويورك؟".

"عظيمة. فقد حظيت ببعض النصائح القيّمة من صديقي. ولا أعرف إن هي ستنجح، ولكنني سأبذل جهدي عندما أعود". كانت فيث تعلم مدى أهمية تلك القضية له. فقد خسر قضية قبل شهرين. وزُجَّ بشاب في السادسة عشرة من عمره في السجن لخمس سنوات. تحطّمت آمال براد. كان على قناعة أن الغلطة غلطته هو لأنه لم ينجز عملاً أفضل.

فطمأنته قائلة: "أنا على يقين أنك ستفعل هذا. كيف يبدو الطقس في لندن؟".

"متجمد وبارد وماطر كالمعتاد".

فابتسمت وقالت: "تبدو مثل نيويورك". شعرت بالسعادة لاتصاله بها على الرغم من مشاكلها.

"أتمنى لو يسعني أن أزور إلويز من أجلك. فأنا أعتقد أنني أستطيع أن أجعلها تصغي إليّ. أود أن أحاول هذا". لكنهما علما أن ذلك مستحيل. فقد كان غريباً بالنسبة إلى ابنتها.

"أتمنى لو تستطيع ذلك. هل ستقوم بأي شيء مميز في لندن؟". بدا من الغرابة أن تفكر فيه وهو بصحبة بام لأسبوعين. كانت سبل حياتهما مختلفة معظم الأوقات، وشكّت أن القرب الدائم بينهما سيبدو صعباً عليه وربما عليها أيضاً. فقد أصبحا الآن غريبين مع بعضهما بعضاً تقريباً. وكانت الأرضية المشتركة الوحيدة بينهما تكمن فقط في ولديهما.

"ليس الكثير. فبام ستذهب للتسوق. وأعتقد أنني سأذهب إلى المتحف البريطاني لبضع ساعات. ربما سأصطحبها للتسوق، ولكنها ستثير جنوني

بعد بعض الوقت". ثم خطرت له فكرة، فقال: "ربما سأذهب إلى دار العبادة، وأشعل شمعة لك ولجاك". جعلتها فكرة قيامه بذلك تبتسم وهي مستلقية وتصغي إليه في الظلام.

قالت له: "إن هذا يسبب الإدمان، أليس كذلك؟"، فضحك.

فقال بلطف: "نعم، هذا صحيح. الأمر الغريب هو أنني أعتقد بذلك بشدة. كأن شيئاً مميزاً سيحدث للمرء أو أنه سينعم بالأمان طيلة فترة بقاء ذلك الضوء الصغير هناك. أريد أن أمنحك هذا".

"لقد سبق ومنحتني إياه، ولكنني أقدّر أن تشعل الشموع من أجلي أيضاً. أنا آسفة أنني فوتُّ مكالماتك صباح اليوم. فقد ذهبت إلى دار العبادة في وقت مبكر فعلاً".

"هذا غريب. فقد راودني شعور عن مكانك. إذ إنك بدوت جادة بشكل غريب الليلة الماضية، يا فرِد. هل كنت على ما يرام؟". كانت تفكّر فيه وفي كل مشاعرها نحوه. لم تكن لديها النية في أن تخبره عن ذلك، وأنه سيتوجب عليها أن تذهب إلى دار العبادة للأمر ذاته مرة أخرى.

فطمأنته قائلة: "أنا على ما يرام. هناك فقط أمور كثيرة تجري في حياتي هذه الأيام. ثمة الكثير لأفكر في شأنه".

"أعلم هذا. ولهذا السبب قلقت عليك". بعد أن ساد الصمت للحظة، تنهّد وأخبرها أن عليه أن يذهب إلى الفندق. فقال: "اعتني بنفسك، يا فرِد. وسأتحدث إليك بعد أسبوعين".

قالت له: "اعتنِ بنفسك أيضاً. واستمتع بوقتك". ثم أقفل السماعة، واستلقت على سريرها وهي تفكر فيه لساعات بعد أن انتهت المكالمة. بدا أن انتزاع براد من قلبها ليس أمراً سهلاً لتقوم به. كان تغيير مشاعرها إلى أن تعود لمجرد صداقة مرة أخرى صعباً بالقدر نفسه. لم تكن لديها أي فكرة عما ستفعله.

كانت الساعة تشير إلى السادسة بتوقيت بريطانيا عندما وصل براد. بعد أن عبر الجمارك، واتصل بفيث، واستقل سيارة ليموزين إلى المدينة،

كانت الساعة تشير إلى التاسعة. كانت بام قد مكثت في الفندق في الليلة الفائتة، وسبق وغادرت عندما دخل الغرفة بعد أن تركت له رسالة تخبره فيها أنها ستعود في الوقت المحدد لتغادر إلى المطار بصحبته وأن كل حقائبها محزومة. كانت قد أحضرت معها أغراضاً فائضة عن الحاجة كعادتها.

استحم براد، وحلق ذقنه، وطلب طعاماً من خدمة الغرف، وقرأ الصحيفة، وغادر الفندق. ذهب إلى المتحف البريطاني كما قال لفيث. فعثر على دار عبادة قديمة جميلة في شارع كينغزوي على بعد ستة شوارع من المتحف، وأشعل الشمعة التي وعدها بها من أجلها ومن أجل جاك. جلس في دار العبادة لوقت طويل وهو يفكر فيها، وفي شدّة احترامها، وفي كم تمنى لو يستطيع أن يفعل المزيد من أجلها. ثم ذهب في نزهة طويلة. فوصل أخيراً إلى شارع نيو بوند، ودخل بعض المعارض الفنية ومتجر تحف ليشاهد مجسّمات الحيوانات المصنوعة من الفضّة والبضائع الجلدية، ثم صادف بام وهي تخرج من متجر غرافس للمجوهرات، أحد أهم متاجر المجوهرات في العالم.

قال لها محذّراً: "إن أخبرتني أنك اشتريت لتوك شيئاً ما فسأصاب بنوبة قلبية". فضحكت.

قالت ببراءة: "لقد كنت أرى فحسب". لم تخبره أنها اشترت سواراً ماسياً وساعة جديدة. كانوا سيرسلونهما إلى بيتها، لذا لم يتوجب عليها أن تخبر الحقيقة لبراد بعد.

كانت قد استأجرت سيارة ليموزين من الفندق فركب براد معها. بدت بام أنيقة جداً وهي ترتدي طقماً كحلي اللون ومعطفاً واقياً من المطر مزيّناً بالفرو. كان من الصعب أن يتخيلها المرء في أفريقيا. إذ إنها بدت أكثر استرخاء في لندن وهي جالسة في سيارة الليموزين.

سألته بلطف وهما في طريقهما إلى الفندق: "ماذا فعلت اليوم؟"، فابتسم لنفسه وهو يفكر كم سيصيبها الرعب إن هو أخبرها أنه ذهب إلى دار العبادة.

فقال لها براد ببراءة: "لقد ذهبت إلى المتحف البريطاني".

ابتسمت وقالت: "كم هذا عقلاني". توقفت السيارة أمام الفندق، وهرع البواب وجماعة من الحمالين لمساعدتهما. أخرج السائق نصف دزينة من حقائب التسوق من صندوق السيارة من أجلها. فتأوه براد عندما رآها.

"آمل أنك أحضرت حقيبة سفر أخرى لتضعيها فيها إن كنت تنوين أن تأخذيها كلها إلى أفريقيا". لم يستطع حتى أن يتخيل ما اشترته. فقد أحضرت معها حقائب من ماركات غوتشي، وهيرميز وسان لوران، وشانيل، ناهيك عن تسوقها في متجر غرافس للمجوهرات.

قالت له: "لدي متسع في حقيبة سفري. فلا تقلق بهذا الخصوص". ثم توجهت إلى داخل الفندق وتبعها الحمالون وبحوزتهم حقائبها. دهش براد وهو في الخلف كم بدت مختلفة عن فيث. فقد كانت قوية وواثقة من نفسها ولا تتردد في أن تملي على الناس أفعالهم وأن تعطي انطباعاً أنها ستملك العالم إن سنحت لها الفرصة. أما فيث فقد بدت أكثر لطفاً وهدوءاً ورقة في أسلوبها بكثير. كلما تواجد بقربها شعر بالسلام. وإن هو تواجد مع بام شعر أنه واقف على فوهة بركان على وشك أن ينفجر من دون أن يدري قط متى سيدوّي ذلك الانفجار.

لم يقولا شيئاً لبعضهما وهما في المصعد. ثم التفتت بام لتنظر إليه وهما يدخلان الغرفة. شعرت وكأنها لم تره لوقت طويل. كان ذلك صحيحاً من بعض النواحي حتى لو أنهما يعيشان تحت سقف واحد.

قالت بام وهي تجلس على أحد الكراسي الضخمة في غرفة معيشة جناحهما: "من المؤسف أن الولدين في أفريقيا". لطالما اعتادت أن تقيم في الفنادق الفخمة وأن تستأجر أجنحة كبيرة. ثم قالت وهي تخلع حذاءها: "أتمنى لو أنهما يعيشان في مكان حضاري أكثر مثل باريس أو نيويورك".

قال براد: "لا أعتقد أن هذا ممتع لهما". فتح زجاجة شراب فرنسي من الثلاجة، وعرض عليها بعضه.

قالت له: "كلا على الأرجح". بالكاد أخذت نفساً قبل أن تطرح سؤالها التالي. لطالما تحلّت بالذكاء، وقرأت أفكاره جيداً. علمت أن لديه ما يشغل باله. بالرغم من أنهما لم يكونا مقربين، فلطالما تمتعت بفطرة قوية تجاهه، ولكــنها ليــست دائمــاً فطرة سليمة. كل ما أرادته أحياناً هو أن تحاصره وتثبت أنها تستطيع ذلك. فسألته: "كيف كانت نيويورك؟".

فقــال لها وهو يبدو مسروراً: "جيدة جداً. فقد حظيت بكل المعلومات التي أردتها من جويل ستيانمان في تلك القضية التي أعمل عليها".

"هذا لطيف". لم تكن قط مهتمة بعمله أكثر من اهتمامه هو بعملها. ثم قالت: "كيف حال صديقتك؟". يا للروعة! لقد استطاعت أن تقرأ أفكاره في عينيه مهما حاول أن يخفيها.

"فـيث؟"، لــم يكن ينوي أن يخفي الأمر عنها أو يمنحها السعادة لأن تكتــشف ذلك في وقت متأخر. فقال: "بخير. فقد تناولت العشاء معها الليلة الماضية".

قالت بام بلهجة خالية من العواطف: "هل أدركت أنك مغرم بها؟".

حظـــيت بكل ما تريده منه، كالاحترام، والرفقة المحدودة، والراحة التي يمنحها عدم فك رباط زواج حظيا به لسنوات، وهذا ما كان ليزعجها أن تتخلى عنه بقدر ما كان ليزعجه. فهذا هو السبب في أنهما بقيا متزوجين. فقــد بــدا الوضــع ناجحاً بالنسبة إليهما. لكن طبيعة سؤالها ولهجتها لم تعجبه.

"كــلا، لــم تفعــل لأنني لست مغرماً بها". اكتشفت بام ذلك قبل أن يكتشفه هو، ولكنه لم يضمر النية في أن يعترف لها بذلك. عرف الآن في قرارة نفسه أنها محقة، ولكن الوضع كان سيصبح خطيراً لجميع المتعلقين بـــه إن اعترف لها بحبّه. وفوق كل شيء، فقد كان مديناً لفيث بحمايتها. ثم قال: "قلت لك إننا صديقان قديمان".

"لا يــسعني أن أدرك إن أنــت تكذب على نفسك أو عليّ أو عليها. فأنت على الأرجح تكذب على ثلاثتنا جميعاً".

قـــال براد وهو يبدو منزعجاً: "تلك لوحة جميلة رسمتها في خيالك". أخذ رشفة من شرابه. وأخذت بام ترتشف شرابها بهدوء وهي تراقبه.

قالــت لـــه مازحــة: "لا تــبدُ غاضباً جداً. فلا بد من أنك مغرم بها لتتصرف بهذه الدفاعية. هذه ليست مشكلة كبيرة، يا براد. فقد تعرضنا لها من قبل. ما الذي يجعلك تتصرف بهذه الحساسية؟ ما هو الشيء المهم فوق العادة لدى هذه المرأة؟".

"إنهــا أخــت صديقي المفضل المتوفى. وقد نشأت معها. إنها أشبه بأختــي الــصغرى. أعتقد أنه من قلة الاحترام أن تلمحي بتلك التلميحات عنها".

"آســفة إن أنــا قليلة الاحترام، يا عزيزي. فأنت تعرف من أنا. وأنا أقــول رأيـــي بــصراحة، وأعــرفك أنت جيداً. أعتقد أنك تكنّ لها بعض المشاعر. هذا ليس مهماً. فأنا لا أتصرف بحساسية حيال هذا الأمر. فلماذا ينبغــي عليك ذلك؟". لقد كان لديها أسلوب في التطفل على حياته من دون أي احتــرام أو حــساسية. ذلك هو السبب في أن زواجهما لم يعد ناجحاً. بطريقة أو بأخرى، داست على مشاعره. كان ذلك أحد الأمور التي أحبها فـــي فيث. فقد تعاملت بطيبة معه ومع الجميع. بينما تعاملت بام بالقوة مع كل شخص، وخاصة معه.

"لــمَ لا ننسى هذا الموضوع بالذات لبقية الرحلة؟ أعتقد أنها ستسير بشكل أفضل بالنسبة إلينا إن فعلنا ذلك". كانا على وشك أن يمضيا وقتاً معاً بمفردهما أكثر مما فعلا خلال سنوات. كان يسعهما في سان فرانسيسكو أن يبــتعدا عن بعضهما ويعيش كلّ منهما حياته الخاصة. أما في هذه الرحلة، فقد أصبح الوضع وكأنهما توأمان ملتصقان. لم يشعر براد بالبهجة لذلك.

تمكّــنا من أن يمتنعا عن الشجار طوال الساعتين التاليتين. فاستحمّت بـــام وأخــذ براد قيلولة. طلبا شطائر من خدمة الغرف قبل أن يغادرا إلى المطار. كانا سيمضيان ليلة طويلة. فقد كان أمامهما اثنتا عشرة ساعة حتى تهــبط الطائرة في لوساكا في زامبيا. من هناك، توجب عليهما أن يستقلا

طائرة أخرى إلى كالابو عبر نهر زامبيزي من شلالات فيكتوريا. وعد الشابان أن يلتقياهما بسيارة فان ليأخذاهما إلى المتنزه القومي حيث كانا يعيشان ويعملان.

ذهبت بام في أثناء انتظارهما في مطار هيثرو لتتفقد المتاجر، وذهب براد ليشتري كتاباً. حاول أن يتصل بفيث، ولكنه لم يجدها في المنزل. فترك لها رسالة مع حبه. التقى ببام مرة أخرى بعد نصف ساعة عند البوابة، فسلمته علبة هدية مغلفة.

"ما هذه؟".

قالت له معتذرة: "هدية لك. إنني آسفة أنني أغظتك بشأن صديقتك". لقد كانت بعض الأمور تتجاوز الحد، وبدأت تعتقد أن تلك المرأة كذلك، مما أكد فقط على ما اعتقدته. ولكنها فضّلت أن تتصالح معه قبل الرحلة.

قال لها وهو يبدو متأثراً: "شكراً لك، يا بام". فتح الهدية ليجد كاميرا صغيرة يابانية الصنع ذات عدسة بانورامية. وبدت مثالية من أجل الرحلة. ثم قال: "يا لها من هدية لطيفة، شكراً". ذكّره ذلك قليلاً أنهما أحبا بعضهما في الماضي وكانا صديقين، ولكن وقتاً طويلاً قد مضى منذ ذلك الحين. فقد حدثت أمور كثيرة يجب أن تنسى، وصادفا خيبات أمل في حياتهما بحيث لا يرتبطان بأكثر من رباط الصداقة. لكن هذا بدا كافياً في هذه الرحلة على الأقل.

جلسا على مقعديهما في الطائرة، وطلبا العشاء، واختارا أفلاماً من أجل شاشتيهما المنفصلتين. أخرجت بام مجموعة من مجلات الأزياء التي اشترتها، وبعض الأوراق من المكتب. فقد كانت تعمل على بعض الصفقات الكبيرة عندما غادرت. وعدها والدها أنه سيتولّى أمرها من أجلها. كان هو الشخص الوحيد الذي تثق به فعلاً في الشركة. في ما عدا ذلك، اعتادت أن تعتمد على نفسها. بالرغم من وجود كل المحامين الآخرين والموظفين المؤهلين من حولها، فقد كانت تدير كل شيء بنفسها. لم تكن بام تعمل جيداً ضمن فريق عمل، وكذلك براد. ولم يلتقيا ببعضهما

قط وهما يعملان معاً. كان يتولى أمر موكليه، كما تتولى هي أمر موكليها. اعتادا أن يتجادلا باستمرار حول العمل، وذلك هو أحد الأسباب في أنه ترك الشركة. فلطالما شعر أنه مقيّد بوجود بام وأبيها. شكّل ذلك جزءاً من سبب غضبها منه عندما ترك العمل. إذ إنها فقدت سيطرتها عليه، وذلك هو أكثر ما أحبه حيال العمل وحده. إذ إنه أصبح رجلاً مستقلاً وغير مرتبط بها أو بأبيها.

لم يقولا الكثير لبعضهما في الرحلة. وبدوَا خائري القوى عندما وصلا إلى أول مطار. لم ينل أي منهما قسطاً من النوم. بينما جلس براد وهو يشاهد الفيلم الذي اختاره، وكل ما استطاع أن يفكر فيه هو فيث. فضّل أن يموت على أن يعترف لها بهذا، ولكن بام كانت على حق. فهو لم يستطع أن يبعدها عن تفكيره. ساوره قلق بشأن مشاعرها ووضعها وما كان ألكس يفعله بها. خشي أن يقترف ألكس شيئاً مريعاً في حقها في أثناء غيابه. شعر بالأسف لخيانة إيلي، وكل ما استطاع أن يفكر فيه كان العشرة آلاف مشكلة التي ربما تحدث لها في غيابه من دون أن يكون هناك أي مجال لأن تتصل به.

قالت بام بجفاء وهما ينتظران رحلتهما التالية: "إنك تبدو بحال مريعة".

"أنا متعب".

"أنا أيضاً. آمل أن يقدّر الولدان أننا قطعنا كل تلك المسافة من أجلهما. بدأت أعتقد أنه كان ينبغي علينا أن ننتظر حتى يعودا إلى البيت". لكن براد افتقدهما كثيراً، وقد وعداهما أنهما سيذهبان لزيارتهما، فأقنع بام أنها ستكون رحلة رائعة. لكنها بدأت تقلق من الآن بشأن الطعام والمياه عندما وصلا إلى رحلتهما التالية. وهذه المرة استسلما للنوم بسبب الإرهاق الشديد.

كان الوقت صباحاً في كالوبو عندما وصلا. استيقظا في اللحظة نفسها بالضبط عندما لامست إطارات الطائرة الأرض. كان شروق الشمس

مدهشاً والسماء ملونة باللونين الزهري والبرتقالي والشمس تعلو في السماء فوق الجبال. استطاعا أن يشاهدا قطعاناً من الحيوانات متجمّعة في السهول. لم يرَ براد قط شيئاً كهذا في حياته. بدا على الأرض أنها تمتد إلى ما لانهاية. كان يوجد فقط القليل من الطرقات والسيارات. كان هناك رجال قبيلة أنصاف عراة يقفون قرب الطريق المُعبّد بانتظار الناس ليترجّلوا من الطائرة.

بدا هذا المكان أبعد ما يكون عن الحضارة. لكن براد لم يكترث أين يهبطان أو ما يعبرانه ليصلا إلى هناك. فقد مرت تسعة أشهر منذ رأى ولديه، وكان هذا كافياً بالنسبة إليه. أراد أن يفعل أي شيء ليراهما.

نزلا الدرج إلى الطريق المُعبّد. دخلا إلى المكان المخصّص للأمتعة كي يمرّا على الجمارك، وهناك وقف رجل حافي القدمين يرتدي قميصاً قطنياً وسروالاً قصيراً أبيض. بدا رأسه يشبه منحوتة أفريقية. حدّق بدهشة إليهما وتفقد جوازي سفرهما ثم صرفهما. كان موظف الجمارك يتمتع بوجه وسلوك كان ليخيف بام لو أنها بمفردها. كل ما أرادته هو أن تعود إلى لندن ثم إلى البيت. بدا العزاء الوحيد هو مقابلة جايسن وديلن، ولكن من وجهة نظر بام، كان التواجد هناك ثمناً باهظاً لرؤية ولديها.

صاح براد من الانفعال في اللحظة التي رآهما فيها. كانا منتظرين بجانب سيارة الفان في الخارج عندما خرج براد وبام والحمال. أسرعا نحو والديهما وعانقاهما. هما شابان وسيمان وطويلا القامة، يتمتعان بشعر أشقر أصبح أفتح لوناً بسبب الشمس، ووجهين داكنين من أشعة الشمس بحيث إنهما بدوَا كالسكان الأصليين. كانا توأمين متطابقين وشبيهين ببراد حتى الطبعة التي تتوسّط ذقنه باستثناء الشعر الأشقر الذي لم يتمكن أحد من تفسيره سوى بأنهما ورثاه عن أحد أجداد والديه. لطالما قال براد إن هناك جداً سويدياً لهما. كان شعرهما أقرب إلى البياض وهما طفلان. أدرك براد عندما رآهما أن لون شعرهما هو نفس لون شعر فيث. فشكل ذلك شيئاً إضافياً ذكّره بها، حتى وهو هنا.

قال براد ضاحكاً: "أنتما تبدوان رائعين". فقد ازداد وزنهما، وكوّنا عضلات قوية عند ظهريهما وأكتافهما وأذرعهما بسبب العمل الذي كانا يقومان به. أصبحا شبيهين برياضيي كمال الأجسام، وهما يرتديان قميصين قطنيين وسروالي جينز، وحتى بام بدت مبتهجة الآن لوجودها هناك. فقد شعرت بالروعة لأن تراهما.

قال ديلن: "أنت أيضاً تبدو رائعاً، يا أبي". ساعد جايسن أمه على حمل حقائبها. كان براد وحده هو القادر على التمييز بينهما. لطالما أقسم إنهما يبدوان مختلفين بشكل واضح. لم تكن بام واثقة أبداً مع من منهما تتحدث. فحلت المشكلة بإلباسهما ملابس مختلفة الألوان وهما صغيران. فتعلّما في ما بعد أن يتبادلاها. لكن حتى الآن، وهما راشدان، بدا من الصعب التمييز بينهما. كان جايسن أطول بربع بوصة، لكن ذلك لم يظهر الفارق بينهما.

تحدثا عن الكثير من المعلومات المثيرة للاهتمام وهم في طريق العودة إلى متنزه سهل ليوانا القومي قرب نهر زامبيزي حيث كانا يعيشان ويعملان. أخذا يتحدثان عن المناظر التي يمرّون بها ويسمّيان الحيوانات في القفر على طول الطريق. ما كانوا يرونه هو بالضبط ما تمناه براد. فسرّه أنهما أتيا، وأدرك أكثر من أي وقت مضى كم هي تجربة استثنائية بالنسبة إلى الولدين. أيقن أنهما لن ينسياها قط، وأنه سيكون من الصعب أن يكررا التجربة حالما يعودان إلى البيت. لقد توجب عليهما العودة في شهر تموز بالرغم من أنهما تحدثا عن البقاء في لندن لعام أو ربما لستة أشهر ليسافرا عبر أوروبا قبل أن يلتحقا بكلية الدراسات العليا أو يعثرا على وظيفة في بلدهما. كانت بام مصممة على أن تضغط عليهما ليلتحقا بكلية الحقوق. بعد ما شاهداه، لم يعد براد واثقاً أنها تملك فرصة في ذلك. فقد تعرّفا إلى عالم أوسع. كانت التجربة لا تقدّر بثمن بالنسبة إليهما. لم يعبّر أي واحد منهما عن اهتمامه بالقانون ولا بالعمل لديها في ما بعد.

استغرقا أربع ساعات لِيقودا في الشوارع الضيقة والطرقات المحفّرة إلى المحمية في المتنزه القومي. بحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى هناك، بــدأت بـــام تبدو عصبية. فقد تملّكها انطباع أنهما يعيشان في نهاية العالم. كانـــا كذلك فعلاً. وأحب براد هذا، بالضبط كما أحبه الشابان. بدت وكأنها مـــستعدة للعـــودة إلى البيت، وأصبح الوضع أسوأ حالما وصلوا. فقد كان موظفـــو المحمـــية يعيشون في خيم في الهواء الطلق، وكان هناك مبنيان ضـــيقان، أحدهما يستخدم كغرفة استجمام ومكتب، والآخر يُستخدم كقاعة طعـــام، بالإضـــافة إلى غرفتين صغيرتين للضيوف. كان الشابان قد أخذا غرفة من أجلهما، ولكن براد فضّل النوم مع الشابين في خيمتهما.

قالـــت بام بسرعة: "لن أفعل هذا!"، فضحكوا جميعاً. كان هناك حمام خـــارج المنـــزل هو عبارة عن خيمة كبيرة فيه خرطوم مياه ومراحيض خارجـــية. كانت في الواقع من بين أكثر المحميات ترفاً في المنطقة، لكنها ليـــست فخمة كالمحميات في كينيا، والتي كانت بام لتفضّلها. فقد بدت هذه من وجهة نظرها سيئة جداً. وقالت بصوت منخفض عندما فتح ديلن الباب وأراها المرحاض: "يا الله! أهذا هو؟"؛ جعلتها فكرة تمضية أسبوعين هناك تكاد تجهش بالبكاء.

قـــال بـــراد بهدوء: "ستكونين بخير". وربّت على كتفها. فردت عليه بنظـــرة قاســـية، وهمـــست له بينما خرج الولدان ليحضرا لهما بطانيات ووسائد قائلة: "فكرة من هذه؟"، فضحك براد.

قـــال: "إنها فكرة ولديك. فقد أرادانا أن نرى أين عاشا طوال الأشهر التسعة الفائتة. ستعتادين على هذا، أعدك".

"لا تعوّل على هذا كثيراً". كان براد يعرفها جيداً بما يكفي ليعلم أنها محقة على الأرجح. ولكنه علم أيضاً أنها ستحاول. فقد اعتادت على الدلال والـــراحة، ولكـــنها إن تعرضت لحاجة ملحة، أصبحت قادرة على التمتع بـــروح معنوية عالية. بذلت جهداً في ذلك من أجل الولدين بالرغم من أنها أوشكت على أن تفقد وعيها عندما رأت أول أفعى. حذّرها الشابان من أن

هـــناك حـــشرات بحجم قبضة يدها يمكن أن تطير عبر الغرفة ليلاً. جعلها مجرد سماع ذلك تود أن تصرخ أو أن تحزم أمتعتها وتعود إلى البيت.

أمضوا ليلتهم الأولى في الهواء الطلق، وهم جالسون حول النار يصغون إلـــى أصـــوات الليل الأفريقي. لم يكن براد قد شاهد شيئاً كهذا من قبل، وأحبه كثيـــراً. في اليوم التالي، ذهب براد في جولة طويلة بالسيارة مع الشابين عبر الطرقات الرملية إلى لوكولو، وهي بلدة تسوّق، ومكثت بام في المخيم. فلم تود أن تغامـــر أكثر من ذلك. راودتها خيالات أن شاحنتهم قد هاجمها وحيد القرن أو قفز عليها أسد أو قلبها جاموس. لم تكن خيالاتها غير مصيبة تماماً. فبعض تلـــك الأمور حدثت فعلاً، ولكن معظم الأوقات كان الناس في المحمية يعرفون مـــا يفعلـــون، وكذلك أصبح ولداها بحلول ذلك الوقت. عاد براد وهو يتحدث بانفعال عن كل شيء شاهدوه في طريقهم.

بالنـــسبة إلى الأسبوع الأول، بدا على الأيام أنها تمر بسرعة البرق. كان الشيء الوحيد الذي تلهّف براد للحصول عليه هو هاتف كي يتسنى له الاتصال بفيث وإخبارها عما شاهده. كل ما أرادته بام كان أن تحصل على حمام. لكنها توقفت عن التذمر بعد مرور الأيام القليلة الأولى.

أخـــذهما الشابان أيضاً إلى نغولوانا، على الطرف المقابل للنهر من المتنزه حيث عملا بحفر الخنادق وبناء المنازل وترميم دار عبادة منهارة. كانا حالياً يساعدان على بناء مكتب طبي، حيث كان أحد الأطباء يأتي مرة فـــي الشهر ليعالج المرضى والمصابين. كان أقرب مستشفى يقع على بعد ساعتين في الموسم الجاف، في لوكولو، ويستغرق ضعف المدة في الطقس الماطر، إن تمكن المرء من الوصول إلى هناك على الإطلاق. كان الخيار الآخـــر الوحـــيد هو الوصول إلى هناك في طائرة صغيرة. فلم يبدُ المكان مناســـباً ليمرض المرء فيه، كما علّقت بام، ووافقها براد. لكنه شعر أيضاً بالإعجـــاب لمقدار العمل الذي أنجزه ولداه من أجل السكان المحليين. بدا على الجميع أنهم يعرفونهما ويحبونهما. لوّح عدد من الناس وابتسموا تحية لهما وهما يمران بهم. شعر كل من بام وبراد بفخر عارم بسببهما.

بحلول الأسبوع الثاني، وقع براد في حب أفريقيا نفسها، وسكانها، وأصواتها، وروائحها، ولياليها الدافئة، وشروق الشمس وغروبها المدهشين، والضوء الذي يتعذّر وصفه. لم تبتعد الكاميرا عن يديه قط. أدرك فجأة سبب حب ولديه للبقاء هناك. فقد كان مكاناً غريباً. كان ليود أن يمضي عاماً هناك. أما بام، بعد كل جهودها في رفع روحها المعنوية، فقد أكلت كل شيء قدّماه لها وتعلّمت أن تستحمّ في الخيمة الخارجية، ولا تزال تجفل عندما تستخدم المرحاض وتصرخ عندما ترى الحشرات. بقدر ما كانت تحب ولديها، فلم تطق الانتظار لتعود إلى البيت. فذلك المكان لم يناسبها وحسب. في ليلتها الأخيرة هناك، ارتسم على وجهها تعبير يدلّ على الراحة والسعادة.

هنّأها جايسن قائلاً: "أنت تتمتعين بروح رياضية رائعة، يا أمي".

وعانقها ديلن. كان براد هو من اغتمّ للذهاب. إذ إنه أمضى أسبوعين وهو ينام في خيمتهما ويذهب معهما في جولات بالسيارة ليلاً وينهض معهما قبل بزوغ الفجر. شاهد قتل الحيوانات وفرارها الجماعي، وحفرة ماء كانت الفِيَلة العجوزة والمريضة تذهب لتموت فيها. شاهد أشياء قرأ عنها أو حلم بها فقط. شكّل هذا لحظة في حياته علم أنه لن ينساها قط، وأحب أن يشاركهما إياها. وعنى ذلك الكثير للشابين. كان لديهما ما يتحدثان ويفضيان به إلى والدهما أكثر مما فعلا في سنوات طويلة. فأخبراه أنهما ليسا مهتمين بكلية الحقوق، كما ظن، ولكنهما خشيا أن يخبرا بام. كان ديلن يفكّر في الالتحاق بكلية الطب ويعود ليعمل في دول العالم الثالث ويعالج الأطفال الذين يعانون من الأمراض الاستوائية. أراد جايسن أن يختص بمجال الصحة العامة في مجال أوسع، ولكنه لم يعرف ماذا يفعل بعد. في كلتا الحالتين، كانت أمامهما سنوات طويلة من الدراسة. أرادا أن يبدأا عما قريب، أي بعد سنة على الأرجح، وبعد أن يتقدما للكلية. لكن في كلتا الحالتين، بدت فكرة كلية الحقوق غير واردة بالنسبة إليهما.

قال لهما براد مازحاً في إحدى جولاتهم الطويلة بالسيارة قبل الفجر: "من الذي سيخبر أمكما؟".

فمازحه ديلن قائلاً: "هذه ستكون مهمتك أنت، يا أبي. فقد اتضح لنا أنك تتمتع بخبرة أكبر في نقل الأخبار السيئة لها".

"شكراً جزيلاً لكما، أيها الشابان. ومتى تتوقعان مني أن أطلعها على هذا الخبر؟"، وقد سبق وتخيلتهما بام يعملان في شركة جدهما، وخططت لذلك منذ نعومة أظفارهما. لكن هدفَي ديلن وجايسن كانا مختلفين كل الاختلاف.

قال جايسن ضاحكاً: "لقد اعتقدنا أنه سيتسنى لك أن تخبرها بعد أن تغادرا".

"إنني بالكاد أطيق الانتظار لذلك. ينبغي عليّ أن أجعلكما تنفّذان مهمتكما الصعبة بأنفسكما. فهذا جزء من مرحلة النضج". لكنه في نهاية المطاف وافق على ذلك. كان سيخبرها في وقت ما بعد أن يصلا إلى البيت، ولكنه قرر أن يجعلها تشفى من آثار الرحلة أولاً. إذ إنها تعرضت لحالة طفيفة من الإسهال في اليومين الماضيين، وأصبحت متلهفة أكثر للعودة إلى البيت.

بدا عليها كمن أُطلق سراحه من السجن في اليوم الذي غادرا فيه. فلم تكن تلك رحلتها المفضلة، باستثناء رؤية ولديها. ظلت متوترة وعصبية وغير مرتاحة طوال الوقت. تخيّلت كل نوع ممكن من أنواع الأخطار والأمراض تكمن لها في مكان ما. بالكاد استطاعت أن تستمتع بالأصوات والروائح والمناظر. استمتع براد بكل ذلك نيابة عنها، ودّ لو أنه يعود مرة أخرى، ولكن الشابين كانا سيغادران في غضون ثلاثة أشهر. تمنى لو تسنى له أن يأتي في وقت أبكر كي تتاح له رحلة أخرى، من دون وجود بام معه. فقد استنزفته محاولة طمأنتها طوال الوقت. لكنه تحلّى بالصبر والتعاطف مع مخاوفها. فضلت هي أن تذهب إلى هاواي أو لندن أو مدينة بالم سبرينغز. كانت أفريقيا كثيرة عليها وحسب، وشعرت أن أعصابها

محطّمة في الوقت الذي غادرت فيه. فعانقت الولدين مودعة إياهما وهي تشعر براحة تامة.

قالا بإخلاص: "شكراً لك على قدومك، يا أمي". زادت معرفتهما لكيفية شعورها في تقديرهما لقدومها. احترمها براد لبذل جهدها. لم تشكل الرحلة رابطة أقوى بينهما، ولكنها حققت ذلك بينه وبين ولديه. شعر بالبهجة أنه شاركهما تمضية بعض الوقت في أفريقيا.

قالت لهما: "أراكما في البيت". وشددت على كلمة البيت، فضحكوا جميعاً.

فقالا: "سنعود في شهر تموز". لقد وافقا على أن يعودا إلى البيت لبعض الوقت قبل أن يتخذا قرارهما إما بالسفر أو العمل في أوروبا لعام. أراد ديلن أن يذهب إلى أستراليا ونيوزيلندا. كان جايسن يحاول أن يقنعه بتمضية عام في البرازيل. وفي كلتا الحالتين، من الواضح أنهما لم يصبحا مستعدّين بعد للاستقرار.

تذمرت بام لبراد وهما يصعدان إلى الطائرة: "يجب أن يبدأا التفكير في كلية الحقوق أو أن يتقدما إليها على الأقل إن أرادا أن يلتحقا بكلية جيدة." فأومأ برأسه. وقد أيقن أنه لا يزال من المبكر أن يطلعها على الخبر السيئ. فهي لم تغادر أفريقيا بعد. بدت قلقة طوال طريق العودة إلى لوساكا، بحيث إنها جلست بتعاسة في المطار وهي تعاني من مغص في معدتها، ولكنها تحسّنت في رحلة العودة إلى لندن. شعرت وكأنها ماتت عندما وصلا إلى الفندق حيث سيمضيان ليلتهما قبل أن يستقلا رحلة العودة إلى البيت. كانا سيتوجهان إلى هناك مباشرة من دون التوقف في نيويورك. فكان براد سيتوجه إلى البيت معها. شعر أنه أمضى رحلة رائعة وأنه ولد من جديد، وشعرت بام بالامتنان أنها تجاوزتها.

قالت له بحزم وهي تصعد إلى السرير: "إنني لن أزورهما في البرازيل". كانت قد أخذت حماماً لساعة، وفركت شعرها وأظافرها. فقد شعرت أنها قذرة طوال أسبوعين. شعرت أنها ملكة في السرير الضخم.

تمنّت لبراد ليلة سعيدة، ثم أطفأت الضوء، وخلدت إلى النوم، بينما ذهب براد إلى غرفة المعيشة ليقرأ. انتظر لساعة أخرى حتى استغرقت في نوم عميق، ثم اتصل بفيث. فأجابت عند الرنة الثانية. وابتهجت لسماع صوته، بقدر ما ابتهج لسماع صوتها. في اللحظة التي سمع فيها صوتها، تساءل كيف تمكّن من العيش لأسبوعين من دون التحدث إليها.

"تبدين بحال رائعة، يا فرد. هل كل شيء على ما يرام؟".

قالت وهي تبدو هادئة وبصحة جيدة: "كل شيء هادئ جداً". كان الوقت عصراً في نيويورك. كانت تكتب بحثاً من أجل دراستها عندما اتصل بها. وقالت: "كيف كانت الرحلة؟".

"مدهشة. إن لساني يعجز عن وصفها. فهي رائعة الجمال. وسأرسل إليك الصور. أريد أن أكرر الزيارة". فابتهجت من أجله بعد أن تملّكها القلق عليه كثيراً، ولكنها اعتقدت أنه على ما يرام. وتساءلت أيضاً بخوف ضمني، إن كانت الرحلة بمثابة شهر عسل ثانٍ بالنسبة إليه ولبام. تمنّت أن يكون ذلك صحيحاً إكراماً له، ولكن إحساساً شريراً وأنانياً في أعماقها تمنى عكس ذلك، كما حدثتها نفسها.

"كيف حال الشابين؟".

"إنهما بأفضل حال. فهما كبيران وجميلان وقويان وسعيدان. هذا أفضل شيء حدث في حياتهما. أتمنى لو أنني فعلت شيئاً مماثلاً وأنا في مثل سنهما. لكنني لم أكن لأتمتع بالشجاعة الكافية".

فسألته وهي تبدو متأثرة: "أكانت الرحلة مخيفة؟"، فضحك.

"لم أعتقد ذلك. ولا أعتقد أن هناك مالاً كافياً في العالم يمكن لأحد أن يدفعه لبام لتعود إلى هناك. فالرحلة ليست مناسبة لها فعلاً. فقد نامت في كوخ صغير، وتملّكها الرعب طوال الليل. أصيبت بالغثيان طوال الأيام القليلة الماضية. ونمت أنا في الخيمة مع الولدين". أحبّت سماع ذلك، ثم كرهت نفسها بسببه. دعت من أجل هذا الأمر لأسبوعين من دون أن تصل إلى نتيجة. تحدثت إلى أحد رجال الدين، وأخبرته عن مشاعرها تجاه براد.

لم يسعها أن تسمح لنفسها بمشاعر أعمق من ذلك. وحتى الآن، لم يمدّها بأي مساعدة. فقد قفز قلبها من صدرها في اللحظة التي سمعت فيها صوته. لقد خاضت أكبر معاركها الداخلية في تلك الأيام، أما معركتها الخارجية فقد تعلّقت بالطلاق. إذ إن ألكس قد حول حياتها إلى تعاسة. ولكنها بدأت تعتاد على ذلك. وكان لديها خبر هام لتقوله لبراد.

تركته يحدثها عن كل شيء يتعلق بالرحلة. ثم ابتسمت ابتسامة عريضة وأخبرته أن لديها مفاجأة.

فأمعن التفكير وهو يستمتع بمجرد التحدث إليها مرة أخرى، ثم قال: "دعيني أخمن". كان هناك الكثير مما أراد أن يشاركها إياه، فلم يستطع أن يتذكّر كل شيء الآن، كما أن الإعياء قد نال منه. فقال: "ألنت علامة جيد جداً في كل امتحاناتك في الكلية؟".

"نعم، نوعاً ما. فقد نلت علامة جيد وعلامة جيد جداً. لكن ليس هذا ما أريد التحدث عنه".

"أاعتذرت إلويز، واكتشفت أن والدها مخادع؟".

فقالت فيث وهي تبدو حزينة بعض الشيء: "كلا، ليس بعد".

"لا أعرف، أعطيني تلميحاً". لكنها كانت منفعلة جداً بحيث إنها لم تستطع التوقف عن هذا. فقد علمت منذ عشرة أيام وتشوقت كثيراً لأن تشاركه الخبر. تناولت العشاء مع زوي لتحتفلا في عطلة نهاية الأسبوع الفائتة.

"لقد تم قبولي في كلية نيويورك للحقوق".

"يا للروعة! هذا مدهش، يا فرد. إنني فخور بك جداً".

"وأنا أيضاً. أليس هذا رائعاً؟".

"إنه مدهش. لقد علمت أنك ستنجحين. ماذا عن كلية كولومبيا؟".

"لم أسمع خبراً منهم بعد. سيبلغني خبر في الأسبوع القادم. ولكنني أفضل أن أذهب إلى كلية نيويورك على أي حال. بالإضافة إلى ذلك، فأنا أدرسُ فيها أصلاً. وهذا الوضع يناسبني". تحدثا عن هذا لبضع دقائق ثم

أطلعته على آخر أخبار الطلاق. كان ألكس لا يزال يتشاحن معها على المنزل، ولكنه وافق على أن يدعها تمكث فيه لمدة أطول بينما هما يتفاوضان على التسوية. لم ترد الحصول على أي حقوق زوجية منه، بالرغم من أنه كان يسعها أن تحصل عليها. كل ما أرادته هو المنزل بكامله وبعض من استثماراتهما. أما في ما يتعلق بما يملكه هو، فلم تكن تريد الكثير. فقد تركت لها أمها مالاً كافياً لتعيل نفسها. في غضون بضع سنوات، كانت تعلم أنها ستحظى براتب لا بأس به من عملها كمحامية. خلافاً لما اعتقدته إلويز، فقد طلبت منه النذر اليسير. اعتقد محاميها أنه ينبغي عليها أن تطلب أكثر، ولكن ذلك ليس أسلوب فيث. كما كان براد يعلم تماماً، فقد تحلّت فيث بقدر كبير من الاحترام.

تحدثا لساعة تقريباً. أخيراً، وبالرغم من حبه الشديد للتحدث إليها، فقد بدأ يتثاءب، فطلبت منه أن يأوي إلى الفراش. كان سيستقل رحلته إلى سان فرانسيسكو في اليوم التالي ظهراً، وسيصل إلى البيت بحلول الساعة السادسة مساء بتوقيت نيويورك. ثم قال لها: "سأتصل بك أو أرسل إليك رسالة عندما أصل".

قالت له فيث: "شكراً لاتصالك". شعرت أن الأسبوعين كانا بلا نهاية من دونه، ولكنها تخطتهما. رفع الخبر الجيد المتعلق بكلية الحقوق من روحها المعنوية بالرغم من سلوك ألكس. لم تتحدث إلى إلويز لأكثر من أسبوع. فقد أصبح التحدث إليها يزداد صعوبة بعد أن انضمت إلى معسكر والدها. ما جرح شعور فيث أكثر، كما أخبرت براد، هو الطريقة التي انتزعها بها ألكس ببساطة من حياته وكأنها عديمة الوجود والأهمية، وكأنها لم تكن زوجته على الإطلاق، مسحها من الوجود كما يمسح الطبشور عن السبورة السوداء. مهما فسرت الوضع لنفسها، فقد ظل يحزّ في نفسها. جعل ذلك من الصعب عليها أن تتخيل نفسها تثق بأي شخص. لم يسعها أن تتصور نفسها تعيش مع رجل آخر أو حتى أن تواعد أحداً. كل ما أرادته الآن هو أن تنهمك بالكلية والدين والفتاتين. الشيء الوحيد الذي توجب

عليها فعله الآن هو أن تتحكّم بمشاعرها حيال براد. صممت على القيام بذلك، بالضبط كما صمم هو على فعل ذلك معها. ومهما تكن العاطفة بينهما جياشة ومجهولة لبعضهما، فقد صمما بقوة على أن يبقيا خلف حدود الصداقة. وبالرغم من جهودهما التي لا تنتهي، فلم يصل أي منهما إلى أي نتيجة.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

في أواخر شهر نيسان، وبعد أسبوعين من وصول براد إلى الديار، دعا ألكس زوي لتناول العشاء خارجاً عندما عادت إلى البيت من الكلية لتمضي عطلة نهاية الأسبوع. كانت ستمكث لدى والدتها كالمعتاد. فلم ترغب بالخروج معه. ولكن فيث قالت إنها تعتقد أنه ينبغي عليها ذلك.

"ما الهدف من هذا، يا أمي؟"، وبدت زوي منزعجة وهي تضع سماعة الهاتف. فقد أرادت في الواقع أن تخرج مع أصدقائها. ثم قالت: "سيقوم بمجرد التفوه بالترهات عنك".

"إنه لا يزال والدك، ولم تتناولي العشاء معه منذ بعض الوقت، وهو ربما يحاول أن يرأب الصدع بينه وبينك". كعادتها، تعاملت فيث معه بإنصاف أكبر مما فعل هو معها. فقد استمر يسمّم أفكار إلويز عن أمها، وأرادت فيث أن تسافر لزيارتها حالما تنتهي من الكلية. كانت نهاية الفصل ستحل بعد بضعة أسابيع فقط، وكانت زوي ستعود إلى البيت بحلول منتصف شهر أيار. فدعتها فيث للقدوم، إن أرادت أن تسافر إلى لندن لتزور إلويز.

في النهاية، وافقت على تناول العشاء مع ألكس في مطعم فرنسي صغير لطالما أحبه. بدا من الواضح أنه يحاول أن يبذل جهداً معها. فذهبت مرتدية فستاناً استعارته من أمها. صففت شعرها على هيئة ضفيرة فرنسية، وبدت جميلة ونضرة وشابة. بلغت التاسعة عشرة لتوها قبل بضعة أسابيع، وأخذت تزداد جمالاً كل يوم. لكن زوي أجفلت عندما رأت أن والدها لم يكن وحده عندما اقتربت من الطاولة. فقد كانت هناك امرأة جالسة معه.

فعــرفهما إلى بعضهما بابتسامة عريضة. واعتقدت زوي أن والدها قد بدا ســخيفاً. إذ إن المرأة الجالسة بجانبه على المقعد الطويل كانت تبلغ نصف عمره تقريباً.

"أود أن أعــرّفك علــى ابنتي زوي، يا ليزلي... وأعرّفك إلى ليزلي جيمس، يا زوي". اعتقدتها زوي في أوائل العقد الثاني من عمرها، بالرغم من أنها أكبر من ذلك بقليل في الحقيقة. كانت ترتدي فستاناً ضيقاً منخفض الــصدر وشعرها طويل أسود. بالرغم من أن فيث لم تكن لتفعل ذلك، فقد كان في وسعها أن تخبر زوي عن نوعية ملابسها، لو أنها ذهبت معها.

تجاذبــوا أطــراف الــحديث بارتباك لبعض الوقت. بدت زوي غير مرتاحة عندما طلب والدها شراباً. أدركت بعد بضع دقائق أن ليزلي كانت تعمل في شركته. لكن زوي اعتقدت أنه من قلة الاحترام أن يدعو ابنته إلى موعده الغرامي.

سألتها زوي محاولة أن تتعامل معها بأدب وهي تتمنى لو أنها لم تكن هناك: "هل عملت هناك لوقت طويل؟".

"عملت حوالى أربعة عشر شهراً. انتقلت إلى هنا من أتلانتا مع ابنتي الصغيرة". أدركت زوي أنها تتحدث بلهجة جنوبية طفيفة، وسألتها عن سن ابنــتها الــصغيرة لعدم وجود شيء أفضل لتقوله. كرهت وجودها هناك. فقالت ليزلي: "إنها في الخامسة من عمرها". ابتسمت وهي تبدو فتية جداً، فنظــر والدها بفخر إلى صديقته. بدا عليه وكأنه يريد من زوي أن تعجب بهـــا أيــضاً، وهذا ما بدا خطأً كبيراً. فقد شعرت أنها خائنة لأمها لمجرد وجودها هناك.

أضاف ألكس بفخر وزوي تتكمش من الاشمئزاز في سرها: "إنها فتاة صـــغيرة جميلة ومحببة". وبدا من الواضح أن والدها قد أنشأ علاقة وطيدة مع كل منهما.

"إنهـــا تتعلم اللغة الفرنسية. فهي تدرس في حضانة فرنسية. ويعتقد والدك أن هذا جيد لها". رفعت زوي حاجبها ثم كبحت جماح غضبها على

الفــور، فلــم تستطع أن تتذكر أبداً أن والدها قد اهتم بالمدرسة التي كانت ترتادها.

قالــت زوي وهـــي ترتشف شرابها: "هذا جيد من أجلها". ثم كادت زوي تختنق لما قالته ليزلي تالياً.

قالت ليزلي وهي تبتسم بخجل لألكس: "هذه ليلة مميزة بالنسبة إلينا". فــبدا علــى ألكــس عدم الارتياح قليلاً. لكن فكرة اصطحاب زوي لتناول العشاء معهما كانت فكرته. فقد أراد من ابنته أن تقابلاها. ثم قالت ليزلي: "إنها ذكرانا". وردّت شعرها خلف كتفها وزوي تنظر إليها.

سألت زوي: "حقاً؟ أي نوع من الذكرى هي؟"، اعتقدت أن المدة هي شهر أو اثنان مما بدا أمراً مثيراً للشفقة بالنسبة إليها.

"إنــنا نتواعد منذ سنة. وخرجنا في موعدنا الأول في مثل هذه الليلة قــبل عام". فبدا ألكس مشلول الحركة للحظة، ثم تظاهر أنه لم يسمعها. لم يكن يسعه أن يفعل غير ذلك، وأخذت زوي تحدق إلى كليهما.

ثم قالت بصوت مرتفع فجأة: "أتتواعدان منذ عام؟".

فعارضها ألكس عندئذ قائلاً: "ليس فعلاً. أعتقد أن ليزلي تعني أننا عرفنا بعضنا منذ عام. إذ إننا التقينا بعد أن عملت في الشركة بوقت قصير".

"هذا ليس صحيحاً. إن الليلة هي الذكرى السنوية لموعدنا الأول". بدا أن شــعورها قد جرح إما لأنه نسيه أو لأنه لم يرد أن يعترف به. فشحب وجه زوي.

"هــذا مثير للاهتمام بما أن والدي قد ترك والدتي منذ شهرين فقط. أعتقد أنكما خرجتما معاً لوقت طويل قبل ذلك".

فابتـــسمت ليزلي وقالت: "نعم، هذا صحيح". بهذا، نهضت زوي عن كرسيها، وقلبت كأس شرابها عَرضاً، فانسكب على الطاولة بينما تراجعت ليزلي إلى الوراء كي تتجنب تلطيخ ثيابها بالشراب.

قالــت زوي وهي تنظر إليه: "أعتقد أن هذا تصرف مشين، يا أبي. كــيف استطعت أن تحضرني إلى هنا كي أحتفل معك؟ كيف تفعل هذا بعد

كل الأمور التي قلتها عن أمي وبعد أن جعلت الوضع كله يبدو وكأنه غلطتها. إن هذا مثير للاشمئزاز. لِمَ لَم تواتك الشجاعة لتخبر إلويز الحقيقة بدلاً من تسميم أفكارها ضد والدتي؟ لماذا لا تخبرها وحسب أنك كنت على علاقة غرامية ولديك صديقة منذ عام تقريباً قبل أن تتخلى عنها؟ إن هذا سيكون صادقاً على الأقل".

بدأت عينا ألكس تقدحان شرراً. فهو لم يتوقع من ليزلي أن تفضح سره. فمن الواضح أنها لم تكن على قدر كبير من الذكاء. بدا مسحوراً تماماً بها. لم يخطر بباله أنها قد تفعل ذلك. فقال بهدوء: "لِمَ لا تجلسين لنناقش هذا". نظرت ابنته إليه بازدراء. لكنه بقي محجوزاً خلف الطاولة على المقعد الطويل ولم يقدر على الحراك.

قالت زوي: "كلا، شكراً. فلدي مشاريع أخرى". استدارت برباطة جأش ملفتة للنظر بالرغم من شعورها بالصدمة، وخرجت من المطعم. حالما خرجت إلى الرصيف بدأت تجري واستدعت سيارة أجرة، وعادت إلى البيت وهي باكية. عندما دخلت من الباب الأمامي، كانت فيث تتحدث عبر الهاتف مع براد عن قضية تشغل باله. أخبرته أن زوي ستخرج لتناول العشاء مع والدها، ثم أجفلت عندما سمعت الباب الأمامي يغلق بقوة وزوي تركض إلى غرفة مكتبها وهي تجهش بالبكاء.

فتوقفت فيث عن التحدث إلى براد، ونظرت إليها وقالت: "ماذا حدث؟"، أخذ كُحل عيني زوي يسيل على وجهها، وبدت مثل فتاة صغيرة تعرضت للضرب في المدرسة.

"لِمَ لم تخبريني بشأن المرأة؟ هل علمت بأمرها؟".

فقالت فيث وهي تبدو مصدومة: "أي مرأة؟ انتظري للحظة... سأعاود الاتصال بك، يا براد". أدرك أن أزمة على وشك أن تنفجر، فأغلق الخط على الفور. ثم قالت فيث: "ماذا حدث؟ عمّ تتحدثين؟".

"إن والدي بصحبة امرأة ما، وهي وضيعة سوداء الشعر تدعى ليزلي. وكانت من الوقاحة بمكان أن تخبرني بأن اليوم هو الذكرى السنوية

الأولى لهما معاً وأنهما سيحتفلان بها معي. يا له من تصرف خسيس دنيء ليقوما به. هل كنت تعلمين بأمرها، يا أمي؟".

قالت فيث بهدوء: "اجلسي". ناولتها منديلاً، ثم قالت: "امسحي وجهك... وهدّئي من روعك..."، ثم قالت باختصار: "نعم، إنني أعلم بأمرها". ولم تبادر بقول المزيد. فقد فعل ذلك بنفسه أخيراً. كان تصرفاً غبياً جداً ليفعله.

"لِمَ لم تخبريني؟".

"لأن هذا ليس من شأنك. فالأمر عائد لوالدك ليخبرك إن أراد ذلك، ولم أعتقد أنه سيفعل هذا". لم تقدّم لزوي أي تفاصيل أخرى، ولم تود أن تفعل ذلك.

"ألهذا السبب تركك؟".

"أعتقد ذلك، وربما يكون هذا هو السبب بالإضافة إلى أسباب أخرى. فقد قال إنه يريد حياة جديدة وأن السأم قد نال منه معي. هي أصغر مني سناً بكثير. ومن المؤكد أن هذا ممتع أكثر".

"إنها حمقاء تماماً. ما الذي يفعله معها؟ كيف يسعه أن يتركك من أجلها؟ وكيف استطاع أن يدعوني للعشاء معها؟"، شعرت أن تلك أكثر لحظة مذلّة تعرضت لها في حياتها. فقد أحسّت زوي أنها تعرضت للخداع، والخيانة، والاستغلال. تلاشى تماماً أي شعور بالاحترام كانت تضمره لوالدها.

قالت فيث وهي تبدو مكتئبة: "ربما إنه جاد حيالها". شعرت بذلك وكأنه صفعة أخرى على خدها بعد صفعات عدة، ولكنه هذه المرة قد صفع زوي أيضاً. كرهته بسبب ذلك. فلم تكن لابنتيه علاقة بشؤونه الخاصة، ما لم يكن هناك ما هو أكثر من هذا، فأراد أن يشاركهما به. وإن يكن هذا صحيحاً، فقد توجب على زوي أن تتأقلم مع الوضع وتتقبل وجود ليزلي، ولكن الوقت لا يزال مبكراً ليتباهى بها.

"إن تزوجها، فسأقتل نفسي".

"إنه لن يتزوج أحداً بعد. فهو لا يزال متزوجاً بي". لكنه في غضون خمسة أشهر لن يظل زوجها. لم تستطع وحسب أن تتخيله يقدّم تلك المرأة لابنتيه في هذا الوقت المبكر.

استغرقت فيث ساعة كي تهدّئ من روع زوي. لكن قبل أن تتمكن من منعها، تناولت زوي الهاتف. اتصلت بإيلي في لندن. كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل في لندن. حاولت فيث أن تقنعها بالانتظار حتى تهدأ، ولكن زوي أبعدتها عنها. تناولت إلويز السماعة وهي لا تزال نائمة.

قالت زوي بجفاء: "استيقظي... هذه أنا... كلا، لن أعاود الاتصال بك... أصغي إلي. أتعلمين ما الذي فعله والدك الليلة...؟ لقد دعاني لتوه للعشاء مع صديقته التي تبدو في الرابعة عشرة من عمرها لنحتفل بذكراهما السنوية! هل سمعتني؟ إنه يواعدها منذ سنة. لهذا السبب ترك والدتنا! ما رأيك ببطلك؟ بعد كل الهراء الذي عرّضت والدتك له، إنك مدينة لها باعتذار ضخم". التزمت إلويز الصمت لوقت طويل بينما ظلت زوي تؤكد على ما شاهدته وسمعته. تناقشتا لوقت طويل. ثم غادرت فيث الغرفة. ذهبت إلى المطبخ، واتصلت ببراد على الخط الآخر. كان لا يزال في المكتب، فشرحت له ما حدث. فصفّر في الجهة الأخرى من الخط.

"لا بد من أن هذا بدا مشهداً مريعاً. فيا له من تصرف غبي ليقوم به. ما الذي كان يفكّر فيه؟".

"أعتقد أنه ساذج. فقد اعتقد أنه يستطيع أن يقنعها بذلك. إنها تتحدث عبر الهاتف مع إيلي الآن. وأعتقد أن الوضع على وشك الانفجار".

فضحك وقال: "أعتقد أن ذلك قد سبق وحدث. ولا أحسده على وضعه. إن غضب الجحيم لا يضاهي غضب البنات عندما يقابلن صديقات آبائهن. أعتقد أنك ستنالين انتقامك منه الآن. لم يكن هذا ليحدث لشخص ألطف منه". بدا براد مسروراً وسعيداً جداً.

قالت فيث بوقار: "نعم، لقد اعتقدت هذا أيضاً". عادا للتحدث عن قضيته لبضع دقائق. ثم أغلقت الخط. وبعد دقيقة، دخلت زوي إلى الغرفة

وهي تبدو واثقة من نفسها. فسألتها فيث بفضول: "ماذا قالت إيلي؟"، وتمنت أن تقدم لها زوي دليلاً كافياً كي تعيدها إلى صفها. لم تتوقع منها أن تنقلب ضد أبيها، ولكن أن تسامح أمها الآن أو تحاول على الأقل أن تتفهم وضعها.

"إنها قادمة في عطلة نهاية الأسبوع القادمة لتراك، يا أمي. طلبت مني أن أرسل إليك حبها". ابتسمت فيث. أخيراً، أصبح هناك بارقة أمل.

أتت إلويز إلى البيت كما وعدت في عطلة نهاية الأسبوع تلك، وأمضت يومين وهي تبكي بين ذراعي أمها. اعتذرت وانتحبت وتوسّلت طالبة الصفح. لم تستطع أن تصدق ما فعله والدها. حدثت مواجهة كبيرة بينه وبين ابنتيه. لم تعلم فيث قط ما حدث تماماً، ولكن الفتاتين مكثتا لديها في عطلة نهاية الأسبوع تلك، وعندما اتصل ألكس، لم تود أي من الفتاتين أن تتحدث إليه. فقد تعرّض لخزي كبير أمامهما. استحق ذلك كله من وجهة نظر فيث.

سألت إلويز برعب وهي جالسة بجانب أمها: "أتعتقدين أنه سيتزوجها؟"، خلال الأيام القليلة الفائتة، لم يتعمق حب إلويز لأمها فقط، ولكن تولّد لديها احترام جديد لها لم تشعر به من قبل. فقد اكتشفت أخيراً الاحترام الذي تتمتع به فيث في صميمها وأدركته تمام الإدراك.

قالت فيث بصراحة: "ليست لدي أي فكرة. يجب عليكما أن تسألاه". ولكن لم تكن أي منهما متلهفة لتعرف ذلك، ولم ترغبا أن تتصلا به.

أخيراً، قالت إلويز في لحظة هادئة أمضتاها معاً بعد أن خرجت زوي من الغرفة: "لا أعتقد أنني أستطيع على الإطلاق أن أعبّر لك عن مدى أسفي لكل الأمور التي قلتها لك. فأنا لم أدرك الحقيقة. لطالما أخبرني والدي أنني مثله تماماً. وأعتقد أنني أردت أن أثبت له أنني كذلك وأن أحظى باستحسانه وأفوز بمحبته. إنه لم يتحدث صراحة بأمور سيئة عنك على الإطلاق، ولكن حديثه تضمن نوعاً ما أنه دائماً على حق وأنك على خطأ. لقد تعلّمت الكثير عن نفسي في الشهرين الماضيين وعن الثقة

والصدق والاستغلال. سمحت لنفسي بأن أعتقد يقيناً أنه قال الحقيقة وأنك لم تفعلي ذلك. لم أفهم قط أو أود أن أتقبل أنك صادقة. تصرفت بدناءة شديدة معك، ولا أعرف كيف لا يزال باستطاعتك أن تحبيني بعد كل ما قلته لك". أخذت الدموع تنهمر بلا توقف على خديها وهي تتحدث إلى فيث. أجهشت أمها بالبكاء أيضاً. ثم قالت إلويز: "إنني لم أدرك قط كم أنت امرأة طيبة... أشعر أنني خسرت والدي الآن. فلن أتمكن من أن أثق به مرة أخرى". لكن فيث تمنّت لو أنها تثق به مرة أخرى يوماً ما. فقد كان والدهما، وكانتا على الأرجح ستسامحانه في نهاية المطاف. اعتقدت فيث ذلك على الأقل، ولكنها كانت ترى كل شخص جديراً بالصفح باستثناء نفسها. لطالما تعاملت بقسوة مع نفسها أكثر من الجميع، ولكن ما سمعته من إلويز قد شفى الجروح التي في قلبها.

"إنني أحبك، يا إيلي. وأنا آسفة أن كل هذا قد حدث لنا. لا أعرف لماذا فعل والدك ما فعله، ولكن عليه أن يتعايش معه الآن ويجعله ينجح من أجل نفسه". أيقنت أن شعورها نحوه لن يعود لسابق عهده قط، ولكنها تمنّت أن يعود شعور الفتاتين نحوه إلى طبيعته من أجلهما. بدا من القسوة بمكان أن تشاهدا زواج والديهما ينهار. لم تردهما أن تخسرا ألكس أيضاً. فقد كانتا بحاجة إليه مهما يكن بعيداً عن المثالية.

غادرتا الغرفة متأبطتين ذراعي بعضهما. حالما هدأتا، أمضين هنّ الثلاث وقتاً لطيفاً. فخرجن لتناول الهمبرغر وحلوى الموز. وأخبرتهما عن خروجها إلى هناك بصحبة براد.

سألتها إلويز بعد أن عادت إلى طبيعتها: "إذاً، ما الأمر؟" وأمسكت يد أمها. شعرت فيث براحة غامرة. فقد استعادت كلتا ابنتيها. لم تتمنّ أي ضرر لألكس، ولكنها شعرت بالامتنان أن إلويز قد عادت إليها، وقطعت كل تلك المسافة من لندن لتمضي عطلة نهاية الأسبوع معها. أخبرت إلويز أمها أنها انفصلت عن جف وأن هناك شابين جديدين يبدو عليها أنها تستلطفهما كثيراً. ولكنها، كزوي تماماً، أرادت أن تعرف بخصوص براد.

فتحدثت فيث عنه كثيراً. بدا عليها أنها متحمّسة له، ولكنها لطالما أصرّت على أنهما مجرد صديقين.

"لقد أخبرتك أننا صديقان. فلطالما اعتبرته بمثابة أخي الأكبر. كان صديق خالك جاك المفضل ونحن أطفال. إنه متزوج. ولن تتعدى علاقتنا علاقة الأصدقاء". تحدثت بحزم شديد لطالما أثار شكوك زوي حيالها.

"لا أزال أعتقد أنه مغرم بك، يا أمي. فلا بد من أنه كذلك. إذ لا يوجد رجل يمضي كل هذا الوقت بالاتصال وإرسال الرسائل".

"إنه يحب التحدث إليّ فقط، كما أعتقد. ولكن هذا هو كل ما في الأمر". بدت واثقة من نفسها.

سألت إيلي بعمق: "وماذا عنك أنت؟ هل أنت مغرمة به؟".

"كلا، فأنا لا أقع في حب الرجال المتزوجين". تمنّت فقط لو أن تلك هي الحقيقة، ولكنها كانت ستصبح كذلك. فقد تلت ألف دعاء، وأقنعت نفسها آلاف المرات أنه مهما كان رائعاً، فلم يسعها أن تقع في حبه. يوماً ما كانت ستتحقق إما أدعيتها أو ما أقنعت به نفسها. ولا بد من حدوث ذلك. فلم يكن لديها خيار آخر. ولحسن حظها، فهو لم يكن مغرماً بها على حدّ علمها.

فتابعت إيلي قائلة: "ألا تكنّين له أي مشاعر؟".

قالت فيث بتأكيد: "إنها مشاعر أخوية فقط". بدت غامضة.

"هل تواعدين أحداً؟".

"كلا، ولا أريد هذا". هذا ما كان صحيحاً جداً. فهي لم تلتقط أنفاسها بعد من معاناة مسألة الطلاق. لم تعرف إن كانت ستفعل هذا على الإطلاق، وشكّت في ذلك. فلم تستطع أن تتحمل فكرة أن يفطر قلبها مرة أخرى. أصبحت الآن أوفر سعادة في وحدتها وهي تتحدث إلى براد وتمضي وقتها مع ابنتيها. فقالت: "إنني لا أريد أن أتزوج ثانية على الإطلاق".

فتدخلت زوي قائلة: "ليس عليك أن تتزوجي. يمكنك أن تخرجي في موعد مثلاً".

"لماذا؟ إنني سعيدة جداً معكما". لكنهما اتفقتا في ما بعد وهما وحدهما في غرفة زوي أن تلك ليست حياة سليمة لأمهما. في النهاية، قررتا أن الوقت مبكر بالنسبة إليها على الأرجح، على عكس والدهما الذي من الواضح أنه قد استبق الأحداث بوقت طويل بمشاركة عشاء ذكرى موعده الأول مع زوي. تملّكهما الرعب عندما عرفتا أنه قد خان أمهما لعام كامل تقريباً، إن لم يكن لأطول من ذلك، وأخذ ينحى باللائمة عليها لعودتها إلى الكلية لانهيار زواجهما. لم تكن للكلية أي علاقة بذلك، بل هو مجرد عذر واهٍ.

لكن على أي حال، بحلول الوقت الذي عادت فيه إلويز إلى لندن ليلة الأحد، كانت قد أعادت بناء علاقتها مع والدتها، وعندما اتصل براد بفيث في وقت متأخر من تلك الليلة، بعد أن غادرت كلتا الفتاتين، لم يسمعها تبدو أكثر سعادة من قبل. فقد تلاشى جزء من كابوسها على الأقل بعد أن عادت ابنتها إلى حضنها مرة أخرى.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

أصبح كل شيء جميلاً في حياة فيث في شهر أيار عندما عادت زوي إلى البيت لتمضي إجازة الصيف بعد أن حظيت بوظيفة في أحد المعارض الفنية. وسرّت فيث لأن تحظى بإجازة من الكلية قبل أن تبدأ الدراسة في كلية الحقوق. لقد انتهت محاضراتها في الوقت نفسه الذي انتهت فيه محاضرات زوي. وفكّرت إلويز في العودة من لندن إلى الديار بشكل نهائي. فقد بدأت تفتقد زوي ووالدتها، ولا سيما بعد عطلة نهاية الأسبوع التي أمضينها معاً.

ازدادت الأمور سوءاً بشكل ملحوظ عندما أخبرهنّ ألكس أنه وليزلي ينويان الزواج في شهر تشرين الأول بعد أن تتم إجراءات الطلاق. كرهت فيث أن تعترف بذلك، ولكن الخبر أتى كصفعة جديدة على وجهها، فجلست وأجهشت بالبكاء في غرفتها لساعات بعد أن سمعت الخبر. أخبرت براد عبر البريد الإلكتروني في اليوم التالي، ولكنها شعرت بالكآبة بحيث إنها لم تستطع أن تتصل به. كان ألكس لا يزال يحاول أن يجبرها على بيع المنزل، وأصبح من السهل ملاحظة السبب. فقد أراد أن يشتري شقة في شارع فيفث أفنيو له وليزلي وابنتها، فثارت ثائرة كلتا الفتاتين بسببه.

في الأسبوع التالي، جلست فيث في غرفة مكتبها وهي تحاول أن تكتشف أين ستصطحب الفتاتين في شهر آب. ففكرت أن تذهب إلى شاطئ كيب كود أو ربما أن تستأجر كوخاً في هَمبتونز. لقد وعدتها إيلي أن تأتي إلى البيت لبضعة أسابيع، وأرادت فيث أن تمضي أطول وقت ممكن معهما قبل أن تبدأ الدراسة في كلية الحقوق في الخريف. كانت تمضي صباحاً

كسولاً وهي تتصفح بعض الأوراق، وتحاول أن تتخذ قراراً بشأن الإجازة عندما اتصل بها براد. فلم تسمعه يتحدث بتلك الطريقة قط، ثم أدركت على الفور أنه كان يبكي.

"هل أنت على ما يرام؟ ماذا جرى؟"، لم تستطع حتى أن تتخيل ما الذي قد يجعله مضطرباً هكذا. إذ إنه بدا متوتراً ومرعوباً عندما أجابها.

"إن الأمر يتعلق بجايسن. لا أعرف التفاصيل بعد. فقد وصلتنا رسالة من ديلن قبل ساعة. وقد وقع حادث عندما كانوا يعملون في إحدى القرى وانهار أحد المباني. فحوصر تحته لسبع ساعات". ثم بدأ براد يبكي مرة أخرى. ثم قال: "ليست لديك فكرة عن سوء العناية الطبية هناك، يا فرد. فليس هناك سوى طبيب واحد يأتي لبضع ساعات مرة في الشهر. وهم على بعد ساعات من المستشفى. ولا أعرف حتى إن كان باستطاعتهم أن ينقلوه إلى هناك. نحن لا نعرف أكثر من هذا. أرسلنا رسالة إلى ديلن كي يتصل بنا، ولكن يجب عليه أن يذهب إلى مكتب البريد ليتصل، وحتى إن تمكن من الحصول على خط هاتف، فربما لن يتسنى له أن يترك أخاه". بدا عليه أنه يشعر وكأن العالم قد انتهى. امتلأت عينا فيث بالدموع وهي تصغي إليه.

"ماذا ستفعل؟".

"سأسافر إلى هناك. وسأغادر في غضون ساعة. فلدي رحلة إلى نيويورك عند الظهر. وسأسافر برحلة إلى لندن. من الصعب جداً الوصول إلى هناك. سأستغرق أكثر من أربع وعشرين ساعة لأصل إليه. والله وحده يعلم إن كان لا يزال على قيد الحياة بحلول ذلك الوقت". بدا عليه أنه في حالة رعب شديد مبررة.

"متى ستصل إلى هنا؟"، كان ذلك كل ما استطاعت أن تفكر فيه. فقد أرادت أن تراه، حتى ولو بصحبة بام.

"سأصل إلى نيويورك عند الساعة الثامنة هذه الليلة، وستغادر الرحلة إلى لندن عند الساعة العاشرة. ولدي ساعتان بين الرحلتين".

"سأقابلك في المطار. أيمكن أن أحضر لك شيئاً؟".

"إنني جاهز تماماً. فستحزم بام أغراضي. فهي لا تستطيع أن تأتي الآن. إذ يجب عليها أن تذهب إلى المحكمة غداً. وستأتي بعد ذلك مباشرة". لم يذكر شيئاً لفيث ولكنه كان غاضباً لأنها رفضت أن تسافر معه. ثم أعطى فيث رقم الرحلة، وأغلق الخط. جلست في غرفة مكتبها وهي تحدق إلى الفضاء، وتتخيل حدوث أسوأ الاحتمالات، بالضبط كما فعل هو. كل ما تمنته هو أن يتسنى لها أن تذهب بصحبته، ولكنها أيقنت أنها لا تستطيع ذلك، ولا سيما إن كانت بام ستقابله.

أخذ براد وبام يتجادلان جدالاً حامياً حول الموضوع وهما في سان فرانسيسكو.

"بالله عليك، اتصلي بالقاضي، وأطلعيه على ما حدث. وسيؤجل القضية إلى حين عودتك. فهذا الأمر أكثر أهمية". بدا عصبياً وهو يتحدث إلى بام.

قالت وهي تغلق الحقيبة: "لا أستطيع أن أفعل هذا بموكلي". بدا عليها أنها قلقة بقدر قلقه هو، ولكنها شعرت أن مسؤوليتها تنحصر بموكلها، وهذا ما بدا لبراد تصرفاً مجنوناً، وتصريحاً ضخماً من جانبها. حتى لو اتضح أن جايسن كان على ما يرام في النهاية، فقد أرادها براد أن تبقى بصحبته. كانت تلك هي المرة الأولى التي يطلب فيها منها شيئاً منذ سنوات. لكن هذا كان مهماً لهم جميعاً. فقد احتاج الشابان إلى مساعدتها، وكذلك هو.

قال لها بجفاء: "أعتقد أن أولوياتك مثيرة للاشمئزاز. إننا نتحدث عن ابنك وليس عن موكلك".

قالت وهي تصرخ عليه: "لم يقل ديلن إنه يحتضر". بدوا على شفير الانفجار. كان براد يرتدي ملابسه وهما يصرخان في وجه بعضهما.

"هل يجب أن يموت كي تتحركي، وتلغي جلسة استماع لعينة في المحكمة؟ بالله عليك، ألا تدركين هذا؟".

"بـل أدركه. وسأذهب إلى هناك في غضون يومين. وهذا هو أفضل ما يسعني أن أفعله".

"كلا، ليس هذا صحيحاً. تباً!". بدت له أشبه بجبل يعجز عن زحزحته من مكانه. وكانا لا يزالان يتشاجران عندما وصلت سيارة الأجرة لتقلّه إلى المطار. لكنه علم أنه لن يستطيع قط أن ينسى حقيقة أنها لم تذهب معه أو يـسامحها إن حدث مكروه لجايسن. أيقن أنها لن تستطيع أن تسامح نفسها إن حـدث مكروه له، ولكن لم يبدُ عليها أنها تدرك ذلك أيضاً. بدت منكرة لـتلك الحقـيقة كلياً. وقال لها: "سأرسل إليك رسالة حالما أراه". ثم غادر وبحـوزته حقيبتـه. لـم تكن لديه أي فكرة عن الملابس التي حزمتها في الحقيبة من أجله.

بـدت الرحلة الجوية أشبه بمعاناة بالنسبة إليه. ولم يكن من الممكن الاتـصال به على متن الرحلة الجوية. فاتصل ببام عدة مرات، ولكنها لم تسمع أي خبر آخر.

بحلـول الوقت الذي ترجل فيه من الطائرة في نيويورك، بدا شبه ذاهل. ومـرّر يده في شعره مئة مرة، وبدا خائفاً ومشعث الشعر. كانت فيث بانتظاره هـناك، كما وعدته بالضبط وهي مرتدية سروال جينز وقميصاً أبيض، وبدت نـضرة ونظـيفة وجميلة. كل ما استطاع أن يفكر فيه هو أنه احتضنها وقربها مـنه. فأجهـشا بالبكاء وهما يمشيان إلى أقرب مطعم ليتناولا كوباً من القهوة. أخبرها بما يعرفه مرة أخرى، ولكن ذلك لم يبدُ على قدر من الأهمية.

تحـدثا مــن دون هدف وهما ممسكان بيدي بعضهما عبر الطاولة، وناقـشا عدداً لانهائياً من الاحتمالات. لكن من دون أي تفاصيل، لم يسعها أن تقـدّم له أي اقتراحات، ولم يستطع هو أن يتخذ أي قرارات. تمنى فقط أن يقـوم ديلن بالخيارات الصحيحة وأن يتمكن من الحصول على طائرة لينقل أخاه إلى المستشفى إن توجب عليه ذلك.

"ليـست لـديك فكـرة عن مدى بدائية المكان هناك وبُعده وكم من المستحيل الوصول إليه. فيجب عليه أن يسافر في شاحنة على طريق مليء

بالأخاديد لساعتين أو أربع ساعات. إن ذلك سيتسبب بمقتله". كانت الطائرة هـي الأمـل الوحـيد، إن توفرت، واستطاعا العثور عليها. شعرت فيث بالعجز وهي تصغي إليه، وكذلك شعر هو.

مـضت الـساعتان وكأنهمـا دهر وهو ينتظر موعد الطائرة. شعر بالامتـنان أن فـيث بقيت بصحبته. واتصل ببام مرة أخرى، ولم تكن قد سمعت شيئاً، وثارت ثائرته عندما سمع أنها ستخرج لتناول العشاء.

"هـل جنـنت؟ لقد تعرض ابنك لحادث. ابقي بجانب الهاتف في حال اتـصل أحـدهم بنا". فأصرّت على أن الهاتف النقال بحوزتها وأن الرقم مع ديلن. أغلق الخط، ونظر إلى فيث بيأس، وقال: "هناك أوقات مثل هذا الوقت حـيث يـدرك المـرء ما لا يملكه ويوقن أنه من الغباء أن يعتقد أن الوضع سـيتغير. فهـذا مجـرد استمرار للوضع التافه الذي عشته طوال السنوات العـشرين الفائتـة معها". فبام لم تستطع أن تتواجد هناك، ولا حتى من أجل ولديها. وآثرت فيث بحكمة ألا تدلي بأي تعليق. ثم أضاف براد قائلاً: "أتمنى لـو أنـك تستطيعين أن تأتي معي". أيقن كم تشكّل مصدر دعم بالنسبة إليه، واحـتاج إلى مساعدتها من كل قلبه. ومهما يكن ما حدث لجايسن، فقد خشي ألا ينجو منه. أراد أن يتواجد هناك إلى جانبه وإلى جانب ديلن بغض النظر عن غباء أمهما أو ربما أراد ذلك حتى أكثر بسببها.

قالت فيث بنعومة: "أتمنى لو أستطيع ذلك أيضاً". لكنهما علما أنها لا تستطيع. كل ما كان باستطاعتها أن تفعله من أجله هو أن ترافقه بروحها. لقـد أيقنا، بعد الرحلة التي قام بها في شهر آذار، أنه ليس هناك مجال لأن يتـصل بهـا ولكن فقط أن يرسل لها رسالة عبر وسائل غير مباشرة. ثم قالت: "أطلعني على سير الأحداث عندما يتسنى لك ذلك". كان قلبها سيظل قلقاً عليه طوال ذلك الوقت.

"أعـدك بهـذا". تـم الإعلان عن الطائرة عندئذ، فأخذ جواز سفره وأوراقــه الرسمية. توجب عليها أن تتركه عند نقطة التفقد الأمنية لأنها لم تكن مسافرة معه.

"اعتنِ بنفسك، يا براد. حاول أن تهدئ من روعك، فأنت لا تستطيع أن تفعل شيئاً حتى تصل إلى هناك". كان ذلك أسوأ ما في الوضع، فقد أيقنا أن ابنه قد يكون ميتاً بحلول الوقت الذي سيصل فيه إلى هناك. كان ذلك يتجاوز حدود التفكير. ثم قالت فيث: "سأذهب إلى دار العبادة، وأتضرع من أجله حالما تغادر".

قال لها والدموع في عينيه وهما ينظران إلى بعضهما: "أشعلي شمعة من أجله... من فضلك، يا فرِد..."، كان قلبها سيبقى معه. ولم يكن هناك مجال لأن تقول له هذا.

"سأفعل. وسأذهب إلى دار العبادة كل يوم. اعلم فقط أنه سيكون على ما يرام... حاول أن تعتقد بهذا...".

"أتمنى لو أستطيع هذا. يا الله... إن حدث له مكروه..."، وأرادت أن تسكته وأن تجلب له الراحة في آن معاً. ومن دون أن تفكر، اقتربت منه. فتولّد لديه الإحساس نفسه في الوقت نفسه الذي تولد لديها فيه. ومن دون أي تردد، جذبها إلى ذراعيه وقبلها. للحظة نسيا العالم بأكمله وهما متشبثان ببعضهما. وبدت مجفلة عندما ابتعد عنها. فقال لها: "أحبك، يا فرِد". وتدفق سيل جارف من مشاعر حبه لها لأربعين سنة تقريباً وقربه منها لسبعة أشهر. لقد أحبته أيضاً، ولكنها علمت حتى الآن أن ذلك أمر لا يمكن أن يحظيا به.

"لا تقل هذا... وأنا أيضاً أحبك... ولكننا لا نستطيع أن نقول هذا ولا نستطيع أن نفعل هذا... فليس لي الحق..."، فأسكتها. وبدأت تبكي. ثم قالت: "ستندم على هذا. وستكرهني بعد أن ينتهي هذا الوضع كله. ولا يمكننا أن نفعل هذا مرة أخرى".

"لا أكترث لهذا. فأنا بحاجة إليك، يا فرِد. إنني بحاجة إليك فعلاً. أحبك. أريد أن أكون معك أيضاً". بدا أشبه بالصبي الذي كانه عندما كسر ذراعه وهو في الثانية عشرة من عمره. وكانت فيث هي من أمسكت بذراعه عندما أوصلته أمه إلى غرفة الطوارئ. فجعلها تقسم إنها لن تخبر أحداً بأنها رأته يبكي.

"إنني هنا إلى جانبك... ولطالما سأبقى إلى جانبك... ولكنني لا أستطيع أن أسرقك من امرأة أخرى، يا براد. فهذا خطأ".

"سنتحدث عن هذا لاحقاً". لم يُرِد أن يفوّت الرحلة، ولم يكن يستطيع ذلك. ولكن فجأة أصبح لديهما الكثير ليحسما أمره وليفكرا في شأنه. لم تكن لديه فكرة متى سيراها مرة أخرى. فقد يغيب لأشهر ويبقى هذا الأمر معلقاً حتى يعود. والله وحده يعلم أي أمور مرعبة قد تحدث حتى ذلك الحين. ثم قال: "أريدك أن تعلمي فقط أنني ربما أكون قد فقدت بعض عقلي، ولكنني لست مجنوناً. لقد أردت أن يحدث هذا منذ وقت طويل. واعتقدت وحسب أنه ليس منصفاً في حقك". ولم يكن ذلك منصفاً بالنسبة إليهما معاً. إذ كانت عاطفتهما محرّمة.

"لقد تضرّعت لئلا يحدث هذا. وهذه غلطتي أنا. ما كان ينبغي أن..."، فضمها إليه مرة أخيرة وجرى مبتعداً. نظر إليها من فوق كتفه ورآها تبكي. فلوّح لها ثم رحل. بكت فيث طوال طريق عودتها إلى المدينة في سيارة أجرة. فقد ارتكبا عملاً رهيباً. سمحت له أن يتجاوز حدود الصداقة. لم تسمح له بفعل ذلك فقط، ولكنها شجّعته عليه. لم يراودها شك في أن الغلطة غلطتها هي. أيقنت أنه سيتوجب عليهما، عندما يعود، أن يتراجعا عن كل ما قالاه وفعلاه وأن يعدا بعضهما بألا يكررا ذلك مرة أخرى لو أنهما لن يلتقيا مرة أخرى أبداً. شكّل ذلك حزناً جديداً بالإضافة إلى قلقهما بشأن جايسن. كل ما استطاعت أن تفعله من أجله الآن هو التضرع.

ترجلت من سيارة الأجرة عند دار العبادة الكبيرة سانت باتريك. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً. لكن كان لا يزال هناك أناس يتحركون في الأنحاء ومعظمهم من السياح عندما دخلت فيث إلى دار العبادة. توجهت مباشرة، وأشعلت شمعة ثم ركعت على ركبتيها وأطرقت وبكت. كانت المسبحة التي أهداها إياها براد في الميلاد بحوزتها. بدا ذلك لها تصرفاً شائناً الآن أن تحملها بيدها بعد الذنب الذي ارتكبته لتوها. فقد كان رجلاً متزوجاً. كانا على يقين تام أنه سيظل على تلك الحال.

بقيت راكعة لساعة وهي تدعو من أجل جايسن وتطلب الحكمة والشجاعة لديلن والسلام لبراد وهو في طريقه إليهما. غادرت دار العبادة بعد منتصف الليل، وذهبت إلى البيت بسيارة أجرة. دخلت المنزل، وصعدت الدرج وهي تبدو وكأن شخصاً قد مات. فقد دمرها كل شيء حدث والخبر المريع والقلق والصدمة التي رأتها في عيني براد، والتصرف الأحمق الذي فعلته، والذي علمت أنه خطأ كبير. مهما كانت تحبه، فقد توجب عليها أن تختفي من حياته. وقفت في ظلام غرفتها للحظة ثم أشعلت ضوءاً واحداً عندما خرجت زوي من غرفتها ووقفت في الردهة وهي تراقبها. ولم ترَ أمها تبدو بهذه الحال منذ تخلّى عنها ألكس قبل أشهر.

سألتها وهي تبدو قلقة: "هل أنت بخير، يا أمي؟".

قالت فيث بحزن ونظرة دمار تام تعلو وجهها: "كلا". وأغلقت الباب من دون أن تنبس بكلمة واحدة.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

لم يتسنَّ لبراد الوقت ليتصل بفيث عندما استقل طائرته في لندن. وتوجب عليه أن يمر على الجمارك. استطاع بالكاد أن يلحق بالطائرة. وتمكن من أن يتصل ببام، ولكن لم تكن هناك أي أخبار من ديلن أو من أي شخص آخر. فجلس في الطائرة المتوجهة إلى لوساكا وهو يبدو كرجل جريح. ومعظم الأوقات، كل ما استطاع أن يفكر فيه هو جايسن. أخذت تراوده أفكار سيئة منذ سمع الخبر الأول. وبقية الوقت، أخذ يفكر في فيث. فقد أراد أن يطمئنها أن ما فعلاه ليس خطأ، ولكن لم يكن هناك شيء يستطيع أن يقوله. وتوجب عليها فقط أن تصمد وتثق به إلى أن يعود إلى البيت. لم تكن لديه أي فكرة عما سيفعلانه، ولكن لم يراوده أي شك في أنه مغرم بها. أيقن ذلك في قرارة نفسه قبل وقت طويل جداً.

خلد إلى النوم لبعض الوقت في الرحلة. ووصل في الصباح. ثم استقل طائرة أخرى لتقلّه في آخر مرحلة من الرحلة. وهذه المرة عندما وصل إلى كالابو، لم تكن هناك سيارة فان بانتظاره ولا جايسن وديلن. فاستأجر شاحنة يقودها رجل كي يقلّه إلى المحمية. لكن بينما هما يقودان عبر البلدة، شاهد ما حدث. فقد كان سقف دار العبادة التي يقومون بترميمها قد انهار بالإضافة إلى البرج. فأجهش بالبكاء لمجرد النظر إليها.

قال السائق عندما طلب منه براد أن يتوقف: "لقد حدث شيء سيئ، يا سيدي. وأصيب أربعة رجال بالأذى". فأومأ براد برأسه.

"أعلم هذا. فأحدهم ابني". فقام الرجل بمجرد الإيماء برأسه، بينما ذهب براد ليبحث عن شخص ما يخبره عن مكان الرجال الجرحى. أخيراً

وجد أحد أفراد القبائل وكان يرتدي سروالاً قصيراً وينتعل صندلاً وهناك ندوب على وجهه. فأشار إلى المبنى الذي أخذ إليه الرجال. وحالما دخل، رأى نساء يبكين وأطفالاً جاثمين وآخرين يبعدون الذباب عن وجوه الجرحى. ووجد بينهم ديلن راكعاً بجانب جايسن. كان جايسن فاقد الوعي وهناك ضمادة كبيرة مبللة بالدم على رأسه. فنهض ديلن على الفور وانهار بين ذراعي والده وهو ينتحب. بدا ديلن خائر القوى بحيث إنه لم يتوقف عن البكاء. وكان الخبر الجيد الوحيد الذي استطاع براد أن يلاحظه هو أن جايسن كان لا يزال على قيد الحياة، ولكنه بدا على شفير الموت. أخبره ديلن أن أحد الرجال الآخرين قد مات قبل بضع ساعات.

قال براد وهو يحاول أن يقاوم رعبه: "هل رآه طبيب؟"، علم أن عليه أن يتحلى بالقوة من أجل ولديه، ولا سيما ديلن الذي تحلى بالشجاعة والعقلانية وهو بمفرده طوال يومين.

"لقد أتى البارحة، ولكن توجب عليه أن يغادر".

قال براد وهو متوتر: "ماذا قال؟".

"ليس الكثير. لقد حاولت أن أحصل على الطائرة، يا أبي. ولكنني لم أستطع ذلك".

"هل تعلم مكانها؟".

"إنهم يقولون إنها على الأرجح في شلالات فيكتوريا، ولكن لا يبدو على أحد أنه متأكد من ذلك".

"حسناً، دعني أرى ما يسعني أن أفعله". خرج براد إلى أشعة الشمس المشرقة وهو ليس واثقاً من أين يبدأ. فبدأ يتضرع وكأنه استطاع أن يسمع صوت فيث يتردد في ذهنه. ذهب إلى مكتب البريد وسأل الرجل الوحيد الذي يعمل هناك عن الشخص الذي يجب أن يتحدث إليه بخصوص الطائرة. فأعطى براد رقم هاتف وقال له كيف يتصل. واستغرق نصف ساعة ليحظى بخط محلي. ثم خطر بباله أن يتصل بالمحمية عبر اللاسلكي. إذ إنه لم يحظَ بأي إجابة من رقم الهاتف الذي أُعطي إليه.

أخبره موظف مكتب البريد عن المكان الذي يمكنه أن يعثر فيه على جهاز لاسلكي. ومن هناك اتصل براد عبر اللاسلكي بالمحمية، وطلب منهم أن يتصلوا عبر اللاسلكي طالبين طائرة. ثم عاد إلى ديلن الذي وقف حارساً بجانب جايسن. ظل يطرد الذباب عن وجه أخيه التوأم وهو يتأمله بتعاسة. حتى بالرغم من اسمرار بشرته من الشمس، فقد استطاع براد أن يلاحظ أن ابنه قد بدا شاحباً جداً. وقال ديلن إنه لم يستعد وعيه منذ يومين.

استغرقت المحمية ست ساعات أخرى كي تحصل على الطائرة. ثم أرسلوا شاباً بسيارة جيب إلى البلدة ليخبر براد أن الطائرة ستكون في المطار عند الساعة الحادية عشرة تلك الليلة. وإن تمكن من أن يحضر الرجال الجرحى إلى المطار، فقد كانوا سيسافرون إلى المستشفى في لوكولو. فساعد براد على وضع الرجلين الجريحين في سيارة الجيب، فيما تبعهما اثنان من أقارب الجريحين مشياً على الأقدام. أحضروا شاحنة من أجل جايسن، ثم مددوه بحرص على ملاءة سرير ووضعوه في الجزء الخلفي من الشاحنة، وديلن راكع بجانبه وبراد جالس على المقعد الأمامي. بدوا أشبه بفريق إسعاف متنوع الجنسيات عندما وصلت الطائرة متأخرة ساعتين عن الموعد المحدد.

استغرقوا ساعة تقريباً حتى تم وضع الجميع في الطائرة. بعد وقت قصير، أقلعت الطائرة. بدأت الطائرة تهبط على قطعة أرض منبسطة كان الربان يعرفها. كانت ثمة سيارة إسعاف مركونة بالقرب من هناك. فقد سبق واتصل أحدهم بها عبر اللاسلكي. قامت سيارة الإسعاف بثلاث رحلات ذهاباً وإياباً مع الرجال الجرحى ثم دفع براد لربان الطائرة وأقلع مع جايسن وديلن. أخيراً حالما وصلوا إلى المستشفى، اطمأن أن جايسن كان سيصبح بين أيدٍ أمينة تقريباً. فمعظم أفراد الطاقم الطبي كانوا بريطانيين بالإضافة إلى رجل نيوزلندي وطبيب أسترالي. وبدا من السهل أن يدرك لماذا أراد جايسن أن يدرس في مجال العناية الصحية ويعود إلى بلد كهذا. إذ إنهم بدوا بأمسّ الحاجة إلى المساعدة. كان يسعه أن يحدث تغييراً هنا، إن هو نجا.

بعد أن فحص الطبيب المسؤول جايسن أخبر براد وديلن أنه تعرض لإصابة على قدر من الخطورة في رأسه وأنه يعاني من تورم وسوائل في دماغه، والطريقة الوحيدة للتخلص منها تكمن في تصريفها. في الأحوال العادية، لم تكن هذه عملية معقدة، ولكن تجبير ذراع مكسورة في مكان كهذا يعتبر أمراً معقداً. أعطى براد الإذن بإجراء العملية. وفي غضون ثوان، دُفع جايسن على السرير النقال بينما جلس براد وديلن وهما يتحدثان بهدوء ويشاهدان الناس يأتون ويذهبون. وبدا يوماً لا نهاية له.

أشرقت الشمس وهما لا يزالان جالسين بانتظار سماع خبر عن جايسن. وقيل لهما بعد ساعات إن العملية قد تمّت وإنه لا يزال على قيد الحياة، ولكن لم يطرأ أي تغيير ملحوظ على حالته حتى ذلك الوقت. لم يعرفا أي شيء إضافي حتى غربت الشمس.

تبادل براد وديلن الأدوار ليجلسا بجانب سرير جايسن، الذي لم يأتِ بأي حركة. فمكثا إلى جانبه لثلاثة أيام من دون أن يتركاه وحده قط. شعر براد أنه متعب وقذر. فهو لم يغيّر ملابسه أو يستحمّ أو يحلق لحيته، ولكنه لم يترك ابنه لدقيقة واحدة. تناولا أي طعام أحضرته الممرضات لهما. وفي اليوم الثالث، أدرك أن بام لم تصل بعد. تساءل إن كانت بانتظارهما في المحمية، ولكن لم يكن هناك مجال لأن يعرف ذلك. أخيراً طلب من أحدهم أن يتصل بهم عبر اللاسلكي. وصلت الرسالة تطلعه بأنها ليست قادمة، ولكن من دون أي تفاصيل أخرى. كان من المستحيل أن يتصل بها من مكان وجوده.

أخيراً، في اليوم الرابع تأوه جايسن بصوت منخفض، وفتح عينيه، وابتسم لهما ثم استغرق في النوم مجدداً. وظن براد للحظة مخيفة أنه قد مات. فقبض على ذراع ديلن بعينين مفتوحتين على وسعهما. لكن الممرضة قالت إنه خرج من الغيبوبة وخلد إلى النوم بشكل طبيعي. فقد نجا سيعيش.

خرج وديلن من المستشفى وهما يبكيان ويضحكان ويصرخان. كان ذلك أفضل يوم في حياتهما وأطول أسبوع عاشه براد على الإطلاق.

مازح ديلن أباه قائلاً: "رائحتك تشبه رائحة جرذ ميت". جلسا خارجاً لوقت طويل وهما يحتفلان ويتحدثان بهدوء. وأحضر أحدهم لهما بعض الجبن وقطعة خبز. كان المستشفى بدائياً إلى أقصى الحدود ومجهّزاً بمعدات بسيطة، ولكن الطاقم الطبي كان مذهلاً. فقد أنقذ حياة جايسن.

ابتسم براد ابتسامة عريضة وقال: "إن رائحتك ليست طيبة أيضاً".

بعد أن تفقّد حال جايسن مرة أخرى، سأل براد إحدى الممرضات فأرشدته إلى حمام خارجي. أحضر معه حقيبته فقط، فتشارك الثياب التي أحضرها مع ابنه. أصبحا نظيفين بحلول الوقت الذي عادا فيه إلى جايسن، كان مستيقظاً ويحاول أن يتحدث. فسرّ الطبيب من حالته.

قال الطبيب النيوزلندي: "لقد تعرّضتَ لضربة قوية، أيها الشاب. ولا بد من أن لك رأساً صلباً جداً". ثم أخذه براد جانباً في ما بعد وأخبره الطبيب أن معجزة قد أنقذت حياة ذلك الشاب. فمن بين الذين نجوا من الحادث، كان قد تعرض لأخطر إصابة.

سأل براد في ما بعد إن كان هناك هاتف في الجوار. فضحك الجميع منه عندما قال إنه يريد أن يتصل بالولايات المتحدة. فقد كان أفضل ما يسعهم أن يقدّموه له هو هاتف يستطيع منه أن يتصل بمكتب البريد. هناك أخبره أحدهم أنهم سيتصلون بالمحمية عبر اللاسلكي، فطلب منهم بدوره أن يتصلوا بوالدة جايسن في الولايات المتحدة، إن هي كانت لا تزال هناك. استغرق الأمر يوماً آخر ليحصل على إجابة منهم. استخدموا الطريق المعقّد غير المباشر نفسه ليتصلوا ببام في سان فرانسيسكو. فشعرت بالارتياح بعد أن عرفت أن ابنها بخير. بدا واضحاً لبراد من كل ذلك أنها لم تغادر قط. تساءل ما تخيلت أنه معنى كلمة بخير. فلم تكن لديها أي فكرة عما عانوه. لم يكن هناك عذر لعدم قدومها من وجهة نظر براد. مهما كرهت دول العالم الثالث أو أفريقيا عندما ذهبت إلى هناك قبل شهرين، فقد توجب عليها أن تذهب. لم يذكر شيئاً لأي من ولديه، ولكنه

أيقن أنه لن يسامحها على فعلها هذا. لم يكن هناك ما يسعها فعله، ولكنها كانت مدينة لولديها بأن تتواجد إلى جانبهما وإلى جانب براد.

بعد يوم آخر، استخدم نفس طريق اتصالات اللاسلكي المعقّد والهواتف المحلية ليطلب من أحدهم أن يتصل بفيث في نيويورك ويخبرها أن جايسن سيعيش ويشكرها على تضرعها. شعر بالأسف الشديد أنه لم يتسنّ له أن يتصل بها ويتحدث إليها بنفسه، ولكن لم يكن هناك أي مجال لأن يتمكن من ذلك في أثناء تواجده هناك.

بعد ثلاثة أيام، أخبرتهم الممرضة أن والدة جايسن أرسلت إليهم رسالة تخبرهم فيها أنها لا تستطيع القدوم، ولكنها مسرورة أن كل شيء على ما يرام وأنها ستراهم حالما يعودون إلى الديار. كانت تلك هي الرّسالة التي شكّلت تغييراً في نظره. فما لم تكن هي نفسها في غيبوبة، لم يكن هناك تفسير مقبول تستطيع أن تقدّمه لعدم تواجدها هناك. لم يذكر براد ذلك لديلن، ولكنه أيقن أن زواجهما قد مات في ذلك اليوم. أخبرا جايسن أن أمه عالقة في سان فرانسيسكو وأنه من المعقد كثيراً بالنسبة إليها أن تصل إلى هناك، فلم يراوده أي شك في ذلك، ولكن ديلن استطاع أن يلاحظ من تعبير وجه أبيه كيفية شعوره حيال هذا. فحاول أن يطمئنه قدر استطاعته.

قال ديلن بلطف: "إن الوضع صعب جداً على أمي هنا". فأومأ براد برأسه. لم يبقَ لديه شيء آخر ليقوله. فقد أمضيا خمسة وعشرين عاماً معاً. لطالما يعتقد المرء أنه عندما يتعرض لموقف صعب، فإن شريك حياته سيهبّ لنجدته، حتى لو لم يمنحه الكثير بين يوم وآخر. لكنه عندما يخفق في المواقف الهامة، يدرك المرء ما حاول أن يتجاهله طوال الوقت. لقد علم براد ذلك الآن. فليس الأمر أن بام لم تعد زوجته بعد الآن، ولكنها لم تعد حتى صديقته. بدا ذلك كشفاً مدمّراً وخيبة أمل كبيرة فيها كإنسانة بحيث إنه حتى لو اتصل بها فلم يعد لديه ما يقوله لها.

قدّر الطبيب أن جايسن قد يبقى في المستشفى لشهر. فقدّموا سريرين صغيرين لبراد وديلن. فجلسا معه لساعات كل يوم. خرجا في نزهات على

الأقدام في نسيم المساء العليل، وذهب براد في نزهات طويلة بمفرده في أثناء شروق الشمس. لم يرَ في حياته مكاناً جميلاً كهذا. ازداد جمالاً في عينيه لأن جايسن لم يمت هناك، ولكنه أوشك على الموت وولد من جديد. شعر براد وكأن روحه ولدت من جديد معه. وشعر فجأة أنه مفعم بالأمل والحياة والتفاؤل. فما حصل لم يؤثر في جايسن فقط ولكنه أثّر فيهم جميعاً. وشكّل ذلك رابطة بينهم علم براد أنهم لن ينسوها قط.

بينما هو يمشي عائداً إلى البيت من نزهته الطويلة كل صباح، لم يجد نفسه يفكّر في ولديه ويشكر الله على وجودهما فقط، ولكنه فكّر في فيث أيضاً. تمنى لو أنها تكون هنا معهم لتتأمل جمال المكان. فقد كان يمكنها أن تشاهد روعته كما شاهدها هو وأن تدرك ما أصبح يعنيه له.

سافروا عائدين مع جايسن إلى كالابو بعد شهر من دخوله المستشفى. وبدا متعباً وواهناً. فقد فقَدَ مقداراً كبيراً من وزنه. وكان لا يزال ضعيفاً بحيث لا يقوى على السفر. لكن الطبيب اعتقد أنه في غضون بضعة أسابيع أخرى يمضيها بالراحة في المحمية وهو يحظى بتغذية جيدة، سيصبح قادراً على أن يذهب في رحلة العودة إلى البيت. مرت ثلاثة أسابيع بعد أن أحضروه من المستشفى، فقال جايسن إنه يشعر بحال جيدة بما يكفي ليسافر. فقد تلاشى أخيراً الصداع الذي عانى منه لأسابيع.

أمضوا يوماً عاطفياً عندما غادروا المحمية أخيراً وشرعوا في الرحلة الطويلة إلى البيت. كان براد قد ذهب إلى مكتب البريد مرتين ليحاول أن يتصل بفيث. فانتظر لساعات خارجاً من أجل الحصول على خط دولي واستسلم أخيراً. فلم يكن هناك مجال للاتصال. لم يتواصل كذلك مع بام أكثر مما فعل سابقاً.

كما حدث عندما وصل، تطلّب منه الأمر رحلتين جويتين ليصل إلى لندن. ورتب براد لأن يبقوا هناك ليومين. وقد مضى عليه شهران وهو غائب عن البيت بحلول ذلك الوقت. أراد لجايسن أن ينال قسطاً من الراحة وأن يستشير طبيباً في لندن قبل أن يكملوا بقية رحلة العودة إلى البيت. مما

أدهش الجميع، فقد حصل جايسن على شهادة تذكر أنه مؤهل صحياً تماماً. ووصــفوا للأطــباء الحــادث والعملية التي أنقذت حياته وأروهم التقارير وصور الأشعة والأوراق الأخرى التي أحضروها معهم. وقال الطبيب في لــندن إنـــه شاب محظوظ بشكل مدهش. فقد كان من السهل أن يموت من جراء الإصابة التي تعرض لها. لم يتوقع أي أعراض جانبية طويلة الأمد بالــرغم من أنه اقترح عليه أن يستريح لبضعة أشهر. فوافق جايسن على ذلك بابتسامة واهنة. كان يشعر وكأن قطاراً قد صدمه.

عــندما وصــلوا إلـــى الفندق في لندن، اتصل جايسن بأمه وأجهش بالــبكاء عــندما تحــدثت إلـــيه. ثم أخبرها ديلن كل شيء، بعد ذلك مرر الـــسماعة لأبيه. فجعلها تنتظر، وتلقى المكالمة من غرفة أخرى. ولم يعد حتـــى غاضــباً منها. ولم يرفع صوته في وجهها أو يتهمها بأي شيء. فلم يود أن يسمع منها الأعذار التي علم يقيناً أنها ستبادر إلى تقديمها.

قالت وهي تبدو متوترة: "حمداً لله إنه يبدو على ما يرام". في البداية، التزم براد الصمت. فلم يود من ولديه أن يسمعا المحادثة، لهذا السبب ذهب إلى غرفة أخرى.

"مـــاذا تتوقعـــين مني أن أقول، يا بام؟"، كانت هناك آلاف الكلمات الفظـــة والقاسية ليقولها لها، ولكن الوضع بدا أكثر جدية بكثير بالنسبة إليه بحـــيث لا يمكن أن يفعل ذلك. كان ذلك ليهمه لو أنه لا يزال يهتم لأمرها، ولكـــنه لم يعد يهتم بعد الآن. ما فعلته أو لم تفعله شكّل بالنسبة إليه القشة التي قصمت ظهر البعير.

"إننـــي آسفة... فلم أتمكن من الحضور، يا براد. فقد علقت هنا". من وجهة نظر براد، كانت جملة "لم أتمكن من الحضور" تقال في حفلة عشاء أو بالـــيه وليس لابن يوشك على الموت على بعد مسافة شاسعة. ثم تابعت قائلـــة: "لقد حاولت، ولكن بحلول الوقت الذي تسنى لي فيه القدوم، كان قد أصبح على ما يرام".

"إنه ليس على ما يرام بعد، يا بام. ولن يكون كذلك لأشهر".

فعارضته قائلة: "أنت تعلم ما أعنيه. فقد علمنا أنه سيعيش".

"إذاً، أعتقد أن هذا كاف، أليس كذلك؟".

"لا أدري، يا براد... ربما تملّكني الخوف وحسب... فقد كرهت ذلك المكـــان... وأثار الرعب في نفسي". ثم قالت بصراحة ومن دون ذرة من الندم: "إنني لم أكن أماً صالحة قط عندما كان الولدان يمرضان".

"لقد أوشك على الموت، يا بام. وأعتقد أنه شارف على ذلك لمرة أو مـــرتين". وأيقـــن براد أنه لن ينسى قط تلك اللحظات، ولن يفعل ديلن ذلك أيـــضاً. ثـــم قـــال: "إن أسوأ ما في الأمر هو أنه سيعلم لبقية حياته أنك لم تكترثـــي بما فيه الكفاية لأن تأتي عندما احتاج إليك لأكثر مرة في حياته. وهذا وضع صعب ليعيش فيه، ناهيك عني أنا. إنك أمه، بربك". وذلك حتى لو آثرت ألا تتصرف كزوجة.

قالت له بلهجة دالة على الندم: "إنني آسفة. وأنا أعتقد أنه يتفهم موقفي".

"إن تفهـــم موقفك، فأنت امرأة سعيدة الحظ. فأنا لم أكن لأسامحك لو كنت مكانه. وحتى لو فعل ذلك، كيف ينبغي أن يجعله ذلك يشعر؟".

"لا تتـــصرف بجدية كثيرة، بالله عليك، يا براد. فقد كنت أنت هناك". بـــدا ذلك قولاً خطأ لتتفوه به. وقد أثار غضبه منها. فاختصر المحادثة بعد ذلك. لم يتبقّ لديه ما يقوله لها غير ما قاله.

"نعم، لقد كنت هناك، ولكنك أنت لم تكوني. أعتقد أن هذا يحسم الأمر تقريباً".

قالت وهي تبدو قلقة: "كيف يبدو؟"، كان ذلك أقل ما تستطيع فعله.

"يبدو وكأنه ضرب بأنابيب فولاذية. لكنني أعتقد أنه سعيد لبقائه على قيد الحياة. سنعود إلى البيت في غضون بضعة أيام".

سمعت شيئاً في صوته جعلها تجفل. فقد بدا مختلفاً كلياً. فقالت: "هل أنت بخير، يا براد؟".

فقال بحزم: "نعم. فجايسن على قيد الحياة. هذا كل ما يهمني، سأراك عـــندما أعـــود". بدا صوته بارداً كالثلج. عندما أغلقت بام الخط، تجهّمت

ملامحها، وشعرت بالذنب لذلك. لكنها حققت ما تريده في نهاية المطاف، كما لطالما فعلت.

بعد أن أنهى براد المكالمة معها، اتصل بفيث. خاب أمله لأنه لم يجدها في البيت. اتصل بها مرة أخرى تلك الليلة بعد أن اطمأن على جايسن، وخرج ديلن ليقابل بعض أصدقائه. انتظر براد حتى تسنى له بعض وقت الفراغ كي يتحدث إليها. فقد كانت المكالمة هامة جداً بالنسبة إليه بحيث إنه لا يمكن أن يفعل أقل من هذا.

قالت: "براد؟"، بدت مصعوقة عندما سمعت صوته وكأنه قد عاد من الموت. فقد غاب عن البلاد لسبعة أسابيع. حل منتصف شهر تموز، ولم يكن قد رآها أو تحدث إليها منذ أيار. ثم قالت فيث: "كيف حال جايسن؟".

"إنه بحال مدهشة. إنني أفتقدك، يا فرد". استطاع أن يشعر بكل التوتر يتلاشى منه عندما سمع صوتها.

"هل سيكون على ما يرام؟".

"سيكون بخير". ضحك للمرة الأولى منذ وقت طويل. أوشك على البكاء لفرط سعادته للتحدث إليها. فقال: "إن أراد المرء أن يدع برج دار عبادة ينهار عليه، فليفعل ذلك وهو شاب".

"لقد قلقت عليه كثيراً، وعليكم جميعاً". كانت قد اتخذت قرارها في غيابه واتخذ هو قراره. فحالما كانت ستتأكد من أنه آمن وبخير، لم تكن ستتحدث إليه بعد الآن. بدا قراراً مؤلماً لتتخذه. لكن ما حدث في المطار عندما غادر جعلها تدرك كل ما يجب أن تدركه. فلم يعد في وسعها أن تثق بنفسها أو به. ثم سألته: "كيف حال ديلن؟".

"إنه بطل حقيقي. أمضينا بعض الوقت المدهش معاً. كان وقتاً استثنائياً. قال الأطباء إن شفاء جايسن يعتبر معجزة".

فابتسمت مسرورة لذلك، وقالت: "لقد أوشكت مسبحتك أن تهترئ".

"يمكنني أن أعرف هذا". خالجه شعور رائع لمجرد سماع صوتها.

"هل وصلت بام إلى هناك بخير؟"، لم تكن لديها فكرة عما حدث، فهما لم يتحدثا مع بعضهما طوال فترة غيابه.

فقال لها ببساطة: "لم تأتِ قط". لم يدلِ بأي تعليق إضافي. لكن فيث استطاعت أن تشعر بكل ما لم يقله. فقد كانت تعرفه جيداً، بالرغم من أنها لم تعد تعرفه جيداً بقدر ما اعتقدت بعد الآن. فقد تغيرت أمور كثيرة في الأراضي الأفريقية.

"أدرك هذا. ولا بد من أن الوضع كان صعباً عليك".

"لقد مضت أمورنا على ما يرام. كرهت عدم قدرتي على الاتصال بك. كيف هي أمورك؟".

"جيدة. وهي تبدو سخيفة مقارنة بكل ما مررتم به. فقد توصلت وألكس إلى اتفاق بشأن المنزل. وسيدعني أحتفظ به".

"هذا تصرف جيد منه".

"أعتقد أنه يشعر بالذنب لأنه سيتزوج في وقت قريب جداً".

"ينبغي عليه ذلك".

"متى ستعود إلى سان فرانسيسكو؟"، شعرت بالغرابة لتحدثها إليه، لا سيما بعد أن اتخذت قرارها. لكن حتى وهي تتحدث إليه الآن، ازدادت ثقة لأنها استطاعت أن تسمع في صوته كل شعور خالجها نحوه.

"سنعود في غضون يومين. لم أرد أن أضغط على جايسن. فهي رحلة طويلة. وهو بحاجة إلى الراحة. سأتصل بك غداً". كان خائر القوى وبحاجة إلى أن يأوي إلى الفراش. ما أراد أن يقوله لها كان سينتظر.

"أتمنى لك رحلة آمنة". لم تنوِ أن تكون موجودة عندما يتّصل بها في اليوم التالي. فكانت ستترك الهاتف لآلة الرد، وسترسل له رسالة إلى سان فرانسيسكو. لم يكن شيء يقوله لها ليغير قرارها. أيقنت أنها تقوم بما هو صواب من أجلهما. إذ إنها لم تكن على شاكلة ألكس أو ليزلي لتساهم في خيانة براد لزوجته أو لتتسبب بطلاقهما مهما قال إنهما تعيسان معاً. فتلك مسألة تتعلق بالاحترام لهم جميعاً ولنفسها. تحدثت بهذا الشأن مطولاً مع

أحـد رجـال الدين، ثم اتخذت قرارها بنفسها. في النهاية، بدا ذلك القرار الوحيد الذي استطاعت أن تتخذه من أجلهم جميعاً.

انهـار براد على سريره منهكاً. كما فعل لأسابيع، استغرق في النوم وهو يحلم بفيث. في نيويورك، ذهبت فيث إلى دار العبادة، وأشعلت شمعة لـتقوّي عـزيمتها. وجعلهـا مجرد سماع صوته مرة أخرى تدرك مدى صعوبة قرارها.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

وصـل بـراد وديلن وجايسن إلى سان فرانسيسكو في اليوم السابع عـشر مـن شهر تموز. عندما التفت براد ليبتسم لجايسن الجالس بجانبه، وجد ابنه يجهش بالبكاء.

قال وهو يبكي: "لم أعتقد أنني سأعود إلى البيت مرة أخرى". فضغط بـراد على يده. لم يرد أن يخبره أنه خشي الأمر نفسه. لكنهم عادوا آمنين إلى البيت. كانت بام بانتظارهم في المطار. عانقت كلا من جايسن وديلن. غادر براد كي يحضر الحقائب من دون أن يقول لها كلمة واحدة. ثرثرت بام والشابان لوقت طويل في سيارة الليموزين. طرحت بام آلاف الأسئلة، وظلت تتأمل جايسن وكأنها تريد أن تتأكد من أنه كان موجوداً فعلاً.

بـدا الـشابان سـعيدين بشكل واضح لرؤية أمهما كما بدت سعيدة لـرؤيتهما. لـم يـتفوه براد سوى بكلام قليل في طريق العودة إلى البيت. فانتظرت حتى صعد الشابان إلى الطابق العلوي ثم التفتت إليه.

سـألته بجفاء: "إنك غاضب فعلاً، أليس كذلك؟"، فهو لم يقترب منها فـي المطار، وعندما حاولت أن تعانقه ابتعد عنها. فهو لم يعد يجاريها في لعبتها بعد الآن.

"كلا، يا بام. إنني لست كذلك، في الواقع. فقد انتهى الأمر بالنسبة إليّ".

فقالت وهي تبدو مصعوقة: "ماذا يعني هذا؟".

"إنه يعني ما سمعته. ليس الأمر عائداً إليّ لأن أسامحك لعدم قدومك إلى أفريقيا، بل إلى جايسن. ولكنني أعلم أنه لا يسعني أن أبقى متزوجاً بك بعد الآن. نحن مجنونان لأننا بقينا متزوجين طوال هذه المدة. فلم يعد أحد

منا مناسباً لذلك الزواج لوقت طويل جداً. فأنت لم تتواجدي إلى جانبي قط، ولا حتى إلى جانب الولدين. ولا أريد أن أعيش كذبة بعد الآن. لقد شاهدت ابننا يشارف على الموت في مكان بعيد عن الحضارة. الجميع يقولون إن معجزة أنقذت حياته. من دون تلك المعجزة، لم يكن بيدي أي شيء لأفعله لأنقذ حياته. فقد قمت بمجرد الجلوس هناك وأنا أراقبه يذوي من دون أن أعرف أين أنت أو لماذا لم تأتِ إلى هناك. لكن الحقيقة هي أنني لا أكترث لذلك بعد الآن ولن أكترث أبداً. أنت تستحقين أكثر من هذا مني، وأنا أستحق أكثر من هذا بكثير منك. إن لم نمنح ذلك لبعضنا، فيجب علينا أن ننسحب. لقد توجب علينا أن نفعل ذلك قبل وقت طويل".

قالت له بعقلانية: "إن هذا الوضع ناجح بالنسبة إلينا. ولطالما كان كذلك". لكنه استطاع أن يشعر بشيء من الرعب في صوتها.

"لكل الأسباب الخطأ ربما، وعلى الأغلب لأننا كسولان أو خائفان فوق الحدّ من أن نقوم بشيء آخر. وهذا ليس سبباً وجيهاً بما يكفي لنبقى متزوجين، ليس بالنسبة إليّ على الأقل". لقد نسي أخيراً ما فعله والداه، وأدرك أن الأمر لا يتعلق بهما، بل يتعلق به وببام، ولا يتعلق بأي شخص آخر ولا حتى بفيث.

سألته قائلة: "ألديك ما هو أفضل؟"، وتسللت نبرة الاتهام إلى صوتها. لكن ذلك الأسلوب لم يعد ينجح معه بعد الآن.

"ليست لدي فكرة. لكنني أعرف ما الذي نفتقر إليه. فأنت وأنا ليس هناك ما يجمعنا على الإطلاق، يا بام. وأنت تعرفين هذا بقدر ما أعرفه. وهذا جيد كفاية بالنسبة إليّ. لقد أصبح هذا الزواج جثة هامدة منذ وقت طويل، وحان الوقت لنواريه الثرى. فقد مات قبل وقت طويل. أنا لم أعد راغباً بأن أموت معه. إن المرء يحظى بفرصة واحدة فقط في الحياة، وقد ضيّعنا فرصتنا. اكتشفت هذا في أحد الأيام في الخامسة فجراً في قرية أفريقية لا أستطيع حتى تهجئة اسمها. عاهدت نفسي أنني عندما أعود إلى البيت فسأخبرك أنني منسحب. فقد حان الوقت لأتحلّى بالصدق حيال هذا".

قالت على أمل أن تهدّئ من روعه: "إنك تتصرف بعاطفية مفرطة بسبب جايسن. إذ إنها كانت تجربة مؤلمة لكم جميعاً". لم تكن مستعدة لما قاله لها بالرغم من أنها توقعت أن يكون مستاء، ولكن ليس لتلك الدرجة. فقد عوّلت على طبيعته الطيبة لتجعله يتفهم موقفها.

فوافقها بهدوء قائلاً: "نعم، لقد كانت مؤلمة". لم تكن قد وصلت إلى نتيجة معه. ثم قال: "من حسن حظك أنك لم تذهبي إلى هناك، والشيء الطريف هو أنني أشعر بالأسف أنك لم تأتي. فقد كانت تلك الرحلة أجمل تجربة في حياتي وشيئاً لن ينساه أحد منا إلى الأبد. وأنت فوّتِّ هذا كلياً، يا بام. فبقيت هنا آمنة ومرتاحة. وفوّتِّ الفرصة على نفسك".

قالت بحزن: "أعلم أنني فعلت هذا. إنني آسفة، يا براد". لكن الحقيقة هي أنها شعرت بالارتياح لعدم ذهابها ولأنها تركت الأمر له. فذلك أمر لم تودّ أن تقوم به.

"وأنا أيضاً". وعنى ذلك حقاً. ثم قال: "ما كان ينبغي علينا أن نتزوج على الأرجح. ولكننا أنجبنا ولدين رائعين على الأقل".

"هل أنت جاد بشأن هذا؟". بدأ يتضح لها أنه كان مصمماً على ذلك، وأرعبتها الفكرة. فقد اعتادت على كونها متزوجة به. كان ذلك أشبه بعادة اعتمدت عليها لسنوات، ولكن ليس أكثر من ذلك.

"إنني جاد كلياً". وعبّرت ملامح وجهه عن ذلك.

قالت له بصوت منخفض: "ماذا ستفعل؟".

"سأنتقل من البيت عندما أعود. فأنا مغادر إلى نيويورك في رحلة متواصلة".

قالت وقد راودها الشك: "ماذا ستفعل هناك؟"، لم يكن لديه ما يخفيه عنها.

"سأذهب لأرى فيث. فلدي الكثير لأقوله لها ولأسألها عنه".

قالت بام وهي تبدو ظافرة ومنزعجة، ولكن لا أكثر من ذلك: "لطالما عرفت أنك مغرم بها". لم يكن السبب يتعلق بقلبها، ولم يعد كذلك منذ سنوات طويلة.

"أنت أشد ذكاء مني. فأنا لم أكتشف ذلك منذ وقت طويل. ليست لدي فكرة إن هي ستقبل بي، ولكنني سأحاول. وإن حالفني الحظ، فستقبل بي". وقفت بام لتحدق إليه بصمت، وأومأت برأسها. فقد استطاعت أن تلاحظ أنه لا مجال لإقناعه.

"هل أخبرت الولدين؟".

"اعتقدت أننا سنفعل ذلك معاً عندما أعود".

"كم ستغيب هناك؟".

"هذا يعتمد على ما سيحدث". توخى الصدق التام معها. شعر أنه مدين لها بذلك. بهذا منحها أكثر مما منحته. ثم قال: "قد أغيب بضعة أيام أو أسبوعاً. وسنرى ما يحدث. وسأعلمك".

"أود أن أخبر والدي قبل أن أخبر الولدين".

"هذا حسن".

"أتعلم أنك ذاهب إليها؟"، بدأ الفضول يتملّكها الآن.

"كلا". فأومأت بام برأسها. بعد دقيقة، غادرت الغرفة. بدت مجفلة وتعيسة، ولكنها لم تذرف دمعة واحدة أو تطلب منه أن يغيّر رأيه. فقد أيقنت أنه راحل عنها.

أمضى براد فترة العصر مع جايسن وديلن. اتصل بالمحاميين اللذين يتوليان أمور قضاياه. حظيا بتأجيل لكل شيء تقريباً، باستثناء قضية صغيرة واحدة تمّت على ما يرام. وعدهما أنه سيعود في غضون أسبوع آخر. ثم كان سيتوجّب عليه أن يقوم بالكثير من العمل. فقد تعين عليه أن ينتقل من المنزل. وكما فعل ألكس مع فيث، كان براد سيعطيها المنزل، بالرغم من أن ألكس فعل ذلك من دون أي كياسة. ولم يستحق المنزل أن يحارب من أجله. فقد عاشا وهماً لسنوات طويلة. الآن أراد أن يعيش حياة حقيقية.

أخبر الشابين مساء ذلك اليوم أنه مسافر إلى نيويورك. بدت عليهما الدهشة، ولكن ليس الاستياء. فقد أمضى الشهرين الفائتين معهما وهو

يمنحهما كل ما لديه. فعانقهما وأخبرهما أنه سيراهما في غضون أسبوع. دخل غرفة نومه ليرى بام، ولكنها كانت قد خرجت. فقد خططت لحفلة عشاء مع أصدقائها منذ وقت طويل. فأخذ براد حقيبة سفر جديدة، وغادر إلى المطار في الوقت المحدد ليستقل الرحلة المتواصلة، واستغرق في النوم حالما أقلعت الطائرة. أيقظته مضيفة الطيران قبل أن يهبطوا في نيويورك بقليل عند الساعة السادسة صباحاً. كان منظر شروق الشمس مدهشاً ويزين سماء نيويورك.

وصل المنزل في شارع إيست سيفنتي فورث عند السابعة صباحاً. لم يكن قد تحدث إليها منذ كان في لندن، ولكنه افترض أنها في المنزل. لم يُرِد أن يقول لها أي شيء آخر قبل أن يراها وجهاً لوجه. تملّكه شعور بالخوف. ثم رن الجرس. أيقن وهو واقف هناك أن حياته برمتها على وشك أن تتغير.

أجفل عندما رأى توأم الفتاة التي نشأ معها تفتح الباب. بدا ذلك أشبه بعودة عقارب الساعة إلى الوراء. فقد كانت زوي صورة عن فيث وهي في ذلك العمر نفسه. بدت نصف نائمة وهي مرتدية رداء زهري اللون.

اعتذر قائلاً وهو يبدو مرتبكاً بعض الشيء: "مرحباً، آسف لأنني أيقظتك". فلاحظت على الفور مقدار وسامته. فقال لها: "إنني هنا لأقابل والدتك. اسمي براد باترسون، وصلت لتوي من سان فرانسيسكو. هل هي مستيقظة؟".

قالت بابتسامة ناعسة: "صاحب المسبحة؟"، وفتحت الباب جيداً لتُدخله. ثم قالت: "سأذهب وأخبرها أنك هنا. هل تعلم أنك قادم؟". لم تخبر فيث زوي شيئاً. فهز رأسه. فقالت: "آه... إنها مفاجأة..."، نظرت إليه بغرابة. ثم قالت: "أتريد أن توقظها بنفسك؟"، واعتقدت أن والدتها قد تحب هذا. وحتى من دون أن تتحدث إليه، شعرت زوي أنها استلطفته. فقد بدا رجلاً لطيفاً.

فقبل دعوتها وقال: "ربما سأفعل هذا". تمنى ألا يثير هذا استياء فيث. فصعد الدرج، وقرع بلطف على باب غرفتها. ثم فتحه ودخل. فوقف هناك وهي تتقلب على سريرها بعينين مغمضتين. لم يكن قد شاهد أجمل منها في

حـياته. عندما فتحت عينيها رأته. لم يبدُ عليها لوقت طويل أنها واثقة إن كـان ذلك حلماً. لم يتحرك من مكان وقوفه. بل قام بمجرد الوقوف هناك وهو يبتسم لها.

فجلـست علـى سريرها وهي مرتدية قميص نومها، وحدقت إليه ثم قالت: "ما الذي تفعله هنا؟".

فقال ببساطة: "لقد أتيت لأراك، يا فرد".

"لقد اعتقدت أنك عائد إلى سان فرانسيسكو".

"لقد فعلت هذا البارحة".

"متى وصلت إلى هنا؟".

"قبل ساعة تقريباً".

"لا أفهمك".

"ولا أنـا. فقد استغرقت وقتاً طويلاً لأفهم ما يجري. آمل أنك لست بطيـئة الفهـم بقـدري أنا. لقد ضيّعت سنوات عديدة. فقد توجب عليّ أن أهرب معك عندما كنت في الرابعة عشرة".

فابتسمت له بنعاس قائلة: "لقد كان جاك ليقتلك".

"إذاً، في الثامنة عشرة".

"هذا أفضل". ربتت على السرير بجانبها وهي غافلة بشكل مؤقت عن عزمها على عدم رؤيته مرة أخرى. فقبل دعوتها وجلس.

"أحبك، يا فرد".

فقالـت بصدق: "أنا أيضاً أحبك، ولكن هذا لن يعود علينا بأي فائدة. فأنا لا أستطيع أن أراك بعد الآن أو أن أتحدث إليك. وقد اتخذت قراري".

"هذا مؤسف جداً". ولكنه لم يبدُ خائب الأمل أبداً. فهناك أمور كثيرة لا تزال لا تعرفها. ثم قال: "لمَ ستفعلين هذا؟".

"إنـك متـزوج. ولا أريـد أن أدمّر حياتك. لقد دعوت من أجل هذا طوال فترة غيابك".

"من أجل ماذا دعوت؟".

"من أجل الحكمة والشجاعة. فقد دعوت طلباً للحكمة لأعرف ما عليّ فعله وللشجاعة لأفعل ذلك. وليس لدينا أي خيار".

"سأطلّق زوجتي".

"حقاً؟"، وفتحت عينيها على وسعهما. ثم قالت: "كيف حدث هذا... أو متى؟".

"لقـد فكرت في الأمر في أفريقيا عندما لم تأتِ بام. فأنا لا أريد أن أعـيش كذبـة بعد الآن. ولا أستطيع ذلك. أخبرت بام. وانتهى كل شيء. أيناسب هذا خططك؟".

فقالـت وهـي تـبدو مصعوقة: "لا أعرف. فقد اعتقدت أنك ستبقى متزوجاً مدى الحياة؟"؛ فذلك هو ما قاله لها دائماً.

"كـذلك اعـتقدت أنـا. لم يعد هذا منطقياً بعد الآن. أما وضعنا فهو منطقـي. ليس هذا هو السبب في الطلاق، ولكن هذا ما أريده، يا فرد. هل تريدينه أنت؟ أيمكنك ذلك؟".

"هل أنت جاد؟"، لم تستطع أن تصدق ما تسمعه أو تراه.

"لهـذا الـسبب أتـيت. فقد أتيت لأراك، وكي أحسم الأمر، وأضع الخطط. هل تقبلين الزواج بي؟".

"هـل تعني ذلك؟ هل أنت جاد؟"، لكنها استطاعت أن تلاحظ أنه جاد كمـا لاحظـت ذلك بام في الليلة الفائتة. لم يراوده أي شك في أن كل ما يريده هو فيث وأنها هي المرأة التي يحبها.

قـال محـاولاً أن يـبدو عنيفاً: "توقفي عن طرح الأسئلة وأعطيني جـواباً... الآن!"، ولكنها ضحكت. فقد تذكرت وجهه عندما كان في الثانية عشرة وهي في العاشرة.

"حسناً... حسناً... نعم".

"نعم؟"، والآن بدا هو مصعوقاً.

"نعم!"، اقترب منها ليقبّلها، ولكنها قفزت مبتعدة عنه خارج السرير. وقالت: "لا يمكنك أن تقبلني".

فبدا عليه الاستياء وقال: "لِمَ لا؟ هل ستتزوجينني أم لا؟".

"قلت لك إنني سأفعل..."، بدا عليهما أنهما طفلان. ولم تشعر بسعادة مماثلة في حياتها قط، وكذلك هو.

"إذاً لماذا لا تريدين أن تقبّليني؟".

"يجب عليّ أن أنظف أسناني أولاً، وبعد ذلك يمكننا أن نعقد خطوبتنا".

أغلقت باب الحمام بينما تمدد هو على السرير، وابتسم ابتسامة عريضة. فأتت زوي ومدت رأسها من الباب.

قالت: "كيف سارت الأمور؟".

فابتسم لها قائلاً: "بشكل جيد جداً".

"أين أمي؟".

"إنها تنظف أسنانها في الحمام". فأومأت زوي برأسها، وشعرت وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد. فقد كان من ذلك النوع من الرجال. لقد سمعت عنه لأشهر.

فقالت زوي: "حظاً موفقاً". ثم عادت إلى غرفتها عندما خرجت فيث من الحمام بأسنان نظيفة ورداء فوق قميص نومها.

نهض براد، وذهب إليها، وجذبها بين ذراعيه، وهمس قائلاً: "أحبك، يا فرد". وذلك كي تتذكّره وهو يقولها لها يوماً ما. فقد أرادها أن تتذكر هذا لبقية حياتها لأن هذا هو ما انتظراه ولم يحصلا عليه قط.

فهمست له قائلة: "وأنا أيضاً أحبك". احتضنها لوقت طويل.

* * *